المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

أطفال العاصفة

تأليف: إليزابيث بيترز



1379

ترجمة: محمد قدرى عمارة

مراجعة: إلهامى جلال عمارة

الإبداع القصصى

أطفال العاصفة

(رواية)

المركز القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- سلسلة الإبداع القصصى .
- المشرف على السلسلة : خيرى دومة

- العدد : ١٣٧٩
- أطفال العاصفة
- إليزابيث بيترز
- محمد قدرى عمارة
- إلهامى جلال عمارة
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب :

هذه ترجمة رواية:

Children of the Storm

by: Elizabeth Peters

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

أطفال العاصفة

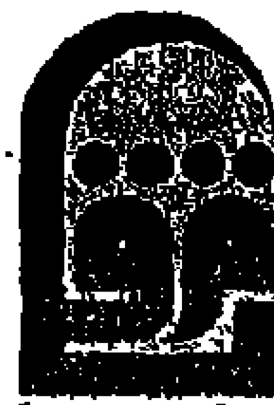
(رواية)

تأليف

إليزابيث بيترز

ترجمة : محمد قدرى عمارة

مراجعة : إلهامى جلال عمارة



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بيترز ، إليزابيث

أطفال العاصفة / تأليف : إليزابيث بيترز ،

ترجمة : محمد قدرى عمارة ، مراجعة : إلهامى جلال عمارة

القاهرة : المركز القومى للترجمة، ط ١ ، ٢٠٠٩

٤٤٨ ص ، ٢٤ سم

١ - القصص الإنجليزية

(أ) عمارة ، محمد قدرى (مترجم)

(ب) عمارة ، إلهامى جلال (مراجع)

(جـ) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٤٩٧١
الترقيم الدولى I.S.BN 978-977 - 479 -495-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

«يوم أطفال العاصفة يكون شديد الخطورة،
فلا تركب الموج فى هذا اليوم»

نقش مصرى قديم

المحتويات

الفصل الأول

(١)

كانت الشمس القرمزية تتوارى ببطء وراء قمم جبال طيبة فى غروب رائع آخر يشتعل فى الأفق كالنار فى السماء. لم أكن أراقبه فى تلك اللحظة فقد كنت أواجه الشرق، كما أننى شاهدت المئات من لحظات الغروب وبالتالى فإن مخيلتى كانت توفر لى صورا مناسبة عنه. عندما أظلمت السماء فوق الأقصر تمددت ظلال قضبان الأبواب والنوافذ وكأنها خطوط من جلد قطين كانا يرقدان جاثمين على الأرض بجوار طفليه. صاح واحد منهما "سبوسيفا". تمتم رمسيس الذى كان يراقب الطفلين وأنا بجانبه. هذا بالروسية، وبالأمس كان بالأمهرية وفى اليوم السابق كان بلغة غريبة لا أعرفها. قالت زوجته نفرت "إنها طنطنة"، عقّب رمسيس قائلا:

– لا، لا بد أنها تعنى شيئا، إن الطفلين يستخدمان أصول كلمات لغات غريبة وهما يفهمان بعضهما. أترين؟

هب القط الأكبر "رى" الذى كان يرقد ممددا على الأرض، وبسرعة صعد حتى قمة رأس رمسيس ثم قفز من فوق رأسه إلى أحد الأرفف ونظر بحدة إلى القطين وقال بالإنجليزية بعض ألفاظ السباب عن أحدهما. زمجر القط الكبير مؤيدا، بينما قالت نفرت:

– فى السابق كان ضئيلا بائس المظهر عندما جاءنا، ولكن سينيا أصرت أن تعطيه هذا اللقب، وعلى نقيض توقعاتى فإنه أصبح ملائما لاسمه. كان مختلفا فى مظهره بشعره الطويل وذيله الضخم وفرائه الملون بالأسود على خلفية رمادية، وكان يشاركنا الطعام على المائدة بإصرار غريب رغم علمه بصعوبة التملص من مضايقات الطفلين اللذين أبديا غضبهما لما قيل عن القطين.

– عزيزى رمسيس، فلنحتكم للغة واحدة. قالت نفرت مبتسمة وإن شاب صوتها شيء من الحدة واستطردت قائلة:

– هما لن يتعلما الكلام إذا ما حدثتهما باللغة المصرية أو العربية أو الأنجلو سكسونية. رد رمسيس قائلا بصوت عال:

– إنهما يعرفان كيف يتحدثان بلغة مفهومة. لاطفت نفرت الطفل والطفلة قائلة: "قولا بابا من أجل ماما".

– "بب" قالها الطفل ذو الأعين التى فى لون الزهور الزرقاء: علق رمسيس قائل "صغار عنيدة".

تسلقت الطفلة الأخرى ركبتى رمسيس ودفنت رأسها فى صدره والتصقت بأبيها. كان الطفلان شديدى الرقة، مولعان بالأحضان والقبلات. استطرد رمسيس قائلا وهو يداعب خصلات شعر الطفلة.

– لقد تجاوزا السنتين لقد تكلمت أنا قبل ذلك العمر، أليس كذلك يا أمى؟

– يا إلهى، نعم. "قلت ذلك بابتسامة مغتصبة لأننى بصراحة كنت أخاف اللحظة التى سيبدأ فيها الطفلان الكلام، فما إن عرف رمسيس كيف يتكلم بوضوح لم يتوقف عن الكلام إلا ليأكل أو لينام لأكثر من خمسة عشر عاما، وكان إسهابه فى الحديث مثيرا لأعصابى بدرجة كبيرة وفكرة أن يتبع الطفل والطفلة أسلوب أبيهما كانت تخيفنى إلى درجة كبيرة، ولكونى متفائلة قلت فى نفسى أنه لا يوجد سبب لتوقع مثل ذلك الأمر، فقد يرث الطفلان طريقة أمهما أو طريقتى أنا. قلت له شارحة الموقف:

– الأطفال يا بنى يتعلمون بمعدلات مختلفة والتوأم قد يكونان أكثر بطئا فى الكلام أحيانا لأنهما يتواصلان بسرعة مع بعضهما.

رد قائلا:

– ولأنهما يحصلان على أى شيء يريدانه قبل أن يطلباه.

(٢)

كان واضحا أن الطفلين يفهمان الإنجليزية رغم أنهما لا يتكلمانها. رفعت ابنته الصغيرة رأسها ورمشت تجاهه برموشها الطويلة فرمش لها والدها هو الآخر فتضاحكت تشارلا محتضنة أباها.

كان موضوع تسميتهما بأسماء مناسبة قد شغلنا لفترة طويلة، ولأننى جدتهما لم أر سببا يمنعنى من أن أقترح لهما اسمين، فأنا لم أشك فى أن نفرت كانت حاملا فى توأم إلا عندما اقترب الحمل من نهايته. ولكن لأننا كنا قد قررنا أسماء معينة للطفل لو كان ذكرا أو إذا كانت أنثى، فقد تم الأمر بيسر. لم يكن هناك جدل حول اسم دافيد جون ولم يعارض أحد رمسيس لرغبته فى تسمية ابنه باسم أفضل أصدقائه وابن عمه الذى مات فى فرنسا عام ١٩١٥ .

ولكن اسمًا لفتاة لم يكن من السهل إيجاده، فقد أوضح لى زوجى إمرسون أن اسم إميليا الذى تسميت به أنا وابنة خالتى كان بالتالى شائعا فى الأسرة ويكفى ذلك. قلت ببعض التردد إن اسم والدتى كان تشارلوت وكنت سعيدة عندما وافقت نفرت على الاسم قائلة:

– إنه اسم لطيف ومعتاد. فرد زوجها:

– إنه نقيض اسم نفرت. فربتت على خده قائلة:

– وعلى نقيض اسم رمسيس أيضا. أسمينا الطفلة تشارلا، وورثت نفس الشعر الأسود والأعين السوداء التى لأبيها. أما شقيقها دافى، الذى كان يجلس الآن على ركبتى أمه، فقد كان أشقر وله أعين نفرت الزرقاء وأنف وذقن رمسيس. لم يتشابه الطفل والطفلة إلا فى الطول وغرابة لغتهما. كان دافى أكثر تجاوبا من أخته ولكن كانت لديه قدرة غير عادية على الاختفاء. ثم الظهور فى مكان آخر بعيد. تم وضع حواجز خشبية فى كل الحجرات التى من الممكن أن يوجدا بها بما فى ذلك الشرفة التى نجلس فيها الآن منتظرين فاتيما لكى تقدم الغذاء، وبينما كنت أنظر عبر النافذة

المفتوحة رأيت دافى الذى كان قد اختلس بعض البسكويت وهو يجرى وراء كلب من القرية وهو يصيح "كلب" بلغة غامضة وكان الكلب يجرى بأسرع ما يمكنه.

كان بيتنا بالأقصر مكانا مسطحا مبنيا من الحجر والطوب الملون وتحيطه الزهور التى زرعتها أنا بعناية. كان يشبه بيوت معظم المصريين حيث تشرف حجراته على عدد من الأفنية والمكان الوحيد غير المعتاد هى الشرفة التى كانت بطول الواجهة، كانت الأقبية المفتوحة توفر منظرا عبر الصحراء يفضى إلى شريط أخضر من الزرع على جانبى النهر وإلى الجبال الشرقية، وعلى مقربة منا كان يقع بيتٌ أصغر يشغله رمسيس ونفرت والتوأم، وكانت قد أضيفت إليه أجنحة وأبنية إضافية وضعت أنا تلك التصميمات حيث كانت هناك حاجة لتوسعة المكان لتلحق بنا باقى أسرتنا الإنجليزية للمرة الأولى منذ بداية الحرب العظمى الأولى حيث توقفت أعمال القتال فى نوفمبر عام ١٩١٨، ولكن الظلال التى أسقطها ذلك الصدام المخيف كانت بطيئة فى زوالها بالنسبة لمن فقدوا أحباءهم فى الخنادق بجبهات القتال. لن تمر الظلال وتبتعد تماما حيث إن والتر شقيق إمرسون وزوجته الصديقة العزيزة إيفلينسيبكيان دائما ابنهما جونى. كان عام ١٩١٩ أول عام للسلام الشامل وكنت مصممة على أن أجعل عيد الميلاد لذلك العام شيئا نتذكره جميعا. كم كان جميلا أن يكونوا بيننا مرة أخرى.

(٣)

والتر وإيفلين وابنتهم ليا وزوجها دافيد الذى كان أفضل أصدقاء رمسيس وفنانا مبدعا، وطفلاهما الصغيران، هذا يجعل لدينا أربعة أطفال أعزاء مما سيجعل عيد الميلاد رائعا بالتأكيد.

عندما ألقيت نظرى على التوأم وهما بين ذراعى والديهما، قررت أن أسأل دافيد أن يرسم لنا صورة جماعية، فالصور الفوتوغرافية كانت لدينا كثيرة ولكن الألوان هى التى تبرز ملامحهم الجذابة. كانت ملامح رمسيس البديعة وبنيته جيدة التكوين تشبه

تلك الخاصة بوالده ولكنه وُلد مصريا بخصلات من الشعر الأسود الأجعد وبعيون سوداء طويلة الأهداب. أما لون جلد نفرت الأبيض وشعرها الذهبى فينتميان إلى الجمال الإنجليزى، وقد جمع الطفلان أفضل ملامح أبويهما، وستكون صورة رائعة لو تمكنّا من جعل الصغيرين يجلسان بهدوء ولو لفترة بسيطة. فى نفس اللحظة تخلصا من ذراعى أبيهما واندفعا تجاه الباب المؤدى إلى المنزل الذى انفتح ودخل جدهما.

أحيانا ما أُتّهم بالمبالغة ولكن عندما أقول إن زوجى هو أشهر علماء المصريات وأكثرهم احتراما عبر الزمن بكامله فإننى أقول الحقيقة. فبعد أكثر من ثلاثين عاما فى هذا المجال لا يزال قويا منتصب القامة كما كان يوم التقينا لأول مرة، عيناه الزرقاوان كانتا بنفس الحدة وكتفاه عريضتان وخصلات شعره الأبنوسية أصبح يشوبها الشعر الفضى على جانبى وجهه.

– يا إلهى! صاح قائلا عندما اندفع التوأم وأمسكا برجليه. فأنَّبْتُهُ قائلة "لا تركلهما من فضلك"، فرد قائلا:

– لن أفعل، ولكنى لا أتحمل مثل هذه الأمور، هذا الهجوم غير المنتظر من اثنين ضد واحد. إننى أطالب بحقى فى الدفاع عن النفس.

حمل الجد التوأم وجلس على مقعد وقد وضع كل واحد منهما على إحدى ركبتيه وكان الطفلان يضحكان بصخب.

دخلت الخادمة فاتيما حاملة صينية الشاى وقالت لى:

– ألا صببت الشاى يا ست الحكيمة؟

امتعض إمرسون لسماعها وهى تنادينى بلقبى المصرى "الست الحكيمة" وهو دائما ما يفعل حيث أن رأيه فى براعتى الطبية ليس طيبا.

أنا أول من يعترف بأنها ليست فى مستوى براعة نفرت لأنها مؤهلة كجراحة – الأمر الذى كان يمثل تحديا للمرأة خلال تلك الأيام – ولكن خلال سنواتى الأولى فى

مصر، عندما لم يكن للفلاحين المصريين من أطباء ولا مستشفيات، فإن مجهودى كان يقابل بعميق التقدير ولم يكن بالطبع بسيطاً.

رددت على فاتيما قائلة:

- نعم وشكرا لك، ضعى الصينية هنا من فضلك.

تلكأت قليلا ووجهها ملىء بمشاعر الود، وكانت تراقب التوأم يتقدمان تجاه طبق البسكويت. وكغيرها من أعضاء أسرتنا، كانت صديقة أكثر من كونها خادمة. كانوا جميعا أقارب للريس عبد الله الذى رحل عن عالمنا، وبعد زواج حفيده دافيد من ابنة أختى ليا، أصبحوا أقاربنا. وسرعان ما انضمت إليها واحدة من أعضاء العائلة هى سينيا حارستنا ومعها تابعاها، القطان حورس ورى، وأيضا انضم إلينا جارجرى، حارسها الشخصى والذى كان خادمنا ولكنه أخذ على عاتقه واجبات إضافية شعر بأنها ضرورية وتشمل تقديم النصيحة غير المطلوبة، التنصت والتشاحن مع القط حورس.

لا بد أن أكون منصفة لجارجرى، فالقط حورس كان لا يميل لأحد سوى نفرت وسينيا، فهو يتبع سينيا أينما ذهبت، إلى حد الاقتراب الخطر من التوأم.

كانت سينيا فى التاسعة من عمرها ويعتقد بعض ذوى العقول الشريرة أنها ابنة غير شرعية لرمسيس ولم يكن ذلك صحيحا. لقد كان دليلا حيا على حقيقة أن التنشئة المناسبة تتغلب على الوراثة، فقد كان نصيبها من الوراثة سيئا، فأمها كانت عاهرة وأبوها، ابن أختى، عديم الأخلاق وقد مات منذ فترة. كانت ملامحها مصرية ولكن سلوكياتها كانت إنجليزية جيدة وكانت طبيعتها مشرقة، كأية طفلة سعيدة لكنها كانت شديدة التعلق برمسيس الذى أنقذها من حياة الفقر والرذيلة وكنت على قليل من الخوف من كيفية تعاملها مع التوأم. فهى كانت تشعر بالغيرة، لكنها أخفت ذلك جيدا، وكانت تميل أحيانا لإلقاء الأوامر للصغار.

(٤)

بعد أن انتهينا من تناول الطعام، تمددت للخلف فى مقعدى أراقب المجموعة البشوشة بابتسامة لا تخلو من خيلاء. ربما كان لى عذرى فى ذلك حيث إننا مررنا بفترات مضطربة فى الماضى حتى قبل أن يشترك رمسيس فى بعض المهام السرية خلال الحرب، كنا قد عركنا عدداً من اللصوص والقتلة والمزيفين والخاطئين وحتى أحد عتاة المجرمين ولا أتذكر فصلا من الفصول لم نواجه خلاله خطرًا ما بصورة أو بأخرى. ولأول مرة منذ أعوام طوال لا تظللنا سحابة خوف ولا عدو قديم يهدد بالثأر.

لا أدعى أننى لم أستمتع بمثل تلك الأحداث. فالبراعة التى نواجه بها المجرمين ومن يحاولون إيقاع الأذى بنا تضيف طعمًا للحياةولكن مواجهة الخطر فى حد ذاته ليس هو نفس الشىء حين يكون أحد أحبائك فى مأزق خطر. إن الكثير من شعرى الرمادى الذى أخفيه باستمرار باستعمال الصبغات قد تسبب فيه رمسيس حيث كان على قدر كبير من السوء عندما كان طفلا. لم يجعل النضج منه شخصا أكثر حذرا، وبعد أن التحق دافيد ونفرت بالعائلة غرقا فى المشاكل أيضا. ولكن الأمر اختلف الآن. فرمسيس ونفرت أصبحا أبوين ورعاية الصغار الأعزاء سوف تكبح تهورهما.

(٥)

قال رمسيس: لقد حدث شىء غريب اليوم.

كان هو ونفرت يرتديان ملابسهما للغداء، لم يكن ضروريا أن يكون لباسا رسميا لكنه عادة ضرورى بعد قضاء ساعة معالطفلين حيث العديد من الأشياء كالشيكولاتة والطين تنتقل بطريقة ما منهما إلى أى سطح يلمسانه.

لم تجب نفرت، فرأسها كان خاويا ووجهها جامداً. كانت تنصت إلى ضحكات ودردشات تنساب عبر نافذتهما من غرفة الأطفال التى تقع فى نهاية الممر. كان من

المفروض أن يكونا نائمين لكنهما بالطبع لم يكونا كذلك. كان رمسيس معتادا على تلك الأصوات ولكنه نسى ما كان سيقوله عندما تحركت عيناه لتقع على جسم امرأته وهى جالسة أمام المرآة. لم تكن قد ارتدت ثوبها بعد، وذراعاها مرفوعتان وأصابعها النحيلة تعقص الخصل الذهبية الطويلة من شعرها فى عقدة خلف رقبتها. ذهب إليها ووضع يديه مكان يديها وهو يداعب شعرها بأصبعه، فابتسمت له وعيناها تراقب انعكاس وجهه على صفحة المرآة.

– أنا آسفة يا عزيزى، هل قلت شيئا؟

– لا أتذكر الآن.

– أسرع بارتداء ملابسك فأنا أريد الاطمئنان على الأطفال قبل أن نذهب للعشاء.

أبعد يديه عنها باستياء وأكمل ارتداء ملابسه.

تحولت أصوات الأطفال إلى صمت عند مغادرتهما المنزل. كان منزلهما يبعد عدة مئات من الياردات عن المنزل الرئيسى. كانت المصابيح تضىء الممر الذى يؤدى إلى الباب وكانت رائحة الورود تفوح على الجانبين.

قالت نفرت برقة:

– أنا أحب هذا المكان، لم أكن أتوقع ذلك كما تعرف فقد كنت آمل أن نبتعد ولو قليلا عن العائلة.

– كان بناء المنزل بهذه الكيفية مطابقا لرغبة أمى، ولكنها التزمت بوعدها فى أن تحافظ على خصوصيتنا، حتى أن أبى لا يأتى إلينا إلا بعد أن يستأذن منها.

ضحكت نفرت وقالت:

– لقد كان ذلك منذ اليوم الذى أتى فيه إلينا وضبطنا فى الفراش معا.

قال بضيق:

– ليس له الحق فى الانتقاد، فكم من المرات كنت أجلس وأنا أعض إبهامى فى انتظار أن يأتى، بينما هو وأمى يفعلان نفس الشىء.

(٦)

وصلا متأخرين وكان إمرسون قد دخل إليهما البهو متأخرا لأنه كان يكتب شيئا في مذكراته.

- أين نسختك من النقوش التي وجدناها على جدار ذلك البيت؟ سأل إمرسون ابنه.

- بمقدورك أن تقول على الأقل "مساء الخير" قبل أن تبدأ في سؤاله.

قالت نفرت له ضاحكة، فقال إمرسون:

- مساء الخير ثم أردف.. أين النقوش يا رمسيس...

وسرعان ما تمكن رمسيس من أن يتذكر النقوش التي يشير إليها والده، لم يكن قد فكر فيها لعدة شهور ثم صاح" لو أنك تقصد نقوش" أمن نخت" فهي في مذكراتي، ألم أعطها لك؟ لقد كنت أعتقد أنني فعلت ذلك.

كان إمرسون يعرف أنه فعل وهو بلا شك وضعها في مكان ما. بمكتبه غير المرتب والمكدس بكمٍّ كبير من الأوراق، وهو بإمكانه عادة أن يعثر على أي وثيقة في أي وقت، وإذا لم يجدها يفقد صبره ويبدأ في بعثرة الأوراق من حوله.

سألته نفرت:

- هل فقدتها؟ لا بد أنها في مكان ما يا أبي. سأساعدك في العثور عليها إذا رغبت.

- أمسك إمرسون بالغليون قائلا "شكرا يا عزيزتي" ولكن ذلك ليس ضروريا، أنا لا أحتاجها الآن.

قلت أنا:

- بل نحتاجها الآن. لقد وعدت بكتابة المقال لتلك المجلة من أسابيع مضت ولم تنته منه بعد، أليس كذلك؟

نظر إمرسون ناحيتى بحدة فأمسكت عن الكلام تماما. كان رمسيس متأكدا من أننى لم أسقط الموضوع من تفكيرى بالرغم من ذلك. وأن لى طريقتى التى أتعامل بها مع إمرسون. قلت بابتهاج:

– دعونا من هذه المناقشات، علينا أن نبحث فى الترتيبات الخاصة بضيوفنا المرتقبين.

قالت نفرت:

– لقد وافقت سينيا بكرم على التنازل عن الجناح الذى تقيم فيه لدافيد وليا وأسرتهما ويمكن للخالة إيفلين والعم والتر الإقامة معنا أو بالقاعة الذهبية وفقا لتفضيلهما.

– لو كنت مكانهما لاخترت القاعة الذهبية. قال رمسيس ذلك بتثاقل، ثم استطرد "عندما يوجد أربعة أطفال صغار معًا سينقلب المكان إلى حديقة حيوان. إننى لأتعجب كيف سيتعامل دوللى وإيفى مع التوأم. صحت أنا:

– بطريقة سيئة كما أعتقد. فالتوأم اعتادا على أن نوليهما كل الاهتمام وسوف يتأثر شعور دوللى إذا أهمله إمرسون.

صاح إمرسون:

– هذا هراء، فأنا لا أستطيع إهمال عبد الله الصغير.

قلت معقبة:

– إن لك ركبتان فقط يا إمرسون وجميعهم سيحاولون القفز فوقهما فى نفس الوقت.

قال رمسيس متدخلاً:

– ها قد عدت لتوقع المشاكل مرة أخرى يا أمى.

صحت قائلة:

- أنا لا أتوقع مشاكل، أنا واثقة من أن الأمور ستمضى على خير وجه. عمك والتر ستسره المخطوطات التى عثرنا عليها يا رمسيس. وافق رمسيس قائلا:

- لا يوجد عالم لغويات أفضل منه. قلت ضاحكة:

- سأسأل دافيد أن يرسم صورة جماعية لك ولنفرت مع الأطفال أو ربما إيفلين. لقد مرت سنوات طوال منذ أن مارست الرسم ببراعة ولكنى واثقة من أنها ستشعر بالسرور.

قال إمرسون صائحا:

- دقيقة واحدة من فضلك يا بيبودى. لن أسمح لك بوضع واجبات إضافية على العاملين معى حتى قبل أن يصلوا سوف أحتاجهم فى الحفريات.

كان استعماله لاسمى بهذه الطريقة موحيا بحالته المزاجية الطيبة بالرغم من أسلوب الحوار، وقد اعتادت الأسرة على فهم تلك الإشارات ، فهو يستخدم اسم أميليا عندما يكون مستاءً، واسم بيبودى عندما يكون معتدل المزاج وكأنه يستعيد ذكريات غرامهما فى فترة ما قبل الزواج بأن يوليها كل الاعتبار والاحترام. تبادل رمسيس النظرات مع زوجته. لم يكن الخلاف قد انتهى، فأمه ستمضى فى خطتها وسيستمر أبوه فى الشكوى. فعادة ما كنا نستمتع بهذه الاختلافات البسيطة فى الرأى كما كنت أسميها، بالرغم من أنها قد توصف بطريقة أفضل بأنها "مباراة فى الرماية".

كنت أبتسم لنفسى، وكانت خدودى متوردة وعيناى لامعتين. لم تغير السنوات من مظهرى كثيرا، فقامتى لا تزال منتصبة والخطوط الجديدة فى وجهى كانت من أثر الضحك. كان شعرى الأسود الكثيف قد تغير لونه عن الأصل وقد جعلته نفرت يعد بألا يقول كلمة عن ذلك لى أو لأبيه، لكنه وجد أن اهتمامى المبالغ فيه بإبراز أنوثتى مثيرا للدهشة.

التقطت عيناه وهى تنظر إلىّ فقلت له؟

– ما الذى يجعلك تبتسم؟ هل هناك شيئا يلطخ أنفى؟

– لا، كنت أفكر فقط فى هذا البهاء الذى تبدين عليه هذه الأمسية.

(٧)

عندما وصل رمسيس وإمرسون إلى موقع الحفريات صباح اليوم التالى كانت الشمس قد أشرقت لتوها على التلال الشرقية وعلى الوادى الصغير وكان دير المدينة ما زال فى الظل وكانت التلال العالية القاحلة تحيط به من الشرق والغرب. كان المدخل الرئيسى للشمال وتحيط به خرائب المعابد. على أرض الوادى كانت توجد بقايا القرية الخاصة بالعمال والتى احتلت هذا الموقع لثلاثمائة سنة كما كان يقدر إمرسون. كان الدليل على وجود آثار شديدة القدم موضع بحث لأنه إذا وجد هذا الدليل فسيعنى أنه قائم تحت أساسات البناء الأحدث منه.

من اللمحات الأولى قد يبدو أن القليل جدا قد ظهر بعد عمل قارب السنتين حين بدءا فى الاستكشاف، كانت خرائب الوادى تقبع تحت تلال من بقايا السنين ومطمورة تحت الرمال. فى القرن الماضى عانت هذه الخرائب من الحفر العشوائى من علماء الآثار والفلاحين الباحثين عن آثار لبيعها. على منحدرات التل الشرقى تقع مقابر العمال يعلوها أحيانا أهرام صغيرة متفتتة تم نهبها هى الأخرى وتبعثرت محتوياتها. فى الماضى القريب قام بعض علماء المصريات بعمل استكشافات لبعض المقابر ولكن متاحف أوروبا احتوت على كميات هائلة من أوراق البردى والأشياء الأخرى التى تم شراؤها من سوق الآثار خلال القرن التاسع عشر والكثير منها ربما جاء من دير المدينة دون أى تسجيل لموقع اكتشافها أو لأصلها.

باختصار، كان الموقع يمثل تحديا كبيرا وكان إمرسون هو أحد القلائل من رجال الآثار الذين بإمكانهم أداء المهمة بطريقة صحيحة.

تنهد رمسيس تنهيدة رضا عندما نظر إلى الموقع. كان والده يفضل المعابد والمقابر ولكن الأكوام من مدونات أوراق البردى كانت تتراكم، فى انتظار فك طلاسمها، وهى العملية التى يستمتع هو بها أيما استمتاع.

فى الحقيقة كان قد حدث تقدم كبير فى أعمال التنقيب حيث استغرق العمل وقتا طويلا لإزالة الأنقاض للوصول إلى أعلى الجدران الباقية وغربلة كل بوصة مربعة من هذه الأنقاض اللعينة. كانت العملية مجدية فقد عثرا على الكثير من الأشياء التى نسيها المنقبون الأوائل أو أهملوها واكتشفا أن القرية مكونة من قسمين يفصلهما شارع ضيق ويحيطها سور وكانا يعملان فى الجانب الشمالى من الشارع، آخذين كل بيت بالدور.

بعض الأمور تداخلت وأدت إلى تأخر العمل. ففى نهاية صيف عام ١٩١٦ عندما بات واضحا لعينى الثاقبة أن حمل نفرت الذى طال انتظاره قد تشوبه بعض التعقيدات غير المنتظرة سافرنا إلى القاهرة ونزلنا بفندق شبرد تحت الرعاية اللصيقة للطبيبتين المسئولتين عن مستشفى النساء التى أنشأتها نفرت. ورغم التأكيدات اليومية بأن الوضع مطمئن، لم يفلح رمسيس فى أن يعطى كل اهتمامه لعمله، ولم يعد والده قادرا على التركيز هو الآخر وأصبح مزاجه حاداً لدرجة أن رئيس مساعديه داود اختبأ منه. وبعد أسبوع من النشاط العقيم قرر إمرسون على مضض إغلاق موقع الحفر. اتجه الرجلان إلى القاهرة حيث كان إمرسون يقضى نصف وقته بالمستشفى يفحص الاستعدادات ويتحرش بالأطباء ونصف وقته الآخر يحملق بانزعاج فى بطن نفرت. ولم يمنع رمسيس بأن يكون مثله إلا لعلمه بأن ذلك سوف يزيد من انزعاج نفرت. للمرة الأولى كانت تصرفاتى كعاملة بالأمور جيده، وكانت مثار طمأنينة له، وكان يسألنى كثيرا:

– هل سينتهى الأمر على خير؟

كنت دائما أقول لـه بأن نفرت طبيبة. كان لا يستطيع أن يتوقف عن السؤال "هل الأمور على ما يرام؟ وكنت أبتسم قائلة "بالطبع". لم يدرك إلا بعد أن انتهى الأمر أننى كنت أدعى الشجاعة ليطمئن هو.

عندما حانت لحظة الولادة ليلا كما توقعت، لم يكن نائما، وعندما أحس بأنها ستلد وسمع شهقاتها اندفع من الفراش وأضاء المصباح فنظرت إليه ويداها مفرودتان فوق بطنها.

صاح هو:

– سأذهب لأجيء بأمي..

– ليس بعد، ما زال لدينا وقت.

لكن رمسيس انطلق خارجا من الغرفة، وحين عاد بعد أن أيقظنا أنا وإمرسون كانت نفرت ترتدى ملابسها بهدوء، واتجهنا جميعا إلى المستشفى فى الوقت المناسب. حافظ إمرسون على هدوئه رغم أنه نسى أزرار قميصه مفتوحة ولا يتذكر رمسيس أنه رآه بهذا الشحوب من قبل. ثابر على الربت على يد نفرت وهو يقول: سينتهى الأمر سريعا الآن.

كان كل شيء مهيئا لأننى كنت قد اتصلت بالمستشفى قبل ذهابنا. وأخذت الطبيبة نفرت إلى غرفة الولادة وذهب الجميع إلى فناء المستشفى فهى لم تكن تسمح بالتدخين فى مكتبها وإمرسون كان لا يستطيع احتمال الموقف دون أن يدخن. كان يشعل غليونه للمرة الثانية عندما ظهرت الطبيبة فرجسون التى نظرت لإمرسون بضيق، فوضع غليونه بجانبه وتوقف عن التدخين.

تاه رمسيس فى تأملاته وانتبه على صوت والده وهو يسأله:

– تبدو مشغولا .. فيم تفكر؟

– ليلة مولد التوأم، أرجو ألا أمر بمثل ذلك الأمر مرة أخرى.

رد مداعبا:

– أنت لم تمر به، زوجتك هى التى مرت، وكانت مصرة على أن تكون موجوداً وترى وتسمع كل شيء.

(٨)

انتظم فريق العمل مرة أخرى والذى كان يضم رجالا مهرة عملوا معهما لسنوات وجميعهم من أسرة الريس عبد الله الذين ثابروا بفخر على أداء العمل الذى بدأه. كان أول من حياهما هو سليم الذى حل محل والده كرئيس للعمال بعد أن توفى والده فى حادث مأساوى ورغم أنه كان الأصغر من بين أبنائه لم ينكر عليه أحد حقه فى هذه الوظيفة. كان له نفس روح القيادة وإن فاق والده فى الكفاءة نتيجة ما تلقاه من تدريب على يديه. وخلفه تماما كان يقف ابن عمه داود.

نظر إمرسون ويديه على جانبيه ورأسه للخلف إلى التل الواقع إلى الشرق من القرية وقال:

- يوجد شخص ما هناك بالقرب من المقبرة الخاصة بنا.

أضاء نور الشمس الأحجار التى فوق التل وظهر شيء يتحرك، ولكن رمسيس، ذو النظر الحاد، لم يستطع تحديده، فقال "ربما كان أحد اللصوص من القرنة ويأمل أن نكون قد نسينا شيئا عندما قمنا بتنظيف المقبرة".

كانت المقبرة هى مخبأ المومياوات والأثاث الجنائزى لأميرات وزوجات الإله فى الحقبة المتأخرة. لم تكن هذه المقبرة خاصة بإمرسون، وإنما لسايروس فندرجلت، لأنهما اشتركا فى ذلك الموسم مع زميل أمريكى، واحتفظ إمرسون وزميله الأمريكى بالقرية لهما ووهبا المقبرة التى تقع على جانب التل لسايروس. ولكن إمرسون لم يحقد عليه لهذا الكشف فقد قام سايروس بالتنقيب لسنوات طويلة فى طيبة دون أن يجد شيئا ذا أهمية، وكشفا كهذا يعد إنجازا للعمر بكامله. ولأن بيرتى، ابن زوجة سايروس والذى يعمل مساعدا له، هو الذى حدد موقع المقبرة المفقودة، فقد كان لسايروس حقا مضاعفا. كان رمسيس قد حضر عددا من الاكتشافات المثيرة، فقد كانت لوالده غريزة اكتشاف هذه الأشياء ولكنه لن ينسى أبدا نظرته الأولى للغرفة الخفية بالصدع الجبلى، وهى مليئة من الأرض وحتى السقف بالتوابيت وبالصناديق المليئة بالجواهر والملابس المطرزة.

كانوا قد جاءوا جميعا لمساعدة سايروس فى تنظيف المقبرة وحمل كنوزها التى كان بعضها قابلا للتلف. كان لهذه العملية أولوية قصوى على سائر المشروعات حيث أن لصوص المقابر فى طيبة كانوا يحومون حولها كالنسور منتظرين فرصة للظفر ببعض مقتنياتها. استغرق الأمر شهورا لتسجيل وحمل الكنوز جميعها ولكن عملية الترميم كانت لا تزال جارية. زمجر إمرسون قائلا:

– إرسل رجلا لأعلى التل لطرده.

ترك سليم الأمر لرمسيس ليرد بالاعتراض الواضح:

– ولماذا نبدد المجهود. لا يوجد بالمقبرة شىء قد تركناه، ولو كان هذا اللص غبيا ليغامر برقبته متسلقا الصدع فلندعه يفعل.

– قد يكون أحد السائحين. رد إمرسون دون أن ينظر إليه.

تمنى رمسيس لو أننى جئت معهما ولم أتخلف، فأنا كفيلة بأن أضع حدا لهذه المناقشة ببعض الملاحظات الدقيقة. أشار رمسيس لوالده:

– لا نستطيع طرد السائحين ما لم يتدخلوا فى عملنا. لقد فعلت ذلك عندما كنا نعمل فى المقبرة وسارع العشرات منهم إلى القاهرة لتسجيل شكاواهم.

رد إمرسون غاضبا:

– لم نكن لننتهى أبدا من هذا العمل ما لم أفعل ذلك.

كانت ذكريات تلك الأيام لا تزال تغضبه.

– ضعاف العقول جاءوا بخطابات توصية من مختلف الجهات يطلبون دخول المقبرة ومحاولين تسلق السقالات ويصوبون كاميراتهم تجاه كل شىء ويقدمون الرشاوى لسليم وداود، والصحفيين الملاعين كانوا أسوا كثيرا.

(٩)

خلال عملية تنظيف المقبرة تمكن إمرسون من معارضة معظم الناس الذين لم يكونوا قد كرهوه بعد. بعض المستكشفين يستمتعون بالإعلام والجماهيرية ويوافقون على الطلبات التى ترد من بعض الشخصيات الهامة تطلب دخول المقبرة، ولكن إمرسون كان يكره الإعلام ويرفض إدخال زوار إلى المقبرة مهما كان اللقب أو التوصية التى يحملونها.

لقد تسبب فى أزمة عندما منع ملك بلجيكا وحاشيته من دخول المقبرة. لم يدرك الناس كم تكلف هذه الزيارات من الوقت بالنسبة للمستكشف. كان إمرسون على حق، فالمنع القاطع كان أسهل من التعامل مع كل طلب على حدة حتى لو أدى ذلك إلى علاقات سيئة مع وزارة الآثار. قال رمسيس لوالده الذى كان يهز قبضته تجاه الشخص البعيد:

– لقد انتهى الأمر، ولو كان سائحا فهو من عينة فائقة الطاقة.

رد أمرسون:

– لماذا نضيع الوقت على سائح أخرق؟

نظر إلى مجموعة العمل من الرجال أمامه وقال لسليم:

– أين حسن؟ هل هو مريض؟

لم يتذكر رمسيس فى تلك اللحظة "الشىء الغريب" الذى كان يريد أن يفضى به لنفرت. لم يكن هناك سببا واضحا لأن يظل ذلك الشىء يشغل عقله فلم يكن أمرا مزعجا.

خرج من تأملاته وقال لأبيه:

– كنت أنوى أن أخبرك بالأمس يا أبى أن حسن قدم استقالته.

- أتعنى أنه ترك الوظيفة؟ أهذا ما تقصد؟

- نعم يا سيدى.

- لماذا بحق الشيطان؟

- لست متأكدا، ولكنه على ما أعتقد نذر حياته لخدمة أحد المشايخ.

قال الأب باستياء:

- أى شيخ؟

- لم أسأله.

- يا إلهى الرحيم، ما الذى يفكر فيه هذا الرجل؟ إنه واحد من أكثر رجالى خبرة. سوف يكون لى معه حديث وآمره بالعودة.

اعترض رمسيس قائلا:

- لا تستطيع، إن من حقه أن يفعل ذلك وهذا قرار يخصه.

- ولكن لماذا حسن من بين كل الناس؟، قال إمرسون وهو يحك ذقنه.

- لقد كان سلوكه غريبا منذ أن ماتت زوجته وصار انطوائيا.

قال سليم ذلك ردا على إمرسون. علق رمسيس قائلا:

- هذا يفسر حالته العقلية التى أصبح عليها.

زم إمرسون شفتيه فى سخرية قائلا:

-لا تكن حالما لهذه الدرجة يا بنى، دعه يفعل ما يشاء، ولكن والدتك سوف تتهمنى بانتهاك إحدى الوصايا العشر لو حاولت أن أعيد إليه عقله.

كنا سنتناول الغداء مع فندرجلت وأسرته فى المساء. كان إمرسون دائم الشكوى من اضطراره للخروج لتناول الغداء ولكنه كان يستمتع بصحبة أسرة فندرجلت، وكان

سوف يصاب بخيبة أمل لو أنني اعتذرت عن الدعوة. ولكنه استاء هذه المرة بصورة خاصة عندما أصررت على أن يرتدى ملابس السهرة وهو ما كان يكرهه. كنت مستعدة قبله بوقت طويل بالطبع وجلست أقرأ فى أحد المجلات وأستمع إلى ما يجرى فى الغرفة المجاورة حيث جارجرى يقوم بمساعدة إمرسون فى ارتداء ملابسه، ولأن إمرسون لم يكن له خادم خاص أبدا، أخذ جارجرى على عاتقه هذه المهمة بالإضافة لعمله.

صحت أنا قائلة:

– دعك من الشكوى وأسرع يا إمرسون. رد قائلا:

– أنا لا أرى لماذا يجب علىّ بحق الشيطان أن ألبس هذه الملابس.

كنا قد عركنا مثل هذه المواقف كثيرا ولكن إمرسون كان دائما ما يتظاهر بأنه لا يسمع أشياءً لا يريد سماعها، لهذا صحت أنا مرة أخرى:

– لقد جاء لاكو من القاهرة لفحص الكنوز التى تنتمى لمقبرة الأميرات وسيأتى سايروس لكى يجعل حالته المزاجية جيدة فيصبح كريما عند إجراء القسمة ويترك نصيبا لسايروس. ووفقا للتقارير فإنه سوف يكون صارما عن ماسبيرو.

– أنت تكررين ما تقولين. رد إمرسون وهو يقف بالباب.

قلت أنا:

– تبدو أنيقا والشكر لك يا جارجرى.

– أشكرك يا سيدتى. وبدا مسرورا كما لو كنت قد مدحت مظهره هو. لم أكن لأفعل ذلك حيث لم يكن أنيقا أبدا، وحتى خلال شبابه لم يكن ليطلق عليه وصف الأناقة ولكن جارجرى بولائه وبراعته فى استخدام الوسائل المختلفة عندما يتطلب الأمر ذلك كانت تعوض افتقاره للوسامة.

تمنيت له أمسية طيبة وراح إمرسون يمدح جارجرى بنظرة مليئة بالعرفان.

(١٠)

كان الحفل الصغير قد التأم فى غرفة الاستقبال وتمعنت أنا فى كل شخص موجود فالمظهر يعد هاما، وكنت أعرف أنه بالرغم من أن المدير الفرنسى للآثار قد ينتقد جهودنا لكننى لم أجد عيبا واحدا فى رداء نفرت الذى كان فى زرقة البحر ومن الحرير الإيرانى. كان لنفرت ذوق رفيع وثروة كبيرة من الشباب والجمال. كان رمسيس يكره رداء الأمسيات مثل والده، ولكن الرداء كان يناسبه جيدا وبالرغم من محاولته أن يجعل شعره مستويا كان شعره يعود مرة أخرى إلى حالته المجعدة التى يكرهها. بالنسبة لى، كنتأبدو، كما أعتقد، بحالة طيبة، كان اهتمامى قليلا بمظهرى الشخصى وبالتالى صففت شعرى ببساطة واخترت رداءاً باللون القرمزى الذى يفضله إمرسون.

كان سايروس معروفا بذوقه الرفيع، وفى تلك الليلة كانت القلعة الرائعة التى هى مقر إقامته بالقرب من مدخل وادى الملوك، تتلألأبالأنوار. قابلنا سايروس لدى الباب كما كانت عادته الكريمة وأمطرنا بالمجاملات واصطحبنا إلى غرفة الاستقبال حيث كانت تنتظر زوجته ومعها ابنها.

كان النظر إلى زوجته كاثرين يعطى انطباعا بالزوجة السعيدة التى تعتبر سيدة إنجليزية راقية ولا يجعل المرء يشك فى أن لها ذلك التاريخ المضطرب من زواج فاشل ومهنة ناجحة كمتخصصة فى التزييف. أما ابنها برتى، من زواجها الأول فكان يعد الذراع اليمنى لسايروس ومساعده المخلص. ولأنه كان بريطانيا بالمولد مثله مثل والدته فقد خدم بلده بأمانة خلال الحرب العظمى إلى أن تم تسريحه من الخدمة لإصابته أثناء القتال. بدأ شغفه بعلم المصريات خلال مرحلة النقاهة التى قضاها فى بيت زوج أمه بالأقصر وكان اكتشافه لمقبرة الأميرات قد جعل له مكانا دائما فى المجلات الخاصة بالمهنة، لكنه ظل على تواضعه وشخصيته المستقيمة. صرت أنا شديدة الشغف بهذا الشاب، وكنت أتعجب عندما لاحظت أنه أصبح مولعاً بلبس الكوفيات حول رقبته وترك شعره ينمو إلى عنقه، فهذه التقاليع لا تناسب قسماته الإنجليزية الواضحة، ولا أعرف ما الذى دفعه لذلك.

كان برتى مفتونا بجومانه ابنة يوسف شقيق عبد الله والتى كانت امرأة شابة محل الإعجاب، شديدة الطموح والذكاء وكنا نؤيد جهودها لكى تصبح أول مصرية مؤهلة للعمل فى مجال الآثار واستكشافها. لقد تغيرت الأمور عن أول مجيئنا إلى مصر، فقد أصبح مستكشف الآثار الذى علم نفسه بنفسه أمرا ينتمى للماضى ونظرا لجنسها وجنسيتها فقد احتاجت جومانه لأفضل تدريب رسمى ممكن. كانت تدرس فى جامعة لندن فى ذلك العام تحت إشراف ابن خالة إمرسون ويدعى ويلى، وزوجته.

لم يتحدث برتى أبدا عن شغفه بالفتاة، ولكن الأمر كان واضحا لمن كانت له خبرة بالطبيعة الإنسانية مثلى، وكنت أشك فى أن الأمر قد ينتهى إلى أى شىء فقد كانت جومانة مصرة على مستقبلها المهنى وخجولة، كما أن برتى لم يكن بالرجل الذى يلهب خيال أية فتاة ويجعلها تحبه.

قد يدعى الرجال اهتمامهم بذكاء وأخلاق من يختارونها زوجة، ولكنى لاحظت أنهم عندما يجب عليهم الاختيار بين جمال فارغ من العقل وامرأة رائعة الشخصية ولكنها بلا جمال فإن الجمال هو الذى يفوز فى أغلب الأحوال.

– ألم يصل لاكو بعد؟ صحت متسائلة ثم جلست على المقعد الذى قدمه لى سايروس. أجابنى سايروس:

– لا، كنت أتمنى أن يكون قد جاء حتى ننتهى من ذلك الأمر، فأنا شديد العصبية فى الوقت الحالى.

– ولكنه قد لا يصدر قراره النهائى هذه الأمسية.

– هو لا يستطيع إصدار حكم عادل لأننى لم أبدأ بعد فى ترميم الثوب الثانى الذى سوف يكون رائعا، أعد بذلك.

(١١)

دخل مقدم الحفل وهو ينحنى ويبتسم ابتسامة مفتعلة، كان كثير الابتسام ولكن بدون إظهار أسنانه. كان يدعى أنه إيطاليورغم أن شعره الأشقر الآخذ فى المشيب، وعيناه البنيتان لا توحيان بذلك، وكان يعتبر نفسه رجل السيدات رغم أن قامته القصيرة وملامحه الفجة لا يدعمان ذلك أيضا، ولكنه كان واحدا من أعظم مرممى الآثار موهبة، وتحمُّل ادعاءاته يعد ثمنا بسيطا مقابل خدماته، كما أن سايروس كان يقدره أيما تقدير.

سمحت له بتقبيل يدى ورددت تحيته قائلة له:

– سعدت مساءً يا سنيور مارتنللى. سيكون الخطأ من جانبك إذا ما أخذ لاكو كل شىء إلى المتحف.

ضحك قائلا:

– أنت تقولين نكتة يا سيدتى، ثم أدار رأسه جانبا آخذا سيجارة وقال "أتسمحين".

كان من الصعب أن أعترض حيث أن إمرسون كان قد أخرج غليونه وسايروس قد أشعل سيجاراً. استطرد مارتنللى دونما انتظار:

– قد أدعى أننى قد قمت بعمل لا يستطيع أى إنسان آخر أن يقوم به. لقد كان ذلك كفيلا بأن يصنع سمعتى لو لم تكن قد صنعت بالفعل. ولكن لو كان لاكو يصبر لأسبوع آخر لرأى الروعة عند الانتهاء من العمل.

– أبهذه السرعة؟ قلت بدهشة.

– نعم، فأنا يجب أن أنتهى بأسرع ما يمكن، فلدى ارتباطات أخرى كما تعلمين. ثم غمز لى عبر سحابة الدخان وتلك كانت إحدى عاداته. فى الحقيقة كان مارتنللى يعمل لسنوات فى خدمة سيثوس أشهر لصوص الآثار فى العالم والذى كان أخًا غير

شقيق لإمرسون، وكان سيثوس هو الذى أوصى بمارتنللى، وعندى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أن هذا الأخ غير الشقيق قد أصبح شخصا صالحا ولكنى لا أعتمد على ذلك ولا أريد بالتأكيد مناقشة ماضيه الإجرامى فى وجود شخصيات لا تعرف إلا القليل عن الأمر وبالتالى لم أسأل سنيور مارتنللى عن طبيعة "الارتباطات الأخرى" بالرغم من رغبتى الشديدة فى معرفتها.

وقبل أن يستطرد مارتنللى فى إغاظتى، أعلن الخادم قدوم لاكو. كان الحماس الذى قوبل به من الحضور مثار سروره رغم أن لمحة من عينيه أشارت إلى أنه كان مغتبطا بذلك الحماس.

كان لاكو فى أواخر الأربعينيات من عمره ولكن لحيته كانت بيضاء وعلى الرغم من أنه كان قد تم تعيينه عام ١٩١٩ فى المنصب الذى كان يتطلب عادة أن يكون من يشغله فرنسى، لم يتساءل أحد عن صلاحيته للمنصب ولكن مظهره الأبوى لم يكن السبب الوحيد فى اكتساب لقب "الأب". كان قد انتهى من طرح بعض اللمحات عن رغبته فى تشديد القانون الخاص بتداول الآثار وبصفة عامة كانت القاعدة أن الآثار المكتشفة يجب اقتسامها بالتساوى بين المكتشف وهيئة الآثار المصرية. المدير السابق ماسبيرو كان كريما بدرجة مفرطة عند تقسيم الآثار المكتشفة. المحتويات الكاملة للمقبرة الخاصة بالمهندس المعمارى "خاو" وكانت مكونة من مئات من الأشياء تم منحها لمتحف تورين، ولكن هذه المقبرة ملكية ويستطيع لاكو قانونيا ادعاء أن الموجودات كانت فريدة من نوعها. من ناحية أخرى كانت هناك أربعة مجموعات من التوابيت والأوانى الكانوبية وكتب الموتى. ابتسمت ابتسامة ترحيب تجاه لاكو قائلة له:

– كم تبدو وسيما الليلة.

(١٢)

كان الحديث عاما فى العشاء. وكان سايروس يتأكد من أن تظل أكواب النبيذ مليئة دائما وأقلع إمرسون عن نقده لرفاقه من علماء الآثار مما لم يترك له الكثير

ليقوله، وكان ذلك أمرا طيبا.

بعد العشاء تجمعنا نحن السيدات معا فى ركن، وهى عادة دائما ما كنت لا أوافق عليها، ولكنى شعرت بأن لاكويفضل ذلك. وبعد قليل التحق بنا الرجال.

فى الظروف العادية كان يتم إرسال الموجودات إلى المتحف بمجرد أن يجهز لنقلها. ولكن الظروف لم تكن عادية هذه المرة. فالحرب تركت المتحف والقائمين عليه أقل قدرة عن ذى قبل، لاكو كان بعيدا خارج مصر معظم الوقت والقلاقل السياسية فى الشتاء الماضى جعلت نقل هذه الأشياء الثمينة مجازفة. كان بيت سايروس يوفر لها الأمان بجدراته السميكة وحراسه الأقوياء ويوفر أيضا مكانا واسعًا للتخزين. لا يمكن أن يقال نفس الشيء عن المتحف الذى كان مكتظا بالأشياء المكتشفة ويفتقر إلى العاملين.

بعد قليل ذهبنا إلى غرف التخزين وكنت قد رأيت مابها من موجودات من قبل، ولكنها كانت دائما تخلب لبى. كانت أكثر نظاما عن المحتويات المختلطة والمحطمة للغرفة الصغيرة التى اكتشفناها أنا وبرتى.

كان أحد التوابيت مصنوعا من الفضة الخالصة، والوجه قد تشكل بدقة وتحيطه باروكة كثيفة وعليها تاج. التوابيت الأخرى كانت من الخشب المطعم بالصدف وعليها كتابات هيروغليفية دقيقة، وصور الآلهة كانت بالأحجار شبه الثمينة، وتغطى رؤوس المومياوات أقنعة من الفضة والذهب صيغت بدقة فائقة. كان لكل أميرة أربعة من الأوانى الكانوبية مطلية بالكالسيت وعليها نحتت رؤوس الأبناء الأربعة لحورس، كل منها يحرس عضوا من أعضاء الجسم. وعلى المناضد تراصت مئات من التماثيل الصغيرة وكأنها جيش صغير يمثل الخدم الذين سيخدمون الميت فى العالم الآخر، وبعضها كان من القيشانى وبعضها من الخشب والقليل من المعادن النفيسة.

كانت مجموعة هائلة من الأشياء قد حشرت فى الغرفة الصغيرة، من أوعية الألباستر والأحجار الصلبة، وكان هناك أيضا اثنا عشر صندوقا ملونا ومطعما تحتوى على صنادل وملابس ومجوهرات من الذهب والفضة الرائعة والأحجار الزرقاء

التى كانت تتوهج تحت ضوء الكهرباء.

تمتم لاكو:

– مدهش، عمل رائع أشكركم عليه جميعا . هذا الترميم المدهش.

قلت أنا:

– لقد أخذ جهدنا جميعا . وتذكرت ظهيرة يوم مُضنٍ قضيته وأنا منكمشة فى ركن من الغرفة أدخل مئات من حبات الخرز الدقيقة فى خيط. كانت الحبات قد سقطت بعد انقطا ع الخيط الأصلى الذى بلى وبإعادة لضمها فى نفس موقع سقوطها تمكنت من الحفاظ على التصميم الأصلى للقلادة.

صحت قائلة:

– الفضل كل الفضل يعود للسنيور مارتنللى، ونشعر جميعا بالامتنان للمصور السيد برتون من متحف المترو بوليتان، الذى أدخل كاميراته إلى ذلك المكان الضيق فيما يشبه المعجزة.

أنت تعرف يا سيدى أن الغرفة بكاملها كانت مكتظة بالأشياء ولكنه تمكن من التقاط سلسلة من الصور الرائعة لها.

– نعم ولقد تحدثت معه. قال لاكو مؤيدا لما أقول.

– لقد قام بعمل جهد رائع نحن مدينون له ولمتحف المتروبوليتان.

(١٣)

كان مارتنللى، الذى لم يحظ بعد بالتقريظ الذى يعتبره من حقه، قد لفت نظر لاكو إلى قطعة من النسيج مفرودة على منضدة طويلة. كان سطحها بكامله مغطى بالخرز وموشى بالذهب الذى يلمع فى الضوء. كان مفرودا عليها لوح من الزجاج لحمايتها من التراب والرياح.

– هذه بالتأكيد أعظم تحفة أخرجتها . قال ذلك متفاخرا ، ثم أردف "كانت مطوية عدة طيات وكان النسيج هشا جدا لدرجة أن لفحة هواء يمكن أن تمزقه. قمت أنا بتثبيت كل طية بمادة كيماوية قبل فردها" .

لاحظ أن لاكو مد يده تجاه قطعة النسيج فهتف" لا تلمسها فأنا لا أزال أبحث عن أفضل طريقة لحفظها بصورة دائمة، ولست متأكدا ما إذا كنت سأجعلها قوية لدرجة تحمل اللمس" .

لمعت عينا لاكو إعجابا بالعباءة التى كانت عبارة عن كتان شفاف مطرزة عند الحواشى والرقبة بأشرطة من الخرز، من المؤكد أنه سيجعلها للمتحف الذى لا يحتوى على شىء يضاهيها، ولا يوجد أى متحف فى العالم به مثيلة لها .

– قد يقترح السيد لوكاس حلا. قال لاكو ذلك لمصلحة مارتنللى وأضاف "إنه الكيميائى الخاص بالحكومة"، رد مارتنللى:

– أنا أعرف من يكون. كان امتعاضه قويا لدرجة جعلته يكشف عن نواجذه، ثم أكد بنبرة واثقة، هو لا يستطيع أن يعلم مارتنللى شيئا .

حدجه لاكو بنظرة جامدة وأسرعتُ لتهدئة الموقف وأنا أقول:

– هناك العديد من العباءات المماثلة يا سيد لاكو لا تزال مطوية فى صناديقها . لقد استغرق الأمر قرابة الشهر من السيد مارتنللى ليعالج هذه العباءة. وإذا ما وقع الأسوأ، يمكن إعادة تكوين العباءة فلدينا العديد من الصور الفوتوغرافية ونأمل فى خلال أسابيع قليلة أن يكون لدينا رسومات ملونة لهذه العباءة وغيرها من الأشياء.

سأل المفتش:

– من الذى أخذ تلك الصور؟ أهو كارتر؟

– إنه دافيد تودرس وسوف يلحق بنا هو وأسرته فى الأسبوع القادم وأعرف أنه يتلهف على القيام بهذه المهمة. أنت تتذكره بالطبع.

– نعم، الشاب المصرى الذى عمل مرة لدى مزيف شهير هنا بالأقصر وقام بصنع آثار مزيفة.

– لقد أصبح الآن عالما فى المصريات وفنانا ماهرا. رد إمرسون الذى كان متحكما فى مزاجه حتى ذلك الحين ولكنه استاء من التلطف المصطنع فى صوت لاكو، فأردف قائلا:

– لقد تزوج من ابنة شقيقى، حتى لا تفوتك هذه الحقيقة.

رد لاكو بجفاء:

– أنت محظوظ بالفعل لتحظى بكل هؤلاء الخبراء فى فريق عملك. ثم التفت إلى رمسيس قائلا:

– ما مدى تقدمك فى العمل الخاص بالنقوش والكتابات؟

– كما تعرف يا سيدى، لا يوجد الكثير فيما عدا النقوش على التوابيت وبعض الصناديق، ونسخة كتاب الموتى تتطلب عناية فائقة فى تداولها ولم يسمح لى الوقت أن أوليها العناية الكافية التى تستحقها.

– حضور عمك سوف يكون مثار ترحيب بلا شك.

كان يشير إلى والتر ولكنى عرفت من تغير وجه رمسيس أنه يذكره بعمه الآخر. صليت فى داخلى ألا يقوم سيثوس بزيارتنا، فهو يعشق المجىء بدون إخطار مسبق. لم أكن قد تلقيت شيئا منه لشهور عديدة حيث كان غائبا فى ألمانيا وافترضت أنه كان هناك فى مهمة خاصة بالمخابرات، فقد كان واحدا من أهم رجال المخابرات البريطانية منذ أن بدأت الحرب، وكان لا يزال مشتركا فى ذلك العمل.

(١٤)

كانت الأميرات اللواتى ينتمى إليهن كل هذا الإبداع راقدات فى توابيت خشبية مبطنة بالقطن ومرصوصة فى أحد أركان الغرفة، ولا يستطيع أحد إلا أن يزجيهن تحية

الاحترام. ولكن السيد لاكو لم يتأثر بالمنظر. قال وهو مقطب الجبين:

– هل نقلتموهن من التوابيت؟

أردت أن أرد على هذا النقد فقلت:

– لقد كان ذلك ضروريا يا سيدى، فالخشب الخاص بثلاثة من التوابيت كان جافا ومتشققا وتساقطت الزخارف منه. وقبل أن نقوم بنقلهن قمنا بتثبيت الداخل والخارج بمادة من اختراع مارتنللي وها أنت تشاهد النتيجة التى هى فى رأيى أكثر من ممتازة.

رد لاكو قائلا:

– نعم بالطبع، وأنا أرى أنكم قاومتم إغراء الرغبة فى فك اللفائف المحيطة بالسيدات رغم أن لديكم كما أعتقد بعض الخبرة بذلك. قال ذلك وهو ينظر تجاه نفرت.

– لم أكن لألمسهن بدون موافقتك يا سيد لاكو. سارعت نفرت بقول ذلك، ثم استطردت قائلة:

– إن اللفائف فى حالة ممتازة وهذه المومياوات ظلت بدون إزعاج فى مكانهن منذ أن وضعن فى التوابيت، على خلاف المومياوات الملكية الأخرى التى لديناوسوف يكون ذنبا فادحا أن نفصلهن عن بعضهن.

قال لاكو:

– أنت تعارضين ذلك بشدة يا سيدتى. ولكن ماذا عن الزخارف والتعاويذ والمجوهرات التى بلا شك ستجدينها على أجسادهن؟

شرحت نفرت وجهة نظرها قائلة:

– لدينا الكثير من قطع المجوهرات الجميلة ولا نعرف الحالة التى توجد عليها المومياوات أو الذى يوجد خلف اللفائف المحيطة بها، وفى الحالة الراهنة قد لا نستطيع معرفة ما يمكن معرفته من هذه البقايا أو الحفاظ عليها دون تلف.

– هذا دفاع مؤثر يا سيدتى. قال لاكو بابتسامة.

تورد على إثرها وجه نفرت ولكنها احتفظت بهدوئها وقالت:

– ما أود عمله هو تعريض المومياوات لأشعة° لاختبارها.

رد لاكو:

– ليس لدى المتحف مثل تلك الأجهزة.

قالت هى:

– ولكنى أملك تلك الأجهزة فى المستشفى الخاص بى بالقاهرة، وقد قام السيد جرافتون إليوت سميث بتعريض مومياء تحتمس الرابع لأشعة إكس بإحدى العيادات الخاصة، إذا كنت تتذكر.

– أتذكر بالتأكيد وقد كانت تجربة غير مناسبة وغير مريحة.

قالت نفرت باندفاع:

– نستطيع أن نفكر فى طريقة أفضل.

– لا عليك، سوف نفكر فى طريقة مناسبة.

شكرته نفرت مدعية أنها تعترف له بالجميل، فهى كانت معتادة على أن تتقبل تعضيد الرجال.

(١٥)

قام لاكو بالتفتيش على المعمل ولكن ليس لفترة طويلة، فقد كانت الروائح المنفرة تشير إلى أن مارتنللى يجرب كيماويات عديدة على قطع من الكتان والخشب. عندئذ أظهر سايروس مقتنياته، وكانت عبارة عن صور فوتوغرافية وخطط ورسومات تخطيطية، وكلها محفوظة ومفهرسة فى دوسيهات. عدنا بعد ذلك إلى غرفة العرض لنلقى نظرة أخيرة.

قال لاكو بنبرة حادة:

– أرى أننى يجب أن أعطى الأمـر بعض التـفكيـر. كم أود لو طرحت هذه الكنوز للعرض العام فى الحال، ولكن علينا التفكير فى كيفية إيجاد المكان لذلك. لم أكن أدرك أن لدينا هذا الكم الهائل من الأشياء.

تغير وجه سايروس عند سماعه ذلك وبدا أن لاكو لم يلاحظ فاستمر قائلا:

– الآن أنا مضطر يا أصدقائى للانصراف وأشكركم على كرم ضيافتكم وعلى هذه التجربة المدهشة التى تمتعت بها.

وبعد أن غـادر تلكأنا قليـلا لرفع روح سـايروس المعنوية الذى أعطى تصـريحـات لاكو أقصى التفسيرات تشاؤما.

قال إمرسون بإصرار:

– يستطيع أن يأخذ ما يريد، لا تجلب لنفسك المشاكل. إنه مدين لك بوقتك وجهدك ونفقاتك، وأيضا لبرتى لاكتشافاته الكثيرة.

قال سايروس مندهشا:

– كنت أعتقد أنك تؤيد فكرة أن كل الأشياء الرئيسية يجب أن تبقى فى مصر. لقد أعطيت كل موجودات مقبرة "تتى شيرى" إلى المتحف المصرى.

رد إمرسون قائلا وهو يخرج غليونه:

– الموضـوع ليس بسيطا فـعلمـاء الآثار وجـامـعى التحف يجردون البلد من آثاره منذ زمن طويل ولم يكن للمصريين رأى فى ذلك.

قال سايروس فى غضب:

– نعم، ولكن مـاذا عن الحـفـاظ على تلك الأشـيـاء، فليس لدى المتـحف الوسـائل اللازمة ولا الناس المدربين للحفاظ عليها.

– خطأ من هذا؟ رد إمرسون وهو سعيد لتأييده لموقفى أحيانا وقال مستطردا:

– الأمر يتعلق بالمال، والذى يحدد كيفية إنفاقه. سياسيون من أمثال كرومر وسيسل، وهما لا يهتمان بالحفاظ على المتحف أو بتدريب المصريين لشغل وظائفه أو بمنحهم ما يكفى من الأجور.

قاطعته قائلة:

– إغفر لى تدخلى يا إمرسون، ولكننا سمعنا هذا الكلام من قبل. قلت ذلك بأدب ولكن بإصرار.

رد سايروس:

– أرجو أن يكون لاكو منصفا وأن يكون قد قرر ما سيفعله لأن الانتظار يقتلنى.

عندما غادرنا المكان بحثت عن مارتنللى ولكن بلا جدوى، فقلت:

– كان عليه أن يلقى بتحية المساء قبل أن يذهب.

قال سايروس:

– هو لم يذهب للنوم. لقد ذهب إلى الأقصر.

– فى مثل هذا الوقت؟

– ما يفعله فى الأقصر يكون إنجازه على أفضل وجه فى هذا الوقت.

قالها إمرسون متبادلا مع سايروس نظرات ذات مغزى.

– كنت قد سمعت بعض الروايات من الأصدقاء بالأقصر عن الأمور الشائعة والمفضلة لدى الناس، وعندما أحسست أن إمرسون بدأ يتحدث عن أماكن الأقصر الترفيهية أخذت أسرتى وأسرعت بالمغادرة.

كان وقت وصولنا إلى البيت متأخرا، ولكن الانطباعات التى تركتها الأمسية كانت شديدة الأثر علينا لدرجة أننا لم نتوقف عن مناقشتها.

جلسنا نحن الأربعة فى الشرفة لنحتسى بعض الشراب وكنت مندهشة عندما أخذت نفرت كوبا لأنها نادرا ما تتناول الخمر. أدركت أنها مضطربة هى الأخرى ربما بسبب مومياواتها الثمينة، فقد شربت من النبيذ مع العشاء قدرا أكبر مما اعتادته. قلت للجميع:

– إن فشله فى أن يعطى ولو تلميحا عن موضوع القسمة كان أمرا سيئا فى نظرى.

رد رمسيس:

– أشك فى أنه لم يفكر جيدا فى الذى سيفعله بكل هذه الأشياء. سيكون عليهم تخزين كم كبير من المعروضات الحالية لكى يجدوا مكانا للأشياء المكتشفة هنا وبناء فترينات عرض وإعداد كل شىء بطريقة مناسبة.

– بالطبع سوف يكون علينا نحن أن نغلِّف الأشياء فلا نستطيع أن نثق بأحد فى أن يقوم بذلك. يا إلهى، إننى أكره هذا الأمر. لقد استعملت كل شذرة قطن أو كتان استطعت أن أجدها عندما قمنا بتغليف الأشياء لنقلها من المقبرة إلى القلعة، ولكن أنا متشائمة بخصوص تلك العباءة الجميلة. فمهما كانت طبيعة المادة التى نستخدمها فى التغليف، فلن تتحمل الرحلة.

ردت نفرت.

– سوف يكون لدينا نسخة طبق الأصل منها.

انتهت من شرابها قائلة:

– لدى فكرة شريرة. عندما نكون فى تلك الحجرة مرة ثانية سوف أفقد توازنى وأسقط على المنضدة التى عليها العباءة فإذا تمزق الكتان إلى قطع صغيرة كما أتوقع فلربما سمح لنا لاكو بالاحتفاظ بها.

رددت عليها وأنا ابتسم:

– عزيزتى تبدين منهكة وعليك التوجه للفراش.

قالت نفرت وهى تعطى يدها لرمسيس ليساعدها على القيام:

– أنا أقنع ببعض المجوهرات، إسورة الثعبان المصنوعة من الذهب والعقيق والإسورة الذهبية ذات الشرائط اللازوردية الزرقاءورأس هاتور، إلا تعتقدين يا أماه أن الرجل الذى يحب زوجته بصدق يجب أن يجلب لها هذه الأشياء؟ إنهم يقولون أنهم سيأتون بالقمر والنجوم من السماء ويلقون بها أمامنا.

– إنها ليست متعبة، إنها شربت أكثر من اللازم. قال رمسيس ذلك واضعا ذراعه حول زوجته برقة. نظرت إليه قائلة:

– عليك أن تحملنى. كان وجهها مكفهرا وشعرها مبعثرا على وجهها، فحملها خارجا من الشرفة. نظر إمرسون لى نظرة عميقة وقال:

– لا أذكر أننى رأيتك تترنحين من الخمر من قبل يا بيبودى. رددت قائلة وقد حدست ما يدور بعقله.

– وأنت لم تقل لى أبدا إنك ستأتى لى بالقمر والنجوم.

كانت إجابة إمرسون ذكية ولكنه كان يلعب بالألفاظ، قال أخيرا:

– أستطيع تدبير إسورة ذهبية أو إسورتين إذا أردت.

كان غريبا أننا ذكرنا الأساور لأنها كانت القطع التى اختفت ومعها مارتنللى.

الفصل الثانى

(١)

علمنا بالتطورات المؤسفة عن طريق أحد خدم سايروس الذى حمل رسالة منه يطلب فيها وجودنا وكانت مكتوبة بخط تصعب قراءته نتيجة اضطرابه. كان اليوم هو الجمعة، يوم الراحة المعتاد، فأفطرنا متأخرين عن الموعد المعتاد، وأصر الأطفال على أن يتناولوا طعامهم مع جدهم، وكانت فرصة لانضمام القطط إلينا حيث كان الطعام يسقط على الأرض وعلى المائدة، ولم تشاركنا سينيا المائدة، رغم أنها كانت مغرمة بالأطفال الأعزاء، فإنها شديدة الحذر فيما يتعلق بملابسها.

عندما فتحت فاتيما الباب أخذت الرسالة منها وقرأتها قبل إمرسون. انطلقت من شفتى دون وعى صرخة مكتومة وقلت: يا إلهى الرحيم!" فصاح إمرسون:

– ما الأمر؟

قلت بانزعاج:

– مجوهرات زوجات الإله اختفت، ومعها السنيور مارتنللى.

قال غير مصدق:

– ماذا؟ مستحيل!

– هذا ما حدث. اكتشف سايروس اختفاءها عندما ذهب إلى غرفة العرض فى الصباح ليلقى نظرة عليها فوجد أن اثنتين أو ثلاثة من الأساور ومعها عقد قد اختفت.

– هذا يكفى، قال رمسيس ذلك وقد رفع حاجبيه لأعلى كعادته عندما يكون شديد الانزعاج أو الاهتمام، واستطرد قائلا:

– لاكو سوف يحمل سايروس المسئولية. سكت لحظة ثم سأل، هل غادر مارتللى البيت؟

قلت أنا:

– هذا ما يقوله سايروس، إنه يطلب حضورنا على الفور.

– يجب علينا أن نفعل ذلك على الفور.

لم نسارع بالذهاب واستغرق الأمر بعض الوقت، فقد كان على إمرسون تبديل ثيابه وإعداد الجياد للرحلة، وقد أرادت سينيا أن تصحبنا ولكننى منعتها من ذلك مما جعلها تتذمر.

للمرة الأولى لم يقابلنا سايروس لدى الباب حيث كان هو وكاثرين وبرتى بغرفة العرض منهمكين فى البحث عن المفقودات والذى كان بلا جدوى. لم يكن ممكنا أن تكون المفقودات قد وضعت فى مكان آخر بطريق الخطأ، فالمكان الذى كان يحتويهم كان خاويا.

كان ذلك واضحا فى منذ النظرة الأولى فعمدت مباشرة إلى إعادة أصدقائى المضطربين إلى تقييم الموقف بهدوء.

– يجب أن نناقش الأمر بهدوء، وعليك يا سايروس أن تتوقف عن العصبية فلن يفيدك ذلك. ثم سألته:

– ما الذى فقد على وجه التحديد؟

رد برتى:

– ثلاثة أساور والقلادة ذات الثعبانين ولا شىء آخر، فقد كان اهتمامى الأول أن أحصى كل الموجودات.

ابتسمت له مؤيدة لما فعل قائلة:

– أحسنت يا برتي، لقد كنت دائما معجبة بثبات أعصابك. دعنا إذن نجتمع فى جلسة ونناقش الأمر.

وافق الجميع وجلسنا فى غرفة الاستقبال الخاصة بكاثرين زوجته والتى أمرت بتقديم الشاى والقهوة. وكان ضروريا الحفاظ على المظهر الطبيعى للأمور فصرفنا الخدم وبدأنا مناقشة الواقعة، وعرفت أن سايروس اكتشف السرقة فى الصباح الباكر خلال تفقده المعتاد للكنوز. وكان يظن أن مارتنللى قد أخذ المجوهرات لترميمها، وبحث فى المعمل ولم يجدها، عندئذ أحس بالقلق واندفع إلى حجرة الرجل الإيطالى فوجد أن فراشه لم يمس.

– دعونا لا نقفز إلى الاستنتاجات، فربما قضى الليلة بالأقصر، هل ملابسه وحاجياته الشخصية بغرفته؟

أجاب سايروس صارخا:

– وما الفرق الذى يحدثه ذلك بحق الشيطان، فأينما كان الآن فإن المجوهرات معه. إنه الشخص الوحيد الذى يحتفظ بمفتاح لغرفة العرض. لقد أغلقتها ليلة أمس وكانت مغلقة هذا الصباح.

– آمل يا سايروس إنك لم تقل للخدم أن بعض المجوهرات قد فقدت.

– لست مغفلا لأفعل ذلك، ولكنهم يعرفون أننى كنت أبحث عن مارتنللى.

قلت أنا:

– إن اختفاءه إذا كان قد اختفى بالفعل، لا يمكن حجبه عنهم، وعلى ما أظن فإنه لم يقض ليلة كاملة بالخارج من قبل. إن درجة من الاهتمام به يمكن تفهمها، وإذا لم يظهر فيجب أن نقوم بالسؤال عنه، وهذا ما لا يمكن إبقاؤه سرا. فلنتأكد أولا مما أخذه معه.

قال برتى:

– سوف ألقى نظرة، وافقته قائلة:

– نعم، هذا معقول فأنت تعرف ما يحتويه دولابه.

(٢)

خرج برتى وناولت كاثرين زوجها قدحا من القهوة، فقال بنبرات طيبة وقد هدأ قليلا:

– اعذرونى، فلم يكن من اللائق أن أفقد صوابى على هذا النحو، ولكن ذلك يضعنى فى حرج بالغ.

كنا كلنا فى وضع ربما أسوأ منه، فقد كان مارتنللى واحدا من المرممين والمزيفين استأجره سيثوس أيام كان يدير التجارة غير المشروعة فى الآثار بمصر، وقد أوصى به لنا وقال إنه جدير بالثقة.

لم تغب عن أى منا تلك الاعتبارات المؤسفة. قطب إمرسون حاجبيه وقال بطريقة جافة:

– إن المسئولية تقع علينا يا فاندرجلت وعليك أن تثق بأنك لن تواجه المشكلة وحدك. التفت إليه سايروس بنظرات مؤثرة فقلت له:

– هذا أمر نبيل منك يا إمرسون، ولكن ذلك لن يكون مفيدا فنحن فى هذه اللحظة لا نعرف مدى الكارثة، وكان برتى قد خرج من الغرفة فسأله إمرسون ماذا وجد؟ رد الآخر:

– إذا كان قد غادرنا للأبد فقد ترك حاجياته الشخصية وراءه بما فيها من ملابس وحقائب وحتى أدوات الحلاقة. لقد أخذ معه المعطف والقبعة وعصاته ذات

الرأس الذهبية التى يحملها معه، وأعتقد أن حقيبة السفر الصغيرة اختفت هى الأخرى.

ردت متعجبة:

– إذن لقد كان ينوى العودة!

رد رمسيس قائلا:

– ليس بالضرورة. كان وجهه أشد جمودا عن أيام صباه عندما وصفته نفرت بالوجه الفرعونى الحجرى، رغم أنه أصبح يسمح لوجهه بإظهار عواطفه حاليا خاصة تجاه زوجته وأطفاله ولكن فى هذه المناسبة عادت إلى وجهه النظرة الحجرية، وقال مستطرداً:

– لم يكن ليستطيع أن يضع أمتعته فى الحقائب ويغادر المنزل دون أن يلاحظه أحد. أما عن وضعه للأشياء خفية فى أمتعته عند مغادرته المنزل، فقد كان يعرف أن سايروس سوف يراجع الموجودات قبل أن يسمح له بالمغادرة.

هززت رأسى موافقة على ما قال، وقلت بسرعة:

– هذا الفرض يلائم مجرم محترف.

– اللعنة يا أميليا. انتصب إمرسون واقفا وهو يرمقنى بنظرة حادة.

قال سايروس:

– أتظنين أن سيثوس وراء الأمر بكامله يا أميليا؟

– لقد كنت أعتقد أنه قد أصلح نفسه. ردت نفرت.

– هى لا تظن شيئا من هذا القبيل. نحن جميعا متورطون فى هذا الأمر وأقصى أولوياتنا أن نقوم بما نستطيع من عمل قبل أن نخسر مزيدا من الوقت.

هدأ إمرسون ونظر لى فقلت على الفور:

– نفرت على حق. يجب أن نكون فى أثر مارتنللى على الفور. فإذا كان بحثنا عنه غير ناجح فعلينا أن نبحث عن طريقة أخرى. ورغم كل شىء، لا يعرف أحد غيرنا شيئا عن موضوع السرقة، ولن يعود لاكو إلى هنا إلا بعد عدة أسابيع مما يعطينا الوقت للتفكير فى طريقة للخروج من هذا المأزق.

انفجرت نفرت فى الضحك، وابتسم سايروس قائلا:

– إذا لم تستطيعى إيجاد طريقة للخروج من هذا المأزق فلا أحد آخر يستطيع يا أميليا. أنت إذن مسئولة عن هذا. ما الذى سنقوم به أولا؟

(٣)

كانت الإجابة واضحة لى ولأى شخص، فقمنا باستجواب البواب الذى أوضح أن مارتنللى غادر المنزل فى ساعة متأخرة كما يفعل دائما. ومشى على أرجله لمسافة طويلة على طول الطريق المؤدى إلى خارج الوادى.

قاطعته بسؤال آخر:

– أكان يحمل حقيبة صغيرة فى يده؟ فرد بالإيجاب.

استغرق إيجاد البحار الذى نقل الإيطالى عبر النهر بعض الوقت. كان قد ظل منتظرا لساعات ليعيد الرجل وفقا لطلبه ولكن لم يعد وبالتالى فقد الكثير من المال لرفضه نقل ركاب آخرين. اعتقدت أن هناك الكثيرين فى ذلك الوقت من الليل يريدون ركوب القارب ولم يكن هناك إلا واحدا أو اثنين فطلبنا منه أن ينقلنا إلى الأقصر.

كانت السياحة قد عادت لطبيعتها والمدينة الصغيرة تزدحم بالسائحين كما كان الوضع قبل الحرب. كانت واجهة فندق ونتر بالاس تلمع بالطلاء الجديد والشوارع الترابية مليئة بالمركبات والحمير والجمال، وبواخر السياح ودهبياتهم تصطف بجوار الشاطئ وهى تزدحم بالعشرات وكانت رؤوسهم تطل إلى صفحة النهر. لوّح لنا

بعضهم، لكن إمرسون لعنهم قائلا:

- إنهم كثيرون جدا، ولن يكون من السهل البحث عنه فى هذا الزحام.

كانت توقعاته صحيحة، فقد كنا ستة نقوم بالبحث وقمنا بتقسيم أنفسنا واتفقنا أن نتقابل بشرفة فندق ونتر بالاس بعد الانتهاء من البحث عنه بالفندق وبغيره من الأماكن التى يرتادها مارتنللى، أى اماكن اللهو.

كانت النتيجة مخيبة لنا، فقد كان مارتنللى معروفا فى الفنادق والمقاهى ولكن أحدا لم يؤكد لنا أنه رآه فى الليلة الماضية، وأنكرت الفتيات أنهن رأينه على الإطلاق.

كنت أميل لتصديق ذلك فلا مبرر لديهن للكذب وهو لديه من الذكاء ما يجعله يتجنب تلك الأماكن. كان آخر من لحق بنا رمسيس الذى كان مكلفا بالتحرى عنه فى محطة القطار.

سأل بلهفة:

- ألم يحالفكم الحظ؟ ورد إمرسون لا، وماذا عنك؟

- شاهده أحد العاملين بمحطة القطار وهو يستقل القطار إلى القاهر هذا لا يؤدى إلى أى نتيجة، فأنت تعرف كيف أن المصريين يقولون لك بالمعلومات التى يعرفون أنك تريد سماعها، فلم يتذكر أى واحد منهم الحقيبة الصغيرة التى يحملها أو ما إذا كان يلبس قبعته التى دائما ما يرتديها.

ران الصمت لحظات فتمتم سايروس:

- هذا سيىء والآن ما الذى سنفعله؟

نظر الجميع إلىّ فقلت:

- نتناول الغداء!

كنا معروفين جيدا بالفندق ولم نجد صعوبة فى الحصول على منضدة، وبعد أن

تناولنا طعامًا خفيفًا تقاربت رؤوسنا معًا وكانت أول فكرة لسايروس هى أن نرسل برقية لشرطة القاهرة على الفور ولكننى اعترضت على ذلك قائلة:

- إن مارتنللى أستاذ فى التخفى.

رد إمرسون قائلا:

- نعرف ذلك فلا تعطينا محاضرة غير ضرورية يا بيبودى. قد يكون غيّر من مظهره وعلينا على الأقل القيام بمحاولة.

قال رمسيس:

- أنا أوافق، نحن محظوظون فى أننا على معرفة بالقائد المساعد للشرطة ولسوف يقوم راسل بما نطلبه منه دون استفسار.

صاح سايروس:

- وماذا لو وجد المجوهرات؟ قلت أنا بغيظ:

- إذن سنستعيدها. ولا تعطينا محاضرة غير ضرورية عن الأمر يا إمرسون. إن راسل مدين لنا بالكثير، على الأقل لرمسيس لخدماته الكثيرة للشرطة خلال الحرب، وقد يكون بمقدورنا الخروج من المأزق دون حاجة لذكر اسم سيثوس بافتراض أن راسل بمقدوره أن يخيف مارتنللى وهو ما اعتبره غير مرجح.

(٤)

كان إمرسون قد انتهى من طعامه، فدفع بطبقه جانبا وقام:

- سأذهب إلى مكتب إرسال البرقيات.

- كم عدد البرقيات التى تنوى إرسالها، سألته مستفسرة.

رد قائلا:

– اثنتين أو ثلاث.

– هل لديك العناوين؟

أومأ إمرسون بالإيجاب وخرج.

سأل سايروس:

– لمن سيرسل البرقيات الأخرى؟

قالت نفرت:

– تستطيع أن تخمن.

قال سايروس:

– أعتقد ذلك. هلا ذهبنا إلى الشرفة لتناول القهوة وتبادل بعض الآراء بسرية؟

كان يصل بين شرفتى فندق الونتر بالاس سلم منحنى أعلى قليلا من الطريق بحيث لا تستطيع سحابات التراب التى تثار فى الطريق أن تصل إلينا. كانت شمس الضحى تتلألأ على صفحة النهر وكان السياح عائدين من رحلاتهم الصباحية. أخذ سايروس سيجارا منا وقام بإشعاله مما أدى إلى تهدئته وعاد إليه ذكاؤه المتقد. كانت مسئوليتنا عن ورطته الحالية تجعل من المستحيل إخفاء الحقيقة عنه. وعلى كل حال، سوف يكون لدينا مشكلات كافية إذا اخترعنا الأكاذيب فيما يتعلق بكل من راسل ولاكو. استفسر سايروس قائلا:

– إذن لقد واظبت على الاتصال بصاحبك القديم، أين هو الآن بحق الشيطان؟

اعترفت قائلة:

– لست متأكدة أين هو فى هذه اللحظة. لقد كان له بيت فى كورنوال وشقة فى لندن ولكنه كثير الترحال.

– أراهن أنه يفعل ذلك. من يكون هذا الشخص يا أميليا؟

نظرت إلى ابنى وزوجته اللذين كانا يجلسان جنبا إلى جنب وقد رفع رمسيس حاجبه لأعلى مستفسرا:

– هل تنتظرين منا النصيحة يا أمى؟ أتودين معرفة ما نفكر فيه؟

قالت نفرت:

– سأقول لك، فنحن نثق فى سايروس تماما. ولقد تعبت من الأسرار وأرى أن نطلعه على كل شيء.

أضاف رمسيس:

– وبسرعة قبل أن يعود أبى.

وحيث إننى كنت أميل إلى نفس الرأى فقد فعلت ذلك. كان سايروس يعرف أنشطة سيثوس الإجرامية السابقة؛ لأنه اشترك فى عدد من الأعمال التى قمنا بها معه، ولكنه لم يسمع عن أعمال سيثوس الشجاعة كعميل سرى بريطانى ولكنه ادعى أن ذلك لم يدهشه. شرحت له أنه ليس باستطاعتى أن أروى له التفاصيل لأن أعمال سيثوس وخاصة المتعلقة برمسيس تظل من الناحية الرسمية أعمالاً شديدة السرية.

قال سايروس:

– لا أحتاج لمعرفة التفاصيل، فقد رأيت بعض النتائج. ففى عام ١٩١٥ رقد رمسيس فى الفراش لأسبوع كامل بعد فشل الهجوم التركى على القنال وكنت أتعجب كيف أصيب بتلك الجروح. لم تكن بالتأكيد نتيجة لسقوطه من أعلى التل. وكانت جراح دافيد أشد خطورة فقد اشترك فى العملية أيضا. لقد احتفظت بالسر لأن الأمر لم يكن يعنينى. ثم حدثت الوقائع المثيرة فى العام التالى عندما ظهر سيثوس فجأة وساعد فى القبض على جاسوس ألمانى، ولكن حتى لو كان هو ورمسيس قد اشتركا فى تلك العملية فإن ذلك لا يفسر ارتباطك بهذا الشخص حتى الآن.

قلت مؤيدة:

- بالطبع لا.

قال رمسيس:

- ها هو أبى. قولى له الآن يا أمى.

لم أرغب فى أن يسمع إمرسون ما أقول فقلت هامسة:

- سيثوس هو الأخ غير الشقيق لإمرسون، ابن غير شرعى، وآسفة لأننى أقول ذلك عنه.

رد سايروس:

- لقد وصلت الفكرة ولا أقول إننى لم أشك فى وجود علاقة ما.

- سوف أخبر بالطبع إمرسون أنك أصبحت تعرف الموقف الآن. قلت بسرعة حيث كان إمرسون يصعد الدرج.

صاح رمسيس:

- لا تقُلْ كلمة مما سمعت لأى شخص آخر يا سايروس فيما عدا زوجتك كاثرين بالطبع، فأنا أثق فى كتمانها السر كما أثق فيك.

- بالتأكيد. قال سايروس معقبا.

(٥)

لم يتكلم برتى كثيرا حيث لم تتح له الفرصة ليقول أى شىء، فقد كان شديد الحياء بحيث لا يقدر على مقاطعتنا وشديد التواضع بحيث لا يقدر على مخالفة الأقوال التى نقولها ولكنه قال لى فى النهاية:

- كم أنا مقدر لثقتك بى يا سيدتى. رددت قائلة:

– أنت تستحقها يا برتى وأنا أعرف أن باستطاعتى الاعتماد عليك فى الاحتفاظ بتلك المعلومات.

رد بسرعة:

– بالطبع، أعدك بذلك. فسأله إمرسون:

– تعدها بماذا؟. فقلت له بسرعة:

– لا عليك يا عزيزى. هل تريد قهوة؟

رد أمرسون:

– لا، من الأفضل أن نعود الآن فلا يوجد ما نفعله حتى تصلنا إجابة على برقيتنا. إن لدىّ عمل لأنجزه.

قلت أنا:

– مقالتك التى تكتبها، أليس كذلك يا إمرسون؟

أومأ إمرسون قائلا:

– نعم.. لا يوجد داعى للعجلة، ولو أننى أفكر فى الذهاب إلى الموقع هذه الظهيرة لعدة دقائق، فسوف يكون الضوء مناسبا للتصوير يا نفرت. ابتسمت نفرت قائلة:

– آسفة يا أبى فقد وعدت التوءم أن آخذهما لزيارة سليم هذه الظهيرة ليلعبا مع أطفاله ولا يمكننى أن أخيب آمالهما.

– لا.. لا تفعلى، ونظر إلى رمسيس الذى لم يقل شيئا، فقلت أنا:

– أنت تعرف يا إمرسون أن زيارتهم لسليم كل يوم جمعة هى عادة، ورمسيس ينتظر دائما لقاء سليم وأطفاله. على أى حال عليك أن تنتهى من تلك المقالة قبل أن نسافر إلى القاهرة للقاء أفراد أسرتنا. أنت لا ترغب أن يظل أمر المقالة معلقا إذا ما وصلوا إلى هنا.

سأل سايروس:

- متى ستغادرون؟

- مساء الأحد. ثم قمت بجمع حاجياتى ووقفت وأنا أقول:

- وحتى ذلك الحين ستكون قد سمعنا من راسل وربما من غيره، ومهما ستكون عليه نتائج بحثنا المبدئى فسوف نستمر فى التحرى ونحن فى القاهرة.

وضع أمرسون يده على يدى وسحبنى وراءه. قبل أن تصل إلى السلم رأينا مشاجرة يصدر منها أصوات مرتفعة وحركات سريعة وتشير إلى اضطراب من نوع ما. لم أعرف سببها ولكن رمسيس الذى كان يسبقنا مع نفرت شاهد شيئاً دفعه لأن يترك زوجته ويجرى للأمام، فاندفع إمرسون هو الآخر مخترقا جمهرة الناس الذين كانوا يتصايحون فيما بينهم. كانت المعركة قصيرة، فبحركة مفاجئة أمسك رمسيس بأحد الرجال ولوى ذراعه خلف ظهره. كان رجلا قوى البنيان أسود الشعر، وكان يجز على أسنانه من الألم. كان هناك آخر ملقى على الأرض فى حالة من الإغماء. لم يكن أكثر من صبى نحيل يرتدى ملابس إنجليزية وقد سقطت قلنسوته على الأرض، فبدت خصلات شعره الذهبى فوق رأسه. كان الرجل الآخر يبدو شريرا بوجهه الداكن وعضلاته البارزة وكان يحاول التخلص من قبضة رمسيس القوية. صاح الرجل بغضب:

- دعنى أذهب إليه. صحت قائلة:

- لا تدعه يا رمسيس. قال رمسيس بسرعة:

- لن أدعه، لقد ضرب هذا الرجل ذلك الصبى بقسوة، هل إصابته جسيمة؟

ردت نفرت:

- لا أرى أى جروح. كانت منحنية فوق الصبى وتحاول فتح ياقة قميصه عندما فتح عينيه الزرقاوين وابتسم وقال وهو يمسك بيد نفرت:

– أنت رائعة الجمال يا سيدتى. من أنت؟

ردت قائلة:

– أنا صديقة وسوف أعتنى بك.

– سوف يعتنى فرانسوا بى. نظرت عيناه بفضول فى وجوه المتحلقين حوله. ثم صاح:

– أين فراسنوا؟

رد فرانسوا قائلا:

– أنا هنا يا سيدى الصغير.

ابتسم الصبى عندما سمع صوت فرانسوا الذى كان له أنف معقوف. قال فرانسوا وهو يشق طريقه إليه:

– دعونى أذهب إليه.

(٦)

انحنى الرجل بجوار الصبى وأوقفه على قدميه، وتمتم قائلا:

– سوف نذهب إلى البيت الآن، هيا يا سيدى الصغير.

هتف الصبى:

– حسن، ولكنى أريد أن أعرف أولا هؤلاء الأصدقاء الجدد وأخبرهم باسمى. أنا جستن فيتز رويس وأنت يا سيدتى الجميلة ما اسمك؟ قال وهو يبتسم لنفرت.

كانت الحقيقة قد تبدت لى ولنفرت التى تحدثت إليه كما لو أنها تحادث طفلا. وكان قد مد يده مصافحا لنا عندما أخبرته نفرت بأسمائنا، ثم صاح:

- سوف تأتون لزيارتى أليس كذلك؟ رددت أنا قائلة:

- أين تقيم؟

كانت ذراع فرانسوا تلتف حول خصر سيده تسنده، فأشار إلى النهر قائلا:

- فى الدهبية "إيزيس". يمكنكم التحدث إلى سيدتى إذا أردتم الحضور.

قلت أنا:

- لا داعى لذلك.

فقال وهو ينظر لرمسيس:

- عليكم الحضور فقد أساء هذا الرجل فهمى، وستقوم هى بإخباركم عنى. قال رمسيس مطئطئاً رأسه:

- إننى لآسف. قلت لرمسيس:

- لا داعى للاعتذار. من المؤكد أن فرانسوا يعرف أن الغريب قد يسىء تفسير سلوكه حين يفعل ما يعتقد أنه حماية للصبى.

هز فرانسوا رأسه مقتنعا بتفسيرى لسلوكه مع الصبى، وظل الصبى يبتسم ويلوّح لنا.

قال إمرسون:

- يا لها من ظروف حزينة لا بد وأن الصبى يصاب بنوبات إغماء. وكان من الضرورى للخادم أن يسيطر على هياجه خوفا من أن يضر نفسه.

قالت نفرت:

- من الممكن ذلك، فالأشخاص فى نوبات الهياج تكون لديهم قوة غير عادية.

قلت معقبة:

– لا.. أنا أفترض أنه إذا كان فرانسوا يعرف حالة سيده لكان قد عرف كيف يتعامل معها بطريقة أخرى وليس بالضرب. يا إلهى، إن حجمه يبلغ ضعف حجم الصبى، وهيئته كهيئة مصارع محترف.

صاح إمرسون:

– هذا لا يخصنا، عليك ألا تزورى عائلته وتتطفلى على أحوالهم.

(٧)

توقفنا عند القلعة آملين أن يكون الإيطالى الغائب قد عاد ولكنه لم يكن هناك. أقنع إمرسون صديقه سايروس وبرتى بالذهاب معه إلى دير المدينة، حيث لا يتوقع أن يتلقى إجابة من راسل قبل الليل. قالت كاثرين:

– لو قمت بتفتيش الغرفة مرة أخرى فسوف أجن!!

ساعد رمسيس زوجته فى جمع الأشياء الخاصة بالتوءم، وفى نفس اللحظة دخلت أنا إلى مكتب إمرسون وفى عينى نظرة جعلت رمسيس يتعجب عما أنوى فعله، وخمن أن إمرسون قد كلفنى بكتابة المقال الذى كان عليه أن يكتبه وإننى قد انتهيت منه وجئت أتشاجر معه، فقد مرت أيام بدون أن نتشاجر.

ركبوا الجياد لبعد المسافة إلى بيت سليم، وأخذ رمسيس الفتاة معه على جواده وأمسكت نفرت بالصبى دافى الذى كان أقل مشاكسة. كان التوءم يعشق ركوب الجياد مع أبويهما.

كان سليم فى انتظارهم ومعه أطفاله الأربعة الذين تتراوح أعمارهم بين سنة وست سنوات، وكان داود وزوجته خديجة فى انتظارهم أيضا. كان رمسيس يعرف أنه لن يرى نفرت طوال الظهيرة، فقد كانت صديقة حميمة لخديجة التى كانت ذات ملامح ساحرة. كانت خديجة صاحبة خلطة شهيرة من المرهم الذى ورثت سره من أسلافها

النوبيات وكانت لا تزال تخجل من رمسيس وأبوه. دخلت أنا ونفرت إلى زوجات سليم وأطفاله تاركين الرجال للتدخين وشرب القهوة بفناء المنزل.

وضع داود يديه على ركبتيه ونظر إلى رمسيس، كانت لحيته مشوبة بالبياض ولكن قوته لم تزل كما هو ولا يضاهيها سوى قلبه الكبير. كان رمسيس يعتبر سليم محل ثقته ولكن رغم حبه لداود كان يعرف ولعه الشديد بمعرفة الأخبار، فقال له.. "لا يوجد ما لا تعرفه، سنذهب إلى القاهرة يوم الأحد ونعود بباقى الأسرة بعد عدة أيام".

رد داود بثقة:

– كلما أسرعتم كلما كان ذلك أفضل، فقد مضى وقت طويل منذ أن كانوا هنا ولم تقع عينى على حفيد عمى عبد الله من قبل.

رد رمسيس:

– يسمونه دوللى. وهم يخططون للبقاء هنا طوال الموسم وبالتالى ستراه كثيرا.

كانت عينا سليم تتابع من يتحدث ولا يتكلم، وفجأة تنحنح وقال:

– هذه المرة، داود هو الذى لديه أخبار فقد وجد السبب فى ترك حسن لأبو اللعنات.

كان داود يتمتع بسمعته كقاص رسمى للعائلة فرد سريعا:

– إنها أخبار مدهشة يا رمسيس، من الصعب أن تتخيلها، حتى أنا كنت مشدوها لسماعها وفى شدة الإثارة.

– ليس لوقت طويل. قال سليم مبتسما واستعاد رزانته فى الحال، وكان لدى رمسيس انطباعا بأن شيئا ما يقلقه.

– قل يا دواد ما الذى قاله حسن لك.

– سوف أريه ذلك. صاح داود وهو يقف على قدميه ويقول: تعال يا رمسيس،

المكان ليس ببعيد.

تجاهل رمسيس اعتراض سليم وقال وهو يقف، أين؟

- اتبعنى. ذهب سليم إلى باب المنزل وصاح بصوت مرتفع ليسمع من بالداخل، سنخرج ونعود فى الحال.

(٨)

كانت القرية مبنية بطريقة عشوائية وتتداخل الطرقات والمنازل بالمقابر القديمة. قال رمسيس مداعبا سليم:

- لقد سمعت من داود إنك تخطط للزواج للمرة الثالثة. عليك أن تتذكر النصيحة التى قلتها لك السنة الماضية. ثلاثة نساء يمثلن متاعب تفوق اثنتين بست مرات.

ابتسم سليم وداعب لحيته قائلا:

- أنا أقول لهم ما أريد قوله وأفعل ما يحلو لى.

- بالطبع، وماذا عن الزوجة الثالثة؟

- لا يوافقن على قيامى بذلك بعد، ثم نظر إلى رمسيس وانطلق فى الضحك وقال:

- هل أنا زوج خنوع؟ رد رمسيس:

- أنت رجل حكيم، وإنجليزيتك تتحسن طوال الوقت يا سليم. هل داود مستاء من شىء؟ إن نظراته لنا تنم عن ذلك، ما الأمر؟ قال سليم:

- من الأفضل أن ترى بنفسك.

كانوا يتوجهون صوب المقبرة الجديدة القريبة من القرية وكالمقابر القديمة كانت تقع فى الصحراء وليس فى الشريط الأخضر المحيط بالنهر. كان الوقت هو أشد أوقات النهار سخونة والشمس فى وسط السماء. كانت أغلب المقابر صغيرة تميزها شواهد

قصيرة، ولكن كانت المقبرة التى بنيت لعبد الله هى الأكبر والأكثر فخامة. كان دافيد هو الذى صممها بالطريقة التقليدية ولكنها كانت تبدو أنيقة وجذابة. وحتى عن بعد، لاحظ رمسيس اختلافها، عن بقية المقابر.

عبر المدخل المقوس للمقبرة كان هناك حبلا مدلى معلق به ما يمكن أن يكون قرابين مثل المسابح والمناديل وخصلات الشعر. وفوق المقبرة كان يقف رجل ورأسه منحنيا لأسفل وذراعاه معقودتان على صدره، صاح رمسيس:

– يا إلهى الرحيم، إنه حسن.. ما الذى يفعله بحق الشيطان؟ رد داود:

– إنه خادم الشيخ.

– أى شيخ؟ بالتأكيد ليس عبد الله.

انتبه لهم حسن وتقدم إليهم وهو يخفى رأسه داخل عباءته،ولاحظ رمسيس أن الرخام الأبيض لأرضية المقبرة مفروش بالورد وسعف النخيل. لم يبد أن حسن يمارس الزهد فقد كان يدخن النرجيلة وأمامه أطباق مليئة بالطعام، فسأله رمسيس:

– ما هذا يا حسن؟ أنك لا تحب عبد الله مثلى ولكنه ليس قديسا.. رد حسن قائلا:

– جميل أنك جئت.

تشكك رمسيس فيما إذا كانت النرجيلة تحتوى على شىء آخر غير التبغ، وسكت، استطرد حسن:

– إنه شيخ بلا شك. ألم ينقذ حياة الست الحكيمة ويفتديها بحياته؟ ألم يزرها فى المنام كما يفعل القديسون ويطلب منها أن تبنى له مقبرة مناسبة؟

نظر رمسيس لداود الذى قابل نظرته بابتسامة، وكان يتعجب كيف عرف حسن بأمر الحلم الذى حلمته عن عبد الله؟ فأنا لم أخبره أو أى من أفراد العائلة بذلك إلا مؤخرا. كان اعتقادى فى الأحلام أنها شىء من الشعوذة ولكنى أصدقها. كان تشكك

الأسرة لا يؤثر فى اعتقادى وكان على رمسيس أن يقر بأن تماسك الرؤية وحيويتها يجعلانها شديدة التأثير. لا بد وأن أحد الخدم قد سمعنى أتحدث عنها وأبلغ بها الآخرين وما أن وصلت إلى داود حتى عرفها كل سكان الوادى.

قال رمسيس مجادلا:

– ولكن الولى لا بد وأن تكون له معجزات.

رد حسن قائلا:

– لقد فعل ذلك، فعندما كاد ذلك الصبى المذنب الذى خالف تعاليم الشيخ أن يمارس القتل ويفتك بخصمه دمره تدميراً. إنه قام بمعجزات أخرى تجاهى، فقد كان قلبى مذنبا وخائفا وما أن جئت إلى هنا وتعهدت بأن أكون خادما له حتى أصبحت سعيدا من جديد وذهبت الآلام عن جسدى، والآن أنت ترى أن آخرين قد أتوا بحثا عن بركاته. قال ذلك مشيرا إلى القرابين البائسة المعلقة فى الحبل. لقد أوقف السعال الذى كاد يمنع محمد إبراهيم من التنفس وأبرأ معزة على. تعال وصلى معى واسأله البركة.

(٩)

كان رمسيس يعرف الصلوات منذ أن كان طفلا. خلع حذاءه واتبع الطريق الذى يدور حول المقام. اختلط صوت داود بصوته وهو يردد "السلام على الرسل والحمد لله، ملك ملكوت الأرض". عادوا مرة أخرى إلى بيت سليم تاركين حسن عند المقبرة. كان داود شديد السرور بمفاجأته، "عمى عبد الله سيكون سعيدا بعد أن أصبح شيخا له ضريح. وعندما يتحدث مرة أخرى مع الست الحكيمة سوف يقول لها ذلك بالتأكيد".

رد رمسيس:

– سأخبرك إذا فعل.

كان سليم قد شارك فى الصلاة وإن لم يشارك فى النقاش وسار معهم صامتا.

لم يكن رمسيس على يقين بمدى تدينه، فهو يتبع الأركان الخمسة للإسلام ويصوم رمضان ويتصدق بسخاء على الفقراء، ولكن بعض عاداته تأثرت بحبه للأسلوب الإنجليزى. كان أشد انجذابا لزوجاته صغيرات السن عن الأخريات ويمارس العادات الإنجليزية بانتظام.

كان شاى ما بعد الظهيرة معدا عندما عادوا للبيت وجلس الجميع لتناوله. كان رمسيس يأمل فى مناقشة خاصة مع سليم ولكن الظروف لم تسمح بذلك، فقد كان الأطفال يمرحون فى المكان والنسوة يتكلمن فى وقت واحد. تقبل قدحا من الشاى قدمته له زوجة سليم الصغرى وابتسم لنفرت التى كانت تحمل طفل سليم فى حجرها وقد ضمن خمن أنها تفكر فى طفل آخر. كانت وجهة نظره أن طفلين يكفيان ولم يرد أبدا أن تعاود نفرت التجربة الأليمة مرة أخرى.

كانت خديجة تراقبهم من تحت حجابها فقد كانت الوحيدة من بين النساء التى ترفض خلع الحجاب فى وجوده. كنت أذكرها دائما بأن زواج دافيد من ليا جعلهم أسرة واحدة، ولكن خديجة كانت من قبيلة نوبية حيث العادات القديمة قوية الأثر. أخيرا وافقت على أن تناديه باسمه الأول، فسألته قائلة:

– كيف جرحت يدك يا رمسيس؟ إن العلامات عليها تشبه أنياب الحيوان! نظر إلى ساعده حيث كان كُمّ القميص مرفوعا لأعلى. كانت الخدوش أعمق مما تصور وشكلها سيئ. رد قائلا:

– إنها تذكار بسيط، ومع ذلك فإنها خدوش بسيطة.

صاحت نفرت به:

– لماذا لم تخبرنى؟

– إنها لا شىء. قامت بعدها خديجة ودخلت البيت.

اعترض رمسيس قائلا:

- لا أريد المرهم الأخضر الشهير مرة أخرى، فهو يترك أثرا على الملابس. أشكرك يا خديجة.

قالت نفرت:

- ولكن المرهم له بالتأكيد أثر مطهر ومضاد للالتهاب، فالأظافر عادة ما تكون قذرة وأشك فيما إذا كان فرانسوا ينظفها.

تساءل سليم:

- من هذا الرجل الذى يشبه الحيوان المسعور، أهو عدو جديد؟

رد رمسيس قائلا:

- لا شيء من هذا القبيل.

عادت خديجة تحمل وعاءً صغيراً واستسلم لها رمسيس وهى تضع المرهم على ذراعه بينما هو يحكى لسليم عن ما حدث، وبأن الأمر بكامله عبارة عن سوء فهم، وأن ذلك الشخص لا يحمل له ضغينة.

قبل أن يمضى وقت طويل، كان الأطفال قد وصلوا إلى مرحلة الدموع والصراخ، فأعلنت نفرت فى الحال:

- حان وقت الذهاب للبيت.

قال رمسيس:

- أنت على حق. وأمسك بابنته التى بدأت فى ما قد يكون اعتراضا على ذلك.

احتضن داود الطفلين بحب وأوصلهما إلى رمسيس ونفرت بعد أن امتطيا الجياد.

وبينما النساء يتبادلن التحية وكلمات اللحظات الأخيرة جاء سليم ووقف بجانب رمسيس وقال له:

– هل ستقول للست الحكيمة عن حسن وقبر والدى؟

– إنها سوف تعرف عاجلا أو آجلا. ما المشكلة يا سليم؟ أهناك شيئا يقلقك؟

– ليس بالأمر الهام. فقط ما الذى فعله حسن لكى يشعر بالذنب وبحاجته للتوبة والمغفرة؟!!

(٩)

تغير وجه إمرسون حين اكتشف أننى انتهيت من مقالته التى كان عليه أن يكتبها. تناقشنا فيه معا وبدأ يراجع النص وهو يتمتم من تحت أسنانه، وكان لا يبدو سعيدا ومع ذلك كنت فى غاية السعادة لإنهائى المقال، فقد حققت هدفين أولهما إجبار إمرسون على الانتهاء من كتابة المقال وهو ما لم يكن سيفعله، وثانيهما منعه من التفكير فى حادث السرقة وفى عدم قدرته على فعل أى شىء حيالها. وكما توقعت، لم تؤد برقيته إلى شىء، فقد وصل رد راسل الذى يفيد بأنه لم يكن بالقطار أحد يطابق الأوصاف التى ذكرناها أو له نفس الاسم. لم يطلب إيضاحات أكثر فقد كان يعرف إمرسون جيدا ويعرف أنه لن يزيد شيئا عما كتبه له.

أطبق إمرسون يده على ورقة التلغراف وكوّرها ورماها للقط الأكبر "رى".

فى مساء الأحد وفى الوقت الذى كنا نستعد فيه لركوب القطار لم يكن قد جاء بعد رد من سيثوس، فقد أبرق إليه إمرسون بناء على طلبى، وكتب فى البرقية كل المعلومات الضرورية بدون الإفصاح عن الحقيقة، لأن ذلك كان يعنى كارثة، فالكتبة وعمال التلغراف كانوا سينشرون الخبر بالأقصر كلها فى ساعات.

أصابت سايروس حالة من الحيرة الشديدة، فقد كان يتمزق بين الذهاب إلى القاهرة بحثا عن اللص وبين حراسة التحف الباقية. لكنه قرر البقاء بالأقصر بعد أن أوضحت له أن مارتنللى قد يكون قد ضلل الشرطة ولا نملك دليلا على وجوده بالقاهرة.

وكانت فكرة أن يكون هذا الشرير يفكر بأن يقوم بغارة أخرى على الكنز جعلت سايروس يتربص به وينتظره، وبالتالى لم يأت لوداعنا فى محطة القطار.

اعتبر داود أن الواجب يحتم عليه وداعنا فجاء مرتديا أحسن عباءاته كما يفعل فى المناسبات ولم يكن التوءم سيصحبانا. لذا كانا حانقين لتركهما بدون أبويهما وجديهما.

كان إمرسون متعلقا بالطفلين، أراد أن يرحل بهدوء حتى لا يبكيان، ولكن نفرت أصرت على ألا يختفى فجأة من دون تفسير وتولت هى المهمة.

بعد أن قمنا بوداع الآخرين نظرت إلى سليم وكان الشخص الوحيد الذى نثق فيه ثقة مطلقة وقلت له برقة:

– تذكر يا سليم أن تفتح كل البرقيات وترسل المعلومات إلينا بفندق شبرد إذا كان ممكنا، وكن يقظا تجاه أى إشاعات. فى تلك اللحظة جذبنى إمرسون لكى أركب القطار وصاح سليم:

– سأفعل يا سيدتى، رحلة طيبة. مع السلامة.

تحرك القطار وكنا فى أول الليل، وكان كالعادة متأخرا. ذهبنا فى الحال إلى البوفيه وطلبت قدحا من النبيذ وقلت لنفرت:

– أعرف أنك تكرهين ترك الأطفال، ولكن تأكدى أنك ستجدين أن إجازة قصيرة بعيدا عنهم ستنفعك كثيرا وستعتادين ذلك.

ابتسمت ابتسامة باهتة ولم ترد. قال رمسيس:

– هذه نصيحة قيمة يا نفرت.

لاحظت على وجه نفرت تعبير لوم لم أعرف له سببا. وكان المصباح يتأرجح على المنضدة من حركة القطار فأمسك كل منا بقدحه فى يده وظللنا نتحدث طوال الوقت حيث لم يكن هناك على الطاولة سوانا نحن الأربعة، لكن كانت العربة مليئة وبالتالى لم

نكن نستطيع الكلام معًا فى الأمور الخاصة. قبل أن نذهب إلى أسرّتنا جلسنا معًا فى كابينة إمرسون. قلت لهم:

– يا عزيزى إمرسون، إذا عرف راسل أننا فى القاهرة فسوف يطاردنا ويطلب منا أن يعرف لماذا سألناه أن يحتجز مسافرا بريئا وما الذى نحن بصدده الآن. يجب أن نقرر ما الذى سنقوله له.

هم إمرسون بأن يتكلم فاستطردت مقاطعة:

– الأهم من ذلك هو ما الذى سنقوله لكل من والتر وإيفلين فهما لا يعرفان شيئا عن علاقتنا مع سيثوس.

قال إمرسون:

– إن وقت السرية قد انقضى. قد نضع أنفسنا فى ورطة مع مكتب الحرب إذا كشفنا عن دور سيثوس كعميل للمخابرات البريطانية ولكنى لا أرى أمامنا اختيار آخر. لن يكون لباقى القصة مغزى إذا لم نقر بذلك، فإن نصف الحقيقة أسوأ من الكذب. إذا ما كنت أعرف شيئا عن والتر فإنه سيكون مسرورا أن يجد له أخًا آخر. قال رمسيس:

– ولكن خالتى إيفلين لن تكون بهذا السرور، فهذه السيدة كانت تأمل أن نحصر عملنا فى التنقيب عن الآثار ونتوقف عن التعامل مع المجرمين. قالت نفرت:

– إذن سيسرها أن تعرف أن أعظم المجرمين لم يعد عدوا الآن وإنما صديق وقريب. وافقتها أنا قائلة:

– هذا هو الأسلوب الذى يجب أن نتبعه. عظيم يا فتاتى. دافيد يعرف بالفعل تورط سيثوس مع المخابرات ومن المحتمل أنه أخبر ليا فهو يقول لها كل شىء.

قالت نفرت:

– بلا شك. لم يشر أى منهما إلى ذلك فى خطاباتهم ولن يستطيعا المخاطرة.

كانت نفرت تتثاءب بصورة متكررة وتقاوم النوم فقلت لرمسيس:

– خذ زوجتك إلى كابينتها فهى نصف نائمة.. فأخذها وخرج.

(١٠)

بعد أن ذهبا أشار إمرسون إلى أنه يريد ان ينام هو أيضا وبالتالى ضغطت الجرس للعامل كى يرتب لنا الأسرة. وأثناء وقوفنا بالممر أثناء قيامه بذلك، قال إمرسون:

- أنا أتطلع لإبلاغ والتر أن له أخ لا يعرفه وأنه ابن غير شرعى.

- هذه الجملة فظيعة يا إمرسون.

- ليست بالفظاظة التى عليها تلك الجمل التى طرأت على ذهنى. وكما كنت أقول، فإنه خالف خمسا من الوصايا العشر.

قلت معقبة:

- سوف يكون ذلك صادماً. ولكن إمرسون قال:

- سوف يكون ذلك مفيدا له، لقد عاش حياة مغلقة وهناك خطورة فى أن يصبح ضعيفا وضيق الأفق.

أوقفته تلك الفكرة عن الدخول فى مناقشة أخرى وما إن دخل إلى الكابينة حتى سمعت صوت أنفاسه العميقة يتردد وهو مُستغرق فى النوم.

كان عدم سماعنا شيئا من سيثوس محبطا وتوقعنا أن يكون فى رحلة ما. فكرت فى أن مارتنللى وجد ملاذا آمنا مع شركائه السابقين بشبكة سيثوس الإجرامية بافتراض أن واحدا منهم لا يزال بالقاهرة، فكرت أيضا وأنا أتقلب فى الفراش الضيق بكابينة قطار النوم فى كيفية اتخاذنا لخطوة معينة ونحن نجهل الكثير من الأمور. كان من المفروض أن أحاصر سيثوس منذ سنين مضت وأطلب معرفة الوضع الحالى للمنظمة وأماكن رفاقه، ولكن زياراته لنا كانت قصيرة ومتباعدة وكانت هناك الكثير من

الأمور التى يجب أن نناقشها مثل علاقته المضطربة بالصحفية مارجريت مينتون، المقبرة ومحتوياتها المدهشة، التوءم، منزله فى كورنوال - والذى كان من الناحية القانونية ملكا لرمسيس ولكنه آثر أن يعطيه لعمه ولمولى ابنه سيثوس. وربما بسبب أن النساء يجدن فى سيثوس شخصا جذابا، فلعدة سنوات كان يُظهر تعلقه بى وهو ما كان يعتبر أملا ضائعاً لأن إمرسون لم يكن يسمح بذلك أبدا حتى إذا ما فقد الأمل فى استجابتى له تحول بمشاعره إلى مارجريت التى بادلته المشاعر، ولكن مارجريت كانت لها مهنتها ككاتبة ومراسلة صحفية متخصصة فى أمور الشرق الأوسط، وكانت لا ترغب فى الارتباط برجل يعطى لوظيفته الخطيرة أهمية عليها. فالمرأة تريد أن تعرف أين يوجد زوجها وماذا يعمل؟ خاصة إذا كان هناك احتمال أن يترك المنزل فى أى وقت. ثم إن هناك برثا، عشيقة سيثوس وشريكته خلال فترة عمله الإجرامى، كانت شديدة الإخلاص له فى بداية علاقتهما وكانت عواطفها الشرسة قد تحولت إلى ثورة عارمة عندما عرفت بحبه لى وقد قتلت على يد أصدقائى بعد عدة محاولات منها لقتلى، وكانت قد أنجبت ماريام ابنة لسيثوس.

كنا قد التقينا بمولى - أو ماريام- وهو اسمها الحقيقى مرة واحدة عندما كانت فى الرابعة عشرة من عمرها وقبل أن نعرف علاقة سيثوس بها، وبعد أن عرفت الحقائق المتعلقة بموت أمها هربت من بيت أبيها، وأحس سيثوس بالذنب تجاهها، وكانت محاولاته لاقتفاء أثرها فاشلة ولم نرها أو نسمع عنها لسنوات طويلة.

كان القمر الباهت يرسل أشعته الفضية عبر فتحات الستائر. كان الوقت متأخرا. ابتعدت بعقلى عما أفكر فيه لكن صوت أنفاس إمرسون واهتزاز عربة القطار قادتنى للنوم.

(١١)

بعد سنة من الهدنة كانت القاهرة لا تزال تبدو كمعسكر حربى، تحت شرفات فندق شبرد ازدحمت جماعة حول شاب يلقى خطابا حماسيا باللغة العربية عن الظلم البريطانى وحق مصر فى الاستقلال. فوقفنا لنسمع.

سأل إمرسون رمسيس، هل يعرف ذلك الشخص؟

كان رمسيس قد شارك مرة مع جماعة وطنية، فصاح:

– يا إلهى، إنه رشاد، لقد كنت أظن أنه فى السجن.

لمحه الخطيب فتوقف عن الخطابة فجأة وتحول بنظراته الملتهبة من رمسيس إلى إمرسون، ولكن قبل أن يستطيع الكلام صاح أحد الواقفين:

– أبو اللعنات وابنه والست الحكيمة زوجته. مرحبا، هل جئتم لتأييد قضيتنا؟

رد إمرسون:

– بالتأكيد، هتفت بإمرسون وأنا أقبض على ذراعه "ليس الآن"وفوافق قائلا "نعم، ربما لا يجب ذلك الآن". ثم رفع صوته قائلا:

– تفرقوا يا أصدقائى وخذوا رشاد معكم، فالشرطة آتية فى الطريق.

اندفعت مجموعة من الجنود المسلحين إلى الجموع المتجمهرة يقودها ضابط بريطانى. وبينما أطلق رشاد ساقيه للريح، التفت ونظر إلينا يريد أن يقول شيئا ولكننا لم نسمع ما يقول ولكن وجهه أفصح عن أنه لا يشارك رفاقه مشاعر الود تجاهنا، بعد أن وصل رجال الشرطة كان الجمع قد انفض وتفرق الجميع.

ربما كان علىّ أن أشرح لماذا يقود ضابط بريطانى مجموعة من الجنود المصريين ولماذا كانت القاهرة تغلى بروح الثورة آنذاك، فرغم أن مصر كانت ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية فيما سبق، فإنها كانت واقعيا تحت السيطرة البريطانية منذ منتصف القرن التاسع عشر. ففى عام ١٩١٩ أعلنت مصر محمية بريطانية ووضعت تحت الاحتلال العسكرى عندما كان الأتراك يهددون قناة السويس وخشى البريطانيون أن يؤيد المصريون أبناء دينهم المسلمين ضد سلطة الاحتلال الذى كانوا دائما يرفضونه. كانت هذه المخاوف لم تتشكل فى صورة فعل إلا فى محاولة واحدة فاشلة للثورة فى القاهرة. ويدفعنى فخر الأم لأن أقول إنها فشلت على يد

رمسيس الذى حل محل القائد الوطنى "ورداني"، ولولا ذلك والدور الذى لعبه دافيد أيضا لوقعت القناة فى يد الأعداء.

كان ما أرادته مصر هو الاستقلال عن بريطانيا وعن تركيا وعن أى دولة أخرى. وما أن وضعت الحرب أوزارها إلا واشتدت مطالبة المصريين بالاستقلال.

كانت استجابة بريطانيا غير عاقلة وكانت إحدى الأخطاء الكبيرة هى نفى الزعيم الوطنى سعد زغلول باشا، فقد كان رجلا عظيما وخطيبا مفوها ومحبوبا لكل المصريين. عندما أذيع خبر نفيه اندلعت المظاهرات فى كل مكان بمصر وانفجرت أعمال الشغب. ورغم أننا قد أصابنا الإحباط من العنف الذى يجرى حولنا، فإن الثورة فى الوجه القبلى فى أوائل ذلك العام لم تضرنا بصورة مباشرة، فقد كان أصدقاؤنا المصريين أعقل من أن يشتركوا فى مثل تلك الأعمال التى لا طائل من ورائها ولم يجرؤ أحد بالطبع على تعكير حياة "أبو اللعنات" وأسرته.

تم إخماد أعمال العنف بالقوة وتم إطلاق سراح سعد زغلول باشا الذى ذهب بعد عودته من المنفى إلى باريس؛ حيث اجتماع مؤتمر السلام للحلفاء لتقرير مصير البلاد المهزومة والمحتلة بعد نهاية الحرب. ولكن مطلب زغلول أهمل تماما، حيث أصرت الحكومة البريطانية على إبقاء الحماية على حالها ونتيجة لذلك استمرت حالة عدم الرضا فى صورة أفعال عنف محدودة ضد الأجانب، واستمر الخطباء مثل رشاد فى إثارة الجماهير.

وافقت بريطانيا على إرسال لجنة رفيعة المستوى للتحقيق تحت رئاسة لورد ملنر وزير المستعمرات ولكن لم يقتنع الكثيرون بأن تقريره سيؤدى إلى التغيير الذى تطلبه مصر.

(١٢)

قال رمسيس ونحن نصعد إلى الشرفة:

- هناك تعقيد آخر. رد إمرسون:

- لا، ولماذا يحدث ذلك؟ قد يحمل كامل الوردانى ضغينة ضدك أنت ودافيد ولكنه خارج الصورة حاليا وزغلول باشا هو القائد المقبول لحركة الاستقلال. هل غيّر رشاد تحالفاته؟

صحت قائلة:

- هذا لا يهم. لدينا ما يشغلنا دون أن نصبح ثوريين وعلينا أن نمنع دافيد بأى ثمن من التورط مرة أخرى. إنى أمنعك يا إمرسون من الوقوف على صناديق الصابون لإلقاء الخطب.

رد إمرسون متهكما:

- هم لا يستخدمون صناديق الصابون.

نظرت إلى عينى رمسيس وانتابتنى المخاوف. كان شديد التعاطف مع المصرين، وكنا نحن أيضا متعاطفين معهم، لكن ما يقومون به من أعمال العنف كان أمرا يقلقنا.

كانت شقتنا فى الدور الثالث بفندق شبرد مألوفة لنا، فقد نزلنا بها لسنوات عديدة، على الأقل مرة كل سنة، كان بالجناح حجرتى نوم على جانبى غرفة المعيشة وبه حمامين. قبل زواج نفرت ورمسيس كانت تنزل بالغرفة الثانية ورمسيس بالغرفة الأخرى.

ذهب إمرسون فى الحال إلى شرفة غرفة المعيشة ووقف ينظر إلى أسطح ومآذن القاهرة ودعانى لأقف معه، لم أستطع الرفض، رغم أننا وقفنا فى نفس الشرفة وفى نفس المكان عشرات المرات، لكننا كنا فرحين بعودتنا إلى الأرض التى عشقناها ونمنى أنفسنا بموسم مزدحم بالاستكشافات.

أفاق إمرسون من تأملاته على صوتى وأنا أقول:

– إذا وصلت الباخرة فى موعدها فسيكون أحباؤنا هنا مساء الغد، وهذا لا يعطينا سوى أربع وعشرين ساعة لننتهى من تحرياتنا. أجابنى قائلا:

– أية تحريات؟ عليك صرف النظر عن ذلك فسوف يكون ذلك مضيعة للوقت. لن يتخلص مارتنللى من غنيمته بالطريق المعتادة.

– ما رأيك فى زيارة للسوق؟ يجب أن أقوم ببعض التسوق وخلال ذلك سأجرى بعض التحريات البريئة التى قد تؤدى إلى معلومات مفيدة. سكت إمرسون ولم ينطق.

حين لحق بنا رمسيس لتناول الغداء وافقت نفرت على الذهاب للسوق، ولكنها مثل إمرسون، كانت ترى أننا لن نعرف جديدا عن المجوهرات المسروقة.

– أريد شراء بعض الحاجيات للتوءم. هما يكبران وتضيق عليهم ثيابهم" قالت نفرت ذلك بينما تبادل رمسيس مع والده نظرات ذات مغزى فهمت منها أنهما يحاولان إيجاد العذر لعدم مصاحبتنا. لم أكن متحمسة لأن يأتيا معنا على كل حال، فقد كان الاثنان يمقتان الخروج للتسوق، وكنت أعرف ذلك. قلت لهما:

– ليس عليكما أن تأتيا فأنا ونفرت سوف نشترى حاجيات للتوءم والأشياء الأخرى، وبالنسبة لك يا إمرسون وأنت يا رمسيس فعليكما الحفاظ على السلوك القويم.

– ينطبق هذا أيضا عليكما. ثم صاح إمرسون بعد ذلك.

– خذا الشمسيات معكما.

كانت الشمسيات قد أصبحت موضة قديمة فى مصر، ولكنى أحمل شمسيتى منذ أن عرفت أهميتها، فقد كانت تحجب الشمس وأستخدمها كعصا للسير، وأحيانا كسلاح للدفاع عن نفسى فقد كانت مصنوعة من الصلب الثقيل وبها سيف خفى فى حافظتها. ومع قصص داود التى ينشرها عنى بين الناس، اقتنع المشعوذون منهم بأن للشمسية قدرات سحرية، وفى أحوال معينة كان منظر الشمسية كافيا لأن يدخل الرعب فى قلب الشخص الذى يفكر فى الاعتداء علىّ. لم تكن هى الشمسية التى حملتها معى ذلك اليوم وإنما أخذت معى أخرى خفيفة تتلاءم مع ملابسى.

(١٣)

قمت أنا ونفرت بتسوق ناجح، ورغم أن الوقت لم يكن كافيا للفرجة، لكن عندما يكون الأمر ضروريا فإننى أقوم به بكفاءة، كما أن شراء ملابس للتوءم كان يوفر لى متعة خاصة.

بعد أن تناولنا الشاى فى جروبى عدنا إلى الفندق وبعد لحظات عاد رمسيس وحده وسألته وهو يجلس:

– أين والدك؟

– لم يعد بعد.

– اعتقدت أنكما ذاهبان معا إلى مكان ما.

– هل كان من المفروض أن نفعل ذلك؟

– توقف عن الجدال وقُل لى أين أبوك؟

– لقد ذهب أبى لبعض الأمور التى تخصه ورفض أن أصاحبه ولم يذكر إلى أين.

– وماذا فعلت أنت؟ قال بوجه مقطب:

– لقد زرت رشاد. تغير وجه نفرت وقالت:

– هل ذهبت بمفردك؟

– اعتقدت أنه لا يزال فى نفس البيت الذى كان يسكنه منذ عدة سنوات، لكن عندما ذهبت لم يكن بالمنزل.

– ولماذا أردت أن تراه؟ أشعل رمسيس سيجارة وقال:

– أردت أن أعرف سبب عودته للقاهرة وأين ذهب قائده السابق. إذا كان "الوردانى" يخطط لعمل جديد فقد يحاول تجنيد دافيد مرة أخرى. رددت قائلة:

– الورداني يعرف أن دافيد خانه من قبل ومن غير المرجح أنه سيثق به مرة أخرى أليس كذلك؟

قال رمسيس:

– لا أعرف، ولكن ورداني رجل عملي وإذا اعتقد أن دافيد يمكن أن ينفعه فقد يكون مستعدا لأن يصفح عن ماضيه.

– نحن لن نسمح له بذلك. وأنا لا أرى ما يشير إلى توقع حدوث مشاكل.

كان علينا أن ننتظر لبعض الوقت إلى أن يجيء إمرسون، ولما جاء كان فى حالة مزرية، فقد جاء بدون قبعة على رأسه وشعره مشعث وربطة عنقه مفكوكة ومعطفه مفتوح وقميصه متسخ بمادة لزجة. صحت بانزعاج:

– يا إلهى، ما الذى كنت تفعله، هذا يشبه الزيت، فهل سقطت على الأرض؟ نظر إمرسون لقميصه المتسخ ثم قال:

– لقد دمرت قميصا يا عزيزتى. ثم جلس ساكنا، فقلت له:

– أتريد بعض الشاى؟

– لا، فلنذهب للغداء بالسوق.

كنت قد رتبت لأن نتناول الغداء بالفندق على أمل أن أقابل بعض الأصدقاء لأعرف منهم الأخبار ولكنى لم أمانع فى النزول على رغبته والخروج للسوق، فإمرسون كان يكره الفنادق والمناخ الرسمى. ارتدينا ملابس مناسبة للطرقات الضيقة خاصة لخان الخليلى وحملت معى المظلة فصاح إمرسون معترضا:

– لا تحملى الشمسية ذات السيف، ولا تقولى إنك تتوقعين شيئا غير طيب.

– لا شىء من ذلك يا عزيزى، إنه مجرد حذر.

(١٤)

كان التجوال فى خان الخليلى يشبه رحلة إلى الماضى، لم تغير التعديلات التى أجريت على السوق من الخصائص العامة للمكان، فكل شىء كان كما هو، المصابيح النحاسية اللامعة، المناضد المطعمة بالصدف، السجاجيد التى نسجت بالأزهار، الصنادل المصنوعة من الجلد الرقيق والفضة. أمطرتنا التحيات من أصحاب المحال وأشرقت ملامح إمرسون وسمح لى بالذهاب إلى بعض تجار الآثار بما فيهم صديقنا القديم عثمان الذى لم يكن مسرورا لرؤيتنا، فقد كان إمرسون يجعله عصبيا بدرجة كبيرة. لم ألحظ عليه عصبية أو إحساسا بالذنب ولم تكن هناك استجابة منه أو من التجار الآخرين للسؤال الوحيد الذى سألناه: هل لديكم أى شىء جديد يثير الاهتمام؟ فكانوا يهزون رؤوسهم بالنفى، سألنى إمرسون أثناء سيرنا:

– هل أنت مقتنعة الآن يا بيبودى؟

– لست مقتنعة على الإطلاق. إذا لم يكن مارتنللى قد تخلص من غنيمته بالأقصر أو لدى أى من تجار القاهرة فما الذى فعله بها؟ أجاب بنفاد صبر:

– باعها لمشترٍ خاص بالطبع – ألا نتناول الغداء الآن؟

ردت نفرت:

– من الأفضل أن نذهب لمطعم بسام، فلو ذهبنا إلى مكان آخر وعرف هو بذلك فسوف يستاء.

جاء بسام مسرعا للترحيب بنا. لم يدهش على الإطلاق لرؤيتنا فقد سمع بوصولنا إلى القاهرة وبوجودنا فى الخان. فأيقن بأننا سنتناول الغداء عنده.

نظر إمرسون إلى بسام ضاحكا وقال:

– حيث إنك كنت تتوقع مجيئنا فلا بد وأنك قمت بتجهيز بعض الأطباق الشهية، أليس كذلك؟

لم يكن بسام قد أعد شيئا، كان كل ما لديه هى الأطباق المعتادة. ولكنه كان يحجب الإعلان عن وجودنا، فأجلسنا على المائدة المجاورة لباب المطعم مما سبب لنا الضيق لأن العابرين كانوا يتوقفون لتحيتنا. أحيانا ما كان يأتى شحاذ ويمد يده لنعطيه بقشيش وكان بسام يبعد أغلبهم. بعد أن تناولنا الغداء، وبينما نحن نشرب القهوة وقف رجل يرتدى الأسمال أمام رمسيس ومدّ يده طالبا البقشيش، فأعطاه رمسيس قطعة معدنية، لكن الرجل دس فى يد رمسيس ورقة مطوية بسرعة. بعد انتهاء تلك المناورة انسحب الرجل خارجا من الباب. همست لرمسيس:

– ما الذى فى الورقة يا رمسيس؟

– إنها من رشاد، وهو يريد مقابلتى، صاحت نفرت، لا، وقلت وراءها "لا تحت أية ظروف"، ولكن إمرسون قال:

– أعزائى، أرجوكم. سكتنا أنا ونفرت. نظر لى رمسيس فقلت له:

– ما الأمر يا رمسيس؟ قال وهو يقرأ الورقة:

– رشاد يقول إن هناك خطرا يتربص بدافيد فى القاهرة، ويريد تحذيره. سألته بسرعة:

– أى خطر؟

– سيقول لى عندما ألقاه. يجب أن أذهب.

– قد يكون تحذيرا زائفا وليس حقيقيا. قالت نفرت.

– لن تذهب بمفردك. هتفت أنا.

رد بهدوء:

– لا بد من ذلك، فقد كان واضحا بالنسبة لهذه النقطة بالذات. أن أيا منكم لا يستطيع تتبعى دون أن يعرف هو ذلك، فنحن مراقَبون، ولا يمكن أن يكون ذلك فخا، فقد وقّع باسمه وحدد المكان بعناية وهو بعيد عن هنا. أتعرف المكان يا أبى؟

قرأ إمرسون الورقة ورد قائلا:

- أستطيع أن أجده. نهض رمسيس وقال:

- انتظرونى هنا، سأعود بعد ساعة.

اختفى بعدها فى الظلام. قلت وقد انتابنى الخوف:

- قد يكون ذلك فخا، فرد إمرسون، "نعم"، ثم نادى بسام وطلب مزيدا من القهوة.

(١٥)

لم تتكلم نفرت، كانت عيناها مثبتتان على وجه إمرسون الذى ابتسم لها وربت على يديها قائلا:

- لم تكونى لتستطيعى إبقاءه يا عزيزتى خاصة وأن هناك ما يهدد دافيد. قال نفرت بنبرة قلق:

- لا أستطيع الجلوس هنا منتظرة لمدة ساعة.

- لست مرغمة على ذلك. سوف ننتظر حتى يبتعد رمسيس عن هنا، ثم سنذهب إلى مكان اللقاء، فأنا أعرفه.

لم يذكر رشاد اسم الشارع فليس بالقاهرة أسماء للشوارع إلا فى الحى الأوروبى الحديث ولكنه وصف المكان وصفًا دقيقا، وكان إمرسون متأكدا أنه يمكنه الوصول إليه. بعد أن وصلنا للمكان لم يكن به أحد ما عدا بعض الباعة الفقراء الذين أنكروا معرفتهم برشاد أو برمسيس، وأمام صوت إمرسون العالى الذى أخافهم أعلنوا براءتهم بأدلة يصعب الشك فيها، ولكننا بحثنا فى المكان جيدا ولم نجد أى شىء يرشدنا إلى مكان رمسيس.

الفصل الثالث

(١)

تعجب رمسيس أين هو، فقد كانت الغرفة صغيرة ومضاءة بالنور الخافت المنبعث من مصباح معلق فى السقف ومفروشة فرشا راقيا، وكانت الحوائط مبطنة بالقماش وهناك آنية نحاسية متوهجة بجواره وتطلق سحابة من دخان له رائحة غريبة. كان رمسيس يرقد على سطح لين ولم يفطن إلى أنه مقيد من يديه ورجليه إلا عندما حاول الحركة. دفعه الفضول إلى تحريك يديه فوجد أن القيد كان ناعما وحريريا فى ملمسه ولكنه قوى ومحكم بحيث يمنعه من الحركة كما أنه لا يؤلمه، وكان ذلك يعد شيئا طيبا منهم. كان مستريحا ولكنه كان يأمل فى أن يأتى أحد بسرعة ويطلق سراحه لأن نفرت سوف يصيبها القلق والانزعاج، اقتحمت زوجته خياله بوضوح كما لو كانت تقف بجواره وتطل من فتحة فى حائط المكان. لم يعرف كم من الوقت مضى عليه وهو فى هذا المكان، ولم تعرف نفرت أين هو.

حاول التخلص من القيد الذى يشل أطرافه فلم يفلح، فاستغرق بالتفكير فى نفرت ومبتعدا برأسه عن الدخان المتصاعد من المبخرة. غشيته رجفة من الألم صعدت من ذراعيه إلى كتفه فظن أنه ربما يكون قد جرح، فحاول أن يلوى ذراعيه بقوة أكبر وهو يتعمد أن يؤدى ذلك إلى ألم أكبر ليعرف سببه، لكنه سمع من يهمس له:

– لا تقاوم.

كانت همسة لا تكاد تُسمع، فالتفت رمسيس برأسه تجاه الصوت.

كانت امرأة شابة يحيط النور بها وجسدها يلمع عبر ردائها الشفاف. كان

جسدها نحيلا وينبض بالحيوية.

كان وجهها مختفيا تحت حجاب وفوق رأسها قرص الشمس وقرون إلهة مصرية. اغتصب الكلمات من بين شفتيه وهمس لها "من أنت"؟

- ألا تعرفنى، لقد رأيتنى من قبل كثيرا ولكن ليس بجسدى.

كانت تهمس بكلمات إنجليزية ولكن بلهجة غريبة، ليست ألمانية ولا فرنسية. وجد صعوبة كبيرة فى التفكير بوضوح، ولم يكن يعرف ما إذا كان الأمر حقيقيا أم أنه وهم؟ كان الرداء يحجب جسدها ولكنه لا يخفى خطوطه وتقسيماته.

قال وهو يلهث:

- أطفئى هذه المبخرة اللعينة.

أطلقت تنهيدة تعجب رقيقة ثم صفقت بيديها فظهر شخص خلف الأريكة التى يستلقى عليها. كان بلا ملامح مثلها، ولكن خطوط جسده توحى بأنه رجل، فقام بأخذ المبخرة بعيدا ثم اختفى. أخذ رمسيس أنفاسا عميقة وحاول تركيز نظره عليها، فتقدمت هى فى اتجاهه قائلة:

- انظر إلىّ جيدا. هل عرفتنى الآن؟

كانت مغطاة بالجواهر كالملكة، يحيط الذهب بذراعيها الرقيقتين وثوبها من الكتان الرقيق ومطرز بالذهب حول الرقبة، وتخرج من على جانبى وجهها أذنا بقرة.

ظن أنه يحلم أو أنه يتخيل بعض الأمور وأنه يرى ما تريده هى أن يرى. فتمالك نفسه وقال لها:

- أنا لا أعرفك. لماذا أنا هنا؟ وماذا تريدين؟

- لكى أراك وأجعلك تتذكرنى. أبق معى ليوم أو يومين. وأعدك بأنك ستجد الإقامة هنا ممتعة.

(٢)

لم يكن رمسيس يشك فى ذلك، فقد كان هناك بعض العقاقير وهى تعرف كيف تستخدمها. بعد مجهود كبير نجح فى أن يجعل نفسه فى وضع الجلوس، فرفعت هى يدها وقالت:

– أنت تبدد قوتك عبثا. أنا لا أنوى بك شرا. أنت تحت حمايتى. تذكر ذلك ولا تخَف من أى شىء مهما حدث لك. سوف تعرفنى عندما ترانى مرة أخرى.

انطلق شعاع من يدها فأصابه فى عينيه فسقط على الوسائد وقد أحس بالدوار وفقدان الرؤية، وحين استعاد القدرة على الرؤية مرة أخرى كانت هى قد اختفت وعادت المبخرة إلى مكانها.

كان رمسيس يعرف أن أمامه بضع دقائق فقط ليفعل شيئا قبل أن يغلبه الدخان المخلوط بالمخدر. تدحرج بعيدا عن المبخرة ودفع بركبتيه لأعلى. كان قد تدرب على ذلك كثيرا وأفلح فى أن يمسك بكعب حذائه. وبعد أن قام بخلعه ظل مستلقيا بلا حراك مجبرا يديه المرتعشتين على الثبات وكان يتنفس بصعوبة عبر غطاء الوسادة. تمكن من الإمساك بقطعة الصلب الرقيقة المثبتة فى كعب الحذاء، كانت مشرشرة وشديدة الحدة ثم تمكن من قطع الحبل الذى يربط يده. وبعد أن أتم المهمة وقام بتحرير يده قطع الحبل الذى يربط رجليه. كان من الحرير المضغوط أيضا. جلس لحظات ليستجمع قواه ثم بدأ فى الوقوف.

لم تسعفه ركبتاه على الوقوف فزحف إلى الركن البعيد من الغرفة وتكوم بجوار الحائط محاولا أن يجد نافذة، لكن أصابعه عثرت على المشربية التى تستخدم فى جناح الحريم، فقام بفتحها وملأ صدره بهواء الليل المنعش، واستطاع أن يميز الروائح التى كانت تأتى من خلال المشربية والتى هى مزيج من روث الحيوانات والنباتات المتعفنة، والفحم المشتعل ورائحة الزهور – عبق القاهرة كما يقولون – إذن فهو لا يزال فى القاهرة! ولكن أين؟ رفع رأسه باحثا عن علامات للمكان. فوجده مكانا مرتفعا عن

الشارع ويقع بالطابق الأول أو الثانى من المنزل، وعبر الطريق الضيق تواجهه مجموعة من البيوت القديمة لكن لا توجد أنوار فى النوافذ، فالوقت إذن متأخر، ولكن هل فى نفس الليلة؟ وكم من الوقت قد مر؟

كان التفكير فى زوجته ووالديه وهم يبحثون عنه جعله محموما، فأسرع وعاد أدراجه إلى داخل الحجرة وراح يبحث عن باب للحجرة فوجده مغلقا، لكنه وجد فى ركن بقايا من قطع الحرير تكفى لعمل حبل ولكنه خاف أن يستغرق ذلك وقتا طويلا وقد تقرر السيدة أن تزوره مرة أخرى، فعاد إلى النافذة وتلى بجسمه إلى أقصى درجة ممكنة ثم قفز، فنزل على كومة من القمامة. استجمع شتات نفسه واستند على الحائط وتفحص المكان من حوله وحاول أن يعرف أين هو. كان يعرف القاهرة القديمة جيدا ولكن الشوارع كانت متماثلة، ضيقة وملتوية وتحيط بها المبانى العالية، فرك عينيه جيدا، ثم سمع صوتا جعله ينظر لأعلى، وفى الضوء الخافت الآتى من النافذة رأى رأس رجل يطل منها. جرى بعيدا بأسرع ما يمكنه وهو يتخذ مسارا عشوائيا من شارع لآخر.

كان الحظ حليفه ودخل إلى سوق صغير لا اسم له، كان هو السبيل القديم وفى جانب من السوق مقهى كان هو ودافيد قد جلسا به من قبل ولكن المكان كان مهجورا الآن ومظلما وخاليا من الناس فيما عدا شحاذ نائم.

(٣)

كان يعرف أين هو وأنه ليس بعيدا عن الفندق بأكثر من ميل. توقف ليغسل القاذورات التى علقت به بماء السبيل، وقبل أن يبدأ السير إلى الفندق وضع بعض العملات المعدنية بجوار الشحاذ النائم فرحًا بنجاته. كانت المرأة التى زارته ترتدى زى هاتور، سيدة التركواز الذهبى.

كان ضوء الفجر قد بدأ يدخل عبر النافذة، وكنت أنا ونفرت جالستين لساعات طوال نتوقع عودة إمرسون وكان قد وعد بأن يخبرنا بنتيجة تحرياته قبل الصباح. كانت نفرت تتحمل الانتظار بصورة أفضل منى. وأثبتت الأحداث صدقها، كانت دائما ما تعرف متى يكون رمسيس فى خطر. لم تكن فى حالة ذعر كما أكدت لى، وكانت تؤكد لى بأن رمسيس دائما ما يقع فى كثير من الأخطار ودائما ما يتخلص منها. ولكن منطقها لم يكن كافيا للتهدئة، فمصيره مجهولا لنا.

وبالرغم من تماسك نفرت، كانت هى أول من قام ليفتح عند سماع نقر على الباب، سلمها السفرجى ورقة ووقف ينتظر البقشيش. أعطيته بعض النقود بينما كانت نفرت تفض الرسالة لتقرأها. اندفعت الدموع من عينيها، فأخذت الورقة من يدها وقرأت الكلمات المكتوبة بخط يد رمسيس "أنا بخير. سأكون معكم بعد قليل". شعرت بارتياح كبير وقالت فى جزل:

– الحمد لله. خطفت نفرت الورقة من يدى وقبل أن تنتهى من قراءتها فتح رمسيس الباب ودخل. اندفعت نفرت إليه ويدها تمسك بذراعه قائلة:

– أين كنت؟ وما الذى حدث؟

– لا عليك، صباح الخير. أين أبى؟

– يبحث عنك بالطبع. وصاح بحدة:

– لا تقتربى منى، فأنا فى منتهى القذارة ورائحتى ككوم القمامة، لكنها دفعت بيده واقتربت منه لتحتضنه.

– دعينى أستحم أولا وأستبدل ملابسى وسأقول لكما أغرب قصة سمعتماها. هل تستطيعان الاتصال بأبى ليتوقف عن البحث عنى؟

قلت أنا:

– نحن نتوقع عودته بين لحظة وأخرى. كان يجب أن يكون هنا من فترة. عليك بالاستحمام يا عزيزى فرائحتك فظيعة. سأطلب الإفطار وإذا لم يعد أبوك عندئذ فسأبحث عنه.

– شكرا يا أمى.

أمسكت نفرت بيديه وقلبتهما وصاحت قائلة:

– لقد تمزقت الخدوش مرة أخرى وجرحت نفسك. ما الذى جرى بحق الشيطان؟

تدخلت قائلة:

– دعيه يستبدل ملابسه أولا.

كان السفرجي قد أحضر لنا إفطارا فخما، ودخلت أنا غرفتى وبدلت ملابسى ثم عدت إلى غرفة الجلوس لأجد إمرسون قد دخل ويعطى أوامره للسفرجي. صحت به قائلة:

– لا تقسو عليه، فقد طلبت بالفعل طعام الإفطار ورمسيس قد عاد.

– أعرف.

– كيف عرفت؟

– سمعتك تغنين. كان الباب مغلقا وصوتك يكون عاليا عندما تكونين فى حالة مرح.

– اجلس واسترح، فأنت تبدو متعبا جدا.

جلس وهو يقول:

– لم أحس بالتعب الشديد إلا الآن فقط، فعندما سمعت صوتك وأنت تغنين ولم تكن نفرت فى غرفة الجلوس، غمرنى الأمل فوقفت بالخارج لدقائق إلى أن سمعت صوته أخيرا.

– يا لك من فضولى يا إمرسون.

– كل ما ينتهى بخير هو خير، هل أخبرك ماذا حدث؟

– ليس بعد.

كان إمرسون قد طلب طعاما إضافيا فدخل السفرجية يحملون ما طلبه وبينما هم يضعون الطعام على المائدة لحق بنا رمسيس ومعه نفرت. قام إمرسون بتحية ابنه ببرود كما لو لم يكن قد أصابه الانزعاج عليه لساعات طويلة، رد رمسيس هو الآخر ببرود مماثل.

نظر إمرسون إلى يد رمسيس المغطاة بالضمادات وقال:

– لم يكن من المنطقى أن نتوقع عودتك دون أن تصاب بجرح أو أكثر! هل تستطيع الإمساك بالشوكة والسكين يا ولدى؟

– نعم يا سيدى. أرجو ألا تكون قد تجشمت العناء بسببى.

– لقد كان راسل هو من تجشم العناء.

كان فى قلبه كراهية لراسل نتيجة خدعة قام بها تجاهنا، لكنه قال بنبرة هادئة:

– أعتقد أننى يجب أن أخبره بأن يوقف البحث عنك قبل أن يأتى إلى هنا ليزعجنا. قام وكتب بضعة كلمات على ورقة وأعطاها لأحد السفرجية وقال له:

– خذ هذه الورقة للاستقبال ودعهم يرسلونها بسرعة. ثم نظر إلى رمسيس وقال، فلنسمع قصتك يا رمسيس.

كنت قد سمعت الكثير من القصص الغريبة فى حياتى، ووقعت لى شخصيا حوادث كانت غريبة ولكن قصة رمسيس كانت من أغرب ما سمعت. حكى لنا القصة ولم يقاطعه أحد منا، وكانت نفرت هى أول من قطعت الصمت وسألته:

– ما الذى كان بالمبخرة؟

– أفيون وشىء آخر لم أستطع تحديده.

لم يعلق أحد وظللنا صامتين ننظر لبعضنا فاستطرد هو:

– أنتم لا تصدقوننى. لا أحد منكم يصدقنى. تعتقدون أن الأمر كله مجرد هلوسة.

قالت نفرت:

– وما هو التفسير الآخر لذلك؟ ثم احمرّ وجهها وهى تقول بتهكم: "غرفة فاخرة الأثاث وفيها هاتور الخالدة بكل جمالها الشاب، ماذا أيضا؟

قلت أنا بحماس:

– كلنا متعَبون ومُنهَكون ومن الواضح أن رمسيس لم ير الإلهة وإنما امرأة فى زى هاتور. أما بالنسبة للغرفة المفروشة بذلك الأثاث فالكثير منه موجود بالقاهرة. هل تستطيع أن تجد ذلك المنزل ثانية يا رمسيس؟

– أشك فى ذلك، لا أتذكر بالمرة كيف وصلت إليه. آخر ما أتذكره كفّان قويان تطبقان على رقبتى. قالت نفرت:

– ولكن لا توجد سحجات على رقبتك. فرد رمسيس:

– هل يجب أن أذكّرك بأن الأمر لا يتطلب الكثير من الضغط أو الكثير من الوقت إذا عرفت كيف تقومين به، ومع ذلك فمن الممكن أن أكون قد تخيلت ذلك. قلت له:

– ومع ذلك نستطيع القيام بمحاولة لمعرفة مكان المنزل.

– لقد كنت فى حالة من السرعة الشديدة التى لم أتمكن معها من ملاحظة أين أنا، وعقلى لا يتذكر أى تفاصيل. على كل حال، فإن لديهم الوقت لإخلاء المكان مهما كانوا. قلت له:

– كان يوجد اثنان منهم على الأقل بافتراض أن الشحاذ والشخص الذى اختطفك وربما الخادم – هم نفس الشخص. ولكن هذا ليس بالضرورة ما عليه الحال.

كانت نفرت تراقب رمسيس الذى كان يتناول إفطاره وقالت:

- لا أقصد أن أعطى الانطباع بأننى أشكك فى قصة رمسيس ولكنى أحاول فقط فهم الذى حدث ولماذا حدث؟

قلت مستطردة بغيظ:

- يا إلهى، إن هذا ما نحاول جميعا معرفته، دعونا نواجه الحقائق مهما كانت غير سارة بالنسبة لك يا نفرت. زوجك شديد الجاذبية للنساء، ورغم ذلك فإن الحدث كان مثيرا لانتباهه. نظرت إليه وسألته "ألم يكن الثوب الذى تلبسه المرأة حقيقيا؟"، أومأ رمسيس بالإيجاب، فاستطردت قائلة:

- اللمسات التى كانت تبدو سحرية من الممكن ترتيبها. الكهرباء على سبيل المثال يمكن أن تستخدم بحيث تضع المرأة بطارية كهربية فى جسدها ثم تضغط بسرعة على المفتاح فتظهر فجأة وكأنها جاءت من الأثير. لا بد وأنها استخدمت البطارية مرة أخرى لتفقدك الرؤية مؤقتا حين غادرت هى الغرفة معتقدة أنك سترى الأمر وكأنه برق سحرى. هذه ألعاب صبيانية". رد إمرسون قائلا:

- الأمر لا يكون كذلك بالنسبة لرجل تخدرت حواسه بفعل الأفيون. وأخرج غليونه وأشعله وقال مستطردا:

- من المثير أن رمسيس استطاع الاحتفاظ بإدراكه على النحو الذى شرحه.

رد رمسيس وقد انفرجت ملامحه وقال وهو ينظر إلى يديه:

- الألم يساعد على ذلك، وأمور أخرى أيضا. ولسوء الحظ لم ألاحظ شيئا يمكننى من التعرف عليها ولا حتى معرفة طولها الذى كان من الصعب تحديده. لقد كانت صغيرة السن ونحيفة ولكنها لم تكن فتاة غير ناضجة، بل كانت امرأة. لقد غيرت من صوتها وكانت تهمس وتستخدم لهجة مصطنعة. هذا كل ما أعرفه ونظريتك يا أمى بالنسبة لدوافع المرأة هى محض خيال ولا أريد أن أتحدث عنها. ماذا كنت تفعل طوال الليل يا أبى؟ أعتقد أنك ذهبت تبحث عن رشاد المسكين.

رد إمرسون قائلا:

- لقد كان الخيط الوحيد الذى لدينا . ضغط بأسنانه على الغليون وأردف:

- لقد أقنعت أمك ونفرت بأن يبقيا هنا فلربما عدت أنت، ثم ذهبت لمقابلة توماس راسل وأجبرته على مغادرة الفراش وكنت مندهشا عندما عرفت بأن كل الثوار تم إطلاق سراحهم بما فى ذلك صديقك وردانى، رغم أن لا أحد يعرف مكانه. كان راسل قد أرسل بعض معاونيه للبحث عن رشاد الذى لم يعد إلى بيته بعد محاولته تنظيم مظاهرة، قبل ذلك تمكننا من تحديد مكان أحد معاونيه، ولكنه أنكر معرفته بأى مخطط تجاهك أو تجاه دافيد. كنت مضطرا لتصديقه لأننى لم أستطع إثبات كذبه.

(٥)

قال رمسيس:

- لا أعتقد أنه كان يكذب. لا علاقة لرشاد بما حدث الليلة، فليست لديه القدرة على اختراع مثل ذلك السيناريو. ما حدث قد يكون له علاقة ما باللص الهارب. سألته للتو:

- وهل تعتقد أنه قادر على فعل ذلك؟ رد رمسيس:

- هو أو أحد أعوان سيثوس. اعترفى يا أمى بأن ما حدث يحمل بصمات سيثوس. لا أعتقد أنه كان مشتركا بصورة شخصية ولكن نفوذه قوى وشديد. سألنى إمرسون:

- ألم تتلقَّ ردا منه بعد؟

- لا، هل قال راسل شيئا عن مارتنللى؟

- كان هذا الشيء الطيب الوحيد نتج عن أحداث الليلة. إن راسل لديه انطباع بأننا طلبنا منه القبض على مارتنللى لأننا نشك فى أنه مشترك فى مخطط وطنى، هو

نفس المخطط الذى نتج عنه اختفاء رمسيس. ورغم أن ذلك ليس مرجحا على الإطلاق مثل عدم رجحان قصة هاتور المحجبة.

نظر رمسيس إلى نفرت دون أن يبتسم، فأسرعت بالقول:

– التكهنات لن تفيدنا الآن. لقد كانت حادثة مريبة ولكن لم ينتج عنها ضرر فيما عدا ما فعله رمسيس بنفسه، وبالتأكيد هو لم يقصد، وهى قالت لك ذلك يا رمسيس. رد رمسيس:

– إذا كنت أثق فى ذاكرتى فقد قالت شيئا بهذا المعنى.

قررت أنه من الملائم تغيير الموضوع فقلت:

– من الأفضل أن تستريح قليلا. أتعرفون أن العائلة ستصل هذا المساء؟

– نعم يا أماه، قالها رمسيس وهو يغادرنا مع نفرت.

– وأنت يا إمرسون؟

– لا أحتاج للراحة. ما خطب هذين الاثنين يا بيبودى؟ يبدو أنهما على خلاف مزاجى حاد.

– سأشرح لك إذا سمحت لى.

– باختصار إذا أمكنك ذلك.

– انفعال نفرت ليس منطقيا ولكنه مفهوم بالنسبة لى، الذى يضايقها هو أن زوجها لديه تصورات عن نساء جميلات مغريات يبغين التواصل معه، أو أن امرأة جميلة ومغرية كانت فى الواقع تريد التواصل معه. صاح إمرسون:

– إذن، ما حدث شىء شبيه بذلك.

– بالطبع لم يكن الأمر بهذه البساطة. فعلى عكس الآراء الخاصة بذوى المشاعر الجياشة فإن وجود الأطفال بينهما يضفى توترا على العلاقة الزوجية ويستغرق الأمر

وقتا ليستوعبا الأحاسيس الجديدة والمسئوليات الجديدة، فقد أخذ الأمر منى عشرين عاما، والإرث الضخم الذى حصلت عليه نفرت من جدها مكنها من تأسيس مستشفى للنساء الفقيرات بالقاهرة وحاربت معركة قاسية ضد التحيزات الذكورية، لكى تكتسب تدريبا على الجراحة ولكى تساعد بصورة أفضل هاته النسوة البؤساء. ولكنها تخلت عن مشاعرها كزوجة من أجل الأمومة ومن أجل الآثار. ورغم أنها لم تظهر الندم أبدا على ذلك.

- حسن يا عزيزتى، فى هذه الحالة يجب أن أنحنى أمام خبرتك. هما سيحلان المشكلة أليس كذلك؟

- بطريقتها الخاصة يا إمرسون. سأكون آسفة إذا ما وصلا إلى مرحلة الملل التى تصيب كل زواج وإن بدا ذلك غير مرجح.

(٦)

لأن مواعيد المراكب والقطارات غير مؤكدة، وافقنا على انتظار عائلتنا بالفندق بدلا من انتظارهم بمحطة القطار، فهم ليسوا غرباء عن مصر، ووالتر وإيفلين وإن لم يسافرا لسنوات طويلة لكن دافيد يعرف جيدا كل الطرق بمصر.

بعد أن تأكدنا أن جناحهم مهيأ تماما ومزين بالزهور بكل غرفة، لم يعد هناك ما أفعله سوى الانتظار، كنت أقف بجوار سور الشرفة للمرة الثالثة عندما أمسك بى إمرسون وقادنى إلى مقعد قائلا:

- سوف يكون استقبالا سيئا للعائلة إذا ما وجدوك تقفين على السلم فى انتظارهم. لن يكونوا هنا قبل عدة ساعات. اجلسى يا عزيزتى وتناولى شرابا. سأطلب من رمسيس ونفرت مرافقتنا فى ذلك. عندما عاد أعلن بصوت يملؤه السرور:

- لقد تصالحا.

- حسن، إنه خبر سعيد.

حين خرجا من غرفتهما كانت علامات السعادة على وجهيهما تؤكد أنهما قد تصالحا، فرمسيس لم يبدُ عليه أثر ما لتلك المغامرة وبالرغم من عدم اقتناعه بنظريتى، فإننى كنت مقتنعة بأن دافع المرأة لم يكن سوى الانجذاب الشخصى، لكنى كنت أتوق لأن أعرف من تكون هذه المرأة. فكرت كثيرا وبالتأكيد فعلت نفرت مثلى وراجعنا قائمة النساء اللاتى كانت لهن صلات برمسيس قبل زواجه ولكن لم تكن أى واحدة منهن. أحسن رمسيس بنظراتى له فتململ فى مقعده وقال:

- متى تعتزمين إخبار عمى والتر؟ رد إمرسون:

- عن سيثوس؟، بالتأكيد ليس الليلة. وافقته قائلة:

- لنتركهم الليلة يستمتعون بعودتهم إلى مصر واجتماع شملهم بنا قبل أن نلقى عليهم القنبلة.

قالت نفرت:

- إنها أكثر من قنبلة واحدة، هناك مارتنللى والمجوهرات المفقودة والمظاهرات الوطنية، والسيدة الغامضة. إن حدوث كل هذه الأمور فى الأيام القليلة الماضية لم يكن مصادفة. لم تكن تلك الأحداث فقط هى ما وقعت، فقد وقعت أحداث أخرى كانت تبدو قليلة الأهمية، وظهرت نتائجها فى الأيام التالية، كان هناك إحساس بعدم الراحة ينتابنى، إحساس بأن هناك شيئا منسيا.. أو أننا تناسيناه عن عمد!.

مرت ساعات الانتظار، وجاءت العائلة غمرتنا فرحة هائلة عند وصولهم وتبادلنا الأحضان والضحكات.

بعد أن قام إمرسون بتحية أعضاء العائلة الكبار، اتجه إلى دوللى وقد فتح ذراعيه وابتسامة عريضة على شفتيه. كان الطفل الذى سمى على اسم جده الأكبر عبد الله فى الرابعة من عمره وقد ورث عن دافيد شعره الأشقر وعينيه السوداوين، بينما ورث من

أمه ملامحها الرقيقة. ظل فى مكانه وبدا غير مرتاح، فقلت لإمرسون:

- لا تزعج الطفل فهو لا يتذكرك. أعطه بعض الوقت ليعتاد على كل هذه الوجوه الجديدة. ولكن الطفل كان قد مد يديه وصاح:

- كيف حالك يا سيدى؟ فتفتحت ملامحه بابتسامة وأخذ اليد الصغيرة بين يديه وقال له:

- كيف حالك يا عزيزى الصغير. مرحبا بك فى مصر.

قلت أنا:

- فلنجعل الصغار يخلدون للنوم. لم يستغرق الأمر وقتا ليخلد الصغار للنوم من شدة التعب، قلت لهم وأنا أعود للغرفة.

- ربما تفضلون أنتم أيضا الخلود للنوم، فقد كانت الرحلة طويلة ومتعبة. ردت إيفلين وهى تضحك:

- أنا شديدة السعادة والشغف لدرجة لا أحس معها بالتعب. تعالى واجلسى معى يا أميليا ودعينى أنظر إليك. هل يرعاك أحد الآلهة بحيث يجعلك لا تتغيرين أبدا؟

كانت زجاجة صبغة الشعر هى ما يعود لها الفضل، فأنا تغيرت وكذلك تغيرت هى الأخرى. شعرها الأشقر أصبح فضيا وأصبحت نحيفة ولكن عيناها الزرقاء لا تزال صافية كما كانت دائما. نفس الشيء يمكن قوله عن والتر، كنا نقارن بين قوام إمرسون القوى وبين ظهر والتر المنحنى الذى يجعله يبدو أكبر من أخيه بسنوات. كان له نفس شعر إمرسون الداكن وعينيه السوداوين، وكان فى صباه شابا قويا، ولكن السنوات التى أمضاها عاكفا على أوراق البردى القديمة قد نالت منه. إمرسون هو الآخر لاحظ ذلك حيث قطع حديثه عن دير المدينة وأمسك بذراع أخيه وقال:

- حان الوقت لكى تعود. سوف نضع بعض العضلات فى هذا الذراع وبعض اللون فى وجهك.

(٧)

جلست نفرت وليا تتحدثان عن الأطفال. كانت ليا قد سميت على اسمى ولكنها تفضل الصورة المختصرة للاسم. كانت زرقاء العينين شقراء كأمها بما أعاد لى ذكريات أيفلين الصغيرة التى كانت رفيقتى فى أول رحلة لمصر. لم أحلم بأن تختلط حياتنا بهذه الصورة، وأن مرور الوقت سوف يجلب هذا الحصاد من السعادة مع جيل ثان يتبعنا على طريق الاستكشافات الأثرية.

كان شيئا طيبا أن أرى رمسيس وديفيد معا مرة أخرى وقد تقاربت رأسيهما فى حديث ودى عن آخر الأخبار. لم تتح لهما لفرصة للكلام الكثير حيث أن إمرسون يفترض أن كل فرد متلهف لسماع آخر أخبار الاستكشافات الأثرية. دفع بنا إلى سماع حواره مع والتر، عندما سمع دقات على الباب. تعجبت قائلة:

– ترى من يكون الطارق فى مثل هذه الساعة؟

تقابلت نظرات إمرسون مع نظراتى وقال:

– سأرى من الطارق، وذهب إلى الباب وبطريقته المعتادة فتحه على مصراعيه ووقف مشدوها!!

كان جسده ليس كافيا لإخفاء الرجل الذى كان فى مواجهته. كان يرتدى بدلة من االتويد البنى وكان ذلك كافيا لأقف على قدمى. حاول إمرسون كما أعتقد، أن يسد الطريق أمام القادم ولكن الضيف أخذ ذلك على أنه دعوة للدخول، فدلف إلى الغرفة بسرعة.

تعرفت على البدلة التويد لأنها كانت البدلة التى استعارها من رمسيس فى مناسبة سابقة ولم يعدها إليه. نظر فى الغرفة نظرة شاملة واقتر ثغره عن ابتسامة وقال:

– كم هو طيب أن أراك يا شقيقى العزيز. قال ذلك مصافحا إمرسون. ثم نظر إلى الباقى وأضاف:

– وباقى أفراد العائلة أيضا، لم أحلم قط بمثل هذا السرور. هذه لا بد وأنها أختى العزيزة إيفلين، ورفع يدها وقبلها باحترام بينما كانت هى فى حالة استغراب شديدة. قام بتحية ليا بنفس الطريقة ثم احتضننى ونفرت، وصافح دافيد ورمسيس. كانت المفاجأة صاعقة وكانت حركاته شديدة السرعة بحيث شملت الجميع. عندما تحول إلى والتر كانت تكسو وجهه عاطفة مفتعلة، فكان لا بد أن أتدخل ولكن لاضطرابى وذهولى، قلت ما لا يجب أن يقال.

– سيثوس، أرجوك. إن والتر لا يعرف.

لم أكن أعرف اسمه الحقيقى، بل اسم الشهرة الذى جاء سريعا على لسانى. كانت تلك هى القشة التى قصمت ظهر والتر، فقد كان أكثرنا ذهولا ونظر فى استعطاف صامت لإمرسون وتحول لونه إلى البياض الشاحب ثم سقط مغشيا عليه.

قال سيثوس

– إنه مجرد إغماء. ليس بالأمر الخطير.

صحت فيه غاضبة:

– والفضل لك، لقد تعمدت القيام بهذه التمثيلية مع سبق الإصرار.

صوب إمرسون لى نظرة باردة من عينيه قائلا:

– أنت من تسبب فيما حدث يا أميليا. كان بمقدور والتر تحمل وجود أخ غير معروف له ولكن أن يكون هذا الأخر هو المجرم الذى سمع عنه كثيرا، لقد كان من الممكن أن يقضى عليه.

– ولكن أنا لا أعرف اسمه الحقيقى.

– أعتقد أن مزاحى لم يكن مناسبا. قال سيثوس ذلك بنعومة، إننى آسف يا أميليا، فأنت تعرفين مزاجى المرح. ولكن فلننظر إلى الجانب المشرق للأمر يا عزيزتى كما تفعلين دائما. لقد كنت تخططين أن تقولى للآخرين، أليس كذلك؟ لقد انتهى الأمر الآن ولست مضطرة للتفكير فى كيفية إخبارهم بالأمر.

ابتسم لى فى وقاحة ولكن للإنصاف، لم يكن بارد المشاعر حين ساعد إمرسون فى حمل والتر إلى غرفته، فقد ظل يدور بقلق حول والتر إلى أن انتهت نفرت من الكشف عليه وأعلنت عدم وجود خطر على قلبه وأعطت نفرت مهدئا لوالتر وتركناه مع إيفلين.

(٨)

عدنا إلى غرفة الجلوس، وقام إمرسون بتقديم الويسكى للجميع. عاد سيثوس لطبيعته مرة أخرى وقال متسائلا:

– هل يعرفون بأمر السرقة؟

قال ديفيد:

– أية سرقة؟

قلت أنا:

– أعتقد أن عليهم أن يعرفوا، ولكنى لن أوقظ والتر لأقول له ذلك. رد سيثور ببرود:

– نستطيع الانتظار، ولكنك قد تخبرينى أنا عن الأمر فقد كانت برقية إمرسون مستترة المعنى. أخرج من جيبه ورقة مطوية وأعطاها لى فقرأتها، كان مكتوبا بها:

– اختفى (م) ومعه ما يخص السيدات. إلى أين يمكن أن يأخذها؟ نحتاج إلى نصيحتك بسرعة. أعدت له الورقة وسألته:

– كيف جئت إلى هنا بهذه السرعة؟ رد قائلا:

– كنت فى القسطنطينية وأرسلت مارجريت لى الرسالة لأنها كانت تبدو عاجلة، وجئت بأسرع ما يمكننى . الآن أخبرينى بالآمر. ما المفقودات بالضبط؟!

– ثلاثة أساور، إنها أثمن الموجودات على الإطلاق، وقلادة رائعة. قال دافيد:

– مسكين سايروس، يا لها من ضربة موجعة له.

– إنها ضربة موجعة لي بنفس الدرجة. ليس لي دخل بالأمر يا أميليا، هل تصدقين؟

– نعم، فقد كنت ستأخذ كل شيء!

ضحك قائلا:

– أنت تتملقين يا عزيزتي. أشكر لك ثقتك، ولكي أكون صريحا فأنا مندهش من مارتنللي فلو أنه رجع إلى عاداته القديمة لتوقعت منه أن يكون أكثر دقة. فما لم يجد مشتريا محددا يريد إشباعاً لعاداته القديمة لأسباب غير معروفة، ولكن لا يجب أن يراودكم الأمل، فقد تبعثرت المنظمة القديمة وتناثر أفرادها.

– لا تستطيع عمل أي شيء حتى غدٍ. أنا وأنت وأميليا متعبين. قال إمرسون ذلك.

قلت أنا مؤيدة وناظرة لسيثوس:

– هذا صحيح. هل حجزت غرفة في هذا الفندق؟

– لديّ مكان آخر أقيم فيه. ضاقت عينا إمرسون في شك واضح. استطرد سيثوس:

– قبل أن أترككم فيّ سلام علينا أن نثق ببعضنا البعض ثقة تامة. رد إمرسون.

– تعني أنك تريدنا أن نثق تماما فيك. أؤكد لك يا شقيقي العزيز أنني سأفعل ذلك وسأوافيك بأي معلومات تصل إلينا. هل هناك شيئا لم تقله لي ربما يكون له صلة بما هو حادث؟

كان لون عينيه يتغير من الرمادي إلى الأخضر وبدا لونهما غامقا. ثبت نظره على

يدى رمسيس المضمدتين، فتمتم رمسيس:

– هذا ليس له علاقة بالموضوع. قاطعته قائلة:

– لا يمكن أن نثق تماما بذلك، فقد يرى سيثوس علاقة ما غابت عنا.

صاح دافيد قائلا:

– حتى الجياد الجامحة لا يمكنها سحبى بعيدا عن هنا. هل حدث أن مر عليكم موسم كامل بدون حدوث مصائب؟ لا تظنوا أن باستطاعتكم إبقائى بعيدا عن هذا الأمر. صاحت ليا بثقة:

– ولا أنا. قال سيثوس بنبرة هادئة:

– دماء العائلة تسرى فيكما. الآن يا رمسيس، فلنسمع التفاصيل؟

قال رمسيس باستياء:

– هل لا بد أن أفعل؟ فتدخلت أنا قائلة:

– اسمحوا لى، ويمكنك تصويبى إذا ما أخطأت ذكر الحقائق.

حكيت الحقائق المجردة بالصورة التى استطيعها ولكنى لم أقطع شوطا كبيرا قبل أن تبدأ على وجه سيثوس علامات الدهشة الشديدة فقلت:

– يبدو أن القصة تلائم مزاجك المرح.

اختفت ابتسامته وقال:

– يا إلهى القدير. أنت لا تفترضين يا إميليا أن لى يد فيما حدث فى فترة شبابى العابثة، كنت مذنبا بعدد من التجاوزات ولكن ليس بأعمال شاذة كهذه. قاطعه إمرسون بنظراته، فقال متراجعا:

– كان فى الواقع حدث واحد اقترب من ذلك، وسكت لحظة ثم استطرد قائلا:

– أسألكم المغفرة ولكن إذا لم يضحك المرء من ملهاة فما الأمل الذى ترجوه الإنسانية؟ أنا لا أعرف كيف أفسر الأمر ولكن ربما كان يجب إرجاعه إلى الاهتمام الشخصى لتلك السيدة.

كان وجه رمسيس فى حمرة وجه إمرسون، وظهرت على وجه سيثوس علامات التعب، فقلت:

– لقد حل الصباح بالفعل. قد نكون أفضل حالا بعد أن نحصل على قدر من النوم. كيف نستطيع الاتصال بك؟

نهض واقفا وهو يقول:

– لا تستطيعون ولكنى سأمر عليكم مساء غد، فصرخت فيه قائلة:

– اذهب الآن.

(٩)

لم يكن رمسيس مندهشا لرؤية عمه، فقد كان سيثوس بارعا فى الظهور بدون سابق إنذار عندما تكون مساعدته مطلوبة، ولكن هذه المرة ظهر ليثير المتاعب. لقد أفزع أخاه غير الشقيق إلى درجة الإغماء وأوصل إمرسون إلى حالة من الهياج، ولم يقدم معلومات مفيدة ولا أخذ قصة رمسيس على محمل الجد.

سألته نفرت:

– ماذا قلت؟ كانت تجلس إلى منضدة الزينة تمشط شعرها، ورمسيس يراقبها

– لا شىء. فلنأخذ قسطا من النوم.

– أنا فى حالة لا تسمح لى بالنوم. ألا تريد مناقشة الظهور المذهل لعمك؟

لمعت خصلات شعرها فى ضوء النهار ولكن لم يكن لذلك أثر عليه. رد قائلا وهو يعطيها ظهره:

– لا. عندما لحقت به فى الفراش تظاهر بأنه نائم.

كان الشخص الوحيد الذى يريد أن يتكلم معه هو دافيد. لم يكن هناك وقت ليحدثه، فقد أجبرتهم أمهم على دخول غرفهم لحظة مغادرة سيثوس. كان هو ودافيد يعرفان بعضهما جيدا بتبادل النظر وقليل من الكلمات. كانا قد رتبا لقاءً بينهما فى الصباح التالى.

كان رمسيس ينتظر فى الشرفة لربع الساعة قبل قدوم دافيد وهو يبتسم معتذرا:

– لم أستطع الهروب من العائلة بسهولة.

– كيف حال عمى والتر؟

– لقد استعاد وعيه تماما ويقتله الفضول. لقد أخذ الأطفال مع إمرسون إلى المتحف.

– ماذا عن الآخرين؟

– ذهبوا مع نفرت للمستشفى فيما عدا أميليا التى رافقت الأطفال إلى المتحف. لقد سألتنى إلى أين سأذهب؟

– وماذا قلت لها؟

– الحقيقة بالطبع، إننى سأجلس بعض الوقت معك.

نظرت عيناه فى الشرفة التى تعج بالسياح والمسئولين والسفرجية.

– ليس هنا، إذا لم تمانع، فالمكان مزدحم ومزعج.

– وهل سيتغير أبدا؟ رد دافيد قائلا:

– ليس الآن على الأقل.

التفت إليه رمسيس مبتسما وقال:

– أين نذهب؟

(١٠)

خرجا معًا ووجدا مقهى يفضلانه وجلس دافيد على أحد المقاعد مستريحا وقال:

- تماما كسابق عهدنا . هل تتذكر الليلة التى كنا فيها هناك أنت فى صورة القائد علىّ وأنا فى صورة تابعه المخلص، ودخل علينا أبوك؟ لقد نظر إليك وأنت تهتف "اللعنة على من لا يؤمن".

- لقد تشنجت على الأصح. ضحك رمسيس، وقال دافيد ضاحكا هو الآخر:

- لقد كنت مرعوبا من أن يتعرف علينا وكدت أسقط من مقعدى.

أحضر النادل القهوة التى طلباها ونرجيلة لدافيد الذى قال:

- لقد كانت لنا أوقات ممتعة.

رد رمسيس وهو يتأمله:

- بعضها لم يكن ممتعا بالرغم من ذلك.

كان دافيد يبدو أكبر سنا وكذلك هو أيضا ولكن بعض الخطوط فى وجه صديقه كانت ترجع للألم، فقد كانت غائرة فى جلده ولن يكون باستطاعته التخلص منها أبدا كما تقول نفرت، فقد كان الجرح الذى أصابه عام ١٩١٥ دمر بعض الأعصاب فى رجله بالرغم من عدم ظهور ذلك عليه عندما يمشى.

- الآن صرنا رجلين كبيرين ومتزوجين وأبوين وحان الوقت للتخلى عن عبث الشباب.

سحب دافيد دخان النرجيلة إلى رئتيه ثم أخرجه ببطء مجيبا:

- ليس من المرجح أن يسمح لنا بذلك. وهناك بعض التحف الغالية ضائعة من سايروس وكذلك قصة سيده بالقطع ليست هى من تدعى أن تكون. إنها أغرب قصة سمعتها بالرغم من سماعى للكثير.

– وعشت أيضا الكثير. أنت تصدق أنها وقعت بالفعل أليس كذلك؟

– بالطبع أصدق.

– تعتقد نفرت أن بعض التفاصيل إن لم تكن القصة بكاملها، محض هلوسة.

– هل يمكنك التعرف على المرأة إذا رأيتها ثانية؟

ضحك رمسيس قائلا:

– لقد سألتنى نفرت نفس السؤال. هل تعرف ما الذى قلته لها؟ لقد قلت بصورة قاطعة.. ليس وجهها. قال دافيد:

– بسبب أن وجهها كان محجبا؟

– هذا ما قصدته. لقد رأيت معظم الباقى ولكن الجسد ليس مفيدا فى التعرف عليها. لقد قلت لها ذلك أيضا، مما جعل نفرت تبدى بعض الملاحظات المهينة لى.

– إنها قلقة وأنا كذلك. إحكِ لى عن رشاد.

– لم يكن هو من أرسل الرسالة.

– كيف تعرف ذلك؟ هل ما زلت تحتفظ بها؟

كان الأمر كما يحدث دائما بينهما تماما، دافيد يحاصره فى ركن ويحاول هو أن يتخلص من ذلك! أجاب رمسيس:

– لا، ليست معى. لا بد وأنها سقطت منى فى مكان ما. وما أهمية ذلك، إن هذا الأسلوب ليس هو المميز لرشاد ورفاقه. وهو لا يهتم كثيرا بى، لا أعتقد أن لديه من الكراهية تجاهى ما يجعله يخلق كل هذا المتاعب لى أو ليضع يده عليك.

– هو لا يحبنى أنا الآخر، ولكن أخذك كرهينة يعد حيلة لعينة للوصل إلىّ. لم تكن لدى فكرة أنه موجود بالقاهرة.

– هل هذه هى الحقيقة؟ نظر إليه دافيد بدهشة، فقال مستطردا:

– آسف يا دافيد، أعرف أنك لن تكذب. ولكن كانت هناك أحداث شغب وإضرابات وحوادث قتل هنا ومثل هذا العنف يذكرني بصديقنا ورداني. هو لا يزال مطلوبا من البوليس لاشتراكه مع الأعداء خلال الحرب ولا يعلم إلا الله ماذا كان يفعل منذ ذلك الحين.

– ليس كثيرا. رد دافيد بهدوء.

– هل كان مسئولا عن أحداث الشغب التى وقعت فى الربيع؟ لقد قتلوا ثمانية من البشر فى حادث واحد و...

– لقد كانت مظاهرة عفوية تحتج على القبض على زغلول باشا ونفيه.

احتج رمسيس على ذلك بصوت عالى فرد دافيد:

– نعم، لقد كان ذلك قتلا غير مبرر ولكن لم تكن هناك خطة منظمة. مجرد مجموعة من البؤساء المحبطين أثارهم فوضوى. لم يكن ورداني مشتركا فى الحدث ولا الأتراك ولا الألمان بالرغم من الاتهامات التى أطلقتها الجهات الرسمية. ورداني اتصل بى منذ أشهر مضت ولكنى لا أعرف أين هو. ربما بباريس يراقب مؤتمر السلام على أمل أن يشق طريقه إلى ما بعد المؤتمر. ولكن هذا أمل بعيد، فزغلول باشا هو الزعيم المقبول لحركة الاستقلال وليس لورداني أى تأثير فيما عدا على القليل من الأصوليين المعزولين.

قال رمسيس:

– مثل رشاد؟ رد دافيد قائلا:

– رشاد من الثوريين وكل ما يقوم به هو إلقاء الخطب ثم يعود للاختفاء. ورداني ذكى ويعرف أن عليه اللعب بالسياسة الآن وليس تنظيم أحداث الشغب. هو يترك من هم على شاكلة رشاد يؤججون العصيان ولكنى سأكون مندهشا جدا إذا عرفت أن رشاد عضو فى منظمة ورداني.

– إذن ليست لديك النية فى الاشتراك؟

– اللعنة يا رمسيس، أنا فنان ولست مقاتلا. لقد أعطيت ليا كلمتى بأن أظل بعيدا عن وردانى وقلت له نفس الشىء. ولم أسمع منه منذ ذلك الحين. هل يمكننا الآن التخلص من الحديث فى السياسة ونركز على أمور أهم؟

وضع بعض العملات المعدنية على المنضدة وقام قائلا:

– تعالَ فسنذهب للبحث عن سجنك الغريب. رد رمسيس:

– سوف يكون ذلك مضيعة للوقت. لم يجبه دافيد. هو لن يكذب على صديقه ولكنه كان يخفى شيئا ليس على استعداد للبوح به

– لا يمكن للمرء أن يعرف. فلنبدأ بمحاولة تتبع خطواتك.

(١١)

كان المقهى مفتوحا والسوق الصغير ممتلئًا بالناس، قاما بتغطية المنطقة بما فيها من طرقات ضيقة ومسارب. كانت المبانى المرتفعة قد حولت المكان إلى أزقة مظلمة تطل عليها الشرفات وكانت النساء تطل من النوافذ ينادين على الباعة الجائلين بالحمير والناس يروحون ويجيئون لمقاصد شتى. كانت الشوارع المزدحمة تختلف كثيرا عن الظلام الساكن الذى كان سائدا وقت هروبه كما لو كانت فى مدينة أخرى. أخيرا صاح دافيد:

– ألا تستطيع تذكر أى علامة، مثل مسجد أو دكان؟

– رأيت الكثير من العلامات بما فى ذلك هرما وفلوكة. الأفيون يفعل ذلك. كان لدى ما يكفى من الإدراك لأعرف أننى أتخيل الأشياء ولكننى كنت مشغولا بمحاولة أن أسبق الرجل الذى كان يتبعنى ولم أذكر ذلك بالطبع للعائلة فقد كان ذلك سيؤكد اعتقادهم بأن باقى القصة كانت أيضا محض خيال.

– ولم تكن كذلك.

– لا يا دافيد، لست متأكدا أى جزء من القصة كان حقيقيا .

– هناك أمر مؤكد وهو أنك كنت مفقودا لساعات ولم تكن فى المكان الذى كان مذكورا فى الورقة التى جاءتك. هذا يعنى اختطافاً بالنسبة لى. طأطأ رأسه ولم يقل شيئا، فقال دافيد:

– على العموم كان الأمر جديرا بالمحاولة. فلنقم بزيارة للسوق.

– إذا كنت تخطط لاستجواب تجار التحف عن مجوهرات سايروس، والدى وأمى قاما بذلك بدون نتيجة، وهما أفضل منا نحن الاثنين فى هذا الخصوص.

– ولكننا أكثر منهما سحرا . قال دافيد مداعبا .

سارا وراء بعضهما تحت الشرفات التى تتدلى منها الملابس على الحبال إلى أن وصلا إلى الميدان المقابل لمسجد الحسين.

سأله دافيد:

– ما الذى حدث للغربى؟

– من؟ قال مستغربا .

– ذلك القواد النوبى الذى كان يتحكم فى حى الداعرات، والذى سجنه البريطانيون فى المعسكر.

– أعرف من هو. من يقدر أن ينسى الغربى؟ لكن ما الذى جعلك تفكر فيه؟

– كانت له يد فى كل شىء غير قانونى يحدث فى القاهرة، وقد أمدك بكثير من المعلومات فى مناسبات عديدة.

كان الغربى شخصية لا تُنسى، فهو يتعطر ويضع الجواهر ويرتدى ملابس النساء البيضاء الفضفاضة. لم يكن من الممكن أن يعجب رجل بإنسان يدير مثل تلك الأعمال

إلا بالغربى، قال رمسيس:

– نعم، كان مفيدا بطريقته الخاصة ولكنه لم يعد يحكم المكان الآن. لقد أخرجه أبى من السجن مقابل بعض الخدمات. لقد كان الأمر دائما هكذا، مع الغربى، شىء مقابل شىء، وتم نفيه إلى قريته بالصعيد وأعتقد أنه لا يزال هناك إذا ما كان حيا.

– هذا سىء للغاية.

قاما بالمرور على التجار الأكثر شهرة وشرح دافيد لهم أنه يريد إسورة لزوجته وانتهى بعدد من الأساور الفضية بدوية الصنع. شاهدا أيضا عقودا من القيشانى ومسابح المومياوات وأشياء أخرى، لكن التاجر كان قد تعرف عليهما وأدرك أنهما لن يشتريا شيئا ولكن الأمر كان يستحق المحاولة.

قال رمسيس:

– كان باستطاعتى أن أقول لك أنهم لن يقدموا لنا أسوار سايروس فقد تعرفوا علينا.

قال دافيد:

– لا أعتقد أن لدينا الوقت الكافى للتخفى فى صورة سياح كبار السن كما كنا نفعل. ضحك رمسيس وقال له:

– أخرج ذلك من حساباتك يا دافيد.

– إذن فلنتناول الغداء لدى بسام.

– لن يقول لنا شيئا.

– ولكن سنحصل على وجبة ممتازة تجعلنى أفكر بطريقة أفضل لكى أقضى الأمسية مع عمى سيثوس.

(١٢)

توقعت أن الشخص الوحيد الذى ينتظر الدعوة بالعشاء الاحتفالى كان هو سيثوس. كنت قد هيأت والتر بقدر ما أستطيع بعد أن وجدته قد أفاق تماما من الناحية الجسدية وإن كان لا يزال مذهولا. كان استقباله لنبأ عدم إخلاص والده أفضل مما توقعت ربما لأنه هو أيضا عانى من برود أمه، ولكن بالرغم من وجود تأكيدات بأن سيثوس قد كفّر عن أخطائه بخدماته البطولية لبلده، وأنه أصبح صالحا الآن، لاحظت تحفظ والتر على ذلك.

كان يوما متعبا، خاصة لمن أخذوا الأطفال إلى المتحف. كنت قد صممت على مصاحبتهم لأننى أعرف أن إمرسون ووالتر من الأرجح أنهما سينشغلان بالآثار ويتركان الصغار يتجولون بعيدا.

أخذنا زينتنا على أهبتها وحاولنا أن نبدو وكأننا فى لقاء معتاد مع أصدقاء قدامى. كان سيثوس يرتدى ملابس السهرة وينتظرنا عند خروجنا من المصعد وأخذنا إلى غرفة المطعم الخاصة التى قام بحجزها لنا. كانت الموائد مزينة بالزهور، وأصر على أن يجلس إمرسون فى مكان الصدارة وما أن جلسنا جميعا حتى انطلقت سدادات زجاجات الشمبانيا لتملأ كؤوسنا ثم صاح سيثوس قائلا:

– فى صحة الملك والقلوب المخلصة التى تخدمه، فى صحة الحب والصداقة. وبتقدم الحفل وجدت أنه من الصعب أن أسيطر على ضحكاتى. ربما كانت الخمر هى السبب. ولكنى استمتعت بمراقبة سلوك سيثوس. كان قد قرر أن يكسب ود الجميع وقام بذلك خير قيام.

إيفلين التى كانت على استعداد للعفو عن جنكيزخان إذا أبدى ندمه وقعت فى أسر سحره وكانت ليا مشدوهة به. قام هو بمدح أعمال والتر ذاكرا أمثلة ليؤكد أنه كان على دراية عميقة بها وتحدث بإعجاب عن إنجازات إمرسون وإنجازاتى أنا الأخرى، وامتدح بطولة الجيل الأحدث قائلا:

- إنهم أطفال العاصفة. لقد مرت العاصفة نتيجة لتضحياتهم ليس فقط للرجال الصغار الذين جازفوا وضحوا بحياتهم ولكن أيضا للنساء المعظيمات اللاتى عانين ألما أعظم من الانتظار والفقدان.

امتلأت عينا أيفلين بالدموع. لم يكن هناك أعظم من الاعتراف بفضل موت ابنها فى المعركة. حتى إمرسون تحركت عاطفته. ولكن الوجه الوحيد الذى لم تتغير قسماته كان وجه رمسيس بالرغم من أن التحية كانت تعنيه هو ودافيد. نظر رمسيس تجاهى وفى عينيه نظرة ريبة مما يجرى حوله.

لم يمر وقت طويل حتى بدأ إمرسون يتململ فى ضجر. لم يكن ممكنا أن يكون الحديث عن الآثار المصرية فى حفل للعشاء وكنت ألاحظ لهفته لسؤال سيثوس عن عدد من الأمور ولكن نظراتى المانعة جعلته يتريث، إلا أنه صاح فجأة بصوت جهورى:

- لقد كان ذلك ممتعا بلا شك ولكن لنبدأ العمل. أريد أن أعرف هل قلت لوالتر يا أميليا؟

- إذا كنت تشير إلى سرقة سايروس فقد أخبرتنى. قال والتر ذلك بابتهاج واضح، ثم أضاف:

- إنه لأمر محزن ولكن أميليا ستتمكن من حل القضية بسرعة.

انتهى من كأسه وأشار إلى الجرسون ليملأه ثانية. نظر له إمرسون وقال له؟

- لقد شربت بما فيه الكفاية يا والتر فإما أن تذهب لتنام أو تلقى بالا لما يقال. ابتسم والتر قائلا:

- إذن سأذهب لأنام. سعدتم مساءً وشكرا على الأمسية الممتعة يا شقيقى.

(١٣)

بعد أن تركا الغرفة اقترحت أنه ربما لا يجب أن نناقش الأمور التى يصر

أمرسون على مناقشتها فى وجود السفرجية، وعندما عاد سيثوس لمقعده قال:

- ليس لدى شيئا له أهمية لأقوله.

امتعض إمرسون بما يفيد عدم استعداده لقبول ذلك فاستطرد سيثوس:

- لقد قمت ببعض التحريات ظهيرة هذا اليوم وكما كنت أعرف مسبقا فإن المساعدين الرئيسيين لى اختفوا. سألته:

- اختفوا! ماذا تقصد؟

- العديد منهم ماتوا فى فرنسا. هل تتذكرين رينيه؟ لقد قتل فى الأسبوع الأول من الحرب.

لم أخفِ أسفى، فقد كنت أعرف ذلك الفرنسى الشاب. كان مجرما ولصا ولكنه كان رجلا مهذبا. قال سيثوس:

- لا يزال سير إدوارد حيا وبحالة طيبة. لا عليك من الآخرين فيكفى القول بأنهم خارج الصورة. لقد عانت الكوادر كثيرا من بعدى، فبدون قيادتى أصبحوا مهملين ودفعوا ثمن ذلك. بعض تجار الآثار الذين كنت أعرفهم لا يزالون فى المهنة ولكنهم لم يكونوا أعضاء دائمين فى المنظمة. لتلخيص الأمر، لا أعتقد أن شخصا بالقاهرة قد أخذ مارتنللى المجوهرات إليه.

- هل بإمكاننا تصديق ذلك؟ تساءل إمرسون متعجبا:

- عليك أن تصدق ذلك. هناك أشخاص معينون لى معهم تعاملات سرية ولكنهم مبعثرون، فالبعض فى أوروبا والبعض فى أمريكا والبعض فى الشرق الأوسط. سوف أستمر فى التحريات ولكن ليس الآن فيجب أن أعود إلى قسطنطينبول غدا فعملى هناك لم ينته بعد.

قلت له:

- أعتقد أنك لن تخبرنا ما هو هذا العمل؟

– أنت دائما على صواب يا أميليا.

– إذن فعلينا القول سعدتم مساءً. قاطعة بذلك إمرسون.

لم يكن عندى النية فى ترك سيثوس يخرج من الأمر بهذه السهولة. كنت أعتقد أنه ربما يتكلم بصراحة أكبر حال عدم وجود الآخرين، لذا أرسلتهم إلى غرفهم وكان رمسيس ينظر نحوى بشك. نظرت إلى سيثوس الذى كان يتوقع ذلك منى فقال:

– نعم يا أميليا. لدينا بعض الأشياء لنقولها لبعضنا.

قال إمرسون:

– ولى أيضا. ووقف كالصخرة عندما أرسلت الجميع إلى غرفهم.

قال سيثوس:

– نعم. فلنبحث عن ركن هادئ.

وجدنا ما نبتغى فى القاعة المغربية التى كانت خافتة الأضواء ولكن سيثوس لم يضيع وقتا فى المناقشة وقال:

– إذا أخذتم بنصيحتى فعليكم الخروج من القاهرة بأسرع ما يمكنكم.

قلت أنا:

– لقد وصلت إلى نفس النتيجة. صاح إمرسون:

– متى استنتجت ذلك يا بيبودى؟ لا تقولى أنك كنت تكلمين عبد الله مرة أخرى. ارتفع حاجبا سيثوس فى دهشة. فاستطرد إمرسون:

– إنها تحلم به. أنا إنسان عقلانى وليس عندى مانع فى أن تقوم زوجتى بحديث طويل حميم مع رجل هى معجبة به. فأنا الآخر كنت معجبا بالرجل أيضا. ولكنى أعترض على قيامها بعرض أفكارها على أنها تخص رجل ميت. رد سيثوس قائلا:

– أنا مندهش أن أجدك بهذه الكيفية يا رادكليف.

صاح به إمرسون بحدة:

- لا تنادينى براد كليف. ارتجفت شفتا سيثوس وهو يقول:

- سأحاول ألا أفعل ذلك. ولكنى أتوقع أن أميليا ستصل إلى استنتاجاتها بعد اعتبارات عاقلة. لقد كنت أفكر فى تلك المغامرة الغريبة لرمسيس. إنها تقلقنى. رد إمرسون قائلا:

- أنت تعطى الانطباع أنك مندهش ولست قلقا.

- لم أستطع مقاومة إغاظة الصبى قليلا. إنه يأخذ الحياة بجدية شديدة. من المفهوم أن بعض السيدات يحملن تجاهه مودة خاصة وقمن للاستحواذ على انتباهه ببعض الأساليب الغريبة. وكغيرى من أفراد العائلة، يمنعنى الحياء ومراعاتى لمشاعر أخى من ذكر أسمائهن. يبدو أنه جذاب للنساء.

رد إمرسون:

- هذا هراء. ولكن سيثوس قال بجدية:

- البديل لذلك ليس بلا أضرار، فلم يكن ولدك عاطلا عبر السنوات الماضية. وقد أزعج العديد من الناس مثل الأتراك، السنوسى، الوطنيين. وحتى بعض الناس فى خدمتنا الخاصة. ودافيد ليس سليما هو الآخر، فهو معروف للبوليس كعضو فى أحد الجماعات الوطنية. العصيان المدنى والشغب قد يندلعان مرة أخرى فى أى وقت، وإذا ما حدث ذلك فسيكون أول المتهمين.

صحت قائلة:

لا بالتأكيد. إن خدماته لإنجلترا خلال الحرب قد واجهته بالمجازفات الصعبة ورغم أن أنشطته غير معروفة للرتب الصغيرة، فإنها معروفة للأعضاء الأرقى رتبة فى الخدمة الخاصة، ولن يكون مدهشا بالنسبة لى أن يكونوا يخططون لاستخدامه. بعض أعضاء منظمته السابقة فروا ويعتبرونه خائنا لقضيتهم. فهل هى مجرد صدفة أن

رمسيس قد اختطف قبل وصول دافيد لمصر بيوم واحد؟ اعترض إمرسون قائلا:

- لا يمكن أن يكون الأمر مجر خطأ في تحديد الشخصية.

- لقد قلت أني لا أستطيع تفسير الأمر. قد لا تكون هناك صلة. وعلى أي حال، سوف يكونان أأمن في الأقصر.

تمتم إمرسون بعض كلمات لم نسمعها ثم قال:

- أمل ذلك ولكن!! ثم سكت، فرد سيثوس:

- سأتبعكم بعد أيام قليلة. فسألته:

- هل تعطيني كلمة شرف؟

- لك كلمتي فيما عدا لو حدثت أمور غير متوقعة.

ثم نهض واقفا وهو يقول:

- تصبحون على خير يا أميليا ويا أخي إمرسون.

(١٤)

كنت قد وصلت إلى استنتاجاتي بطريقة عاقلة. كانت أحلامي المتباعدة عن عبد الله الذي ضحى بحياته لينقذ حياتي قد تعتبر غريبة ولكنها كانت واضحة ومتماسكة كما لو كانت مقابلة مع صديق حي. لم أكن قد حلمت به منذ فترة ولكني حلمت به هذه الليلة.

كنا نتقابل دائما عند نفس المكان، في المرتفعات التي تعلو الدير البحري بالممر المؤدي إلى وادي الملوك وفي نفس الوقت عند انبلاج الصبح عندما يملأ نور الشمس الوادي بالضياء.

لم يكن قد تغير منذ أن بدأت أحلم به. كان طويلا عفيا ولحيته سوداء كلحية رجل

فى عنفوان شبابه. حيانى كما لو أننا تقابلنا حديثا وقال:

- يجب عليك العودة للأقصر فى الحال. رددت قائلة:

- أنوى ذلك. لو أنى سألتك لماذا فسأكون أضيع وقتى. أنت مغرم بالإشارات المختصرة. ولكنه قال:

- لأن هناك مشاكل.

- أنا أعرفها جيدا. أشاح بيده قائلا:

- ليست الخاصة بسرقة كنز فاندرجلت أفندى. هذا جزء منها، ولكنه الجزء اليسير. راقبى الأطفال جيدا. أمسكت بيده بقوة.

- يا إلهى القدير. لا تكن غامضا يا عبد الله بالنسبة لهذا الأمر. إذا كان الأطفال فى خطر فلا بد أن أعرف ما الذى يتهددهم ولماذا؟

ابتسم وظهرت أسنانه البيضاء من تحت لحيته السوداء وقال:

- لو كنت أعرف لكان بإمكانى إخبارك، حتى لو كان فى ذلك تجاوز الوصايا التى تحكمنى هنا. إننى أرى الخطر محدقا بكم جميعا وليس فى هذا جديد وهم ليسوا بقادرين على حماية أنفسهم. إحرسيهم جيدا وسوف يكونوا آمنين.

- تأكد من أننى سأفعل وأنت هل ستقوم بحراستهم أنت أيضا؟

- سأحرسكم جميعا. أنت لم تزورى قبرى منذ فترة.

- لا ولكن سأفعل حالما أصل إلى الأقصر.

- نعم، ستذهبين ومعك الآخرين. خذى حفيدى معك لزيارة قبرى وستندهشين مما ستجدين يا ست.

تخلص برقة من قبضتى وانسحب بعيدا. كلماته الأخيرة لم تكن موجهة لى وإنما كانت وكأنه يفكر بصوت عالٍ.

- هى ليست حذرة وتجازف بصورة غبية. سأفعل ما أستطيع ولكنها ستدفع بالتساوى مقابل قوى الشيخ.

(١٥)

وقفت فى المكان الذى غادرنى فيه أراقبه وهو يخطو بعيدا عبر الممر المؤدى إلى الوادى. هتفت به" ما الذى تعنيه؟" كنت أعرف أننى لن أتلقى إجابة. نظر عبد الله خلفه وابتسم ورفع ذراعا من ذراعيه وأشار لى أن أتبعه ليس عبر الممر المعروف ولكن إلى الأقصر.

وافقت العائلة كلها على قرارى وقبل أن نغادر قمنا بعمل ترتيبات لإرسال المربية الشابة لإنجلترا لأنها حتى خلال الرحلة بالقطار كانت تقول إنها مشتاقة للوطن حيث أنها لم تحب مصر مطلقا. لا بد وأن ذلك يرجع إلى العشوائية والضجيج فى محطة القطار مما أخافها، لأنها لم تر أى شىء آخر من مصر. وجدت أسرة محترمة عائدة إلى إنجلترا وكانت الأسرة سعيدة لأنها ستحظى برعايتها للأطفال خلال رحلة العودة. كان آخر ما نحتاجه هو طفلة بريئة فى يدنا وما أن وصلنا إلى الأقصر حتى ستحصل ليا على كل المساعدة التى تطلبها. كانت كل امرأة مصرية من عائلتنا تود أن تضع يدها على أطفال دافيد.

ركبنا قطار المساء. كل من يسافرون ويصحبتهم أطفال صغار يفضلون هذا الموعد حيث أن هناك فرصة لأن يناموا خلال الرحلة. ومن نظرة الأبوين فى الصباح أدركت أن إيفى لم تنم. أدركت بعد وقت طويل أن مزاجها عنيف بما لا يتناسب مع ملامحها. مما لا شك فيه أن التدليل أكثر مما يجب قد أفسدها.

لم أخبر الآخرين بتحذير عبد الله لأنهم لن يأخذوه على محمل الجد وسوف يعتبره البعض مجرد هلوسات وأحلام. كان من المطمئن رؤية العائلة بكاملها تنتظرنا عند المحطة بالأقصر، داود وسليم وخديجة وبسيمة. لوحت سينيا وجارجرى بالتحية. كان أول سؤال لإيفلين هو "أين التوءم؟" أجاب جارجرى:

– نحن لا نأخذهم لأى مكان ما لم نضطر لذلك يا سيدتى.

بدت إيفلين مصدومة فأضفت قائلة:

– بالتأكيد ليس فى زحام كهذا. يا إلهى لم أر زحاما كهذا من قبل هنا.

كان أول هاجس عندى أن أضع نهاية لتلك المظاهرة خوفا من أن تخيف الأطفال. كانوا يتم تسليمهم من يد إلى أخرى، ولكن ذلك لم يصبهم بالاستياء. كانت إيفى مسرورة لرؤية داوود وكانت دوللى تحتضن خديجة. وقفت جانبا بجوار برتى الذى جاء لمقابلتنا نيابة عن أسرته. قال لى:

- أمى وسايروس قررا ألا يضيفا إزعاجا آخر. هما يأملان أن تتناولوا الغداء لدينا هذا المساء. تجمع بسيط لأصدقاء قدامى، وليس رسميا.

- أعتقد أننى أقبل ذلك بسرور. خفضت صوتى وأنا أسأله:

- هل هناك أخبار؟

- لا، وهل لديكم معلومات جديدة؟

- كنا سنتصل بالهاتف بسايروس فى الحال لو كنا وجدنا المجوهرات، لكن حدثت بعض الأمور.

- أسألك العفو، هل رمسيس بخير؟

- فى أحسن حال. سنخبركم بكل شىء فى المساء. هل أستطيع إحضار سليم معنا. لقد كان هو والآخرين على علم كامل بالوضع ولا أعتقد أن سايروس قادر على مناقشة أى شىء آخر. رد برتى قائلا:

- سليم دائما محل ترحيب بالطبع وأنت محقة بشأن سايروس، فهو فخور بسمعته الناصعة التى يشعر بأنها مهددة. قلت بحزم:

- لا شىء من ذلك. سنخرجه من هذه المحنة، سنراكم جميعا فى المساء.

الفصل الرابع

(١)

ما إن قمنا بالحصول على الأقنعة ونقلناها معنا عبر النهر تفرق الآخرون حتى لم يبق إلا أنا وإمرسون مع الرجال الثلاثة الذين جلسوا بالشرفة يتحاورون.

وبينما كنت أرقبهم، أدركت أن إمرسون كان يرقبهم هو الآخر ولكن بطريقة مختلفة. فرك يديه وقال:

– لا يزال الوقت مبكرا، ما قولكم فى الذهاب إلى موقع المقبرة؟

قلت بإصرار:

– دعهم لحالهم يا إمرسون.

– ولكننى أريد فقط!

– أعرف ما تريد. رحمة بهم، دعهم يستمتعون بصحبتهم هذه الظهيرة قبل أن تدفعهم للعمل. ألست سعيدا برؤيتهم معا؟ . رد إمرسون قائلا:

– حسن.

– اذهب أنت يا إمرسون.

– إلى أين؟

- إلى أى مكان.

دخل مبتسما إلى المنزل وذهبت أنا إلى الرجال الثلاثة. كانوا قد جلسوا ورؤوسهم متقاربة فسألتهم:

- هل هناك ما أستطيع تقديمه لكم؟

- لا، شكرا يا أمى. رد رمسيس.

بعد لحظة قال دافيد:

- ألا تجلسين يا عمتى أميليا؟ قلت مبتسمة.

- أنا ل أريد مقاطعتكم يا عزيزى.

- لا على الإطلاق. قال رمسيس ذلك مشيرا لى لأجلس.

كان دافيد يدخن غليونه وسليم يدخن سيجارة.

قال دافيد:

- ما هذا الكلام الذى سمعته عن أن عبد الله أصبح قديسا؟

- وكيف عرفت ذلك؟ لقد قرر رمسيس أنه لن يقول لك شيئا أو للبروفيسير.

نظرت إلى رمسيس نظرة تأنيب فأخذ على الفور فى اخترا ع الأعذار.

- لقد حدثت أمور كثيرة ولم يبد لى أن الأمر هامّ آنذاك.

علّق سليم قائلا:

- هل كان أبى هو من أخبرك فى حلم من أحلامك؟

خوفا من الارتياب خاصة من جانب إمرسون، لم أقل إلا القليلين عن حلمى الغريب مع عبد الله ولكنى لم أندهش لانتشار الرواية، حيث إن فاتيما وجارجرى يجيدان التنصت وربما يكون أى منهما نشر المعلومة وما إن عرف داود بالأمر حتى

كانت الأقصر بكاملها تعرفه. قلت بهدوء:

– في ألحقيقة سمعت هذه الأخبار من داود. هل كان ذلك ما تناقشونه؟ لقد كنتم في منتهى الجدية. وماذا تقصد يا رمسيس بكلمة آنذاك؟ هل حدث شيء ليغير من وجهة نظرك؟

(٢)

أطلق رمسيس حلقة من الدخان بينما ضحك دافيد قائلا:

– لا فائدة من محاولة إخفاء أي شيء عنها يا رمسيس. ولماذا نفعل ذلك؟ لقد كان الأمر مجرد مصادفة وحزنا على حسن ولكنى أتوقع أنه مات سعيدا. قلت مشدوهة:

– مات حسن؟ متى وكيف؟

رد رمسيس:

– ألم يخبرك عبد الله عنه؟

– إن حسن هو المسئول عن الوضع الجديد لعبد الله، فقد نذر نفسه لخدمة الشيخ وتحمل مسئولية قبر عبد الله. كانت الفكرة سريعة الانتشار وبدأ الناس يفدون إلى هناك لتقديم النذور والصلاة من أجل البركة. كان حسن سعيدا أو بدا كذلك عندما رأيته آخر مرة، ولكنه وجد ميتا منذ عدة أيام مضت بواسطة أحد المريدين. قال سليم مؤيدا:

– لقد دفناه في تلك الليلة، لقد كان قلبه مريضا يا ست.

– كيف عرفت؟ هل فحصه الطبيب؟

– وما الحاجة لذلك؟ لم تكن هناك علامات عليه وكان وجهه يشي بالسلام. كما أنه

لم يكن شابا صغيرا يا ست الحكيمة.

– إنني آسفة. كنت أقولها بصدق فقد كان حسن معنا لسنوات عاملا مخلصا ورفيقا مرحا. قلت لدافيد:

– أتوقع بأنك ستزور قبر عبد الله على وجه السرعة يا دافيد، سوف تكون مسرورا عندما ترى كيف تم تنفيذ ما أردته. سأذهب معك إذا لم تمانع.

– بلى يا عمتى أميليا، لقد ناقشنا ذلك أنا وليا.

– تستطيع أن تأخذ دوالى أيضا. اتسعت عينا دافيد وقال:

– هل تعتقدين أننا يجب أن نصطحبه معنا؟ إن التجربة ستكون مخيفة لطفل صغير مثله.

– لا على الإطلاق. أن يسمع عن شجاعة جده وشخصيته النبيلة أمر بديع، ثم توقفت فجأة عن الكلام ونهضت وأنا أقول:

– لا بد من أن أذهب لبعض الأمور، لا تقفوا. بينما كان رمسيس ينظر لى شذرا.

ظل عقلى يفكر فى حسن وموته. لا يمكن للمرء أن يفكر فى أنها مصادفة، فعندما مات، كما كان لا بد وأن يحدث يوم ما، وقع الحدث عند قبر عبد الله حيث كان حسن يقضى معظم وقته. ما أصابنى بالارتباك هو لماذا اختار أن يقضى سنواته الأخيرة فى الأعمال الدينية. فقبل وفاة زوجته كان غارقا فى اللذات فى حدود ما تسمح به عقيدته وأحيانا فوق ذلك، كما أن الانجذاب الدينى لا يمكن تفسيره إلا بالنسبة لمن يمارسه. والكثيرون يلجأون إلى الراحة التى يوفرها الدين فى العمر المتقدم. لا بد وأن حسن كان مؤيدا للقديس أوغسطين الذى سأل الله أن يغفر له خطاياه – ولكن ليس قبل أن يكون قد انتهى من ارتكابها.

قد يفترض المرء أن عبد الله قد ذكر شيئا عن موت حسن، فقد أشار إلى ضرورة

زيارتنا للقبر ولم يقل لماذا. كان هذا هو حال عبد الله دائما، تسره الإشارات المبهمة والعبارات الغامضة. كان دائما ما يقول إنه مجبر بالقواعد الخاصة بما بعد الموت، ولكننى كنت أشك فى أنه يتعمد إغاظتى بذلك.

كنا سنتناول الغداء فى الرابعة حيث إن فاتيما صممت أن تقدم وليمة فخمة لم ير البيت مثلها مثيلا من قبل. كانت تساعدها نصف دستة من النسوة بالمطبخ وعندما استطلعت الأمر أمرتنى بالرحيل. لا يمكن لأحد أن يناقش فاتيما فى موقف كهذا لذا أطعت أمرها.

(٣)

كانت الشرفة الواسعة مزدحمة، حيث وقف الكبار بجوار الحائط وحول الحافة، وكان الأطفال يلعبون فى الوسط. كان الأطفال قد وقفوا يحملقون فى بعضهم البعض إلى أن قدم دافى زرافة خشبية لإيفى مصحوبة بتحية طويلة.

دفع دافى بالزرافة الخشبية إلى يدها ودعاها للجلوس معه على الأرض، حيث وضعت باقى الحيوانات الخشبية. لم يرق ذلك لشارلا وغضبت، فالحيوانات التى تشمل أسدا، فرس البحر، فيل، تمثل اللعب المفضلة للتوءم. لحسن الحظ لم يفهم أحد ما قالته تشارلا، فتدارك رمسيس الموقف بسرعة وقال لها:

- أتحبين أنت وإيفى تناول بعض البسكويت؟

على كل حال مضت الأمور على ما يرام. كان والتر ودافيد هما الوحيدين الذين أعطيا فاتيما حقها من المديح على تلك الوليمة الفاخرة. انشغل إمرسون بإطعام الأطفال بسكويتا وكعكا. قام رمسيس وذهب ليجلس بجوار دافيد الذى رحلت عينه إلى شريط الصحراء الأصفر الذى يحيط بالزرع وتداعبه أنوار الغسق الرمادية فألقى بذراعه حول كتف رمسيس وتنهد بعمق قائلا:

– يا إلهى ما أحلى العودة إلى هنا. أجابه رمسيس:

– أرجو أن تشعر بنفس الإحساس صباح الغد عندما يأخذك أبى عند الفجر إلى دير المدينة. ضحك دافيد قائلا:

– لقد كنت أتطلع لذلك من سنوات. ما هو مشروع سايروس؟

– لديه عدد من المشاريع فى رأسه، فهو يريد إنتاج سلسلة من المجلدات تحوى رسومات المقابر الخاصة بدير المدينة. بعضها رائع ولم يسبق نقلها من قبل ولكنى أتوقع أنه يريد رسم بعض الرسومات من مقبرة الأميرات. الصور الأبيض والأسود لا تفيها حقها من الجمال والإبداع. هناك رداء مطرز سوف يصيبك بالذهول.

– لا أستطيع الانتظار لرؤية المجموعة هل هناك ما يمكننا عمله لاقتفاء أثر المجوهرات المفقودة؟

– أنت تعرف أحوال الأقصر. أخبار الأشياء الثمينة تنتشر بسرعة وسليم يعرف كل فرد بالأقصر ولكنه لم يسمع شيئا عنها. علينا أن نسمع كلام سيثوس بأنه لا أحد بالقاهرة يعرف عنها شيئا، وإذا فشل هو فليس لدينا أمل فى النجاح. لقد فعلنا كل ما نستطيع.

– ربما لو تحدثت مع بعض التجار هنا؟

– لقد فعلنا كل ما يمكن فعله. ردد رمسيس، ثم قال مستطردا:

– اللعنة يا دافيد فأنا أكره أن أبدو أنانيا ولكنى آمل أن نستطيع نسيان كل تلك الأمور والتركيز على عملنا.

(٤)

سكت لحظات ثم سأل:

– ماذا عن السيدة المحجبة؟

– ظننت أننا اتفقنا على نسيان الموضوع. قال دافيد:

– لدى فكرة جديدة لا أعرف كيف أضعها.. رد رمسيس:

– أعتقد أن بإمكاني ذلك. كان يدرك أن ذلك لا بد وأن يحدث. مشط شعره بأصابعه قائلا:

– هل هناك امرأة فى سالف أيامى قمت بإغوائها ثم هجرتها بلا مبالاة وتريد الانتقام؟ هذا ما كنت تفكر فيه أليس كذلك؟. صاح به دافيد بدهشة:

– أهذا معقول. هل قالت لك نفرت ذلك؟

– لا، تحكم رمسيس فى مزاجه واستطرد:

– على كل حال، كنت أتمنى لو أنها قالت ذلك. هناك خاصية فى نفرت وهى أن صمتها أسوأ من اتهامها. رد دافيد:

– أعلم تماما ما تقصده. إنه أمضى سلاح تملكه المرأة. لو أنكرت الذنب قبل أن تتهم فإنهن يعتبرن ذلك نوعا من الاعتراف. انظر الآن يا رمسيس. أعرف أنك لم تتصرف بلا شرف مع أى امرأة، ولكن ليست كل النساء عاقلات. هل أنت متأكد أنك لا تتذكر واحدة تحمل لك ضغينة؟

– لا، ولا تطلب منى أن أعدد لك الأسماء اسما اسما.

– على رسلك، لن أطلب ذلك. كانت عينا دافيد تلمع بالدهشة وقال:

– فقط إعط لهذه الفرضية بعض التفكير.

قال رمسيس:

– سنتحدث عن ذلك فى وقت آخر. من الأفضل أن أساعد ليا كى تدخل الأطفال لغرفهم.

وحمل الأطفال إلى غرفهم وهم يزمجرون، وقام رمسيس ودخل إلى غرفته.

سألته نفرت بلا مبالاة:

– ماذا كنت أنت ودافيد تقولان؟

لو أن الزواج قد علمه شيئا واحدا فقد كان هذا الشيء هو أن يجيب بسرعة إجابة منطقية عن سؤال مفاجئ. أجابها قائلا:

– لقد كان مهتما بأمر المجوهرات المختفية، وكان يسأل إن كان هناك شيئا يستطيع فعله.

– وهل هناك مثل هذا الشيء؟

– لا أستطيع التفكير في شيء. سليم غطى بالفعل كل ما يقال.

– أهذا كل شيء؟

انتهى رمسيس من خلع ملابسه بسرعة قائلا:

– لقد ناقشنا مشروعاتنا المستقبلية. سأستحم أولا إذا كان ذلك يناسبك.

– افعل.

ما إن دخل إلى الحمام حتى راح يلعن نفسه لهروبه من الموقف بدلا من أن يفتح الموضوع في العلن ويدافع عن نفسه. لقد خطرت على ذهنه نظرية دافيد ولكنه لم يأخذها بجدية، ما فعلته هو أنها أحرجته وأوقعته في مشاكل مع زوجته. وهذا ما حدث.

هل تكون دوللي بلنجهام؟ لقد كانت في السادسة عشرة وربما لم يكن حكيما بدرجة كافية في جهوده للهرب من مطاردتها الحثيثة له، كانت أنانية ومغرورة. ولكن هل هي بهذا الذكاء بحيث تضع تلك الخطة الخبيثة المعقدة وهل لديها الإمكانيات لتنفيذها؟ إنه لا يعرف حتى ماذا صارت إليه. أتكون كريستابل؟ فكرة أن ترتدي تلك

الفتاة زى هاتور وتهمس بالكلمات الناعمة جعلته يضحك عاليا. لم يفترقا وهم أعداء، ولكنها لم تكن بالفتاة التى تريد الثأر منه.

انفتح باب الحمام ودخلت نفرت. قفز إلى منشفة وهو يتمتم بالاعتذار عن بقائه لأطول من اللازم. هل كان يستمتع بالحمام وهو يسترجع قائمة انتصاراته كما قد يصفها البعض. فى دفاعه عن نفسه يستطيع ادعاء أن عددا كبيرا منهن كن متحيزات وغير فاضلات فيما عدا اثنتين أو ثلاثة. كانت نظرية غبية ولن يفكر فيها مرة أخرى.

(٥)

خفت صوت أذان المغرب وأظلمت السماء وهم فى طريقهم إلى القلعة، وصل سليم بعدهم بدقائق وهم ينزلون من المركبة. كان فى جلبابه الفضفاض فوق فرسه المفضل يبدو فى ضوء المصابيح الخافت التى تضىء الفناء فى صورة من الرومانسية الخالصة وكان يدرك ذلك. تنهدت إيفلين إعجابا وكذلك ليا وابتسم سليم برضا. قال له رمسيس:

– جئت فى الوقت المضبوط.

قفز سليم من فوق الجواد وأسلم المقود إلى أحد رجال سايروس:

– كان يجب أن آتى مبكرا عن ذلك أو أتأخر، فقد أطلق أحدهم علىّ الرصاص.

ارتفعت همهمات الذعر والاهتمام خاصة من القادمين حديثا. وبعد أن حصل على الأحاسيس التى يرغبها أظهر سليم لا مبالاته وقال:

– أنا لم أصب. قال إمرسون:

– لا بد وأنهم أولئك الصيادون الأغبياء، فهم يخرجون فى ضوء المغرب لاصطياد الثعالب حيث يوجد منها أكثر مما كان فى الماضى. وبعضهم لا يحب أن يحمل السلاح مطلقا.

نادى سايروس عليهم صائحا:

- ادخلوا أيها الرفاق. مرحبا بكم. جميل أن أراكم هنا ثانية.

وبينما سايروس يصافحهم، انتحى سليم برمسيس جانبا وقال له:

- أنا لا أريد إخافة النساء.

- تقصد أمي؟

- الست الحكيمة لا تخاف من رجل أو حيوان أو عفريت الليل ولكن يجب أن يقوم أحد بإبلاغ الشرطة عن الصيادين يا رمسيس، فقد أصبحوا لا يراعون شيئا.

مد ذراعه وفرد كم الرداء فظهرت بكم الرداء عدة ثقوب. كان من الواضح أن طلقة مرت بالقرب من جنبه.

كان اللقاء غير رسمي استجابة لعدم تفضيل إمرسون لملابس السهرة. كان سايروس يرتدى بدلة من الكتان الأبيض وبدا برتى كواحد من الشعراء وقد وضع كوفية حول رقبته وارتدى معطفا من القطيفة الزرقاء، لكنه كان ساهما.

كان السرور الذى حيا به سايروس الصحبة قصيرا، فسرعان ما اكتسى وجهه بالأسى وكما توقع رمسيس، فعقله كان دائم التفكير فى المسروقات. قلت أنا.

- الآن يا سايروس، حان الوقت ليكون لديك تصورا مناسبا عن ذلك الأمر فهو فى الحقيقة ليس بهذه الأهمية. صرخ متعجبا:

- كيف تقولين ذلك؟

- هناك مئات من الأشياء فى المجموعة يا سايروس بما فى ذلك أساور أخرى وعديد من القلادات. فبعد زيارة واحدة لا يستطيع لاكو أن يدعى أنه يتذكر كل تلك الأشياء.

كانت نبرات صوتى إقناعية بحيث بدا أن اقتراحى لاقى قبولا لدى سايروس،

نظر إمرسون لى قائلا:

– لا يمكن أن تكونى جادة يا بيبودى.

انفجر رمسيس قائلا:

– إنه سيكون غير أخلاقى بالمرة. سيكون علينا تغيير كل التسجيلات التى قمنا بها، وهناك عشرات من المراجع الخاصة بتلك القطع وكلها مفهرسة جيدا. إن سمعتك ستتأثر بشدة يا سايروس إذا ما ضبطنا ونحن نمارس خدعة كهذه الخدعة. إنك قمت بالمحافظة لمصر وللعالم على كنز رائع ومنحت من طاقتك وثروتك الكثير فى سبيل ذلك، حتى لاكو لا يستطيع تحميلك مسئولية خيانة أحد موظفيك. مثل ذلك الأمر يحدث باستمرار. إن أمى كانت تلقى بإحدى النكات، أليس كذلك يا أمى؟ أجبته قائلة:

– إن نكتة صغيرة لا تضر. لقد وضعت الأمر فى نصابه يا عزيزى.

سأل سايروس:

– هل تعتقدون أن لاكو سيرى الأمر على هذا النحو؟

رد إمرسون:

– إذا لم يفعل سأشير إلى بعض الأمور المخجلة التى حدثت فى هيئة الآثار. لقد سرقت مخازنهم. قاطعته نفرت قائلة:

– نعم يا أبى، لكنه لم يسكت وقال:

– مومياتنا التى وجدناها فى مقبرة تتشيرى. لقد فقدوها. نعم، فقدوها. رددت قائلة:

– نعرف ذلك يا إمرسون، وأنا واثقة أنها ستترك أثرا على لاكو. وعلى أية حال هو لن يعود قبل عدة أسابيع وقد تظهر بعض الأمور قبل ذلك.

(٦)

بعد العشاء، صعد الجميع للطابق العلوى لمناظرة المجموعة المكتشفة. استغرق فتح الباب بضع دقائق من سايروس؛ لأنه كان قد وضع قفلين إضافيين أحدهما كان ثقيلا بدرجة كبيرة. قال له رمسيس ضاحكا:

– تغلق باب الحظيرة بعد سرقة الخيول؟

– لا يا سيدى، إن مارتنللى لديه مفتاح للقفل الآخر ويجب أن نفترض أنه لا يزال معه، ثم قال بنبرة حيرة:

– أين ذهب، إنه لشىء محير بالفعل.

سأله رمسيس:

– كم من الآخرين غيرنا سمح لهم بالدخول إلى هنا؟

– ليس بعدد الذين رغبوا فى ذلك، أنت تعرف ما عليه الحال عندما تجد شيئا غير عادى. لقد تلقيت طلبات من كل سائح وصل إلى الأقصر، وكلهم يدعون أنهم أصدقاء قدامى لى أو لأصدقاء لى أو لبعض الأشخاص المهمين، ولكنى رفضت أغلبها ولكن بعضها لم أستطع رفضه، فكثيرون الذين لديهم خطابات توصية من لاكو والزملاء من أمثال كارتر.

– لا أعتقد أنك تشير إلى أن أحدهم له يد فى السرقة؟

قال رمسيس:

– لا أرى ذلك.

نادت ليا على سايروس فخرج تاركا رمسيس يتعجب عما جعله يسأل عن الزوار فحتى لو أن أحدهم استجاب للإغراء فلن يجد من السهل أن يستولى على قطعة أثرية تحت عين سايروس كما أن التوقيت يجعل من مارتنللى المذنب المؤكد ولكن محدودية

السرقة كانت تتفق مع فكرة داء السرقة عن فكرة اللص المحترف الذى كانت أمامه كل التحف ووقتا كافيا لسرقة ما يشاء. القليل من التحف الصغيرة فقط يمكن نقلها بأمان بما فى ذلك باقى المجوهرات ولن تشغل حيزا كبيرا إذا تم تغليفها جيدا.

ولكن لو أن أحد الهواة المحظوظين هو السارق، فماذا حدث للإيطالى؟

أحس سايروس بالفخر من تعبيرات الإعجاب الشديد التى أبداها الزوار للمعروضات، وربما كان دافيد هو الوحيد الذى يعرف حجم المجهود الذى بذل فى الحفاظ عليها. كان قد ساعد فى نقل محتويات مقبرة تتشيرى وفى ترميم الكثير من المشغولات بها. قام والتر بتفحص الأشياء الأخرى بطريقة عابرة قبل أن ينتقل إلى التوابيت المزخرفة. سأل رمسيس:

– هل هى النقوش المعتادة؟ ألم تجدوا أوراق بردى سوى تلك الخاصة بكتاب الموتى؟

– لا يا سيدى، ولكن هناك الكثير من النقوش، وكذلك بعض البرديات، فمنذ أسابيع قليلة عثرنا على خبيئة مدهشة من البرديات ملقاة فى حفرة ويبدو أنها أجزاء من كتاب طبى والعديد من النصوص الأدبية وأشياء أخرى. لقد حاولت إيجاد وقت لكى أبدأ العمل بها ولكن....

ابتسم إمرسون قائلا:

– دعكم من النصوص اللعينة فباستطاعتها الانتظار، وأحتاجكما فى الحفر ما لم تكونا قد نسيتما كل شىء علمته لكما عن تقنيات الحفر يا والتر. رد قائلا:

– لقد كان ذلك منذ زمن بعيد. أجابه إمرسون.

– ستتذكرها فى الحال ما إن تبدأ.

قبل أن يغادروا، كان إمرسون قد رتب كل شىء وفق رؤيته:

– كل شخص عليه أن يكون عند دير المدينة صباح الغد. ولم ينتظر أن يسمع ردا من أحد.

(٧)

لم أكن مستعدة لجعله يتجاهل اهتمامات وحاجات معاونيه بهذه الصورة الدكتاتورية. لم أدرك ذلك إلى أن سمعت الحوار بين رمسيس ووالتر عن كميات قطع الفخار الضخمة التى وجدناها، وكيف أن رمسيس يحتاج بشدة إلى أن يعمل على تلك النصوص. كان مهتما كعمه باللغات القديمة وأدبياتها. كان صوته ولمعان عينيه يشيران إلى شدة ولعه بذلك، رغم جلوسه كل ليلة لوقت متأخر يتعامل مع الفخار بعد أن يكون قد قضى يوما طويلا فى موقع الحفر وكان ذلك ضارا بصحته. أخبرتنى غريزة الأم أننى خذلته. كان يجب أن أقف أمام رغبات أبيه. وكذلك من أجل والتر وأيضا سايروس. ففى خلال أسابيع قليلة سيتم إزالة معظم الأشياء من المقبرة ونقلها إلى المتحف ولا يعرف إلا الله كيف ستنقل للقاهرة بدون عمل صور لها، وكان هذا الوقت هو المناسب لعمل صور لهذه الأشياء والفرصة المتاحة لاستغلال مهارة اثنين من الفنانين فى عملها ولا يجب إضاعتها.

لم أشك فى أن إمرسون قرر إهمال بعض الأمور الأكثر أهمية. لاكو لم يناقش كفاءة مارتنللى عندما قام سايروس بالاستعانة به ولكن الآن بعد أن اتضح أنه لص، فسيستعلم لاكو لماذا قمنا باستئجار مرمم غير معروف لهيئة الآثار. كما أن سيثوس قد يظهر فى أى وقت على أى صورة ليجعل من نفسه مصدرا للإزعاج. ثم كانت هناك تلك الحادثة الغريبة التى وقعت لرمسيس وكنت قد كونت نظرية عن تلك الحادثة وقررت أن أتحرى عنها عندما أجد وقتا.

ناقشت بعض تلك الأمور مع إمرسون بعد أن آوينا إلى غرفتنا تلك الليلة. كان يتناول هذه الأمور باستخفاف واحدة تلو الأخرى، وانتهى بنا الأمر ونحن نتشاجر بصوت عال. كان إمرسون يصيح لأنه فقد أعصابه بينما رفعت صوتى لكى يسمعنى، سألته:

– كيف تفسر إذن أمر السيدة المحجة؟

– لا أعرف لماذا يجب عليّ أن أفعل ذلك.

– هل أنت غير مهتم بخطر يتهدد حياة ابنك؟

كنت أعرف أن ذلك سيزعجه. امتقع وجهه وهو يقول:

– مما استطعت فهمه عن تلك الحادثة فإنها لم تهدد رمسيس بأى شىء، وقد لا يكون الأمر أكثر من مزاح.

قلت بذهول:

– مزاح يا إمرسون؟ رد وهو يتحسس ذقنه:

– قد أسأت اختيار الكلمة يا بيبودى. أنت تعرفين ما أعنى وقد اقترح سيثوس ذلك فى تلك الأمسية. مجرد امرأة مجنونة أعجبت بالفتى. مصر مليئة بأناس على هذه الشاكلة. أناس يؤمنون بديانات غامضة وبتناسخ الأرواح وبحكمة القدماء وغير ذلك من الخزعبلات. لقد قابلنا عددا كبيرا منهم على مر السنوات.

– كانت هناك أعداد منهن بما فى ذلك مدام برنجيريا التى ادعت أنها تزوجت إمرسون فى حيوات سابقة، والمسكينة مرجارويد التى كانت تؤمن بتناسخ الأرواح. لو كان إمرسون صادقا فقد لا تكون تلك السيدة التى اختطفت رمسيس من معارفنا القدامى.

– اعترفى يا بيبودى بأن هذا هو التفسير المنطقى الوحيد، استطرد قائلا:

– من غير المرجح أنها ستتبعنا إلى الأقصر ومن غير المحتمل أن يقع رمسيس فى هذا الفخ مرة أخرى. سأراقب الفتى كما كنت أفعل دائما. لماذا بحق الشيطان لا تتركينى أكمل عملى.

قلت هاتفة:

– ولكنك تقر بأن الآخرين من حقهم الاهتمام بعملهم الذى يروق لهم! والتر من علماء اللغويات وليس من علماء الآثار ورمسيس يتحرق شوقا ليعمل على تلك البرديات، إيفلين وادفيد يستطيعان رسم أى مصنف من مجموعة سايروس، هذا ما أردت قوله. لا أعرف لماذا أتحاور معك. بدأ فى خلع ملابسه وإلقائها فى الغرفة قائلا:

– أنت تفوزين دائما.

– عزيزى، الأمر ليس فوزا وخسارة.

ذهبت وجلست أمام منضدة الزينة وفككت شعرى وتركته حرا وأردفت:

– أنا، كما تقول دائما، نصفك الآخر وصوت ضميرك.

جاء هو ليقف خلفى وجمع شعرى فى يديه قائلا:

– النصف الحلو إذا كان هذا ما تقصدين. حسن، يا حبيبتى أنت على صواب ولكنك لم تكسبينى تماما لصفك.

(٨)

قمت بترتيب الأمور جميعا بحيث إننا عندما تقابلنا لتناول الإفطار شرحت لهم واجباتهم جميعا. وجود الأطفال الأربعة والقطين كان مزعجا ولكنى تحملته. قلت لإيفلين:

– سايروس ينتظرك بالقلعة. هو يريدك أن تبدئى بالزخارف التى على الثوب وأعتقد أن ذلك يوافقك؟ إمرسون وأنا عرضنا عليه خدمات دافيد لعدة ساعات بعد ظهر كل يوم، إذا ما وافق دافيد على ذلك، أما بالنسبة لك يا والتر فقد تريد أن تلقى نظرة على الموقع ولكن ليس من المستحسن لك أن تقضى يوما بكامله حتى تتأقلم على الجو. أليس كذلك؟ إذا شعرت بأنك تستطيع ذلك فقد تستطيع العمل فى النقوش بعد الغداء وسيريك رمسيس إلى أين وصل، أليس كذلك يا ولدى؟

أكملت قائلة عندما قام الآباء وفاتيما بإخراج الأطفال من تحت الكراسى:

– أعتقد أنه فيما عدا المناسبات الخاصة سيتناول الأطفال إفطارهم وحدهم من الآن فصاعدا. سوف نتأخر عن أعمالنا.

كان ذلك صعبا على دوللي بصفة خاصة لأنه يفضل أن يكون مع أقرانه. كنا نشكل مجموعة رائعة ونحن فوق صهوات الجياد. امتطى رمسيس جواده برشاقة ونفرت معه على السرج كما كان والتر في حالة أفضل مما توقعت وأخبرني بأنه كان يتدرب على ركوب الخيل كل يوم ليهيئ نفسه لهذه الرحلة.

بينما كنا نمر بالمدخل الضيق المؤدى إلى الوادى من الشمال خلف المعبد البطلمى كانت الشمس تعلو فوق مرتفعات الجبل الشرقى. وحتى فى الضوء الساطع للصباح كان للوادى الضيق رهبة موحشة، ودائما ما تراءى لى معزولا وبعيدا تحيطه المنحدرات الصخرية وكتل الصخور الرمادية بلا قطرة ماء أو نبتة خضراء فى أى مكان.

تخيلت نفس الوادى الذى لم يكن ليبدو كذلك لسكانه القدماء عندما كانت البيوت قائمة والشوارع تعج بالناس الذين يروحون ويجيئون لقضاء مصالحهم وترتفع أصواتهم بالتحيات المرحة وبالجدل الصاخب، ورغم تلاصق المنازل بجوار بعضها فقد كانت مريحة بالنسبة لذلك الزمن وتتكون أساسا من عدة حجرات بما فى ذلك حجرة استقبال ومطبخ وأحيانا قبوا للتخزين، كانت النوافذ ممدودة والسقف المسطح يساعد فى التهوية. يوجد فى مصر القليل من مواقع القرى ولكننا كنا محظوظين أن وجدنا تلك القرية. وللإنصاف فإن إمرسون قد قام بمهمة الاستكشاف بكل حيوية وتفانى ولكنى كنت أعرف أن قلبه يتوق للمعابد والمقابر وأنا أيضا. آه لو لم يكن مزاجه الملتهب قد أدى إلى سوء التفاهم الذى حدث مع ماسبيرو.

ولكنى قلت لنفسى يجب أن أوفى إمرسون حقه، فتلك لم تكن غلطته وحده فمعظم المناطق المهمة أثريا فى طيبة كان قد تم تخصيصها لآخرين وكان مستبعدا أن يتخلى اللورد كارنافون عن المنطقة المخصصة له بوادى الملوك. كان رجلا كريما ولكن ملاحظاتى لم يكن لها أدنى أثر عليه. وبسرعة اتضح أن إمرسون لم يلق بالا لما قلته له الليلة الماضية، ولم يبد قبولا بأن يسمح للآخرين بوقت يمارسون فيه الأنشطة التى يحبونها. كان مصمما أن يجعل فريقا ثانيا يعمل فى منطقة أخرى خارج القرية نفسها. أحسست بالغيظ عندما حدد نواياه وأصدر أوامره. بدا والتر منزعجا وذهب مع سليم لاستكمال استكشاف القرية بينما قاد إمرسون الباقين إلى المعبد وهو يشرح لهم طوال الوقت.

(٩)

كان المعبد البطلمي محاطا بجدار من الطوب الطيني ومادة البناء هذه مقاومة للقوى المدمرة للزمن، وفي بعض الأماكن بقيت الحوائط لارتفاع يصل إلى عشرين قدما. لم يكن الجدار محيطا فقط بالمعبد الذى كان محتفظا بكيانه بشكل جيد وإنما بعدد من الخرائب لمقابر سابقة بناها القرويون لمن كانوا يعبدونهم. بقايا تلك الخرائب كانت موجودة أيضا خارج الحائط إلى الشمال وإلى الغرب وبعض من سبقونا قاموا بعمل حفريات فى هذه المنطقة ووجدوا بعض الأشياء، ولكن إمرسون كان مصمما على استكشاف المنطقة بأسرها بطريقة منهجية وكاملة وكان ذلك يمثل تحديا لطاقة وقدرات إمرسون.

تمتمت ليا:

- يا لها من فوضى. كانت تنظر إلى الخرائب المنتشرة.

شمر إمرسون عن ذراعيه قائلا:

- سوف نقسّم المكان إلى أمتار مربعة ونبدأ من هنا. ساعدنى يا رمسيس وأنت يا دافيد فى وضع العلامات.

خلال الأسابيع التى قضاها فى نقل موجودات المقبرة تقاطر علينا الزوار الذين يريدون النظر إلى الكنوز. أحيانا ما كان يثيرنى إصرار هؤلاء الناس على ذلك. بعضهم كان يقدم الرشاوى لرجالنا والبعض الآخر كانوا يقتحمون المكان عنوة بالرغم من الحراس ويحاولون كشف الأغطية التى وضعناها لحماية الأشياء القابلة للكسر، وتعامل إمرسون معهم بطريقته المعتادة. الآن حيث لا شيء يمكن رؤيته سوى مجموعة من

البشر يحفرون قل عدد الزوار الذين يجيئون إلى الموقع. ورغم ذلك، جاء بعض السياح حيث كان المعبد مذكورا فى قائمة المزارات. لم أفترض أنهم سيتسببون فى المتاعب فالحجارة لا تمثل لهم الكثير والمرشدون الذين يجيئون معهم يعرفون إمرسون جيدا بحيث لا يجرؤون على مشاغبته. وبالرغم من ذلك حرصت على مراقبتهم وبالتالى كنت أول من رأى مجموعة غير معتادة عبارة عن أربعة بالإضافة إلى الأولاد الذين يقودون الحمير والمرشد الخاص بهم. إحدى النساء كانت تميل بشدة على المرشد وكتفاها مائلان وخصلات الشعر التى هربت من الحجاب الذى ترتديه على رأسها كانت بيضاء تماما. كان يسندها من الجانب الآخر امرأة أصغر منها عمرا وإن كان شعرها الداكن يتخلله بعض الشيب. كانت تساعد المرأة العجوز على الجلوس على قطعة من الحجر وبدأت فى التهوية لها بمروحة.

ولكن كان الاثنان الآخرين من المجموعة هما من استحوذ على انتباهى، فلم يكن من السهل نسيانهما. لاحظهما إمرسون أيضا فوقف منتبها. وكان الفتى الذى قدم نفسه لنا على أنه جستن فيتزروويس هو أول من رآنا فصاح آتيا ناحيتنا وهو يسير فوق الأرض غير المستوية ويتبعه عن قرب راعيه الشخصى:

– إنهم أسرة إمرسون أصدقائى. هل أنتم من علماء الآثار؟ ماذا تفعلون؟ وأين السيدة الجميلة؟

(١٠)

نظر إلىّ إمرسون بعجز. كان من المستحيل أن نتعامل بفظاظة مع الفتى الصغير الذى كان وجهه يشع بالنوايا الحسنة، خاطبته قائلة:

– صباح الخير يا سيد جستن. أنت لا تزال بالأقصر إذن؟

– نعم، فنحن نحب هذا المكان. لقد رأيت كل المقابر فى وادى الملوك والعديد من المعابد، ولكن لا يزال هناك الكثير مما أريد رؤيته.

لاحظ قدوم نفرت تجاهنا فصاح:

– ها هى، أنا أتذكر اسمها، السيدة إمرسون فهناك اثنتان بهذا الاسم. ردت نفرت قائلة:

– ثلاثة فى الواقع فأنت لم تقابل الثالثة. هل جئت أنت وفرنسوا إلى هنا وحدكما؟

صاح خادمه بصوت أجش:

– أستطيع رعاية سيدى الصغير. ثم أشار جستن إلى المرأتين وهو يقول:

– ولكننا لم نأت وحدنا. فهذه جدتى وقد تحسنت صحتها كثيرا منذ وصولنا وإن كانت هذه أول رحلة لها.

سألته قائلة:

– ومن تكون السيدة الأخرى؟ أجاب جستن بلا اهتمام:

– هى ليست سيدة. إنها الآنسة آندرهيل.

– هل هى مرافقة جدتك؟ أومأ جستن بالإيجاب وهو يصرف مرافقة جدته.

– سأسألهما العودة إلى الفندق وسأبقى معكم. قلت له.

– دعنى أتحدث مع جدتك.

ظلت السيدة العجوز جالسة بينما كنت أنا ونفرت نقدم لها أنفسنا. لم تستجب فى التو. وبعد قليل قالت بصوت ضعيف:

– اسمى فيتزروبيس. اعذرانى لو قلت وداعا بدلا من صباح الخير. لقد كان الأمر شديد الإثارة ولكن بالنسبة لعمرى فإن أقل مجهود يسبب لى الإرهاق. قلت لها:

– بالطبع. هل باستطاعتنا مساعدتك بأية طريقة؟

– أشكرك.

تطوع المرشد قائلا:

– أنا أساعد السيدة.

كنت أعرف الرجل. فقد كان من أكثر المرشدين شهرة فى الأقصر. كان واضحا أن السيدة فيتزرويس تنال كل المساعدة التى تطلبها، رغم أن مرافقتها انسحبت عدة خطوات إلى ظل أحد الأعمدة. كانت ترتدى ملابسَ شديدة التواضع ولا تناسب جسمها، وأغلب الظن.أنها كانت ملابس سيدتها التى تخلت عنها. كنت أتعجب ألا يمكن لامرأة محترمة أن تشترى قبعة غير تلك التى تلبسها، فقد كان قبعة قديمة من القش وباهتة اللون، كما كان حجابها مليئا بالبقع.

أعلن جستن بصوت عال:

– سأبقى هنا. أريد أن أرى معبد هاتور وأن أساعد أصدقائى فى الحفر.

صاحت السيدة العجوز:

– أنت لا تريدينه أن يقف فى طريقك يا سيدة إمرسون؟ تعال معى يا جستن.

كان صوتها آمرا بالرغم من كبر سنها وتجهم جستن كالطفل. كانت سلوكياته طيبة وكنت آسفة، لأننى خيبت آماله ولكنى لم أرغب فى أن أكون مسئولة عن هذا الصبى.

قال جستن:

– حسن جدا. سوف آتى وأزوركم فى يوم آخر. أين تعيشون؟ ردت نفرت وهى تتجنب إعطاءه إجابة:

– سيكون ذلك لطيفا منك ولكن الآن علينا العودة للعمل. إلى اللقاء.

استغرق رحيلهم عن المكان بعض الوقت، وكان الوقت يقترب من منتصف اليوم وذكّرت إمرسون أنه وعدنى أن يرسل والتر إلى البيت لقضاء الظهيرة، وأرسلت رمسيس معه إلى البيت وجلس الباقون بجوار جدران المعبد وقاموا بتناول الغداء.

(١١)

كان معظم السياح يتناولون المرطبات وبعض الطعام فى استراحة كوك أو بالفنادق. حل السكون على الوادى فيما عدا صوت إمرسون وهو يلقى محاضرته علينا. تركته يفعل حيث كان من الصعب إيقافه. كنت قلقة بشأن ليا ولكنها كانت فى حالة طيبة وكذلك كان دافيد فى حماسه المعتاد، وما أن التهم بعض السندوتشات حتى قفز معلنا أنه يريد أن ينظر عن قرب إلى بعض نقوش المعبد البطلمى. قال له إمرسون:

– لا تهتم به أكثر من اللازم لأن فاندرجلت لديه خطة لنقل رسومات المقبرة.. خفت صوته وهو ينظر إلى أعلى التل؛ حيث توجد بقايا هرم صغير من الطوب وكنيسة صغيرة تقع على مقربة من مدافن القرية. سألته:

– ما الأمر؟

قام وأخذ يجرى فى اتجاه التل وهو يصدر اللعنات من فمه. نظرت لأعلى ورأيت سبب انفعاله فقد تبينت أن اثنين من الأشخاص يتحركان ببطء عبر أحد الممرات التى تقطع المنحدر. تعرفت على الصبى جستن وتابعة الحارس. صاحت نفرت:

– يا إله السماوات. هل هذا جستن؟ لا يجب أن يكون فى هذا المكان. رددت قائلة:

– لا بد وأن أمرسون قد وصل إلى نفس الاستنتاج وهو يتصرف حيال الأمر بطريقته. من الأفضل أن أذهب معه وعليكم البقاء هنا.

أحسست بأن علىّ أن أفعل شيئا فى هذا الموقف لأننى كنت الوحيدة التى تعرف طبيعة إمرسون. كنت أعرف بأننى لن ألحق به، ولكنى أسرعت بقدر استطاعتى. كان الممر لا يعد صعبا على صبى ولكن قد يؤدى انزلاق القدم إلى إصابة خطيرة وكنت أشك فى أن فرانسوا قد يكون مؤثرا إذا ما لحقت بالصبى أزمة من أزمات الصرع الذى يعانيه.

كنت عند الحافة عندما لحق إمرسون بهما وصاح بفرانسوا بصوت كالرعد:

– ما الذى تقصده بحق الشيطان عندما تترك الصبى يحاول ذلك؟ تعال معى يا جستن.

كان خطأ فادحًا من إمرسون بأن أمسك بالصبى، فقد كانت قبضته عليه قوية بالدرجة التى زادت من رد فعل الصبى الذى صرخ وبدأ فى التشنج والالتواء محاولا التخلص منه. سحب فرانسوا الصبى جستن من كتفه ليخلصه من قبضة إمرسون. تمسك إمرسون بالصبى وكانت رأسه تتمايل للأمام وللخلف وسقطت قبعته على الأرض. كان لا يزال يقاوم ويصرخ فتركه فرانسوا وأمسك برقبة إمرسون وأصبح الثلاثة متشابكين، تمكن إمرسون من تخليص نفسه مدركا أن الصراع قد يؤدى إلى إصابة الصبى ولكنه ما إن خطا للخلف حتى سقط وتدحرج على الممر. أسرع الجميع ناحية قاعدة التل يقودهم سليم. أبصرت إمرسون واقفا بأعلى التل بالرغم من محاولات الجميع تهدئته. كان يصرخ بأعلى صوته غاضبا مما أكد لى أن حالته لا تزال طيبة، ولأننى كنت حريصة على المساعدة قررت ألا أترك الصبى، الذى كان قد أفاق من أزمة الصرع ويزيل الأتربة عن ملابسه. ابتسم بخجل وسألنى ببراءة:

– ما الذى حدث للسيد إمرسون؟

– لقد سقط، وأعتقد أن حارسك قد أوقعه. صاح بحدة:

– عار عليك يا فرانسوا. كان لا يجب أن تفعل ذلك. لقد كان هذا خطأ. تمتم الحارس بأسف.

– لقد كان يؤذيك.

– لا أعتقد ذلك. إنه رجل عطوف جدا. آمل ألا يكون قد أصيب. قلت ذلك وأنا أنظر بغضب إلى فرانسوا.

(١٢)

كان من المستحيل على فرانسوا أن يبدو مسالما ولكنه كان إلى حد ما قد هدأ قليلا فغمغم قائلا:

– كان مجرد حادث. لم أقصد إيذاءه ولكن لا أسمح لأحد بأن يلمس السيد الصغير. مددت يدى للصغير وقلت:

– خذ بيدى يا جستن وسوف نهبط المر سويا . أبق خلفى فلا نريد حادثا آخر.

وضع الصبى يده فى يدى بثقة وتركنى أقوده لأسفل المر. كان أطول منى بقليل ولكنه كان أشد نحافة. كان قد نسى المشهد العنيف تماما وبدت ملامحه طبيعية. قلت له:

– لم يكن من الضرورى أن تصعد لأعلى التل يا جستن.

– أردت أن أرى المقابر.

– هذا أكثر خطورة من المر فبعض المقابر مفتوحة وإذا سقطت فى واحدة منها فستصاب صابة جسيمٌ عدنى ألا تذهب إلى هناك مرة أخرى.

– هل أستطيع إذن أن أرى المعبد؟ إنه معبد لهاتور. إنها إلهة جميلة مثل السيدة إمرسون الأخرى. إنها تأتى إلى هنا .

أدركت مصدومة، أنه يتحدث عن هاتور فقلت له:

– لا، لا أعتقد أنها تفعل يا جستن.

– المرشد يقول إنها تفعل فى ليالى القمر الكامل. لقد رآها بنفسه، وكذلك رآها بعض أصدقائه.

قررت أن يكون لى حديث مع ذلك الرجل. لم يكن من المفروض أن يضع فى رأس الصبى مثل تلك الأكاذيب وربما كان من الأفضل أن يكون لى حديث مع السيدة

فيتزرويس أيضا، فكيف تثق بأن يوضع حفيدها تحت حراسة شخصية مخيفة كفرانسوا، إخلاصه ليس محل شك ولكن حكمه على الأمور ليس كذلك. فهو يعانى بطريقة ما مما يعانيه جستن من قصور الحس. جاء إمرسون لمقابلتنا ولخوفى من أن يتجدد العراك وضعت نفسى بينه وبين فرانسوا قائلة له:

- قميص آخر يتمزق، وليس مجرد قميص هذه المرة، ولكن تمزقت ركبتى البنطلون كذلك. رد قائلا:

- تمزق البنطلون أفضل من تمزق رأسى. هل الصبى بخير؟ رجع الصبى للخلف قائلا:

- أنا بخير.

وخوفا من أن يكون الصبى على وشك الإصابة بأزمة صرع أخرى اغتصبت ضحكة قائلة:

- لقد أصيب بخدوش بسيطة، عندما يسقط المرء على هذا النحو عليه أن يحمى رأسه.

ثم نظرت لفرانسوا وقلت:

- خذه واذهب إلى البيت على الفور. هل لديك وسيلة انتقال؟

أجاب هو:

- جيادنا فى الانتظار. أنا أجيد ركوب الخيل ولكنى لا أرغب فى الذهاب الآن. أريد أن أبقى مع الجميلة؟ السيدة إمرسون.

كان إمرسون يتحكم فى نفسه جيدا لأنه قلب وجهه ونظر إلى فرانسوا بنظرة عدائية. فقلت له:

- اذهبا الآن. وأرسلت دافيد معهما إلى مكان الجياد.

(١٣)

قال إمرسون وهو يتأوه من محاولات نفرت تضميد بعض الخدوش العميقة فى ذراعه وركبتيه:

- إنها دائما ما تختلط بالطراز العاجز من البشر والمحبين.

قلت مصححة له:

- رمسيس هو الذى اختلط بهما، لقد أصيب الصبى بنوبة صرع على كورنيش الأقصر وأساء رمسيس فهم محاولة فرانسوا إفاقته، وهو صغير جدا لكى يكون حبيبا سواء أكان عاجزا أم لا. قالت ليا:

- لا أعرف شيئا عن ذلك فهو لم ينزل عينيه عن نفرت. الصبية فى هذا العمر تكون لهم أحاسيس عنيفة.

قلت ردا على ليا:

- لا توجد لدى هذا الصبى أى ميول عنيفة، وهو يفكر فى نفرت على أنها الإلهة هاتور. يتصور ذلك فى مخيلته المضطربة وعبر عن ذلك هنا فى معبدها.

نظر سليم إلينا وقال:

- هو ليس الوحيد الذى يرى ذلك يا ست الحكيمة. لقد قال رجلان من القرية إنهما رأيا سيدة بيضاء محجبة وتلبس التاج الذهبى، واقفة أمام المعبد.

أصاب هذا الوصف نقطة الضعف عندى فسألته:

- لماذا لم تقل لى عن ذلك من قبل يا سليم؟

- هذه القصص شائعة، وتنتشر بسرعة بين الأشخاص المشعوذين. يجىء الرجال هنا بعد دخول الليل بحثا عن شىء؛ ليسرقوه فيرون شعاعا من القمر أو ظلا ويريدون إعطاء الأهمية لأنفسهم بروايات كاذبة.

نظر بوجهه المقطب إلى وجه إمرسون واتسعت عيناه وهو يقول:

– هل تفكرين فى المرأة التى بالقاهرة؟ بالتأكيد هذه مجرد مصادفة. لقد كانت رؤيا أو حلم. كانت كذبة.

قال دافيد:

– ربما قال إن الآلهة القدماء لا يزالون يقيمون فى أماكنهم المقدسة ويراهم من لهم أعين لترى. هذا قد يكون موضوعا طيبا لإحدى رسوماتى الرومانسية.

قلت ردا عليه:

– من غير المرجح مطلقا أن تظهر واحدة من الآلهة فى مسكن بالقاهرة. أنت على حق يا سليم، إنها مجرد مصادفة.

قالت نفرت:

– هل ستقولين لرمسيس عن هاتور؟ فقلت لها:

– إذا ما أثار الأمر مرة أخرى. لم لا؟

– لأنه سيريد أن يرى بنفسه.

– هذا هراء، أنت أذكى من ذلك يا نفرت.

بعد أن انتهى الجميع من الغداء صاح إمرسون:

– عودوا إلى العمل. لقد كلفنا الحادث أكثر من ساعة.

قلت أنا:

– نعم ومن الأفضل أن تسرع يا دافيد. فسألنى إمرسون:

– يسرع إلى أين؟

– لقد وعدت سايروس بأن يكون معه دافيد فى فترة الظهيرة. سنراك على الغداء فى البيت يا دافيد. وأنت يا إمرسون.

(١٤)

رحل دافيد وقمت أنا ونفرت بتنظيف المكان وبعد قليل من الصمت قالت:

– ذلك الرجل فرانسوا ليس بالحارس المناسب لصبى مثل جستن. ألا يجب أن نتحدث فى ذلك مع جدته؟

– سيقول إمرسون عنا إننا نحشر أنوفنا فيما لا يخصنا.

– ولكن ذلك لا يمنعك من التدخل.

– لا بالتأكيد، وقد خطرت تلك الفكرة لى. اعترفت بذلك وأنا ألتقط قطعة صغيرة من الفخار المكسور. واستطردت قائلة:

– ولكن التدخل قد يضر أكثر مما ينفع. فكبار السن يكرهون النقد، ولكى أكون منصفة، فنحن لا نعرف ما هو خطب الفتى فهو خليط غريب من البراءة والسلوك المهذب الذى تعقبه أمور غير متوقعة.

جلست نفرت على كاحليها ومسحت العرق من على جبينها وقالت:

– إنه يعانى من أمراض تماثل الصرع ومعظم المصابين ذكاؤهم عادى وأحيانا يكون حادا، ولكنه يبدو صبيانيا بالنسبة لسنه، بالطبع أنا لست متخصصة فى الأمراض العقلية وإن كنت أريد دائما دراسة هذا الموضوع.

– يكون أمرا كثيرا بالإضافة إلى الجراحة وأمراض النساء. أن لديك ما يكفى، فلديك زوجك وأطفالك والمستشفى، إضافة إلى تكليف إمرسون لك بالعمل فى الحفائر كل يوم.

لكن نفرت لم ترد، بل قالت:

– أنا لم أفعل شيئا للمستشفى لسنتين، فهى فى أيد أمينة ولكنى أفتقدها أحيانا. أما بالنسبة للعيادة التى أردت فتحها هنا بالأقصر، فأنت تعرفين ما حدث.

قلت بحماس:

– لديك أجهزتك ومكانا كبيرا للكشف وحجرات لإجراء العمليات. والآن أصبح الطفلان أكبر عمرا ولا سبب يمنعك من المضى قدما فى إنشاء العيادة.

– لقد صدئت معلوماتى يا أمى مثل كثير من أدواتى، وكل ما فعلته هو المساعدة فى عدد من الولادات الصعبة.

– هذا يعد سببا إضافيا لإعادة مهاراتك إلى ما كانت عليه، لم تكن لدى فكرة أنك تشعرين هذا الشعور يا نفرت. عليك أن تثقى بى. سوف أتخذ خطوات فورية لإعداد الغرف اللازمة للعيادة.

– أنت رائعة يا أمى. أنا لم أقصد الشكوى. أرجوك لا تتعبى نفسك فلديك ما يكفيك من باقى الأسرة.

– إذا ما قورن ذلك بما يسببه إمرسون لى، فأنا أعتبره مصدرا للسرور.

لم أتخيل كيف أخطأت فهم الإشارات. أنا لا تهمنى الاعتذارات وبالتالى لن أشير إلى أننى كنت مشغولة جدا بعمل الترتيبات الخاصة بعيادة نفرت. كانت لدى خطة فى عقلى عند بناء البيت مما جعل المكان المطلوب متوافرا. ثلاث حجرات صغيرة ولكنها معزولة عن باقى المنزل ولها مدخل منفصل. لقد ظلت مغلقة لمدة سنتين مما استلزم تنظيف كل شبر فيها ودهانه باللون الأبيض وتطهيره قبل تأثيثه بالأثاث المناسب. كان بإمكاننا الحصول على المواد الضرورية من الصيدليات بالأقصر واقترحت أسماء العديد من الفتيات لشغل وظيفة ممرضة. لكن نفرت كانت قد استقرت على واحدة وهى نسرين حفيدة خديجة والتى جاءت بمجرد أن سمعت بافتتاح العيادة. كانت مغرمة بالتمريض وقد علمتها خديجة الكثير. قلت لنفرت:

– نعم أتذكرها. هى فتاة مرحة وإن كانت غير جميلة.

– إنها فى الرابعة عشرة ومخطوبة بالفعل. ردت نفرت وفى صوتها ما يشبه الاعتراض على عادة المصريين فى الزواج المبكر.

– تريدين إنقاذ فتاة أخرى أليس كذلك؟

– لو أنها كانت جيدة كما أتوقع وتريد الاستمرار فى العمل، إن والدها هو الذى يريد تزويجها، ولكن إذا حصلت على تأييد خديجة وداود فسوف يستسلم.

ولأن داود كان لعبة فى يد نفرت، وخديجة صديقة لها فلم أشك فى تأييدهما. قمت بعمل مقابلة للفتاة بنفسى وقررت فى النهاية أنها تصلح للوظيفة.

(١٥)

لم ألاحظ المؤشرات التى تنبئ بالكارثة حتى وقعت على رأسى بعنف وكأنها البرق فى يوم رائق بلا غيوم.

فإمرسون كان يسلك سلوكا غريبا على مدى أيام عدة وأرجعت ذلك إلى اهتمامه الزائد بحفرياته التى أصبحت أكثر تعقيدا عما كان يتوقعه. كان اهتمامه غير العادى بوظيفة المرضة يمكن إرجاعه إلى اهتمامه بأخيه غير الشقيق الذى لم يكن قد أرسل ردا حتى الآن على برقيتنا. وكما اكتشفت مؤخرا فإن سليم، الذى كان ضالعا فى الخطة من أول حلقاتها، كان حكيما فى ابتعاده عن طريقى ولم أدرك عندما ذهبت أبحث عنه فى ظهيرة أحد الأيام أننى لم أره طوال اليوم، ذهبت إلى إمرسون فى الحال وسألته:

– أين سليم؟ أريد أن أسأله عن....؟

أجابنى متلعثما:

– نعم، نعم. أنا أعرف أين هو. قلت مستغربة:

– ما خطبك يا إمرسون؟ ابتسم قائلا:

– عندى مفاجأة لك يا بيبودى. سألته برجاء:

– ما هى؟! رد بسرعة:

– تعال، سأريك وسوف يرى كل فرد آخر.

أخرج ساعته ونظر إليها ثم رفع عقيرته بالصياح الذى كان يسمعه البر الغربى بأكمله. لقد انتهينا من عمل اليوم. ليأت كل فرد معى. ولم ينطق بكلمة أخرى. كان الوقت مبكرا فى الظهيرة وإنهاء العمل فى مثل هذا الوقت يعد أمرا استثنائيا. ركبنا الخيل متجهين للبيت. سألت رمسيس ونفرت وليا، لكنهم ادعوا الجهل مثلى تماما.

كان إمرسون الذى سبقنا فى الشرفة يخطو لأعلى ولأسفل ثم صاح:

– التوقيت مثالى، ها هم قد جاءوا. نظرت فرأيت قافلة غير عادية متجهة نحو البيت. مجموعة من العربات التى تجرها الحمير والبغال والجمال تحمل حمولات ثقيلة وعشرات الرجال يقودهم سليم. يركبون الخيل. وقفت العربات أمام المنزل وكانت تحمل عدة صناديق ضخمة بدأ الرجال فى إنزالها. صاح إمرسون:

– هل كل شىء هنا يا سليم؟ أجابه قائلا:

سترى حالا يا إمرسون. اتجه إمرسون إلى أكبر الصناديق. بدأت الحقيقة المرة تتكشف. صحت بدهشة يا إلهى الرحيم!

تم فتح غطاء الصندوق وإسقاط جوانبه فظهر الإطار الحديدى. عند أول نظرة لم يكن مطابقا لما توقعت رؤيته وكنت أخاف من النظر إليه، لأن أجزاءً كثيرة كانت ناقصة. كنت أعرف ما هى وأين هى، فهى فى الصناديق الأخرى والتى وضعها الرجال بعيدا عن بعضها وفق تعليمات سليم. وبدأت الأجزاء تظهر بالتدريج. العجلات الأربع الضخمة وغيرها من الأشياء التى لم أتحقق منها.

كنا قد امتلكنا العديد من السيارات من قبل. وكان اعتراضى الأساسى على تلك الماكينات الملعونة هو أن إمرسون يصر على قيادتها بنفسه. عندما كنا فى بيتنا الإنجليزى فى "كنت" تعلم الناس إخلاء الطريق حين يرون إمرسون يقودها، وكذلك فى شوارع القاهرة، الأمر يحتاج لكثير من اعتياد الركوب فى السيارة مع إمرسون. كانت

السيارات قد انتشرت الآن فى المدينة وخلال الحرب قام الجيش ببناء الطرق فى مناطق أخرى ولكن عندما انتقلنا للعيش بالأقصر تمكنت من إقناع زوجى بأن يبيع السيارة حيث أن استخدامها فى الأقصر سيكون محدودا جدا.

حاولت جذب انتباه إمرسون الذى كان مرتكزا على ركبتيه بجوار الماكينة مدعيا أنه لا يسمعنى ولكن عندما ناديته للمرة الثالثة قرر أن يرد، وقام متجها نحوى مادا يده المتسخة بالشحم قائلا:

– تعالَ يا عزيزتى لإلقاء نظرة. كل شىء يبدو أنه مرتب جيدا. أتسمحين بتقديم العون؟ أنت وأنا وسليم ودافيد.. أين هو؟ لقد أرسلت للبحث عنه فى القلعة. رد رمسيس:

– سيكون هنا بعد قليل كما أتوقع. أليس من المفضل يا أبى إزالة مواد التغليف بعيدا أولا؟ فقد يدوس أحد على مسمار. وصحت قائلة:

– هل ستقوم بتركيب أجزائها هنا أمام المنزل؟ لماذا طلبت إرسالها فى صورة أجزاء منفصلة؟

– كانت هذه هى أسرع وسيلة للحصول عليها هنا بدون أن يصيبها عطب، ثم مسح العرق من فوق جبهته بإصبعه مخلفا أثرا أسود وأكمل:

– كان من المفروض أن تصل فى قطار الأمس ولكن من الواضح أنهم لم يجدوا لها مكانا. لقد أشرف سليم بكفاءة على عملية إنزال الصناديق وتحميلها.

– ليس هذا ما قصدته، أنا أسألك ما الذى ستفعله بسيارة هنا؟ لا توجد طرقات مناسبة.

– يا إلهى الرحيم يا بيبودى، لقد سرنا بالسيارة عبر سيناء وعبر الوادى من قبل. لقد تحسنت الطرقات منذ زمن الحرب.

(١٦)

استمر هو فى التناقض مع نفسه ويقول:

- كتيبة السيارات الخفيفة التى أدت مهمة ممتازة ضد السنوسى، تم حلها ولا يهتم أحد فى الجيش بصيانة الطرق الصحراوية، تلك كانت الطريقة التى استطعت بها الحصول على السيارة. إنها الطراز المعدل من سيارات فورد الخفيفة.

صرخت بغضب:

- لا أريد أن أسمع المزيد عنها.

نظر شذرا إلىّ وقال:

- أعتقد أن المرء يستطيع شراء سيارة إذا رغب فى ذلك.

كنت أدرك أننى الخاسرة فى هذا الجدل. كان كل رجل فى المكان فى صف إمرسون، فرمسيس انشغل بمساعدة سليم فى فرز الأجزاء وخلع والتر معطفه وشمّر عن ساعديه، ثم وصلت مساعدات إضافية كان أولهم دافيد وسايروس، ثم برتى على صهوات الجياد.

وضعت نفرت ذراعها حولى قائلة:

- تعالى لنشرب قدحا من الشاى سويا يا أمى.

قالت ليا:

- ونحن أيضا فهم سيلعبون بالسيارة لباقى اليوم.

لم تجازف فاتيما بالخروج من المنزل بل بقيت متشبثة بقضبان الشباك وهى تحملق فى السيارة كما لو كانت حيوانا ضخما وخطيرا، وجلسنا نحن النساء الثلاثة نتابع الموقف.

(١٧)

حلت لهفة أخرى أقوى كثيرا، محل لهفة إمرسون على الاستكشافات الأثرية. ولأنه شديد الانضباط، كان يذهب إلى موقع الحفر كل صباح آخذا معظم الآخرين معه وإن لم يستطع الصبر ليعود إلى لعبته الجديدة. اسباب إمرسون التى ساقها بخصوص تجزئة السيارة إلى أجزاء كانت حكيمة، فتداولها بالأيدى وهى كاملة يحمل مخاطرا كبيرة خصوصا بالطريقة المصرية – ولكن رمسيس شك فى أن والده فعل ذلك لأنه أراد الاستمتاع بتركيب الأجزاء مرة أخرى لأنه لم يعترض على وجود جمهور كان يتجمع أمام المنزل لمشاهدته ظهيرة كل يوم.

القليلون من رجال الأقصر هم الذين رأوا سيارة من قبل. جلس الرجال فى دائرة وقد استعت أحداقهم وهم يرقبون كل حركة يقوم بها إمرسون وسليم. بعد الظهيرة الأولى أصبح رمسيس وديفيد جزءاً من المشاهدين حيث لم يكن مسموح لهما بعمل أى شىء، وبالطبع كانت هناك بعض الأشياء التى فقدت ولكن سليم تمكن من أن يجد بديلا لها.

كان الزوار يحيطونهم من كل جانب، من الأهالى والأجانب والسياح يقدمون النصح والعون. كان إمرسون يهمل النصائح ويرفض العون، ولكنه كان يوافق تماما على أن يتوقف عن العمل ويتحدث أو يجيب عن سؤال، وبالطبع يتباهى بما يفعل.

شهدت ظهيرة الخميس تركيب آخر الأجزاء فى السيارة، وتجمعت العائلة بكاملها لمراقبة إمرسون، الغارق فى العرق وفى السعادة، وهو يدير السيارة. أطلقت الماكينة صوتا تردد صداه مصحوبا بالتهليل من المشاهدين وقفز إمرسون إلى مقعد القيادة. لاحظ رمسيس الخوف على وجهى، فلم أكن أملك الشجاعة لمنعه من قيادة السيارة، فلم يكن بمنعه عن ذلك سوى وقوع زلزال. صحت فيه قائلة:

– ببطء يا إمرسون، أستحلفك بالله.

(١٨)

رفض إمرسون العودة لتناول الشاى، وسمح لسليم أن يجلس بدوره على مقعد القيادة، وعلى مدى ساعة ظلا يقودان السيارة إلى الأمام إلى الخلف أمام المنزل. قوبلت دعوتهما لنزهة بالسيارة بالحماس من الأطفال ولكن الكبار رفضوها . لم يضع حدا لذلك سوى انفجار أحد الإطارات نتيجة ثقب أحدثه مسمار لم يتم التقاطه من على الأرض.

بعد أن ذهب إمرسون للاغتسال قلت أنا:

– دعونا نأمل بأن الأسوأ قد مر وعلينا العودة إلى واجباتنا، فالغد هو يوم الجمعة. أعتقد يا نفرت أنك ورمسيس ستقومان بزيارتكما الأسبوعية لسليم، ماذا عنك يا دافيد؟

– ليس هذا الأسبوع بالرغم من أن سليم قد طلب منى القدوم. أريد زيارة قبر جدى.

– وهل ستأخذ الأطفال معك؟

– دوللى يريد الذهاب، هو يعتقد أن جده بطل. أريد أن آخذ إيفى أيضا فهى تصر على الذهاب أينما ذهب دوللى.

رفعت نفرت حاجبيها دلالة على عدم الاستحسان لهذه الخطة ولكنها لم تقل شيئا . فى ظهيرة اليوم التالى وبعد العودة من دير المدينة.. ذهب رمسيس ونفرت لغرفتهما لاستبدال الملابس. كانت نفرت تقف أمام المرآة وقد استغرقها ما كانت تفعل فلم تشعر بدخول رمسيس. كانت فى ملابسها الداخلية وقد بدت كل أجزاء جسدها الرقيق. سألها:

– هل أستطيع مساعدتك؟

ندت عنها صرخة المفاجأة وقالت:

– أتمنى ألا تتسلل نحوى هكذا .

– لم أكن أتسلل، أنا آسف. ما الذى كنت تفعلينه؟

– لا شيء. كنت مندهشة من سماعي لدافيد يقول إنه سيأخذ الأطفال إلى مقبرة جدهم. نحن لم نأخذ التوءم لهناك أبداً.

– هل تريدين ذلك؟

– كنت أحاول معرفة رأيك لا أن تسألني عن رأيي.

– لا أعتقد أن لي رأي في ذلك. الأمر متروك لك.

لاحظ من تعبيرات وجهها أن ذلك ليس ما أرادت سماعه. حاول مرة أخرى قائلا:

– هما لم يعرفا عبد الله، فهو بالنسبة لهما كأحد الأبطال في الروايات التي تقرئينها لهما. بالتأكيد لن يكون سيئا أن تحكي للأطفال عن الأعمال الشجاعة لأصدقائهم وأسلافهم.

– هذه إحدى الزوايا للنظر إلى الأمر.

– هل تريدين الذهاب معهم؟

– ربما في وقت آخر. إن سليم ينتظرنا وستصاب خديجة بخيبة أمل إذا لم نذهب. هل تمانع؟

– لا بالطبع. أنا مغرم بأسرتي وجميل أن أكون بصحبتك أنت والأطفال.

كانت تلعب بالأشياء الموضوعة على منضدة الزينة ثم التفتت ووضعت كفيها على كتفيه قائلة:

– هل أخبرتك أمي؟

– أخبرتني بماذا؟

داعبت كفيها مؤخرة رأسه وأمالت رأسه لتواجه وجهها، كان فمها رقيقا وناعما وبينما هو يحتضنها بدأ يفكر في أشياء أخرى يريد القيام بها بدلا من الزيارات العائلية.

همست فى أذنه:

– أحبك كثيرا.

– وأنا أحبك. ما الذى أثار هذا الموضوع؟ أنا لا أهتم بذلك. دعينا نفعل ما كنا نفعل مرة أخرى.

حاول احتضانها، ولكنها تملصت بعيدا عنه وهى تضحك. كان وجهها مشرقا وهى تقول:

– إن الأطفال سيدقون الباب إذا لم نخرج، وخرجا للذهاب إلى سليم.

(١٩)

ظل طوال الظهيرة يفكر وهو يشعر أن امرأته على وشك أن تسأله عن شىء ما ولكنها غيرت رأيها، ظل يتساءل هل هى على علم بشىء لا يعرفه، وهذا الشىء أخبرتها به أمه، وسبب لها هذا الخوف عليه؟ هل كان ذلك هو الذى دفعها لتلك القبلة التلقائية الساخنة؟ لا بد وأنهما الاثنتان قد قررتا احتياجهما لحمايته.

كان سليم يريد التحدث معه ولكنه لم يلتفت إليه إلا فى المرة الثانية قائلا:

– أسف يا سليم، فقد كنت أفكر فى شىء آخر.

لم تفت نظرة رمسيس المثبتة على نفرت عن ملاحظة سليم الذى تمتم:

– هو شىء ممتع ذلك التى تفكر فيه. ولكن داود يريد حفلا موسيقيا هنا فى القرنة.

رد رمسيس:

– تحدث مع أمى عن ذلك. أين داود؟ إنه عادة ما ينضم إلينا.

– لقد لدغه عقرب.

لدغات العقارب نادرا ما تكون مميتة، وإن كانت شديدة الإيلام وعادة شديدة الإنهاك حتى بالنسبة لرجل فى قوة داود. استفسر رمسيس:

– متى حدث ذلك؟ ولماذا لم يأت لنفرت؟

– حدث هذا الصباح. يبدو أنه كان هناك اجتماع للعقارب فى غرفة نومه. اللدغة كانت فى قدمه وهو لا يستطيع السير ولكن خديجة تولت الأمر بعناية وسوف يكون مستعدا للعمل غدا.

تمتم رمسيس:

– المرهم الأخضر الشهير! ربما كان لهذا المرهم الأثر المرغوب وداود من المؤمنين بفاعليته ويبدو فعلا أنه فعال. أردف رمسيس:

– قل له ألا يخرج من البيت إذا لم يتحسن. أومأ له سليم ليتحدث فى أمر آخر. كانت العقارب شديدة الشيوع فى مصر ولكن من غير المألوف أن توجد داخل الحجرات.

عندما افترق الرجلان، وعد رمسيس أن يتحدث مع والدته عن موعد مقترح للحفل الموسيقى. قضى الأطفال وقتهم بالكامل يلعبون، وكان التوءم فى حالة اتساخ وإنهاك. نظر رمسيس إلى الرأس التى استراحت على صدره قائلا لنفرت بأمل:

– لا بد أنهما سيخلدان إلى النوم فورا. أجابته قائلة:

– لا تعول على ذلك. كما أن أسرة فاندرلخت ستتناول الغداء معنا كما تعرف.

– وهذا سبب آخر لكى نسرع.

كانت الجياد بجانب الجبل متجمعة بجوار منازل القرية، وصلا إلى أعتاب الصحراء وكان على وشك الانطلاق بجواده عندما سمع صوتا. قال ممسكا بالعنان "انصتى". قالت نفرت:

– أنا لا أسمع شيئا. ولكن الصوت عاد مرة أخرى وسمعته نفرت هذه المرة.

كانت صرخة لامرأة ملتاعة. أمسك رمسيس بطفلته وناولها لنفرت قائلا "خذيها بسرعة".

أطاعته نفرت واحتضنت التوءم بقوة. عادت الصرخة مرة أخرى ولكنها كانت متبوعة هذه المرة بنداء للمساعدة. كانت الكلمات إنجليزية وكان الصوت لامرأة.

– اذهبى بالأطفال للبيت فى الحال. لم ينتظر بل توجه بجواده ناحية الجبل بينما انطلقت نفرت إلى البيت.

استمرت المرأة فى طلب المساعدة وقد ضعف صوتها وتخللته عبرات البكاء. وجدها أخيرا مستندة إلى صخرة ناتئة وفى مواجهتها رجل يضحك بينما هى تضربه بعصا صغيرة. لم يكن ذلك سلاحا كافيا فى مواجهة السكين الذى يحمله. كان الرجل يتعمد اللعب معها. يتجنب الضربات الواهنة منها بسهولة ويطعنها بالسكين فى وجهها. كان يستمتع باللعب معها لدرجة لم يسمع معها صوت حوافر الجواد إلى أن أصبح رمسيس بجوارهما. صرخ الرجل وأطلق ساقيه للريح. كان رمسيس على وشك مطاردته إلا أن المرأة سقطت على الأرض فتخلى عن الفكرة وقد تعرف عليها على الفور من ملابسها التى كانت نفس الملابس التى كانت ترتديها عندما كان جستن وجدته عند دير المدينة.

كانت المرأة تنزف، فقام رمسيس بوضعها على ظهرها بعناية فظهر له أن الدماء تنزف من جرح بذراعها. لم ير أى جرح آخر فى جسدها، فقام بخلع قبعتها من فوق رأسها. فتحت المرأة عينيها وغطت الدموع خديها. تذكر على الفور عينيها فهمس قائلا:

– يا إلهى.. مستحيل، مولاى؟

الفصل الخامس

(١)

لم تنته زيارتنا للمقابر إلا بعد الظهر بكثير. قرر إمرسون أن يصاحبنا وعادة ما يستغرق الأمر منه بعض الوقت لإبعاد عقله عن التفكير فى أنشطة أخرى. كان اقتراحه بأن نذهب فى السيارة مرفوضا من البداية. فلم تكن السيارة هى الوسيلة المفيدة للانتقال، فهى مثل تلك التى استخدمناها فى رحلتنا لفلسطين، وقد عانيت أنا ونفرت من تلك الرحلة الطويلة المتعبة عبر سيناء لنذهب إلى هناك. أما التعديلات التى أدخلها إمرسون وسليم على هذه السيارة فلا أعرفها.

كان الأطفال يفضلون إمرسون عن أى شخص آخر بما فى ذلك أمهاتهم. كانت طريقته المبتكرة فى تسليتهم هى السبب، فبعد أن أوضحت إيفى رغبتها أخذها معه وكنت قد استأجرت بعض الحمير بعد أن أعلنت إيفلين بأنها تفضل ركوبها وقمت بتخصيص واحد منها لدوللى.

لم تدخل بالحيوانات إلى المقابر، ولم أكن أعرف أن هناك مانعا لذلك ولكن بدا أن ذلك ينم عن عدم الاحترام. عندما وضع إمرسون أيفى على الأرض حاولت الفرار منه ولكنه أمسك بها وراح يشرح لها قائلا:

– هذه المقبرة كالكنيسة. لا بد من أن تكونى هادئة ولا تقفزى فوق القبور. سألته إيفى:

– هل يوجد أناس ميتون تحت الأرض؟ أجبتها أنا قائلة:

– نعم: وأشرت قائلة، هذا قبر جدك الأكبر.

لم يكن دافيد قد رأى المبنى بعد اكتماله. وبينما حاول الآخرون كبح جماح إيفي وصرف تفكيرها عن الموتى، ذهبت معه إلى المقبرة.

قال دافيد:

– غريب عليّ التفكير فى جدى على أنه قديس. لقد كان أشجع وأصدق الرجال الذين عرفتهم ولكن!!

وافقته قائلة:

– ولكن كانت له أخطاؤه البسيطة. ومعظم البشر الذين يصبحون قديسين لهم تلك الأخطاء يا دافيد. القداسة يتم الوصل إليها بالتغلب على غرائز الفرد الدنيئة. جاء إمرسون فى تلك اللحظة وسمع ما قلته. تنهد ولم يقل شيئا ولكنه وقف صامتا خارج الباب. قال دوللى فخورا" إن لى اسمه".

وضعت ذراعى حوله قائلة "نعم ولقد كان سيسر ويفخر بأن لك اسمه". قال دوللى "احكى لى ثانية عما فعله".

حكيت له بأسلوب بسيط كيف مات عبد الله وهو يضحى بحياته من أجلى وعن الأحداث الكثيرة الأخرى التى جازف فيها بنفسه من أجلى ومن أجل إمرسون. كان رجلا طيبا وشجاعا. وكلنا نحبه ونفتقده. قال دوللى:

– ولكنه سعيد فى السماء، أليس كذلك؟ وافقته قائلة:

– بالتأكيد.

أسرعت إيفلين إلى تغيير الموضوع قائلة:

– تصميم المقبرة جميل يا دافيد فهو بسيط وتقليدى ولكنه رشيق بصورة غير عادية. وافق والتر قائلا:

– بالتأكيد وأنه لمن دواعى الأسى أن تشوهه القمامة بهذه الصورة.

كان الحبل المشدود أمام المدخل تتدلى منه مجموعة من الأشياء التى تقدم كقرابين ولم تكن سيئة المظهر، لذا وجدت أن من واجبى أن أقول:

– ليس لنا يا والتر أن نحدد ما هو المناسب للمؤمنين بأى دين، على سبيل المثال، عادتنا فى دخول الكنيسة دون خلع الأحذية تعتبر فى نظر المسلمين غير سليمة. تلك القرابين البسيطة هى مجرد شكر لاستجابة الإله لصلواتهم.

(٢)

امتنع إمرسون عن التعليق فهو عادة ما يسخر من الديانات، وكان ذلك لإصرارى على أن يمتنع عن إبداء التعليقات الساخرة فى حضور الأطفال. الدين أمر صعب بدرجة لا تحتمل أناس مثل إمرسون ليزيدوها صعوبة. لكنه أبدى تلك الملحوظة وهو ينظر نحوى:

– يبدو أن الله قد استجاب لكثير جدا من صلواته فى وقت قصير للغاية.

وافقته قائلة:

– نعم لقد فعل ذلك. لم تكن لدى رغبة لترك إمرسون يستشيرنى لأدخل معه فى مناقشة دينية. قالت إيفلين:

– أنا أجد ذلك مؤثرا. ما الذى يطلبونه منه؟ رددت قائلة:

– ما يريده البشر جميعا، الصحة، الذرية الطيبة، الحياة الآمنة وغفران الذنوب.

جلست إيفى هادئة بصورة مفاجئة وبدأت فى خلع حذائها. لم أعتقد أنها فعلت ذلك إلا لأن الأطفال يعترضون على تلك الأحذية فى أقدامهم، ولكن أمها اعترضت خوفا من العقارب والثعابين والحجارة المدببة. وبينما نحن نتجادل، ظهر رجل من

داخل الظلمات وحيانا باللغة العربية. أثار ظهوره الرعب فينا، فلم نكن نتوقع وجود أى شخص بالمكان. كان يرتدى جلبابا وله لحية تغطى الجزء الأسفل من وجهه. بدا لى أننى أعرفه بصورة ما ولكنى لم أحدد من هو بالضبط ولكنى رددت التحية وكذلك فعل دافيد. تفحصت وجه الرجل عن قرب فعرفت أنه من أسرة عبد الله. فسألته:

- هل أنت عبد الرازق؟ أجاب بابتسامة:

- أنا خادم الشيخ.

- إذن أنت أخذت مكان حسن.

أومأ برأسه ثم أردف:

- هل جئتم للصلاة؟ إنه أمر طيب. تمتم والتر بالإنجليزية:

- لا أعتقد أننى سأفعل. هل تمانعين يا أميليا؟ أنا لا أعنى عدم الاحترام ولكنه مجرد سؤال؟ أجبته قائلة:

- هذا مفهوم. ماذا عن الباقين؟

(٣)

قررت إيفلين البقاء مع والتر وبعد نظرات متشككة من عبد الرازق قالت ليا إنها ستنتظر بالخارج مع ابنتها وقالت شارحة موقفها:

- لا أتذكر الصلوات ولا أعتقد أنه سيكون مناسبا أن تجرى إيفى داخل الضريح.

كان اعتذار إمرسون موجها لى أنا فقد قال بسخرية:

- أنا لا أمانع فى الصلاة عندما تكون الصلاة ملائمة، ولكن عبد الله كان سيضحك كثيرا إذا رآنى أصلى بجانب قبره.

كنت متأكدة من أنه الآن مسرورٌ لأن أحفاده الصغار يلعبون بجواره. ولكن دوللى أخذ الأمر بجدية. اكتسى وجهه الصغير بالصرامة واتسعت عيناه وكان قد خلع حذاءه. وهكذا دخل ثلاثتنا إلى الضريح – دافيد وأنا ودوللى. أمسك دافيد ابنه فى يده وقاده عبر الطقوس المعتادة، فرغم أن والده كان قبطيا – أى مسيحى مصرى – فإنه تربى بين مسلمين وبيننا. لم يكن التعصب الدينى من بين أخطائنا. فإمرسون ورمسيس يعرفون بدقة الصلوات الجميلة للمسلمين ودافيد يتذكرها جيدا. من اتساع عين دوللى وتسارع أنفاسه ظهر أنه تأثر بشدة رغم اقتناعى بأنه لم يفهم شيئا مما قيل.

عندما خرجنا إلى ضوء النهار خرج معنا عبد الرازق معلنا:

– الشيخ مسرور من قدوم الأسرة. هلا قدمتم قربانا؟ وأشار إلى وعاء موضوع على الأرض بالمدخل وبه بعض العملة المعدنية.

– بالتأكيد، صاح والتر، الذى كان طيب القلب وأراد أن يعوض عما قد يفسر بأنه عدم احترام وبالتالى لم أعترض عندما أفرغ جيوبه مما بها من عملة معدنية بالوعاء.

سألت عبد الرازق؟

– فيم يستخدم هذا المال؟ فأجاب:

– إنه لى يا ست الحكيمة، ألست خادم المكان؟

وأنا أتلو الصلوات وأعتنى بالضريح وأكنس المدخل. ثم التقط المكنسة التى يستخدمها لهذا الغرض وبدأ يكنس المكان من آثار أقدامنا. كانت تلك من البقايا الباقية المدهشة فى مصر، فالكهنة القدماء كانوا يكنسون الأروقة الخاصة بالمقبرة بعد أن تجد المومياء مكان استراحتها الأبدية. وبعد أن يغادر المكان زواره لإزالة أى أثر للعالم الخارجى. تركناه لصلواته وقلت فى دهشة:

– لقد كان صبيا شديد الكسل عندما كان صغيرا. انطلق دافيد فى ضحكة مدوية قائلا:

– عمتى أميليا، أنت شديدة السخرية. هل تقصدين إنه أخذ هذه الوظيفة ليتجنب العمل اليدوى؟

– لا أعتقد أننى أشكك فى نوايا أى شخص. كان لا بد وأن يخلف حسن شخص ما.

– إن موته يمكن اعتباره علامة نحس. تمتم دافيد.

– هذا ما لا يعتقده المتدينون. فبالنسبة للمؤمن الحق، فى عقيدتنا وفى عقيدة حسن، الموت ليس النهاية وإنما البداية وأى ضمان للخلود أكبر من خدمة قديس؟

فتح إمرسون فمه ولكنه نظر للصبى الصغير الذى كان ممسكا بيده فأغلق فمه. سألت قائلة:

– ألا ذهبنا إلى منزل سليم لنجمع الآخرين؟ رد دافيد:

– من الأفضل أن نذهب بسخمت الصغيرة إلى المنزل. كان يحمل ابنته وقررت لنفسى أن هذا الاسم يناسبها تماما بشعرها الأصفر ومزاجها المتفجر. كانت فى تلك اللحظة كالآلهة تتثاءب بين ذراعى والدها. قالت ليا:

– يجب أن نرتب لزيارة مناسبة وليس مجرد زيارة عابرة ومغادرة سريعة فجميعنا متعبون.

أصرت إيفى على الركوب على الحصان مع إمرسون ثم خلدت للنوم سريعا بين أحضانه القوية. مشينا ببطء لنتوافق مع سرعة الحمير. استطالت الظلال مع مغيب الشمس وميلها جهة الغرب. كان هناك شخص يجلس فى راحة واضحة وحيانا ببرود كما لو أنه ضيف مدعو وصاح قائلا:

– ها أنتم عدتم أخيرا. لقد انتظرت لفترة طويلة. صحت فى دهشة:

– جستن! ما الذى تفعله هنا؟

(٤)

لا يمكن أن يكون هناك شك فى شخصيتها بالرغم من خطوط المكياج التى تداخلت والزى الذى ترتديه. اغرورقت عيناها البنيتين بالدموع وهى تقول:

- لم أرغب فى أن يرانى أحد منكم. دعنى أذهب. أنا بخير.

- لا يمكنك الرحيل فى هذا الغروب. قال رمسيس ذلك مدركا أنه لم ير فى حياته أحدا يبكى بهذه الحرقة وبهذا الفيض من الدموع، وخوفا من أن تصاب بلوثة إذا ما قال شيئا مزعجا، آثر أن يقول:

- كيف جئت إلى هنا؟ بالتأكيد ليس على قدميك.

نظرت إليه بعينين دامعتين ولم تجب. سحب سكينا فارتدت إلى الخلف مذعورة وأطلقت صرخة صغيرة فقال لها:

- سأقطع كم الثوب لأنه شديد الضيق ولا يمكن طيه وأود أن أنظر إلى عمق الجرح الذى فى يدك. مولتى، هل أنت خائفة منى؟ همست قائلة:

- كان معى حمارٌ ولكنه فرّ بعيدا عندما جاء ذلك الرجل..

- لا عليك، لقد ذهب.

قطع رمسيس الكم ودفعه لأعلى. كان القطع بالرسغ طويلا وإن لم يكن عميقا، وفى الجانب الخارجى من ذراعها.

- ليس بالجرح السيئ. من الأفضل أن تأتى معى إلى البيت لتقوم أمى بتضميده لك.

- لا أستطيع. لا تجعلنى أذهب لهناك. لو أمكنك الذهاب بى إلى المرفأ فسأستقل قاربا.

كانت ترتعد بعنف، فقال لها:

- لست فى حالة تسمح لك بالتفكير السديد بعد ما حدث لك. أمى تحب العناية بالناس وستكون سعيدة عندما تعتنى بك. حملها ووضعها على ظهر جواده. بدت شديدة الضآلة وخائفة وهى فوق الجواد وقدماها متدليتان. ركب خلفها وأحاطها بإحدى ذراعيه. كانت تجلس جامدة كالتمثال وقد أبعدت رأسها وأخرجت منديلا من جيبها وقالت بصوت مرتعش:

- لم أكن أرغب فى أن يرانى أحد منكم.

استرجع رمسيس ذكرى آخر لقاء له بها، كانت عندئذ فى الرابعة عشرة وقت تلك الحادثة المحرجة فى غرفته عندما قالت له إنها تحبه وتريد أن تبقى معه. كانت الذكرى لا تزال تؤرقه. فقد كانت مشبوبة العاطفة وشديدة الصغر. كان ذلك من أربعة أعوام مضت، ربما خمسة؟ هى لا تبدو أكبر من ذلك بكثير الآن ولكنهم سمعوا من معارفها أنها تزوجت. ما الذى حدث للزوج الأمريكى الغنى؟ ما الذى كانت تفعله بمفردها بالبر الغربى ومن كان ذلك الرجل الذى هاجمها بالسكين؟ قرر رمسيس ترك تلك الأسئلة لوالدته. لم يرغب فى سؤالها وهى فى هذه الحالة المزرية ولكنه جازف بسؤال:

- ما الذى كنت تفعلينه بالبر الغربى؟ مسحت وجهها قائلة:

- لقد هرب جستن من فرانسوا فى الظهيرة. اعتقدت أنه ربما يجىء عبر النهر فقد دأب على الحديث عن مراقبته لكم وأنتم تنقبون عن الآثار وعن بقايا المعبد. ذهبت إلى الراميسيوم وكنت ذاهبة إلى دير المدينة.

- لقد انقضى الأمر الآن. إننى آسف على الصبى. سوف نصلح من شأنك ثم أصحبك عبر النهر. إذا لم يكن قد عاد فسوف نساعدهم فى البحث عنه.

- سوف تكون غاضبة. استرخت والتفتت بوجهها ناحيته.

قال هو مواسيا:

- السيدة فيتزرويس؟ الخطأ ليس خطئك. سوف نجد الصبى، أعدك بذلك. استمر

فى الحديث لإحساسه بأن ذلك يريحها.

- هل تفترضين أنه ذهب إلى بيتنا؟ لقد قال إنه سيزورنا.

لم تجب وخشى أن تكون قد نامت، فقد كانت ساكنة وقد أخفت وجهها فى صدره. أحكم قبضته عليها وأكمل المسير.

(٥)

كان الجميع بالشرفة - بما فى ذلك الأطفال والقطط وجستن الذى كان يرتدى حلة بنية وشعره الأشقر يلمع كالهالة. قال لها رمسيس بانشراح:

- إنه هنا معافى وسعيد.

ولأن الأسرة كانت معتادة على الزوار غير المتوقعين، فإن منظره ومعه أنثى فى حالة إغماء بين ذراعيه كان موجبا لاستثارة اهتمام الجميع. كانت نفرت تنتظره وبالتالى كانت أول من ذهب إلى الباب وخلفها أبوه وأمه. سألته بانزعاج.

- ما الذى حدث؟ ومن تكون؟

كانت الإجابة لدى أمه.

- إنها مرافقة السيدة فيتزروييس كما أعتقد. أتذكر رداءها جيدا هل هى مصابة؟

- ليست بالإصابة الجسيمة يا أمى. هل يستطيع أحد أن يأخذها؟ أعتقد أنها فى حالة إغماء. ولكن المرأة صاحت:

- لا، والتفتت تنظر إليه.

بدت وكأنها فتاة الرابعة عشرة التى يتذكرها جيدا. قالت له:

- تستطيع إنزالى لو سمحت. فتح أبوه ذراعيه قائلا:

- دعينى أساعدك يا آنسة.

- سوف تندهش يا أبى، حذره رمسيس، فأجاب:

- يا إلهى الرحيم. وضع إمرسون الفتاة برقة على الأرض وحملق فى وجهها وقال :

- إنها تبدو مألوفة صحت أنا بدهشة كبيرة، موللى!

ثم استطردت:

- يبدو أنك مررت بحادث بسيط . فلتأت معى إذا سمحت.

أحنت موللى رأسها ودخلت إلى البيت. نظر رمسيس إلى زوجته التى بادرته قائلة:

- ماذا جاء بها معك بحق الجحيم؟. قاطعها رمسيس قائلا:

- راقبى ألفاظك. تعالى وأغلقى الباب. قال إمرسون:

- يا لها من مفاجأة. ما الذى أتى بها إلى هنا؟ رد رمسيس.

- إنها مرافقة السيدة فيتزرويس وجاءت إلى البر الغربى بحثا عن جستن.

ابتسم الصبى قائلا:

- ولكنها لم تجدنى بالرغم من ذلك. أنا سعيد لأنى قضيت وقتا بديعا مع أصدقائى والسيدة إمرسون الجميلة.

(٦)

كان لى حوار مستفيض مع موللى أو مريم كما تفضل أن تدعى عندما كنت أنظف جرحها وأضمده، كان الحوار أحادى الجانب. فإجاباتها على أسئلتى كانت مقتضبة

وغامضة وسلوكها انسحابى. لو لم أكن أعرفها لقلت أنها خائفة منى. استجابت مرة واحدة بحيوية عندما قلت لها إن والدها كان يبحث عنها وسوف يكون سعيدا عندما يعرف أنها بأمان وبحالة طيبة، فقد صرخت قائلة:

– يجب ألا تخبريه. عدينى بأنك لن تفعلى.

– لا أستطيع. قالتها مريم فى صوت خفيض ثم أضافت:

– لقد رأيت ما عليه حال جستن فهو يثق بى وهو يجد صعوبة الاعتياد على الناس وفرانسوا رغم إخلاصه الشديد له عيوبه أيضا. قلت لها.

– بالتأكيد وإن إحساسك بالواجب محل اعتبار ولكن والدك. ردت وهى ترفع ذقنها لأعلى:

– لن أكون عالة عليه أو على أى إنسان آخر. هو لا يهتم بى. إنه يستغلنى عندما يحتاجنى. قلت لها:

– أنت مخطئة فى ذلك.

– ربما . هل أستطيع الذهاب الآن؟ سينتاب السيدة فيتزرويس القلق على جستن.

– لا يمكننى إبقاؤك إذا أردت الذهاب. أرجو أن تفكرى فيما قلته لك. ليس هناك خجل من العمل الشريف من أى نوع ولكن وضعك حرج وكأحد أفراد أسرتنا من حقك أن نساعدك.

– أشكرك. لم تتغير تعبيرات وجهها وقامت وهى تجذب الكم الممزق للثوب لأسفل.

وبالرغم من الخصلات المصبوغة باللون الرمادى بدت أكبر قليلا عما كانت عندما رأيتها آخر مرة بالرغم من أنها فى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة. عيناها البنيتان ذواتا الأهداب الطويلة كانتا تشبه عينا والدها وملابسها المتواضعة لم تخف قوامها

البديع. قلت لها:

- هل يمكننى أن أعطيك قبعة؟

كانت قبعة لطيفة من القش الطبيعى وبها زهور صناعية. قال جستن لها بعد أن لبستها. إنها تبدو جميلة ثم أردف:

- هى تحتاج إلى قدح من الشاى كما أتوقع. ولكن مريم قالت:

- لا، علينا أن نعود يا جستن، فسوف تقلق جدتك. أجابها مستريحا:

- لا نستطيع الذهاب الآن فحمارى هرب.

ولكن إمرسون تدخل قائلاً وهو ينظر تجاهى:

- سوف أجهز السيارة.

كان إمرسون لا يستطيع استخدام السيارة وقتما يشاء ولكنى كنت أود التخلص من موللى وجستن بالسرعة التى يريدها هو وبالتالى لم أعترض.

كنت قد أقنعت إمرسون أن يضع السيارة فى الحظيرة ولكنى لم أفترض أنها ستبقى هناك. فالمعجبون بها عديدون وبعضهم اعتاد رؤيتها يوميا. عندما ظهرت السيارة لم أندهش لرؤية سليم يجلس خلف إمرسون.

لفت ظهور السيارة نظر جستن بشدة وصاح بانبهار:

- سيارة! هل أستطيع ركوبها؟ هل يمكننى إدارتها؟ سألته:

- هل تعرف كيف؟

- لا، ولكنى أعتقد أنه من السهل تعلم ذلك وأحب أن أفعل ذلك.

رد إمرسون:

- لا أحد يقود السيارة فيما عداى أنا وسليم. قلت لإمرسون:

– دع سليم يقود السيارة بهما فلا توجد أماكن لكم جميعا، وأنا أحتاجك هنا.

استاء إمرسون قليلا ولكنى كنت واثقة من أنه يود أن يناقش المستجدات الأخيرة على وجه السرعة. تحرك سليم إلى مقعد القيادة وأمسك إمرسون بياقة جستن وهو يصعد للسيارة قائلا له:

– دعها تصعد هى أولا.

تصلب جسد الصبى فى الحال فأسرعت قائلة:

– أترك الصبى فى الحال يا إمرسون، قال وهو يتركه:

– عليك إطاعة سليم كما تطيعينى. لو سببت له أى متاعب فلن نسمح لك بزيارتنا مرة أخرى، اذهب بهما يا سليم وانزل الصبى عند الدهبية. ردت مريم قائلة:

– ليس ذلك ضروريا فهو لن يهرب منى، أليس كذلك يا جستن؟ رد الصبى بابتسامة حلوة:

– بالطبع لا، سعدتم مساءً جميعا. سأراكم قريبا.

(٧)

راقبت بخوف سير السيارة مخلفة سحابة من التراب وبدا أنها تسير بصورة طيبة. سألت فاتيما أن تبحث عن دادات الأطفال ليذهبن بهم إلى الفراش.

قام إمرسون فى الحال وصب لى كأسا من الويسكى وآخر له وثالث لوالتر قائلا له:

– ابتهج يا والتر. هذه كانت آخر أقربائك الذين لا تعرفهم.

– آمل ذلك بالتأكيد. أليس لنا أقارب مفقودين ومحترمين؟ رددت أنا قائلة:

– وفقا لما أعرفه، مريم إنسانة محترمة جدا.

– ولكنها؟! قاطعته بإشارة سريعة لمعرفتي بما كان سيقوله. لم تعتبر سينيا نفسها صغيرة وظلت جالسة. كانت منتبهة لما يقال ولم تكن العلاقات غير الشرعية من الموضوعات التي يمكن أن أناقشها في حضورها. لقد سمعت الكلمة وأسوأ منها يقولها الأطفال في مدارس القاهرة والتي نقولها نحن عن آبائهم. عندما جاءت إليّ لأول مرة دامعة العينين وهي ترتعد لتسألني عن معناها. فعلت كل ما بوسعي لإقناعها بأن الجهلة والسوقة فقط هم الذين يهتمون بهذه الأشياء، وسألتها:

– ماذا تعتقدين في مريم يا سينيا؟

قلبت شفتيها لأعلى وعدّلت وضع الأسورة حول معصمها وقالت:

– أنا لا أحبها ولم أحبها قط.

– لا يجب أن نكون قساة يا سينيا. لقد مرت بظروف صعبة وفوق كل شيء هي من أقربائنا.

– وما هي قرابتها لي؟

كان رمسيس واقفا فصاح في التو:

– في الحقيقة، هي ابنة عم من درجة ما كما أعتقد. أليس كذلك يا أماه؟

صحت قائلة:

– يا إلهي الرحيم، وما قيمة كل ذلك؟

ولكن سينيا لم تنته عند ذلك بل أضافت:

– وما هي درجة قرابتها برمسيس؟ أنهيت الحوار قائلة:

– حان وقت النوم يا سينيا. قامت سينيا قائلة بعزة نفس:

– أنتم ستتحدثون فى أمور لا تريدوننى أن أسمعها. أتفهم ذلك. سعدتم مساء، ولكنى لا زلت لا أحبها. قالت إيفللين:

– الأمر أكبر كثيرا. لقد أخبرنا إمرسون عن ظروفها يا أميليا عندما كنت معها بالداخل. هل شرحت لك ما الذى أتى بها إلى هذه الناحية؟

– باختصار. لقد توفى زوجها فجأة، فلم يكن رجلا شابا ولم يترك لها شيئا. يبدو أنه كان يضارب بأمواله دون حكمة. لقد كان عليها أن تبيع خاتم الزواج لكى تدفنه. تمتمت نفرت:

– من الأوصاف التى عرفناها عن الماسة التى بالخاتم، فلا بد وأنها كانت جنازة مبالغ فى فخامتها.

– فليكن ذلك يا نفرت. فقد كان عليها البحث عن ملاذ وكان مرافقة السيدة فيتزروويس الوظيفة الوحيدة المناسبة لها، والشعر الرمادى والملامح المسنة المزيفة هما الوسيلة الوحيدة لإخفاء عمرها الحقيقى حتى تلائم الوظيفة. لقد تعلمت فن التنكر من والدها ولكنها لم تكن قادرة على أن تجد عملا إلى أن وجدت إعلانا لسيدة تطلب فيه شخصا يعرف مصر لأنها تريد قضاء الشتاء بها. وبلا شك، فعمر السيدة فيتزروويس ونظرها الضعيف جعلا من السهل على مريم أن تتنكر.

– كل هذا مثير ولكن ما أريد معرفته هو لماذا هوجمت هذا اليوم فقد اعتقدت عندما سمعت صراخها أن إحدى السائحات تتعرض لإلحاح أحد المتسولين ولكن الرجل كان يكاد يمزقها بالسكين وهذا الأمر لم نسمع به من قبل. كان هذا ما قاله رمسيس فقلت:

– لقد سألتها بالطبع عن ذلك، فماذا قالت لك؟

– ليس لديها فكرة عن رغبة أى أحد فى إلحاق الضرر بها. ورغم ذلك فلا بد من سبب لذلك. ربما ليس بالسبب الوجيه فلا يوجد أى مبرر للعنف على الإطلاق. ولكن شيئا فعلته أو يُعتقد أنها فعلته جعل الرجل يفكر فى الانتقام. انفجر إمرسون قائلا:

- ما هذا الهراء؟ ما الذى يمكن أن تكون فعلته طفلة مثلها؟

- هذه مجرد سذاجة ذكورية يا إمرسون، أن تفترض دائما أن الشباب والوجه الجميل هما عنوان البراءة. ولكنى أوافق معك على أن بعض الحمقى قد يتعاملون بعنف مقابل بعض الإساءات غير الضارة ولكن لا بد وأن هناك أمرا وراء كل ذلك ومن أجل سلامتها الشخصية علينا اكتشافه. لقد سمحت لها بالرحيل اليوم لأننى لم أستطع استبقاءها بالقوة ولكنى آمل فى إقناعها بالقدوم إلينا . قالت نفرت بضيق بالغ:

- هنا؟

- على الأقل إلى أن يستطيع والدها تحمل مسئوليتها . لقد قال إنه سيرانا قريبا ولكنى سأرسل له رسالة. هى لا تزال غاضبة منه ولكنى واثقة من قدرتى على حل هذه المسألة. أتريد الكلام يا إمرسون؟

صاح إمرسون:

- لا.

- لقد كنت تدير عينك وتزم شفتيك.

أجاب متبرما:

- إن من حقى أن أغير من تعبيرات وجهى دون أن أسألك الموافقة.

قلت بنبرة هادئة:

- كما كنت أقول إنها أكثر استعدادا لقبول تفسيرات والدها الآن، لا يوجد شىء أكثر تدميرا للكرامة من الفقر. إن من الواجب أخلاقيا مصالحتهما ومساعدة أحد أفراد الأسرة وهو فى حاجة للمساعدة. ولكن إمرسون قال غاضبا:

عندما تبدئين فى الاستشهاد بالأمثال فلا فائدة من محاولة تغيير رأيك.

- وما هو اعتراضك على وجودها هنا؟

– لا اعتراض. أنا أشعر بالأسى من أجل الفتاة.

هتفت نفرت:

– هناك أمر واحد يقلقنى وهو جستن. إذا جاءت إلينا فسيعود لزيارتنا، ولقد رأيتم كيف يكون مع الأطفال. قالت ليا:

– لقد كان بديعا والأطفال يحبونه. ردت نفرت.

– نعم، هو بديع ولكنه عديم المسئولية ولو أقنعهم بالذهاب معه للعب أو للنزهة فلربما أصيب بنوبة من نوبات الصرع، أو يذهب بعيدا ويتركهم.

– لا يمكن لذلك أن يحدث يا نفرت. لو زارنا مرة أخرى فلن نترك الأطفال معه وحده أو نتركه يأخذهم خارج المنزل.

(٨)

فى الحقيقة كان ظهور مريم مزعجا لى بدرجة لم أعترف بها لهم ولكنى قلت لنفسى ما الأسباب التى تدفعنى لعدم الثقة بالفتاة؟ خلال تعارفنا القصير كانت تافهة، متصلبة وغير منظمة ولكنها لم تكن خطيرة على الإطلاق. لقد اعتقد والدها أنها بعد فرارها بعيدا عنه أنها قد وجدت رجلا حاميا، ولكن حتى إذا كان ذلك صحيحا فإن ذلك كان أدعى للشفقة عن اللوم.

توقفت عن التفكير فى أمر الفتاة وقلت بحماس:

– أقترح أن نتهيأ لاستقبال ضيوفنا.

عندما وصل آل فندرجلت، كنت قد استبدلت ملابسى وكتبت برقية، أصر إمرسون على رؤيتها قبل إرسالها. قلت وأنا أناولها له:

– لم أرغب فى أن أكون واضحة، لأن سميث زميل سيثوس الذى يقوم بتوصيل

البرقيات له ليس هو الشخص الذى يوثق به بمثل تلك المعلومات الشخصية. تمتم إمرسون:

- لقد استغل تلك المعلومات ضدنا من قبل. على كل حال، هذه البرقية تبدو كافية (تم العثور على المفقود. أحضر فى الحال). سوف أرسل على إلى مكتب التلغراف لإرسالها.

بعد أن انتهيت من ذلك الموقف كنت فى حالة تسمح بالترحيب بالضيوف بصورة أكثر راحة. كانت الأمسية باردة وبالتالى تجمعنا فى حجرة الجلوس بدلا من الشرفة. قال سايروس ملاحظا أننى وإيفلين فقط فى استقبالهم:

- أرجو ألا نكون قد أتينا مبكرين.

- لا ولكن الآخرين هم المتأخرون وأنا أعتذر عن ذلك. لقد حاولت كل ما فى وسعى لأجعلهم يحافظون على الآداب المرعية ولكن أحيانا ما أشعر بأن ذلك مستحيل خاصة مع إمرسون. ردت إيفلين بابتسامة.

- وكذلك والتر. أعتقد أنه قرر اختلاس بعض الدقائق يقضيها مع النصوص التى يفك ألغازها. عندما يكون منغمسا فى ترجمة صعبة يجب أن ألفت انتباهه.

دخلت ليا ومعها دافيد تتبعهما نفرت وكان ملحوظا غياب رمسيس ولاحظت أن نفرت مهمومة بشىء ما ولكنها بدأت الحديث قائلة:

- أنا شديدة الأسف، ردت كاثرين قائلة:

- لا عليك. هل كان الأطفال متعبين هذه الليلة؟ رد دافيد قائلا:

- أطفالنا كانوا كذلك. لقد أخذناهم إلى قبر عبد الله فى الظهيرة ولكنهم لم يتوقفوا عن الحديث عن ذلك حتى الآن. دوللى أراد أن يسمع كل القصص عما أتذكره عن جدى وإيفى سألت أسئلة محرجة.

ردت ليا:

– إنها في الثانية من العمر ولا أرى في أسئلتها إحراجا على سبيل المثال: "هل كل الموتى يشبهون من هم في كتب العم رادكليف"؟

همست كاثرين قائلة:

– يا إلهي القدير. هل كان يقوم بإطلاع الأطفال على صور المومياوات؟ رددت عليها قائلة.

– أنا أمنعه من فعل ذلك. قال دافيد.

– لا يبدو أن ذلك يضايقهم. سألته:

– وبماذا أجبت إيفى؟ رد دافيد ضاحكا:

– قلت لها لا، وغيرت الموضوع قبل أن تتمادى في السؤال.

قررت أن أفعل نفس الشيء لأنني لم أرغب في ارتكاب الخطأ الذي تقع فيه النساء بافتراضهن أن الآخرين يستمتعون بالقصص التي تروى عن أحفادهن. قلت للجميع:

– كانت لدينا ضيفة هذه الظهيرة. هل تتذكرين يا كاثرين موللي هاملتون؟

أومأت كاثرين قائلة:

– تلك الطفلة المدللة التي أثارت الأقاويل، ثم قطبت حاجبيها قائلة "ابنة أخت الميجور هاملتون" ولكنه .

قلت مقاطعة:

– ليس الميجور هاملتون. لم تكن ابنة أخته بل كانت ابنته ولا تزال.

أنصتوا لحديثي صامتين وقال سايروس وهو يهز رأسه:

– لقد تعقدت المشكلة. ما الذي تنوين عمله معها؟

– سنأخذها إلى أحضان الأسرة بالطبع. قال إمرسون ذلك وهو بالباب وأضاف "وكما قال شقيقى الآخر مرة، إنها عادة أميليا أن تتبنى كل برىء بائس يقع فى طريقها، حتى ولو بالقوة".

قلت له:

– لقد تأخرت يا إمرسون ويجب أن تخجل. هل كنت تطلع الأطفال على صور المومياوات المقززة؟

(٩)

لم يأبه بهذا الهجوم المباغت وخاطب الجميع بتحياته وذهب إلى البار الجانبى وبدأ يصب الشراب فى الكؤوس ولكنه لم يوقف الحوار بل قال:

– لست آخر من حضر يا عزيزتى فرمسيس ووالتر لم يحضرا بعد.

– وهذا أسوأ ما فى الأمر. لماذا لا تذهب لإحضارهم؟

قال وهو يناولنى كأسى:

– ما هذا اللغط عن لا شىء. اشربى يا بيبودى كأسك وحافظى على سلوكك. إننى أسمعهما قادمين.

دخلا معا وهما غارقان فى نقاش لدرجة أن والتر لم يع الأمر أو الموجودين إلى أن أوقفه رمسيس ووجه انتباهه لهم فقال والتر:

– إننى جد آسف. هل تركناكم تنتظرون طويلا؟

إنها غلطتى أنا فقد انشغلت فى نص مبهر وأردت رأى رمسيس فى كلمة.

قال إمرسون:

– اجلس يا والتر واهدأ فلا أحد يريد سماع شىء عن مخطوطاتك الغامضة. لقد

دهشت عندما لم أجدك يا فاندرلخت بدير المدينة فى الأيام الماضية. هل تنازلت عن الجزء الخاص بك من الترضية؟

أجاب سايروس:

– لا تمتلئ بالآمال فتلك المقابر تخصنى وسوف أعود للعمل فى الحال. لقد كنا منشغلين. سأله إمرسون مندهشا:

– منشغلون بماذا؟

أعلنت فاتيما أن العشاء جاهز فانتقلنا إلى غرفة الطعام. بدأ سايروس يشرح لإمرسون بصوت خفيض كيف أن ترميم وتدوين كنوز زوجات الإله لها الأولوية على غيرها من الأنشطة فى هذا الوقت. وهو ما يعرفه إمرسون جيدا ولكنه يفضل تجاهل ذلك لأن لدين خططه الخاصة.

اعتراضى الوحيد على الحفلات الكبيرة هو استحالة تتبع كل ما يقال. نحن كما أردد دائما – مجموعة تهتم بالكلمات وأيضا مجموعة من الأذكياء.

لم يصبح النقاش عاما حتى منتصف العشاء. كانت ملاحظة من إمرسون بصوته المجلجل هى ما استقطبت اهتمام الجميع حيث قال:

– أنا لا أرى سببا لفعل أى شىء تجاه ذلك. سألته:

– تجاه ماذا؟ . كان رمسيس هو الذى أجاب:

– تجاه الهجوم على مريم فى الظهيرة. كنت أقترح على أبى أن نحاول البحث عن الرجل الذى هاجمها.

– وهذا صواب. قال سايروس ذلك ثم استطرد: لا نستطيع السماح لمثل تلك الأشياء أن تقع. ومع كل التقدير لنظرياتكم، يا أميليا، فالتفسير المقنع هو أن ذلك الرجل معتوه وربما هاجم سائحين آخرين. كيف تقترحون معالجة هذا الوضع؟ رد رمسيس:

– يجب إبلاغ الشرطة، وعلى أبى أن يقوم بذلك، فالشرطة سوف تستمع إليه. وأقترح أيضا تقديم مكافأة للقبض عليه لمعارفنا من الأهالى فهم يعرفون كل فرد فى البر الغربى وسينشرون الخبر. رددت قائلة:

– هذا منطقى. ماذا عنك يا إمرسون؟

– اللعنة، أعتقد أننى يجب أن أقوم بذلك.

(١٠)

قمنا بتنفيذ جزء من خطة رمسيس عند وصولنا إلى دير المدينة صباح اليوم التالى حيث جمعنا رجالنا وأخبرناهم بما حدث مما أصابهم بالصدمة والدهشة،وعبروا عن استعدادهم للمعاونة. أشار سليم إلى أنه لا يمكن أن يكون أحد أهالى قرى البر الغربى مسئولا. فبوضع الاعتبارات الأخلاقية جانبا، فهم يعرفون جيدا أن مهاجمة السياح تواجه بالعقاب الشديد. لقد كان هناك دائما بعض المجاذيب البسطاء يتجولون فى الأنحاء، ولكنهم كانوا معروفين جيدا ومراقبين بواسطة المسلمين المحترمين ولم يحدث أن جنح أحدهم إلى العنف.

– سوف ننشر الخبر ونستقصى عن الغرباء. قال سليم ذلك بثقة.

ذهب دافيد وإيفلين إلى القلعة ولكن برتى ظل معنا وكذلك سينيا، الذى كان سماحنا لها بالقدوم معنا مكافأة لها وتمييز تستحقهما. ولكن لسوء الحظ كان قدوم سينيا معنا يعنى قدوم القطين جارجرى وحورس، وكلاهما مزعج، فحورس كان يزمجر ويخمش من يقترب من سينيا وجارجرى لم يعد سريعا أو قويا بالدرجة الكافية لحمايتها.

كانت مهمة سينيا هى أن تجمع شظايا وقطع الأوانى المكسورة لرمسيس وبالتالى أقنعتها بأن تساعدنى فى غربلة الرمال والأحجار التى أزالها الرجال من المنزل الذى

كنا ننظفه. كانت لها عينان ثاقبتان مدربتان على تمييز الكتابة الهيراطيقية. شظايا الأوعية الفخارية، أحيانا ما تحتوى على رسومات بدلا من الكتابات ولحسن الحظ كنت قادرة على اختطاف قطعة مميزة قبل أن أتمكن أنا من النظر إليها. أعطيتها لرمسيس وقلت له:

– أريد مناقشة أمرٍ معك.

جلس على ركبتيه، فأسرعت قائلة:

– إن ظهور مريم مرة أخرى يلقى ضوءاً على هاتور المحجبة ويعضد إحدى نظرياتنا رغم أنها لم تكن فى قائمتى الخاصة.

– قائمة؟ أية قائمة؟

– كان ذلك أمرا مشروعا وضروريا وجزءاً من التحريات التى أقوم بها.

دفع رمسيس بقبعته للوراء وغطى وجهه بكلتا يديه متمتما:

– أعتقد أنك خاطبت نفرت فى ذلك.

– يا ولدى العزيز، كيف تفترض أننى أفعل شيئا كهذا، لقد انتظرت حتى نكون وحدنا لكى أناقش الأمر معك، وإننى أستحلفك بالله ألا تضيع الوقت فسوف يصبح إمرسون فى طلبك حالا. إن مريم أو موللى تعتقد أنها تحبك.

– لأجل الله يا أمى، لقد كانت فى الرابعة عشرة وكانت تلك خيالات صبية صغيرة لا أكثر.

لم أكن أحتاج لتذكيره بما فعلته، فقد كانت الصورة واضحة فى ذهنه كما هى فى ذهنى. وحدها معه فى غرفته ورداءها مخلوع ليكشف عن جسدها الغض والناضج. ما الذى سبق تلك اللحظة؟ لا يحتاج الأمر إلى سؤال. كانت هى المعتدية وخرج هو فى الحال فى طلبى.

استطردت قائلة:

– قد تعتبر نفسها امرأة مزدراة ولكن الرابعة عشرة تعد سنا حرجة وقد اختزنت الرفض فى داخلها طويلا.

– ليس لأربعة أعوام. قال ذلك وهو يمسح العرق من على جبهته.

– هل هناك من واحدة أخرى قد تحمل لك ذلك الحقد؟

هز كتفيه قائلا:

– كيف لى بحق الشيطان أن أعرف ما تعتبره أى امرأة هتكا لها!، على رسلك يا أمى، فطالما أنك تصرين. فقد كانت هناك دوللى بلينجهام، وحقيقة أننى قتلت والدها ربما جعلتها تحمل ضغينة تجاهى.

أجبته قائلة:

– لقد كنت تدافع عن نفسك وعنى. لقد أوليتها الاعتبار بالطبع. استطردت قائلة:

– ولكنها كانت شديدة الأنانية ولا تهتم أدنى اهتمام بوالدها ومن السهل إغوائها أليس كذلك؟

– بالتأكيد وربما مرت بدستة من الرجال منذ ذلك الوقت.

– قد لا أضع الأمر فى هذا السياق. ولكن هل هناك أخريات؟

– لا. أبى يبحث عنى، هل تسمحين لى بالانصراف؟

(١١)

تركته يذهب لأننى أدركت عدم إمكانية حصولى على أكثر من ذلك منه حاليا. لا شك فى أنه كان محقا بشأن افتتان مريم العابر به، ولكن كان لديها سبب أقوى لكراهيتنا جميعا. تعجبت هل نسى رمسيس أن والدتها قد واجهت نهاية عنيفة على يد أحد رجالنا ولم نتأكد إطلاقا من كان؟ كانت برثا تحاول قتلى آنذاك، ولكن مريم قد لا

تنظر للأمر على هذا النحو. إننى لا أتذكر كلمات سيثوس لى "لو أنها تحملنى مسئولية موت أمها، فكيف تشعر إذن تجاهك؟". لم أكن أعرف شعور تلك الفتاة تجاه الكثير من الأمور، وكذلك والدها، لم يكن يعرف ولكن أضفتها إلى قائمتى.

تمكنت من إبعاد إمرسون عن موقع الحفر وأجبرته على ارتداء حلة مناسبة فى منتصف الظهيرة. قرر الجميع مصاحبتنا، فقد كنا سنتناول الغداء بفندق ونتر بالاس. عرض داوود أن ينقلنا إلى هناك فى قاربه الجديد الذى اشتراه لأحد أبنائه ليقوم بنقل السياح من الأقصر إلى البر الغربى عبر النيل وبالعكس. كان صابر، كما أخبرنا والده، ناجحا فى عمله ويرجع ذلك إلى جمال قاربه بطلائه اللامع ونظافته والسجاجيد التى تغطى ممراته.

ذهبنا إلى المرفأ وأعلن داوود أنه سيزور بعض أقاربه وينتظر ليصحبنا عائدين. حاولت إثناءه بأننا قد نتأخر ولكنه كان مصمما، وعندما تحلق المراكبية الآخرين من حوله أدركت أنه يرغب فى الثرثرة معهم. بعد وصولنا للبر، تفرقنا حيث ذهب والتر ودافيد للنظر إلى الآثار عند بعض التجار، بينما قررت أيفلين وليا التجوال وزيارة بعض المحال ورفضت أنا مصاحبتهما فقال إمرسون:

– أعتقد بأنك تريدين الذهاب معنا إلى الشرطة.

– لا يا عزيزى، سأترك لك ذلك. هل ستذهب مع أبيك يا رمسيس؟

أومأ رمسيس قائلا:

– أعتقد أنه يجب علينا إبلاغ الشرطة أيضا عن استهتار الصيادين. سوف نلقاك بالفندق. سارا بجوار بعضهما عبر الطريق المترب فقلت لنفرت:

– هذا سيبعدها عنا لبعض الوقت.

– نعم وأعتقد أنك ستزورين السيدة فيتزرويس ولكن ذلك لن يعجب أبى.

– هذا هو سبب رغبتى فى إبعاده عن طريقى الآن فأنت تدركين أهمية هذه

الزيارة.

– لماذا تعتبرينها مهمة.

– ألا توافقين إذن؟

– لا أعرف، فلا يوجد عندى شىء ضد تلك الفتاة وأود أن تتصالح مع والدها من أجله ومن أجل نفسها.

– ولكن؟ ردت نفرت وهى تبتسم لى وقالت مستطردة:

– ولكن! لقد عرضت عليها المساعدة ولو كنت مكانك لانتظرت حتى تقوم هى بالحركة التالية. إن هذا قرارك وحدك.

إيزيس هى إحدى الدهبيات الخاصة التى توجد مع بواخر السياح بالمرفأ. كانت مركبا بخارية تعد من أفخم وأضخم القوارب التى رأيتها، بحواجزها النحاسية اللامعة والحواف الذهبية المحيطة باللونين الذهبى والقرمزى فى وسطها العلوى. كان الاسم مكتوبا بالأحرف الذهبية الكبيرة ويعلوها العلم البريطانى وتمتد من الرصيف حتى سطح الدهبية ألواح مغطاة بالسجاجيد لم يظهر أحد فوق سطح الدهبية، ولكن ما إن وطئت قدمى الألواح حتى ظهر رجل يرتدى الملابس المصرية وحيانى بالإنجليزية سائلا عما أريد. أعطيته بطاقتى، قال لى الرجل:

– انتظرى هنا من فضلك.

(١٢)

لم ننتظر طويلا، فعندما عاد الخادم الآخر كان يصحبه شخص يضع طربوشا على رأسه وشعره أسود وشديد الكثافة ووجهه مستدير، وطيب الملامح وله شارب كثيف. كان يلبس الزى الرسمى من المعطف الطويل للسروال المخطط وحزام الخصر. بادرنى قائلا:

– يشرفني استقبالك يا ست الحكيمة. أنا الدكتور محمد، الطبيب الخاص بالسيدة فيتزروييس.

– أرجو ألا تكون السيدة فيتزروييس مريضة. رد قائلا:

– إنه مجرد كبر السن. هى ستستقبلكما ولكنى أذكركما بأنها تتعب بسرعة.

كانت الستائر على نوافذ الصالون قد أنزلت لتحجب أشعة الشمس الغاربة، ولكن كان هناك ما يكفى من الضوء على كل حال. كانت الحجرة مفروشة برشاقة وروعة، بها بيانو وأرفف مليئة بالكتب ومناضد وكراسى. كانت السيدة التى تنتظرنا تجلس فى مقعد فخم ويداها فوق عصاتها وفى ثوب الحداد الأسود الذى يشبه ذلك الخاص بالملكة السابقة التى ظلت ترتديه على زوجها لفترة طويلة. وبديلا عن القفاز كانت تضع غطاءً من الحرير من طراز لم أره منذ سنوات بعيدة. ذهب الدكتور فى الحال إليها وأخذ يدها وغرس أصابعه بمعصمها ليقيس النبض ولكنها أبعدته قائلة:

– أعتقد أن السيدة إمرسون لن تستاء إذا قلت أن الترحيب بزيارتها لن يؤدى إلى إثارتى. رددت قائلة:

– على الإطلاق. بادرتنا قائلة:

– إجلسا من فضلكما. هل أقدم لكما شايا؟

– لا ، شكرا لك سوف نأخذ مجرد دقائق من وقتك. لقد جئنا..!، قاطعتنا قائلة:

– للشكوى من حفيدى. سارعت قائلة:

– لا، بل للشكوى من خادمه، فقد كان مسئولا عن سقوط زوجى على التل بالأمس.

– أرجو ألا يكون أصابه مكروه. كان وقع صوتها مزعجا، ولكنى تضايقت من الحوار. فقلت:

– لا، ولكن أتعتقدين أن فرانسوا هو الشخص المناسب لرعاية صبى لطيف مثل

جستن؟

أجابتنى قائلة:

– هذا كما أراه، نقد فى صورة سؤال. إننى أعتقد ذلك وإلا لما احتفظت به فى الخدمة. إننى آسفة على الإصابات التى لحقت بزوجك ولقد تحدثت إلى فرانسوا. هذا لن يحدث مرة أخرى. لماذا أعطيت مرافقتى تلك القبعة؟

كان التغيير المفاجئ للموضوع قد أفحمنى للحظة ولكنى أسرعت بالقول.

– لقد فقدت قبعتها وكان من غير المناسب لها أن تمشى بدون قبعة. ردت قائلة:

– إنها قبعة جميلة. كانت عندى فتاة أجمل منها عندما كنت صغيرة. نظرت متسائلة إلى الطبيب الذى ابتسم وهز كتفيه. من الواضح أن السيدة العجوز تسقط فى لحظات من الذكريات بدون وعى. سألتها:

– هل هى موجودة؟

– لا، لقد ماتت من عشرين سنة. ثم قالت بأسى، لقد كانت فتاة جميلة، ولكنها لم تكن بجمالى. رد الدكتور قائلا:

– الآنسة إندرهيل ذهبت مع جستن وفرانسوا للكرنك.

– نعم. لماذا تجيب على الأسئلة الموجهة لى؟

– أسألك المغفرة يا سيدتى. وعادت الابتسامة إلى وجهه مرة أخرى.

ولأننى لا أعرف إلى أى مدى ستحتفظ السيدة العجوز بإدراكها قلت لها:

– لقد اكتشفنا أنا والآنسة إندرهيل أن لنا معارف مشتركة. وإنى لأتساءل إذا ما كان بمقدورها أن تأتى إلينا للغداء أو لقضاء اليوم معنا فى أى وقت. ردت السيدة فيتزروبس:

– إنها طيبة. لم أكن واثقة ما إذا كانت تشير إلى الفتاة التى ماتت من فترة

طويلة، أم إلى مريم إلى أن قالت:

- شديدة الأمانة. لم تغب يوما واحدا منذ أن جاءت إليّ.

رفعت يدها فأمسك بها الدكتور وأعلن عن نبضها قائلا:

- النبض شديد الضعف يا سيدتى العزيزة.

قلت وأن أقف متأهبة للخروج:

- لقد أتعبناك. طاب يومك. قالت متسائلة:

- أليس لدى السيدة إمرسون الجميلة شيئا لتقوله؟

ردت نفرت:

- لا يا سيدتى. طاب يومك. قالت السيدة العجوز:

- أنت رائعة الجمال، ولكنك لست بالجمال الذى كانت هى عليه.

ظل الطبيب مع مريضته بينما اصطحبنا أحد الخدم إلى الخارج. همست نفرت:

- لم تقولى لها شيئا عن مريم.

- هناك حدود لدرجة التدخل التى أتصورها مناسبة. لم يكن لى الحق فى إفشاء سر مريم لمخدومتها. السيدة فيتزروييس شخصية غريبة أليس كذلك؟

- لا بد وأنها كانت شخصية متسلطة قبل أن يتأثر عقلها على هذا النحو. لا عجب فى احتياجها لهذا العدد من المرؤوسين حيث أنها تزداد ضعفا فى العقل والجسد وجستن لا يمكن الاعتماد عليه.

(١٣)

وحيث إن الوقت كان لا يزال مبكرا، تمشينا على الكورنيش تجاه السوق. ليست الأقصر بالمدينة الكبيرة، وبالتالى لم يمض وقت طويل حتى قابلنا ليا وإيفلين وتجمعنا للبحث عن والتر ودافيد، اللذين كانا من الواضح أنهما لا يدركان مرور الوقت وهما يبحثان عن الأشياء الأثرية. وجدناهما فى متجر عمر يشربان الشاى ويتفحصان مجموعته من البردى والتماثيل الصغيرة. كان محل عمر يستحق النظر فهو أحيانا ما يحتوى على خليط من الآثار الأصيلة والمقلدة، وأعتقد أنه كان يستمتع باختبار معرفة المشترين لأنه دائما ما يعترف بدون خجل عندما يكتشف المشترى أن الآثار مقلدة. كان دافيد شديد المهارة فى التعرف على التزييف فى الآثار حيث قام فى شبابه بعمل ذلك. عندما دخلنا إلى المحل صاح دافيد:

– لقد حل وقت الغداء بالفعل، أنا تحت أمركم يا سيداتى وليس لدى عمر شيئا يستحق الاهتمام فيما عدا هذه التميمة لإيزيس وهو يطلب فيها الكثير. صاح عمر:

– لقد سمحت لك بأخذها فى مقابل أقل مما دفعته فيها.

قلت بعد أن ودعنا عمر بدون أن نشترى التميمة:

– أعتقد أنك كنت تسأل عن المجوهرات عموما والأساور خصوصا.

اعترف دافيد قائلا:

– لقد أوصيت بعض المرشدين. يبدو أن سايروس قد استسلم لخسارته ولكنى شديد الانزعاج من اختفاء مارتنللى وغنيمته بلا أثر.

– ليس من الصعب الاختفاء فى زحام القاهرة يا عزيزى، كما تعرف أنا لا أشك فى أنه هناك، فلو أنه بقى فى الأقصر لكنا قد عرفنا مكانه الآن.

يطل فندق ونتر بالاس على منظر بديع لا يقارن من شرفاته العالية حيث يشرف على النيل والبر الغربى الذى تتلألأ تلاله باللون القرمزى فى أشعة الشمس الغاربة، بينما يتلون النهر بكل درجات القرمزى والأحمر وقت مغيب الشمس، كان رمسيس ينتظرنا فسألته:

- أين والدك؟

- لقد توقف لدى مكتب توماس كوك، فهم يقومون بتنظيم معظم الرحلات وبالتالى ربما كانوا أكثر كفاءة من الشرطة فى تتبع الأشخاص.

همست نفرت:

- ليا، من تعتقدين أننا قابلناه وسمعناه لدى الباب؟ لقد سمعت والدى يقرأ لأحد الناس قانون التجمهر. ضحكت ليا وقال رمسيس:

- أنت رائقة المزاج هذا المساء يا نفرت، ما الذى كنتما تفعلانه أنت وأمى؟

بدأت نفرت تقص عليهم تفاصيل زيارتنا للسيدة فيتزرويس وفى منتصف حديثها جاء إمرسون الذى طلب منها إعادة القصة من بدايتها ثم قال:

- كنت أعرف أنكما ستذهبان. أجبته قائلة:

- لا، لم تكن تعرف. قال له رمسيس ليمنعه من مواصلة الحوار:

- لقد طلبت لك كأسا من الويسكى والصودا يا أبى، هل يناسبك ذلك؟

- شكرا يا ولدى. نعم يناسبنى. وسأقول لك كيف عرفت أنكما هناك. لقد قابلنا داوود وهو فى طريقه إلى منزل ابن عمه.

قلت أنا بسرعة:

- يكون قد رآنا ندخل إلى الدهبية "إيزيس"، أو ربما رآنا أحد وأخبره.

أمضينا باقى الأمسية مستمتعين بالصحبة والأصدقاء ولكن قبل العاشرة بقليل ذكّرت الباقين بأننا يجب أن نقابل داوود فى العاشرة. لم يكن لديه ساعة لكنه كان شديد المحافظة على المواعيد. جاء مسرعا لمقابلتنا عندما وصلنا المرفأ، وبدت القوارب الأخرى راسية ولكن لم يكن هناك أحد سوانا. كان المساء باردا والريح شديدة وبعد أن ركبنا المركب وأخذنا مواقعنا وابتعدنا مئات الأمتار عن الشاطئ. أحسست بعدم

الراحة وببرودة قدميّ، وقبل أن أنطق وصلت البرودة إلى كاحلى. همست قائلة:

– يا إلهى، يبدو أن هناك تسربا للماء إلى القارب. رد إمرسون بهدوء:

– أنت محقة. وصلت المياه إلى كواحلنا فرفع الجميع أقدامهم لأعلى بينما صرخ داوود:

– لا يمكن أن يحدث ذلك فالقارب متين.

انحنى رمسيس وبدأ فى رفع السجاجيد المبتلة من فوق أرضية القارب ووجد الخلل فى لحظة وصاح قائلا:

– هناك ثلاثة ثقوب بالقاع. عد بالقارب يا دوود فى الحال فلن نستطيع بلوغ الشاطئ الآخر. أعطنى شالك يا نفرت.

– لا فائدة من ذلك. قال إمرسون وهو منحن يراقب الماء الذى يرتفع تدريجيا.

– يبدو أن الثقوب كانت مسدودة بمادة ما ذابت تدريجيا بفعل الماء أو سقطت.

أسرع دافيد إلى داوود ليساعده، ولكن القارب كان يتحرك ببطء شديد كان من الواضح أنه سيغرق قبل أن يصل إلى الشاطئ. خلع إمرسون معطفه وكذلك رمسيس ورفع اللوح الثقيل لأعلى وألقاه إلى النهر ثم مال بجسده إلى الماء وصاح:

"نفرت"، فتبعته بدون تردد بينما وصلت المياه إلى المقاعد. صاح إمرسون:

– دعك من ذلك يا دافيد، وساعدنى مع الآخرين.

لم أكن خائفة على نفسى وإمرسون بجوارى، فهو شديد المهارة فى التعامل مع الماء وكذلك رمسيس ودافيد، ولكن ما كان يقلقنى هم الآخرون خاصة إيفلين ووالتر، ولكن والتر قام بخلع نظارته ووضعها فى جيبه وخلعت إيفلين رداء السهرة القطيفة وزحفت ليا تجاه والدتها. شكرت الله لأن الأطفال لم يكونوا معنا.

وبينما كنت أحاول فك أزرار ثوبى، أمسك إمرسون بياقة الرداء ومرقه وحملنى

وألقى بى فى النهر. طفوت فوق سطح الماء تدعمنى يد إبنى القوية، ولاحظت أن الجميع قد هجروا القارب.

كان إمرسون ممسكا بأخيه فى يد وزوجة أخيه فى اليد الأخرى ويرشدهما إلى اللوح الذى تتعلق به نفرت. كان دافيد قد أتى هو الآخر بليا إلى اللوح. رفعت شعرى المبتل عن عينى ونظرت فوجدت الجميع موجودين وآمنين فيما عدا داود. تملكنى رعب مفاجئ، فقد غرق القارب وفيه داود جالسا فى مكان القيادة. كان آخر ما رأيته منه وجهه الهادئ وعينيه المفتوحتين وفمه المغلق الذى غمرته المياه. عندئذ فقط تذكرت أنه لا يستطيع السباحة.

الفصل السادس

(١)

صرخت قائلة "داوود"، أسرعوا لإنقاذه. شاهدت رمسيس وهو يغوص تحت الماء بحثا عن داوود. صاح فى إمرسون:

– تماسكى يا بيبودى واقفلى فمك. رفعنى بيده من أسفل حتى أمسكت باللوح الخشبى بكلتا يداى، غاص إمرسون هو الآخر إلى أعماق النهر بحثا عن داوود.

وهكذا كنا نصعد ونهبط مع اللوح الخشبى وكأننا نتحلق حول مائدة. لاحظت أن كل الوجوه لم تكن قلقة وكأنها فى حفل مسائى. ثم لفت نظرى بزوغ رأس داوود من تحت الماء ثم ظهرت ذراعاه مفرودتان على اتساعهما وعلى جانب منه إمرسون وعلى الجانب الآخر رمسيس. نظر حوله وفتح فمه وقال:

– ما الذى يجب أن أفعله الآن؟

لم يكن هناك أحد بالنهر فى تلك الليلة وبالتالى قام رمسيس بالسباحة إلى الشاطئ وقام الجميع بتحريك أرجلهم فى الماء حتى لا يصابوا بالتقلصات العضلية.

تنفست الصعداء عند رؤيتى ضوءًا يقترب وسمعت صيحات الرجال الذين جاءوا ليأخذوننا فى قارب إلى البر الغربى حيث كانت تنتظرنا العربات وما أن وصلنا إلى البيت حتى ساعدتنى فاتيما فى وضع إيفلين فى حمام ساخن ثم فى الفراش.

كانت عادة فاتيما أن تطعمنا فى أى ساعة من اليوم أو الليل. ولكن هذه الليلة كما أعرف جيدا كان حافزها الأساسى هو أن تكون أول من يسمع الأخبار عن ما حدث لنا

لتتميز بذلك عن جارجرى عندما تزويها له فى الصباح، فكلاهما كانا يتنافسان فى ذلك.

ورغم أننا لم نكن قد اتفقنا على الاجتماع، كان من الواضح أن الجميع يوافق على رأى والتر بالاجتماع قبل النوم. أتى الجميع يرتدون ملابس النوم وانهمك الجميع فى التهام ما قدمته فاتيما من طعام فالتعب الجسمانى يفتح الشهية.

ناول إمرسون الويسكى بالصودا لشقيقه قائلا:

– تبدو مسرورا من نفسك يا والتر فلماذا؟

– ربما لم أكن شديد العون لكم إلا أننى على الأقل لم ينقذنى أحد.

ابتسمت له ولكن إمرسون قال:

– أرجو ألا تنحى باللائمة على داوود لطلبه الإنقاذ.

– لقد أسأت فهمى يا راد كليف. لقد كان شجاعا ولم ينطق بكلمة شكوى بخصوص قاربه رغم أن خسارته المادية كبيرة. رد رمسيس قائلا:

– سوف نصلح له القارب أو نأتيه بقارب بديل. قالت ليا:

– هل تعتقد أننا مسئولون عن هذه الخسارة؟ لماذا لا ننظر إلى الأمر على أنه حادث؟ أو أخذ بالثأر؟ ارتفع حاجبا إمرسون فى دهشة:

– لا يمكن أن يكون الأمر مجرد حادث. لقد قام أحد الأشخاص بثقب القارب من القاع وسد الثقوب بمادة تذوب فى الماء تدريجيا.

وضعت فاتيما يدها على فمها وهى تحملق فى فزع قائلة:

– ومن يجرؤ على فعل ذلك؟ رد رمسيس وهو يشعل سيجارة:

– هذا هو السؤال. لا بد وأن تلك العملية حدثت قبل قدومنا إلى المرفأ بقليل. قلت ردا عليه:

– نصف سكان الأقصر كانوا على علم بتحركاتنا ولكن ذلك الشرير كان مجازفا، فلو أننا وصلنا متأخرين نصف ساعة عن لحظة وصولنا لكان القارب قد امتلأ بالماء، ولو وصلنا مبكرين بنصف ساعة لقبضنا عليه متلبسا. هل رآه أو سمع به أحد؟

قال رمسيس:

– لم يكن هناك أحد بالقرب من المكان، فمعظم المراكبية كانوا قد عادوا لبيوتهم. وهو لم يكن ليجازف بهذا الشكل. فلو أنه لم ينته من العملية قبل وصولنا لكان قد سمعنا فى الوقت المناسب وهرب على الفور.

قلت مؤيدة:

– لا أحد منا بطفل أو جبان. يجب أن نواجه الحقيقة. لا يمكننى تخيل أى مراكبى بالأقصر يمكن أن يكون بهذا الحقد الانتقامى أو بهذا الغباء ليجازف بأن يتحمل غضب داوود. لقد كنا المستهدفين، ولكنى أرى أنها كانت طريقة عشوائية للقتل. رد إمرسون:

– قتل بالجملة، هل كان يأمل فى إغراقنا جميعا أم كان يريد إغراق شخص بعينه؟ قلت بعد تفكير قصير:

– كلنا فيما عدا واحد، وهذا أيضا معروف للكافة. رد رمسيس:

– داوود. تمتم إمرسون قائلا " مستحيل فليس له أعداء فى العالم.

(٢)

بالطبع لم يسمح أحد منا بأن تؤثر تلك الحادثة على خطط عملنا. كان الأطفال يتناولون الإفطار فى مقارهم تحت إشراف فاتيما وبسيمة وبالتالى انتهت مائدة إفطارنا. ولكن جارجرى قال وهو يصب القهوة لإمرسون:

– هناك أمر يحدث وليس من حقكم إخفاؤه عنى.

كانت من عادات جارجرى المزعجة أن يخفض طعامنا وشرابنا إلى كميات ضئيلة عندما يكون منزعجا منا. أمسك إمرسون بإبريق القهوة قائلا:

– أنا لا أعرف ما يحدث بحق الشيطان يا جارجرى ولا أود مناقشة ذلك معك خاصة فى وجود!!؟، وغمز بعينه إلى سينيا التى كانت تتناول العصيدة وتبدو شديدة الجمال والأناقة وقد لفت شعرها خلف رأسها. لم تفت إشارة إمرسون من ملاحظتها، فقال بابتسامة:

– إننى أعرف كل ما حدث يا بروفيسير. لقد قالت لى فاتيما وقالت لجارجرى كل ما حدث.

تنحنح جارجرى وكان يكره أن يعرف الأمور من فاتيما. استمرت سينيا:

– ومن ذا الذى يريد الإضرار بداوود؟ رد رمسيس:

– نحن لا نعرف ما إذا كان ذلك موجها إلى أحد. أقصى ما كان يتوقعه ذلك الشخص هو أن نغرق جميعا. القارب يمكن استبداله وسوف نستبدله يا سينيا.

لم تقتنع بمحاولته طمأنتها فقالت:

– داوود لا يستطيع السباحة.

– ولكننا نستطيع. لقد أنقذته مع أبى فى نصف دقيقة. ضحك واستمر فى الحديث. آه لو أنك رأيتيه يا سينيا، إنه لم يفقد اتزانه أو هدوءه أو عمامته!

– كانت خدعة دنيئة رغم ذلك.

– وماذا يمكن أن نفعل؟ قلت أنا:

– نستمر فى عملنا كالمعتاد. فهذه عادتنا يا سينيا.

– بأنفة وكبرياء؟ قالت سينيا، ورد دافيد مؤيدا:

– نعم. أرجو ألا تكونى خائفة يا عصفورى الصغير. لقد كانت خدعة خبيثة – كما

قلت – ولكن لا يمكن لأحد أن يفعل ذلك بك.

– لست خائفة على الإطلاق. لقد علمتنى عمتى نفرت الرمى بالقوس.

انزعجت قائلة:

– يا إلهى الرحيم. هل عدت لممارسة الرمى بالقوس والسهم يا نفرت؟ لقد كنت خبيرة فى ذلك كما أعرف ولكن مع وجود الأطفال فى المكان تكون خطرا .

ردت نفرت متجنبة نظرات زوجها:

– لقد كنت شديدة الحرص يا أمى.

وجهت نظرى إلى أيفلين وسألتها:

– هل أنت متأكدة أنك تستطيعين العمل اليوم؟

قالت بسرعة:

– بالطبع فأنا أستمتع بذلك كثيرا . عزيزتى سينيا، احضرى كتبك ودعينا نذهب.

لم تعترض سينيا على دروسها مع كاثرين لأنها كانت تستمتع بتعلم الرسم مع إيفلين بعد ذلك. سارت سينيا وصحبت إيفلين إلى الشرفة وبينما كانت تضع قفازها سألتنى:

– هل تعتقدين أننى يجب أن أحمل سلاحا يا إميليا؟

أردت أن أضحك وأحتضنها ولكن جدية ملامحها منعتنى من أن أجرح مشاعرها فسألتها بجدية مماثلة:

– وأى الأسلحة تعتقدينها مناسبة يا إيفلين؟ مسدس؟

– يا إلهى! لا يا أميليا فأنا أخاف من الأسلحة النارية وقد أصيب الشخص الخطأ. ربما سكين.

فكرة أن تطعن إيفلين الرقيقة بالسكين إنسانا كانت مستحيلة. لقد شاهدتها تفعل أشياء تبدو غير قابلة للتصديق عندما أطلقت أربع رصاصات على صدر شخص اعتقدت بالخطأ أنه قتل زوجها. الأشخاص بالغى الرقة قد يتحولون إلى شديدى الخطورة عندما يشعرون بأن خطرا يهدد من يحبونهم. هدأت تعبيرات وجهى فقالت:

– هل تعتقدين أننى لا أستطيع فعل أى شىء إذا ما تهدد خطر ما سينيا؟

– أعتقد أنك تستطيعين ولكن يا إيفلين سيكون جارجرى معك وعبده الحوذى وهو رجل قوى ومخلص ولا يوجد أى سبب للاعتقاد فى أن هناك خطر يهدد سينيا. ردت قائلة:

– نحن لا نعرف من الذى فى خطر.

– لا. خذى إحدى الشمسيات التى تخصنى، لقد استعملت إحداها بكفاءة فى إحدى المرات.

– الشمسية ذات السيف؟ كانت تريد الحصول عليها فقلت مسرعة نظرا لسماعى صوت سينيا:

– سأحضرها لك ولكن لا تخبريى إمرسون.

لم أحذرها ألا تخبر والتر؛ لأنها لن تفعل وإلا لأثاره ذلك. عندما غادرت العربة فكرت فيما آل إليه حالنا. إيفلين معها سيف وسينيا ونفرت معهما قوس وسهام

(٣)

صاح إمرسون:

– اللعنة. انظر! سيستغرق الأمر ساعات لجعلهم يبدأون العمل.

أوقف رمسيس جواده بجوار والده. كانت مجموعة من الناس قد تجمعت بجوار

المنطقة المغلقة للاستكشاف خلف المعبد. كان داوود بارزا في المنتصف لطوله عن الباقين، وكان واضحا من إشاراته أنه كان يحكي عن وقائع ما حدث في الليلة الماضية. قال رمسيس:

– من حقه هذه اللحظات التي يكون فيها محط الأنظار، فهو لم يفقد قاربه فقط ولكنه كاد أن يغرق أيضا.

استمر داود في تمثيل كيف كان يغرق للجمع من حوله وندت منهم صيحات الإعجاب تبعتها صيحات الفرح عندما ظهر رأسه مجددا وبدأ في الإشارة بذراعيه. تجمع الآخرون حول الجمع. سأل والتر:

– ما الذي يحدث؟ ضحكت ليا قائلة:

– داوود يمثل عملية إنقاذه كما أعتقد، لا توقف المشهد فهو ممتاز في أدائه.

– "اللعنة"، قال إمرسون ذلك، بينما صاح سليم الذي كان يقف بين الجمع ولاحظ قدوم إمرسون "ها هو قد جاء، أبو اللعنات". صاح داوود.

– لقد جاء من أنقذوني، أبو اللعنات وشقيق العقاريت، اللذان أخرجاني من الماء وكذلك الآخرين الشجعان الذين واجهوا الموت بوجوه مبتسمة. إنهم أبطال. ندت عن الجمع صيحات الاستحسان. أخفى إمرسون ابتسامته بيده متمتما "يا له من ممثل بارع. لقد قام بتمثيل الدور كأبرع الممثلين". قال رمسيس:

– أتعجب عن مدى دقة إحساسه بالأسف. وراح يرد على تحيات الجمع ملوحا بيده وهو يقول:

– مرحبا يا سليم، آسف لمقاطعتك.

رد سليم قائلا:

– قد يكون عمي المحترم كاذب محترف ولكن من المؤكد أن غرق مركبه كان عملا مدبرا. ترجل إمرسون مزيحا بيده ولدي داوود اللذين كانا يحاولان احتضانه قائلا:

– تحدث إلى الجمع يا رمسيس فداوود جعلهم فى حالة ترقب. رد رمسيس:

– نعم يا سيدى، ورفع يده لكى يصمت الجمع، واتجهت الوجوه إليه فقال:

– يا أصدقائى، لقد أخبركم داوود عما حدث. لم يكن مجرد حادث. سوف نستبدل القارب له ولكننا يجب أن نجد المذنب الذى قام بهذا العمل الشرير. نحن نسألكم العون ونعرف أنكم ستقدمونها كما تفعلون دائما. ورغم أنه تواضع عن أن يقول ذلك، فإن داوود كان بطلا ويستحق تحيتكم على شجاعته. تمتمت نفرت:

– أحسنت القول يا عزيزى. التفت رمسيس إليها وهى تترجل، وكذلك ترجل الآخرون وقاد أحد الرجال الجياد بعيدا إلى الحظيرة . أصدر إمرسون أمره:

– دع الرجال يبدأون العمل يا سليم: رد سليم وهو ينظر بحدة؟

– ليس بعد. هذا الأمر شديد السوء يا أبو اللعنات ويجب أن نناقش ما سنفعله. رد إمرسون قائلا:

– ليس عندى ما نناقشه.

لمسته أنا بالمظلة قائلة:

– ربما كانت لدى سليم خطة يا إمرسون. يجب أن تنصت له ولو مجاملة.

قبل أن يتمكن سليم من الرد وصل برتى فاندرلخت وكان وجهه مقطبا على خلاف ابتسامته المعتادة. خلع غطاء رأسه قائلا:

– إن هذا مخيف يا بروفيسير فقد كان يمكن أن تموتوا جميعا. كيف تأخذ الأمر بهذه البساطة؟ رد إمرسون:

– لو كانت لديك أو لدى سليم نصيحة عملية، يسرنى سماعها.

لم يكن لدى أى منهم ما يقدمه، ولا داوود رغم أنه أخبرهم أن ولده، قائد القارب الغارق، ذهب إلى الأقصر مبكرا فى الصباح كى يعرف ما إذا كان من الممكن انتشال

القارب وكذلك لسؤال الماركبية.

قرر إمرسون للجميع:

– لقد فعلنا كل ما يمكن فعله حاليا ولو أن أى إنسان يعرف شيئا فسينصت له سليم. هل يمكننى الآن الالتفات إلى عملى؟ أريد مخططا للبيت الذى استكشفناه بالأمس يا برتى. جهز الكاميرا يا دافيد. وأنت يا والتر، هناك بعض النقوش على الواجهة عليك بنقلها.

تمهل سليم للحظات وسأل:

– هل صحيح أن داوود بإمكانه السباحة الآن؟ لقد كان يتباهى بأن دافيد علمه السباحة.

رد دافيد:

– قد يحتاج إلى قليل من التدريبات. ولربما كان من الأفضل أن تتدرب أنت أيضا على السباحة يا سليم. ولكن سليم قال:

– لا أعتقد ذلك فأنا أسبح بصورة جيدة. الأن يا أبو اللعنات، سوف أجعل الرجال يبدأون العمل فى المعبد. كان إمرسون يخطو بعيدا فهتف صائحا "يا رمسيس".

(٤)

كانت خرائب الجزء الشمالى من المعبد البطلمى تمثل بعض المشكلات الطريفة للاستكشاف، فلم يبق حائط قائم ولم يكن من السهل تحديد أماكن القطع المتناثرة لكى يتم إعادة تركيبها فى أماكنها، فالعديد منها كان مفقودا وربما استخدمها بناة آخرون حيث أن بعض الفلاحين والأثريين الباحثين عن الكنوز قد قاموا بالحفر عشوائيا تاركين مخلفات الحفر فى المكان. كان هناك تقدما فى العمل بالرغم من ذلك وقد ابتهج إمرسون عندما تمكن العمال من الكشف عن عمود يحمل خرطوش سيتى الأول. عندما

توقف العمال لتناول الغداء ناظر إمرسون الأشياء التى وجدها العمال بكثير من الرضا، فقد اشتملت على شظايا من التماثيل والأعمدة الأثرية، أعلن إمرسون عنها:

– الأسرة التاسعة عشرة وهى مهداة لهاتور. تمتم دافيد:

– هى مستمرة فى الظهور، أليس كذلك؟

وللمرة الأولى انقسم الجمع إلى فئة الآباء وكانت تجلس على جانب والصغار يجلسون معا. نظر رمسيس لصديقه وألح بألا يصدر عنه استجابة غير مهذبة. كان قد أصبح حساسا للإشارة إلى الإلهة هاتور على وجه الخصوص ولكن دافيد استمر فى الحديث:

– فى الغد سيكون القمر بدرا، أليس كذلك؟

سألته ليا:

– وماذا عن ذلك؟

انتهى دافيد من طعامه واضطجع للخلف وقال:

– لقد انتهى وقت طويل منذ أن تجولنا فى ضوء القمر، فمعبد الكرنك ومعبد الأقصر ساحران فى ضوء القمر. هزت ليا رأسها:

– جميع السياح يذهبون إلى هناك لنفس الغرض.

– وماذا عن مدينة هابو أو الدير البحرى؟ أو المعبد الذى هناك؟ لقد فكرت فى أن أرسمه.

رد رمسيس:

– هذا يناسبنى تماما. هبت نفرت واقفة وهى تنظر بحدة لدافيد.

– لقد أخبرته، أليس كذلك؟ سألها رمسيس.

– أخبرته بماذا؟ ، وسألها دافيد أيضا.

– قلت له ماذا؟ ثم أشرق وجهه وضحك قائلا:

– هذا صحيح، فلم يكن موجودا عندما قال الولد أن الناس يرونّ هاتور تتجلى في معبدها ليلة اكتمال القمر بدرا. أنتِ لا تؤمنين يا نفرت بتلك الخرافات، أليس كذلك؟ قال رمسيس محاولا أن يكون صوته طبيعيا.

– لم يقل لى أحد.

احمر وجه نفرت ورفضت أن تواجه نظراته. ظل دافيد ورمسيس صامتين، أخيرا ختمت نفرت:

– أنا آسفة. فالأمر سخيف ومجرد شعوذة منى أن أربط بين الروايات الخرافية وما حدث لك بالقاهرة ولكن لم تكن هناك الكثير من القصص التى تقال عن دير المدينة من قبل! رد رمسيس:

– ليس على حد علمى. لقد سمعنا جميعا عن القط المارد الذى يسكن الكرنك وتبين فيما بعد أنها مجرد امرأة ملبوسة تقوم بإغواء الرجال ثم تقوم بخنقهم. مثل تلك الأساطير تعد شائعة وبالتالى فليس من المثير للدهشة أن تكون إحدى تلك الأساطير عن دير المدينة. أنا لا أفهم يا نفرت لماذ طلبت من دافيد عدم إخبارى؟ هل كنت تفترضين أننى قد أجىء إلى هنا وحدى وفى سرية لأتحرى عن الأمر؟ وهل أسمح لنفسى أن أقع تحت إغواء امرأة غبية فى ثوب تنكرى؟

حاولت نفرت أن تقاطعه عدة مرات، ولكن الجملة الأخيرة جعلتها تقف على قدميها وقد اكفهر وجهها، قائلة:

– هذا مثير للغضب يا رمسيس. أنا لم أفترض شيئا من ذلك. لماذا تتسرع فى الاستنتاج والغضب.

تدخل دافيد قائلا:

– اهدءا أنتما لاثنين. ستكون عمتى أميليا هنا بعد لحظات، وستطلب معرفة ما تصرخان به. ربما عليكما الإنصات لبعضكما بدلا من تبادل الإتهامات. إلا إذا كنتما تستمتعان بالجدال من أجل الجدال.

جلست نفرت قائلة:

– أنا لا أستمتع بذلك. رد رمسيس.

– هذا تحول، فأنت دائما ما تتهمينني بتجنب المواجهة. ضحك دافيد وهو يقول "تصافحا إذن واعترفا بأنكما على خطأ". صافح رمسيس يد نفرت الممدودة قائلا:

– أنا آسف.

تمتمت نفرت وهى تصافحه:

– أنا آسفة أيضا، الحقيقة أننى لا أستطيع أن أفسر؛ حتى لنفسى، ما الذى أثارنى إلى هذا الحد بالنسبة لهذا الأمر. ردت ليا:

– أعتقد أننى أعرف.

نظرت نفرت والتقت عيناها بعينى ليا، وابتسمت وهى تقول:

– إنه الحدس الأنثوى. صاح دافيد:

– الموقف معقد لأننا لم نكتشف الدافع بعد، وسوف نكتشفه، وأعتقد أنه سيكون خطأً فادحا استبعاد أسطورة هاتور على أنها ليست ذات صلة بالأمر. نفرت على صواب. لم تكن هناك قصص مماثلة من قبل والأمر يستحق البحث.

قرر الأربعة أن يقتصر التحرى عليهم فقط وإظهار أن ميل دافيد لرسم المعبد فى ضوء القمر يعد صالحا لأن يكون المبرر لذلك.

تمتم رمسيس:

– ولماذا بحق الشيطان لا بد وأن يكون لدينا سبب للذهاب.

(٣)

بعد الغداء ذهب دافيد إلى القلعة وذهب والتر للبيت للعمل فى ترجماته. راقبهما رمسيس وهما ينصرفان بحسد، فقد كشفا عن الكثير من الأشياء التى تحتوى على نقوش وكتابات معظمها شظايا ولكنها مثيرة وهامة كبقايا المعبد المتهدم. لم يكن والده يحتاجه فى عملية الحفائر فبعد سنوات من العمل مع إمرسون، أصبح العمال يتقنون عملية الحفر والعديد منهم بما فى ذلك سليم، يمكنهم القراءة الكتابة والاحتفاظ بسجلات دقيقة. ولدى إمرسون كل من برتى وليا ونفرت وزوجته وهم أكثر مما يتطلبه العمل. قرر رمسيس أن يثير الموضوع مرة أخرى هذا المساء. كان قد ناقش بالفعل مع عمه أن يقوما معا بنشر بعض النصوص الهامة. لم يكن والتر على استعداد لمواجهة إمرسون ولا رمسيس كان باستطاعته ذلك، ولكن ربما عندما اتحدا معا فقد يقوى ذلك من قضيتهما.

بعد عودتهما إلى البيت فى الظهيرة ترك نفرت مع الأطفال وذهب للبحث عن عمه. كانت إحدى غرف الجناح الجديد بالبيت قد تم تجهيزها كمخزن ومكان للعمل. كانت الأرفف على الجدران تشتمل على صناديق مليئة بقطع الفخار المرقمة بأرقام مكتوبة بالحبر الهندى على حافة كل قطعة تشير إلى فهرس تم الاحتفاظ به يحدد مكان التقاطها. وجد رمسيس عمه يتفحص إحدى البرديات وعينه تتحول بينها وبين قطعة الورق التى يرسم فيها النقوش الهيراطيقية. التفت نحوه قائلا:

– أهلا يا رمسيس. أنا سعيد لقدومك. ما الذى تفهمه من هذه المجموعة من العلامات؟ إنها تشبه كلمة "مرسى السفن" ولكن ذلك ليس له معنى فى سياق النص.

كان رمسيس يأمل فى العمل على النقوش التى كان يقوم بترجمتها ولكنه لم يستطع رفض طلب عمه فتناول قطعة الورق منه. كانت رسومات والتر لها واضحة وبديعة فيما عدا الفراغات التى تركها لعدم قدرته على قراءة كلماتها.

قال رمسيس:

- "لقد حققت تقدما رائعا" النص يقرأ هكذا "اليوم الذى يتجول فيه الموتى فى مدينة الأموات" لكن شيء ما غير مفهوم وهو موقع رسو السفن؟ هذه استعارة للموت. ثم قال والتر بشك إنه معنى خفى حتى بالنسبة للمصريين، أليس كذلك؟.

- كانا لا يزالان يتناقشان، غير منتبهين لمرور الوقت، عندما انفتح الباب. جاءت نفرت للبحث عنهما. كان رمسيس على وشك الاعتذار عن تأخرهما ولكنها بادرته قائلة:

- والدتكم تريدك فى الحال، لدينا زائر.

كنت أجلس بالشرفة وحدى. كانت لحظات الخصوصية نادرة مؤخرا ووجدت نفسى أتمنى أن أحظى بها. أنا أحب كل فرد. هناك أوقات يود فيها المرء أن يكون وحده، فأنا أستمتع كثيرا بساعة الغروب عندما يسقط الضياء على صفحة الصحراء ويومض فوق صفحة النهر البعيد. ولكن عكر صفو النظر هذا المساء وجود السيارة التى تركها إمرسون واقفة خارج البيت. لم ألحظ قدوم العربة حتى وقفت ونزل منها رجل أعرفه، فهو بدلا من أن يرد على برقيتى جاء بنفسه. تقدم السيد سميث تجاه الباب وشفتاه تنفرجان عن ابتسامته الكبيرة وبادرنى قائلا:

- أرجو أن تغفرى لى تطفلى يا سيدة إمرسون. لقد جئت قبل برهة ولكن الخادم أخبرنى أنك لست بالبيت ورفض أن أبقى فى انتظارك.

صحت قائلة:

- ماذا حدث؟ هل سيثوس بخير؟

سيدتى أرجو أن تغفرى لى مفاجأتى لك بقدومى. اطمئنى فصديقنا حى يرزق ولا يتهدده أى خطر ولكنه فى وضع معقد حاليا وفكرت أن من الأفضل أن أشرح الأمر لك بنفسى. كم هو طيب أن أراك مرة أخرى يا سيدى. كان إمرسون يقف بجوارى آنذاك وسأله:

- ما الذى تفعله هنا؟ هل سيثوس بخير؟ رددت أنا قائلة:

- إنه حيى يرزق يا إمرسون.

قال سميث:

- هل أستطيع الدخول لأشرح الموقف؟ رد إمرسون وهو يفتح له الباب.

- بمقدورك ذلك. بدأ سميث الحديث قائلا:

- يا إلهى يبدو أننى قد انغمست فى الأمر. الحقيقة هى أن؟؟؟

قاطعه صوت الباب وهو يفتح وتدخل منه نفرت ووراءها إيفلين وليا. وقفت كالأموات عند رؤيتها لسميث. قدمتهم له قائلة:

- أنت تعرف زوجة ابنى، وهذه السيدة هى زوجة والتر إمرسون ومعها ابنتها. اسمحوا لى أن أقدم لكم السيد سميث الذى جاء يحمل أخبارا عن قريبنا. إحك لنا يا سيد سميث فلا أريد اتهامك بتعمد إطالة انتظارنا. أجاب سميث:

- أؤكد لكم أن هذا ليس مقصودا منى. باختصار، قريبكم بالمستشفى وإصابته لا تهدد حياته.

- إصابته؟ ما الذى كان بصدده؟ سألته فأجاب:

- لا أعرف. لا أعرف. لقد كان فى أورشليم ولم يكن من المفروض أن يكون هناك. لقد تلقيت منه رسالة مكتوبة منذ عدة أيام، سلمت لى باليد من أحد المعممين الذى أبلغنى بأنه كان فى موقف صعب ولكنه سيخرج من المستشفى وسيكون فى طريقه إلى هناك قبل مضى وقت طويل. هذه هى كل المعلومات التى لدى.

- يا له من أمر مخيف. أى مستشفى يمكن أن توجد فى أورشليم؟ أجاب سميث:

- إنها مستشفى تديرها راهبات فرنسيات وهو يتلقى رعاية ممتازة. أؤكد لك ذلك.

(٤)

كان يجلس مستريحا على مقعد وقد تهيأ للبقاء فيما يبدو. فكرت فى أن إبلاغنا بالخبر لم يكن دافعه الوحيد للقدوم. سألته مستفسرة:

- هلا بقيت لتناول الشاى معنا يا سيد سميث؟ أجاب:

- سكرا يا سيدتى، يسرنى ذلك.

تبادلنا جميعا ابتسامات زائفة. قلت وأنا أتجه للباب:

- سأرى ما الذى يعوق وصول الآخرين. تبعنى إمرسون قائلا:

- هل فقدت عقلك؟ هذا اللقيط ما كان ليصبح بهذا التجاوب ما لم يكن يريد منا شيئا. إنه يفكر فى تجنيد رمسيس لعملية أخرى. جعلته يقترب أكثر من الداخل وقلت له:

- لقد انتهت الحرب يا إمرسون.

- ولكن سيثوس لا يزال منغمسا فى أعمال لا يعرفها إلا الله، لا بد أنه قد أوقع نفسه فى ورطة أخرى يريد من رمسيس إخراجه منها. رددت قائلة:

- هو لا يفعل ذلك.

- أنت دائما تدافعين عن هذا الرجل. همست نفرت لى:

- إصرفيه من هنا يا أمى.

قلت لها:

- لدىّ أسبابى الخاصة لجعله يبقى وسوف أشرحها لكم فيما بعد. ها قد جئت يا فاتيما. أرجو أن تقدمى الغداء الآن. عليك يا نفرت البحث عن رمسيس ووالتر وإحضارهما إلى هنا وكذلك الأطفال جميعا.

كان تعبير وجه سميث عندما رأى الأسرة بكاملها فى الشرفة قد جعلنى شديدة السرور. تجمع الأطفال أمامه بحملقون فيه وسألته إيفى:

– من تكون؟ أجبت أنا:

– هذا هو السيد سميث. فومى بتحيته برقة. استمر الأطفال فى النظر إليه بدهشة. حياهم سميث وحاول أن يربت على رأس إيفى، فنهرته قائلة وهى تُبعد يده:

– أكره أن يفعل الناس ذلك. أمسك رمسيس بطفليه قائلا:

– يكفى هذا. إذهبا إلى أمكما واتركا الرجل فى حاله.

رد سميث قائلا:

– يا لهم من أطفال رائعين. أهم أطفالك؟

– اثنان منهم. تمتم سميث.

– هذا لا يدهشنى. وهذا لا بد أنه السيد تود روس. تسرنى مقابلتك أخيرا. أومأ دافيد برأسه ببرود بدون أن ينطق، حيث إن نفرت كانت قد أخبرته بشخصية الزائر. قال رمسيس:

– هذا عمى، السيد والتر إمرسون. كنت سأقدمك له بصورة رسمية لو كنت أعرف الاسم الذى تستعمله حاليا. ابتسم الرجل قائلا:

– يكفى اسم سميث. أهلا يا سيد إمرسون. قالت سينيا:

– وأنا سينيا إمرسون. أتوقع أنك سمعت عنى.

– نعم. كيف حالك؟

– على خير وجه. قال لها رمسيس بحدة:

– إجلسى يا سينيا، فالرجل المهذب يظل واقفا إلى أن تجلس كل السيدات

الموجودات. كان هذا الكلام موجها لنفرت التى ظلت ممسكة بالتوأم. إحمر وجهها وجلست فى الحال، وأعلنت لهم أن الغداء جاهز.

(٥)

بعد الغداء قلت للجميع:

– لقد جاء السيد سميث بأخبار عن قريبنا . إنه مريض ولكنه يتعافى. قالت نفرت:

– بالملاريا مرة أخرى؟

– لا، هو مصاب بجراح ولكنها ليست خطيرة.

كان والتر يفكر فى الأمر. عندما شرحنا له أنشطة سيثوس خلال الحرب ذكرنا اسم سميث فكان عقل والتر سريعا فى التعرف على العلاقة فسأل:

– ما اسم الرجل؟ التفت سميث إليه قائلا:

– معذرة؟ استطرد والتر:

– لقد علمت أنه يعمل لحسابك أو يعمل معك أو تحت إمرتك فى هيئة حكومية ما . أنا لا أعتقد أن البيروقراطية الحكومية ستوظف رجلا ما دون استيضاح كل تفاصيل حياته الماضية بما فى ذلك اسمه. أيقظ السؤال الجانب المرح من شخصية سميث الذى ضاقت عيناه وهو يقول:

– لا أحد منكم يعرف اسمه؟ إذا لم يكن قد أخبركم به فليس من اللائق لى أن أخون ثقته. سأل رمسيس:

– وأين هو؟ أجاب سميث:

– أخشى أننى لا أستطيع الإجابة.

قالت نفرت:

– ألأنك لا تعرف أم لا تريد؟

قال رمسيس:

– بصراحة، لا يهمنى ما فعله فقد انتهت الحرب وإذا ما عاد سيثوس لتجارة الآثار فذلك أمر يخصه. ثم نظر لنفرت قائلا:

– أرجو المعذرة لمقاطعتك يا نفرت.

– أنا التى أعتذر.

كان هذا التشاحن مثيرا لسميث الذى قال:

– أنا لا أريد من زوجك أن يفعل شيئا. أنا لا أنكر أن مواهبه قد تكون مفيدة، فجمع المعلومات المخابراتية لا يتوقف بتوقف الحرب، والشرق الأوسط ومصر يمثلان مسرحا محتملا للمناورات.

رد أمرسون:

– ذلك يرجع إلى سياساتنا الملتبسة والغامضة. هناك تناقضا واضحا بين مبدأ حرية تقرير المصير الذى نؤيده نظريا والسياسة التى نمارسها. لن تترك فرنسا بلدا كسوريا ونحن لن نترك مصر وقد وعدنا أن تكون فلسطين لكل من اليهود والعرب. رد سميث قائلا:

– البعض قد يدعى أن السكان الأصليين لهذه المناطق لا يستطيعون حكم أنفسهم. كان يحاول استثارة إمرسون الذى قال:

– إننى أعترف بأننا فعلنا لمصر أفضل مما كانت ستفعله أى قوة احتلال أخرى، ولكن الوقت قد حان للخروج منها وترك المصريين يقررون مصيرهم، فمن تكون أنت لتتعالى عليهم؟! إن حضارتنا الغربية العظيمة حرقت البشر أحياء وأجبرتهم على العيش فى الجيتو واستولت على أوطانهم بالقوة أو الاحتيال، وخضنا أكثر الحروب دموية فى التاريخ. قلت له وأنا أراقب سميث:

- ضيفنا ليس مهتما بأرائك يا إمرسون.

صاح سميث:

- إننى شديد الاهتمام بها يا سيدتى. إننى واثق من أنه بالرغم من تعاطف البروفيسير مع النزعات الوطنية المختلفة إلا أن ذلك لا يمنعه من إبلاغ القاهرة إذا علم أن هناك نية لأى أحداث شغب بمصر العليا. رد رمسيس:

- لا أحد منا يؤمن بالعنف. ما الذى ترمى إليه يا سيد سميث؟

قالت إيفى:

- تشارلا تأكل طباشير الرسم. اندفع رمسيس وأمسك بطفلته قائلا:

- ابصقيها فى الحال. أدخل رمسيس أصبعه فى فم تشارلا قائلا بانزعاج:

- هل الطباشير سام يا أماه؟

- ليست هذه هى طريقة علاج الأمر. إعطها لى.

(٦)

قمت بقلب تشارلا على يدى وضربتها بشدة بين كتفيها فنزلت من فمها شظايا من الطباشير، قالت نفرت وهى تأخذ الطفلة منى:

- أستطيع تدبر الأمر. ساعدنى يا رمسيس. سأل إمرسون:

- ما الذى ستفعلينه؟ قلت لأطمئنه:

- من الأفضل ألا تعرف.

ذهبا بتشارلا التى كانت تعترض بشدة. صرخ إمرسون:

- يا إلهى الرحيم، يا لها من طفلة مسكينة. رددت عليه قائلة:

– ليست هذه هى المرة الأولى.

بعد لحظات وقف سميث وقال:

– أعتقد أننى يجب أن أذهب لألحق بقطار الليل للقاهرة. وداعا لكم وشكرا على كرمكم الكبير. قلت له:

– سأصحبك أنا وإمرسون إلى العربة. راقبنى سميث وأنا أفتح البوابة وقال بصوت خفيض:

– أرجو ألا تكون هذه التحصينات قد أقيمت خوفا من خطر متوقع. تعرفين أنك تستطيعين الاستعانة بنا لحمايتكم.

– البوابة لمنع الأطفال من الخروج. قلت ذلك وأنا أمسك بدافى الذى حاول الإفلات خارج البوابة. قال سميث وهو يتفحص السيارة:

– لقد سمعت عن السيارة وأنا فى الأقصر. إنها حديث المدينة، كالحادث الخاص بالليلة الماضية. لقد كان حادثا، أليس كذلك؟!

قلت له:

– توقف عن الصيد فى الماء العكر يا سيد سميث. أريدك أن ترسل سيثوس إلينا حالما يستطيع السفر. سوف يتعافى معنا أسرع من أى مستشفى. لقد أوصلت برقيتى إليه كما أفترض.

– نعم بالتأكيد، ومن يكون الشخص المفقود؟

– حيث أنه لم يبلغك بذلك فليس من المناسب أن أفعل أنا ذلك.

– هذا صواب، صاح بذلك إمرسون قائلا لسميث:

– شىء أخير وبعده تستطيع الذهاب إلى الأقصر أو إلى الجحيم. ما الذى كنت تقصده عندما ألمحت إلى الشغب فى هذه المنطقة؟ هل تلقيت استخبارات تشير إلى هذا

الاحتمال؟

أجاب سميث:

– لجنة ملنر ستصل خلال أسابيع قليلة وهى لن تقدم للمصريين الشروط التى يريدونها، وسوف تحدث قلاقل.

– سوف تحدث بالتأكيد إذا رفضت بريطانيا التخلى عن مصر كمحمية بريطانية. ولكنك لم تجب عن سؤالى يا سميث.

وقف السائق أمام باب العربة منتظرا ركوب سميث فقلت:

– هو لن يجيب على السؤال يا إمرسون. وداعا يا سيد سميث.

أحنى رأسه ودخل إلى العربة وسمعته يضحك بينما أسرعت العربة بالرحيل.

(٧)

سأل والتر:

– إذن هذا هو السيد سميث الغامض. لقد كان طيبا منه أن يقطع كل هذه المسافة لطمأنتكم. قال إمرسون:

– إن اسمه الحقيقى براسجيرول بويسدراجون، والسبب الحقيقى لقدومه لا علاقة له بفعل شيء طيب. سأل رمسيس:

– وما الذى كان يريده إذن؟ لقد تحدثت أنت وأمى معه لعدة دقائق ولا بد أنكما حصلتما منه على شيء من المعلومات.

– لقد أمضى معظم الوقت محاولا أن يستخلص منا معلومات ولكنه لم ينجح، وإن لم يكن قد باح بشيء له أهمية فيما عدا أنهم يتوقعون اضطرابات عندما تصل لجنة اللورد ملنر وهو ما يمكن لأى شخص أن يستنتجه. سأل والتر:

- هل كان ذلك ما قصده بملاحظاته عن الشغب بالأقصر؟ لو أن هناك احتمال لحدوث عنف، فيجب إرسال النساء والأطفال إلى مكان آمن.

صاحت إيفلين:

- هراء. وافقها إمرسون قائلا:

- محض هراء. كان سليم سيعرف ذلك مسبقا ولا أحد من الرجال بالأقصر سيضايقنا. لم نواجه بأية مشكلة فى الربيع الماضى. سأل والتر:

- ماذا عنك يا دافيد؟ لقد ظل الرجل ينظر إليك ولقد وعدتنى أنك ستقطع كل صلة لك بالوطنيين.

أجاب دافيد بغضب مكبوت:

- أنا أدرك ذلك تماما يا سيدى. لقد أعطيتك كلمتى ولم أرجع عنها أبدا. سأله والتر:

- إذن لماذا فتح ذلك الرجل هذا الموضوع؟ لقد كان يشبه الاتهام لك. رددت قائلة:

- أو التحذير. تحدث أكثرنا فى وقت واحد. ليا تدافع عن زوجها وإيفلين تحاول تهدئة زوجها وإمرسون يصخب.

- أنت من يقوم بالاتهام الغير مؤسس على أدلة يا والتر. لا تسمح لذلك النذل سميث بزرع الخلاف بيننا.

(٨)

ذهب أمرسون إلى المائدة وتقدم منى دوللى حاملا ورقة الرسم

- ألديك صورة رسمتها يا دوللى؟ إنها بديعة قدمها لجدك والتر ليراها. قالت إيفلين بفخر:

– إن لديه موهبة عظيمة فى الرسم. شرح دوللى الرسم قائلا:

– إنه حمار وأنا أمتطيه. رد جده:

– نعم، أرى ذلك. وهو حمار بديع، ولكن لماذا رسمت له ستة أرجل؟

كان تدخل الصبى قد أدى إلى تراجع التوتر القائم بين والده وجده. نظر والتر إلى دافيد قائلا:

– إننى أعتذر.

– أنت شديد القلق على أفراد الأسرة وكذلك أنا يا سيدى.

سألت والتر:

– ما هذه الأوراق التى بحوزتك يا والتر؟

التقطت إيفلين الأوراق من على الأرض وأعطتها له قائلة:

– لقد كان يعمل على ترجمة مخطوط شديد الأهمية. أعتقد أنك تريد قراءة ترجمتك للنص يا والتر؟

– نعم بالتأكيد. قام والتر بترتيب الأوراق حيث رسم أحد الأطفال ما يمثل هرماً على ظهر إحداها. اعترض إمرسون قائلا:

– ليس من المفترض أن يأتى بعمله إلى مناسبة اجتماعية.

– فلتلق بنظرة على هذه يا رمسيس:

التقط لفة من الأوراق من حقيقبة بجواره وناوله إياها. سأله رمسيس:

– أهذا عمل دافيد؟

قال إمرسون:

– بل عمل إيفلين. وهذا عمل دافيد، فقد انتهى من رسم التطريز الخاص بالرداء.

قال رمسيس بإعجاب:

- كلاهما رائع.

قال إمرسون سائلا دافيد:

- كم سيستغرق الأمر منك للعمل فى مجموعة فاندرجلت؟ كم بقى من الأشياء التى سوف ترسمها؟ أجابه قائلا:

- قد يستغرق المر سنوات وهذا بالتأكيد غير عملى. يجب علينا الاهتمام بالأشياء الثمينة والهشة،وهذا متروك تقديره لك ولسايروس. تدخلت قبل أن يتكلم إمرسون قائلة:

- يجب أن نعقد اجتماعا يا إمرسون ونناقش نصائح ذوى الشأن بمن فيهم سايروس، غدا فى الظهيرة يناسبك؟ عظيم. سوف أخبر سايروس. والآن فلنستمع إلى ترجمة والتر. قال إمرسون.

- عظيم، ما الذى وجدته فى ذلك النص وله أهمية يا والتر؟

- لقد أخبرتك منذ أيام يارادكليف. قراءة الطالع بالأبراج السماوية.

- آه، نعم. رد إمرسون وقد بدا وكأنه لا يذكر شيئا عن ذلك الحديث.

- الكلمة ليست شديدة الدقة. بدأ والتر الشرح مستطردا.

- فلا يبدو أنها ترتكز على علم الفلك أو على أى نظام معروف لنا. إنها تحصر أيام السنة وتقسمها إلى جيدة وسيئة وتتنبأ بما قد يحدث. على سبيل المثال الشهر الأول من "آخر"، اليوم الرابع والعشرين، سيكون يوما طيبا جدا. سيبحر الإله بريح مواتية. من يولد فى هذا اليوم سوف يموت بعد عمر طويل. سألت ليا:

- إن "آخر" هو أول مواسم السنة، أليس كذلك؟. أومأ أبوها قائلا:

- إنه موسم الفيضان عندما يرتفع النيل ويغمر الشاطئين. اليوم الأول من السنة كان يتحدد بظهور النجم "الشعرى". تمتم إمرسون.

– هذا مثير. رد والتر.

– أليس كذلك؟ ولكن ليس هذا هو أهم جزء، فقد وجدت هذه الفقرة بالنص. يوم أطفال العاصفة. شديد الخطورة. لا تركب الموج فى ذلك اليوم". كان قد نجح فى شد انتباه إمرسون وانتباهى وكذلك انتباه الآخرين. رفع رمسيس حاجبيه قائلا:

– لعلك تذكر ما قاله سيثوس فى تلك الليلة عن أطفال العاصفة. استطرد والتر:

– إن هذا ما أحدث شهورا غريبا لدىّ. أن أرى نفس الجملة فى نص مصرى قديم. بالطبع ما يشير إليه النص ليس هو ما كان يتحدث عنه سيثوس، لأن النص القديم له مدلول دينى. لاحظ حملقة الجميع فيه فقال: إنها مجرد مصادفة. أليس كذلك؟

رد دافيد قائلا:

– نعم، مجرد مصادفة. صاح إمرسون مؤكدا.

– هذا هو الأمر إذن. المصادفة هى أساس كل العلوم الخفية.

– المصادفة والرغبة فى التصديق. إن ظننا واحدا يتحقق مصادفة يظل المغفلون يتذكرونه، فى حين ينسون آلاف التوقعات غير الدقيقة. حتى لو أن التاريخ ثبت أنه مصادفة. سألت نفرت:

– ما هو التاريخ يا عمى والتر؟. نظر والتر فى الورقة وقال:

– الشهر الثالث من آخر اليوم التاسع عشر. وبالمدلولات الحديثة من المستحيل أن يكون ذلك ارتجالا فكما تعلمون جميعا التقويم المصرى يشتمل على ثلاثمائة وخمس وستون يوما، ولكن لأن السنة الشمسية أطول من ذلك بالفعل، كان المصريون ينقصون يوما كل أربع سنوات. من الصعب حساب التقابل ولكن من الممكن القيام بمحاولة.

صاح إمرسون:

– سوف يكون فى ذلك مضيعة للوقت. ما الذى تريد يا جارجرى؟ لا تشغل نفسك بجمع أقداح الشاى الآن.

– إن ذلك أمر يسير يا سيدى. قال جارجرى وهو يجمع الأقداح.

– طيب منك أن تقول ذلك. وأؤكد لك يا جارجرى إنك لن يفوتك شىء فنحن نناقش نصا مصريا قديما.

– نعم يا سيدى ولكنى سمعت الحوار رغما عنى.

صاح إمرسون غاضبا:

– تتنصت مرة أخرى؟ رد جارجرى:

– كنت مارا بجوار الباب. التقويم الذى كان السيد والتر يقرأه هام جدا.

صاح به إمرسون:

– إنه محض هراء. رد جارجرى.

– قد يكون المصريون القدماء وثنيين ولكنهم كانوا على علم كبير ويبدو لى أنك يجب أن تقرأ أكثر فى ذلك التقويم لتعرف ما الذى يمكن أن يقع.

ولكن رمسيس صاح قائلا:

– "أبى" وأشار بيده إلى سينيا التى كانت تجلس مصدومة ومندهشة.

أحس إمرسون بالحرج فقال:

– لم أرك يا سينيا وإنى لأعتذر عن اللغة التى استعملتها.

ردت سينيا قائلة:

– يجب أن تعتذر لجارجرى، لقد كان يحاول المساعدة فحسب.

ولكن جارجرى قال:

– الأمر على ما يرام يا سيدى فقد قلت ما أود قوله لأن هذا واجبى.

تعالى يا آنسة سينيا فقد حان موعد عشائك.

(٩)

خرج الاثنان معا وقد تشابكت أيديهما، ولكن إمرسون كان لا يزال يغلى من الغيظ وينظر حوله بحثا عن ضحية. اندفع قائلا:

- أرأيت ما فعلته يا والتر؟ لقد ملأت رأس الطفلة بالخرافات. ولكن رمسيس قال:

- إن رأس جارجرى هى المشكلة. لم يلق له الأب بالا واستمر فى الحديث:

- شىء آخر يا والتر. عليك أن تمتنع فى المستقبل عن الإشارة إلى أخينا باسم سيثوس، فأنت لا تستطيع نطق الاسم دون أن تتلعثم. احمر وجه والتر ورد بحدة:

- لا، لا أستطيع يارادكليف. أى اسم هذا لرجل إنجليزى مسيحى. رد إمرسون:

- أنا لا أعرف أنه مسيحى ولم أسأله أبدا.

- ألم نسأله فقط عن اسمه الحقيقى؟ لا تقل أنه قد تم تعميده باسم سيثوس.

- لقد تجنب محاولاتنا لاكتشاف اسمه حتى الآن. ولماذا بحق الشيطان لا تسأله إذا كان الأمر يهمك لهذه الدرجة؟ كانت تلك هى نهاية النقاش بالنسبة لإمرسون. فالتفت نحوى قائلا:

- أليس هذا هو الوقت الذى يذهب فيه الأطفال للفراش؟

كان إمرسون وقحًا تجاه والتر ويستحق التوبيخ وبدلا من توبيخه قررت أن أعاقبه بطريقة أخرى تجعل الأمور تسير كما أريد.

انتظرت حتى الظهيرة لأنفذ خطتى. لم تكن الخطوة الأولى سهلة حيث أن إمرسون عارض اقتراحى بالتوقف عن العمل مبكرا. لم يكن اقتراحا فى الحقيقة وعندما تفهم ذلك، نفذ ما قلته. ذهبنا إلى القلعة حيث كان ينتظرنا سايروس.

لم أكن قد رأيت صديقنا القديم لعدة أيام ولم ألحظ أن لحيته بدا عليها الوهن فقد ظل يشدها وهو يتقدمنا إلى مكتبه، حيث قام بعمل الترتيبات التى اقترحتها عليه فى

الرسالة التى أرسلتها له. كانت المائدة قد أخليت مما فوقها والمقاعد قد اصطفت حولها وأمام كل مقعد ورق وقلم. قدم لى سايروس مقعداً على رأس المائدة ولكنى أصررت أن يجلس هو فيه قائلة:

– سوف أجلس بجوارك هنا يا سيروس وأقوم بعمل السكرتارية. هل أعددت جدول الأعمال؟. رد سايروس:

– ليس بالضبط، ولكنى اعتقدت أنك ستقولين ذلك.

قلت له بتواضع وأنا أعطيه الورق من حقيبتى:

– هاك بعض الملاحظات. صاح إمرسون الجالس قبالتى:

– ما أريد معرفته، قاطعته ودققت بالقلم بحدة فوق المائدة:

– لقد خالفت النظام يا إمرسون. يجب أن نسمع تقرير اللجنة أولا. انفجر إمرسون:

– أية لجنة؟

– سيقول رئيس اللجنة بعض الملاحظات. وأشرت لسايروس، ولكنه قال:

– من الأصوب أن تقوليها أنت يا أميليا. فقد كانت الفكرة فكرتك.

كنت أتوقع منه أن يقول ذلك، وبالتالى كنت مستعدة للكلام قبل أن ينطق إمرسون فقلت:

– كان من الواضح لى ولكم أننا يجب أن نحدد أهدافنا ونقرر كيف نوفر الوقت والجهد بكفاءة للمشروعات العديدة التى نحن بصددها. نحن محظوظون لوجود هذا العدد من الموهوبين فيما بيننا. وجهت سلسلة من الابتسامات والإيماءات لهم وحظيت بابتسامات وإيماءات، فى المقابل، منهم.

(١٠)

كانت نفرت تحاول ألا تضحك بينما أخفى دافيد فمه بأصابعه ولكنى لاحظت أنه يكبت الضحك هو الآخر. استطردت قائلة:

– وهذا ما يجعل عملية التنظيم لا غنى عنها وإلا لجازفنا بضياع طاقتنا ووقتنا الثمين.

قال رمسيس:

– أحسنت يا أماه. هل وضعت قائمة بتلك المشروعات؟

– نعم بالتأكيد. هى ليست مرتبة وفقا لأهميتها ولكنى ببساطة كتبتها كما جاءت على ذهنى. كنز الأميرات يأتى فى المقدمة. السيد لاكو سيصل فى أى وقت وليست عنده رغبة فى إخبارنا بما ينوى عمله، فقد يطلب منا أن نشحن كل شىء وبالتالى يجب أن ينتهى دافيد وإيفلين من تسجيل ورسم كل ما هو شديد الأهمية. هل نوافق جميعا على ذلك؟ هذا أمر طيب. أقترح بعد هذا الاجتماع أن نذهب إلى حجرة المخزن ونفحص الموجودات معًا. كان الجميع موافقون على ذلك؟

فقلت، هذا طيب.

– سؤال أخير يتعلق بالكنز ولكن سيتأجل حتى ينتهى سايروس من إعداد تقريره. المشروع الثانى هو الحفائر والرسومات الخاصة بمقابر دير المدينة وهو ما يجب تأجيله إلى أن ينتهى دافيد وإيفلين من عملهما هنا. المشروع الثالث هو الآثار التى عليها كتابات من الفخار والبرديات. فهذه يجب ترجمتها ونشرها. المشروع الرابع هو حفائر القرية وما حولها.

انفجر إمرسون:

– لقد كان لدى الانطباع بأن الحفائر هى فرضنا الأول.

– لا سبب هناك يمنعك من الاستمرار فى الحفائر يا إمرسون.

كان إمرسون متهيجا لدرجة منعته من الكلام فأخذ يكح بعنف. رفعت صوتى قائلة:

– أقترح توزيع قوة العمل على هذا النحو. رمسيس ووالتر على المواد النسيجية، إيفلين ودافيد على كنز الأميرات والباقين وهم أنت يا إمرسون ونفرت وليا وسليم وأنا، وأعتقد أن عددنا كافى جدا وخاصة وأن برتى سيعمل معنا إلى أن يتم شحن كنز الأميرات للقاهرة، وسايروس مستعد للعودة إلى المقبرة. إذا وافقنا على ذلك، ستنتقل إلى حجرة المخزن ونقوم بتقدير الموقف هناك:

سأل رمسيس:

– وماذا عن تقارير اللجنة؟ رددت قائلة:

– كما أشار والدك، لا توجد لدينا لجنة حتى الآن وستكون التقارير جاهزة فى الاجتماع القادم.

جمعت أوراقى ووقفت معلنة انتهاء الاجتماع. فعل الآخرون نفس الشىء فيما عدا إمرسون. وبينما أمر بجواره فى طريقى إلى الباب، قال بنعومة:

– سوف يكون لى معك حديث يا أميليا.

(١١)

على عكس توقعات رمسيس، لم يكن محتاجا لاختراع أعذار لمنعى من مصاحبتهم فى رحلتهم لدير المدينة فى ضوء القمر. ابتسمت له وتمتمت:

– استمتعا يا أعزائى.

بينما سكت أبوه، كان إمرسون لا يزال يفكر فى هزيمته ويريد الانفراد بى بصورة ملحة.

بعد الغداء شرب قهوته مسرعا وأعلن أنه سيذهب للنوم ودعاني للحاق به، تساءل والتر:

– لماذا ذهب مبكرا هكذا؟ لقد قررت أن أقضي بعض الساعات في العمل.

قال رمسيس لعمه:

– نقول سعدتم مساءً نحن أيضا لأننا سنعود متأخرين. لا تدعيه يجهد عينيه مع البرديات يا عمتي إيفلين، فهي من الصعب قراءتها حتى في الضوء الساطع. ردت هي قائلة "سأفعل".

تركا الجياد تسير مستمتعين بهواء الليل المنعش وبالهدوء. كانت السماء مرصعة بالنجوم. قال دافيد:

– قلت لكما أنهم سيسعدون بالتخلص منا لبعض الوقت. تمتم رمسيس:

– أعرف سبب سعادة أبي. هل فعلت ذلك عن عمد؟ بإغاظته إلى هذا الحد. أجابت نفرت:

– جزئيا. ألم تلاحظ أبدا كيف تنظر إليه وهو مهتاج، عيناها تلمعان وتحاول ألا تبتسم؟ إنها مباراة يلعبانها لسنوات وكلاهما يعرف القواعد ويستمتع بالأداء. رد رمسيس:

– أعتقد أنا أيضا ذلك.

كان يعرف كيف تبدأ المباراة وكيف ستنتهي ورغم موافقته عليها نظريا، كان محرجا من التفكير في أن والديه يلعبانها.

انسكب فيض الضياء على النيل وامتد إلى السفح المنبسط فظهرت الأحجار والرمال والأشجار والبيوت كما لو أن فرشاة رسام عملاقة قد رسمتها في الخلفية المظلمة. كان البدر مشرقا، وكان من المستحيل التفكير في المنظر بأي طريقة أخرى، كان من الصعب التفكير في الكوكب الساطع الذي يبعد مائتي ألف ميل على أنه كرة

من الصخور الباردة أو تصديق أن السطح الذى يقفون عليه يدور باستمرار.

عند وصولهم إلى مدخل وادى دير المدينة لمعت خرائب المعبد بضوء خافت. وأطلق دافيد تنهيدة رضا قائلا:

- خلال نصف ساعة سيكون الضوء كاملا، ولن نحتاج إلى كشافات.

تركوا الجياد بالقرب من الحظيرة وسلكوا طريقهم عبر الأحجار. كان الرجلان مثقلان بالأحمال، دافيد يحمل أدوات الرسم بينما رمسيس يحمل الأغطية وسلال الطعام والشراب، فهى نزهة حقيقية كما قالت نفرت. كان رمسيس قد اقترح قضاء الليل بالمكان ولم توافق هى أو تعترض وإن كانت الأغطية تشير إلى أنهم سيفعلون.

كانت معنويات رمسيس مرتفعة. لم يقضيا الليل تحت النجوم منذ فترة طويلة، منذ أن أنجبا التوأم.

بعد التجوال هنا وهناك اختار دافيد بقعة ملائمة لاستشراف المنظر الذى يود رسمه وكانت على الجانب الآخر من المعبد حيث تقع خارج الحائط المحيط به إلى جانب منه. لم يكن هناك سطح مستوٍ فى أى مكان فقاموا بإزالة قطع الأحجار التى تملأ الأرض وفرشوا الأغطية ونثرت نفرت الوسائد التى أتت بها وتمددت فوقها مشيرة إلى ليا أن تحذو حذوها قائلة:

- فلنتمدد هنا. أرجو أن تفتح هذه يا رمسيس.

- نبيذ؟

- نعم، ولم لا. نستطيع أن نشرب حتى الثمالة فيما عدا دافيد، فعليه أن يرسم.

(١٢)

نصب دافيد منصة الرسم وثبت أرجلها بالأحجار قائلا وهو يضحك:

– قد يمنحنى ذلك الإلهام الذى أحتاجه.

كان رمسيس قد أمسك بالزجاجة بين ركبتيه ونزع غطاءها وهو يقول:

– بالنسبة للمعابد، هذا المعبد يبدو كئيبا.

– سأضيف مسلة أو مسلتين مكسورتين وربما تمثال بغير رأس.

بدأ دافيد الرسم بالفحم لعدد من الرسوم الكروكية ثم لحق بالباقين.

كان المنظر باهتا كضوء القمر وباردا جافا كهواء الليل. أفرغوا الزجاجة وتأمل دافيد الخرائب المظلمة قائلا:

– الإلهام آلهة متقلبة، لا تزال تراوغنى. هل هناك مزيد من الخمر؟

ضحك رمسيس وفتح الزجاجة الثانية. لم يشعر بمثل هذا الاسترخاء والسعادة لأسابيع. لم يكن الخمر هو السبب وإنما صحبة صديقه الأقرب له وزوجته وبُعد أبنائه ووالديه عنه. كانت نفرت تترنم بلحن خافت تفضله.

نسى رمسيس سبب وجودهما فى المكان وتمدد دافيد تحت الغطاء ورأسه فى حجر زوجته ليا وقد بدا أنه فقد الحماس للرسم رغم ارتفاع القمر مما أضاء واجهة المعبد تماما. تعجب رمسيس قليلا متسائلا من سيكون أول من يقترح أن ينفصل الجمع بحث عن يد نفرت ثم أفلتها واقفا على قدميه. سألته نفرت:

– ما الأمر؟

– لقد جاء أحد. إنصتى.

جلس دافيد فى مكانه قائلا:

– هاتور؟ رد رمسيس:

– لو كانت هى، فهى تحدث جلبة شديدة.

ارتفعت الضوضاء واقتربت من الحائط بالقرب من المدخل. لم يتبين الكلمات

جيدا، فقد تداخلت معها أصوات الحجارة تحت الأقدام أو الحوافر مهما كان القادمون، فليس الأمر بحفنة من اللصوص أو القرويين الذين يأملون فى تأمل الإلهة هاتور. لا بد وأنهم مجموعة من السياح يتطلعون إلى رحلة غير عادية، يقودهم أحد المرشدين الذين اخترعوا قصة هاتور. تغلب عليه الشعور بالضيق واتجه إلى البوابة ليلتقى بالجمع ويجبرهم على الانسحاب. وما أن ترك المكان حتى وجدهم يقتربون منه. اثنان يركبان حمارا.

- يا إلهى الرحيم، صاح رمسيس وأسرع وأمسك بلجام الحيوان هاتفا:

- مريم! ما الذى تفعلينه هنا؟

كانت تضع القبعة التى أعطتها لها أمه. دفعت القبعة بعيدا عن وجهها قائلة:

- هل رأيته؟ هل هو هنا؟ سألتها نفرت:

- تقصدين جستن كما أعتقد. ما الذى جعلك تفترضين أنه سيأتى إلى هنا؟

- أراد أن يرى الإلهة. لم يتحدث سوى عن ذلك طوال اليوم. شكرا لله أنكم هنا. أرجوكم ساعدونى فى البحث عنه.

قال لها دافيد:

- نحن هنا منذ عدة ساعات ولم نر أحدا.

ردت بصوت عالٍ:

- قد يكون مختبئا فى مكان ما هنا، أو يكون قد سقط وجرح رأسه، فعقله لا يزيد عن عقل طفل.

صاح رمسيس بأن ذلك ممكن، فالجدار المحيط بالمعبد من السهل تسلقه، وتوفر الأحجار الساقطة أماكن للاختفاء! ويستطيع جستن أن يختبئ خلف إحداها منتظرا ظهور هاتور. رد عليها قائلا:

– حسن، لماذا لا تنادين عليه يا نفرت؟ والتفت إلى زوجته فوجدها قد أمسكت بقوس به سهم فى حالة استعداد للإطلاق.

– بحق الله يا نفرت، ما الذى تفعلينه!. ردت قائلة:

– لا عليك. هل جئتم أنتم الإثنين فقط؟ وأين فرانسوا المخلص؟ ومن يكون هذا الرجل؟

كان الرجل غريبا على رمسيس أيضا، انحنى فوق رقبة الحمار وقال لرمسيس:

– أنا مراكبى من المركب إيزيس يا سيدى والآخرين يبحثون فى الخرائب على الجانب الآخر من الحائط. ردت نفرت:

– جستن سيكون بالداخل إذا أراد أن يرى ما جاء ليراه.

صرخت مريم صرخة مفزعة على غير توقع:

– جستن! جستن! أين أنت؟

(١٣)

ترجلت وكادت تسقط فأمسكت بذراع رمسيس. سمع رمسيس الآخرين ينادون على جستن وصوت فرانسوا بينهم.

قال رمسيس:

– أحضر البطاريات يا دافيد. أنت وليا ستذهبان إلى اليسار. علينا البحث خلف كل حجر. ضعى هذا القوس جانبا يا نفرت.

ذهب دافيد إلى المكان الذى تركوا فيه المؤن وقبل أن يصل إليه جذبت صرخة من مريم انتباه الجميع وهى تشير بيدها للمعبد.

– انظروا! هناك بين البوابات امرأة تسطع بالضياء!

حاول رمسيس تحرير نفسه من قبضتها ولكنها استمرت ممسكة به. كان الشكل يقف لدى البوابة الخاصة بالمعبد، باهتا وكأنه عمود من الرخام، ولكنه لم يكن تمثالا، فهو يتحرك ويرفع ذراعيه. اعتقد أنه لمح لمعان ذهب، ولكنه سمع شيئا يصفر خلفه فاندفع جانبا متخلصا من قبضة مريم وخطف القوس من نفرت. أطلقت ليا ضحكة خافتة وهى تقول: "لقد قتلتها".

سقط الشكل على الأرض مكان ظهوره، وعندما تقدموا إليه وجدوا رداءً أبيض خال يخترقه السهم الذى أطلقته نفرت. وجدوا جستن ممددا فوق عمود ويداه متشابكتان فوق صدره وعلى وجهه ابتسامة.

الفصل السابع

(١)

قلت وأنا أعطيه بيضة:

– أعتقد أنك فتشت المكان كله بدقة، ولكن ربما كان من الأفضل أن أفحص المكان بنفسى.

أنزل إمرسون قطعة الخبز التى كان يأكلها وبدأ رمسيس يقص ما وقع عند معبد هاتور، فالتفت بنظره نحوى:

– أميليا. أشرت إلى جارجرى قائلة:

– صب له القهوة يا جارجرى. ولكن إمرسون صاح:

– لا أريد أى قهوة، ولكنه أخذها وهو يقول:

– شكرا يا جارجرى. وأنت يا رمسيس، لماذا انتظرت حتى الإفطار لتحكى لنا عما حدث؟ ردت نفرت:

– لقد قررنا عدم إيقاظكم. لم يكن هناك ما يمكنك أن تفعله أمس، لقد فتشنا المكان بدقة ولم يكن ذلك سهلا.

– هل سيأتى أحد معى إلى الحفائر يا أميليا أم أنك وضعت مخططا مغايرا لهم؟

– ألا تريد مناقشة الأمر يا إمرسون؟

– لا يا أميليا. سأذهب بالسيارة إلى موقع الحفائر. لو أراد أحد أن يصحبنى فعليه القدوم فى التو، ثم غادر الغرفة بخطوات سريعة. تمتمت ليا:

– يا إلهى، إنه ملىء بالغضب، رددت قائلة:

– سوف يتغلب على غضبه بعد قليل. وقد يخفف من غضبه ذهاب بعضكم معه هذا الصباح. لقد فاته أنه وسليم خلعا إحدى العجلات من السيارة الليلة الماضية ولم يضعا العجلة البديلة. سأل دافيد:

– أتريدين منى الذهاب معه يا عمتى أميليا؟

– إذا لم يكن لديك مانع يا عزيزتى. فقط لعدة ساعات.

– على الإطلاق. ثم نظر لرمسيس الذى أومأ بالموافقة أيضا.

– كنا نريد أن نلقى نظرة فاحصة على المكان فى ضوء النهار على أية حال، أعلن والتر فجأة وهو يضع نظارته على عينيه.

كنت أدرك أنه مصاب بحمى الرغبة فى التحرى. لم أعتقد أنه سيكتشف شيئا هاما ولكنه سيستمتع بالبحث. تخلصت من جارجرى بأن طلبت منه مصاحبة إيفلين وسينيا إلى القلعة فتركنى وحدى مع نفرت التى بادرتنى قائلة:

– أريد التحدث معك يا أمى.

– كنت على وشك أن أطلب منك ذلك.

انتقلنا إلى ركن منعزل بالحديقة حيث لا يمكن لأحد أن يسمعنا. كنت معجبة بحديقتها، فمناخ مصر يسمح بزراعة النباتات الاستوائية رغم المجهود الكبير الذى يتطلبه ريها وتغذيتها. وهى الآن مزروعة بالورود والزهور وتذكرنا بإنجلترا. قلت لها وأنا أقطع وردة بأظافرى:

– الآن، إحكى لى كل شىء فرواية رمسيس ليست محكمة.

– كان ذلك ضروريا فهو يعرف أن أباه لن يسمح له بأكثر من القليل من الكلمات عن الموضوع. قلت لها بإصرار:

– إحكى من البداية وتذكرى كل شكل وكل صوت وكل رد فعل له تجاهها فلربما كانت بعض التفاصيل التى تبدو عديمة الأهمية، غاية فى الخطورة.

(٢)

كانت روايتها كاملة بالرغم من أننى كنت متأكدة من أنها أغفلت بعض الأشياء.

قلت مستغربة:

– اللعنة، ما أن أصبح كل شىء تحت تحكمى بما فى ذلك إمرسون، حتى حدثت تلك التطورات غير المتوقعة. ردت نفرت:

– هل كانت غير متوقعة حقا يا أمى؟

– هل كنت تتوقعين شيئا كهذا يا عزيزتى؟ أرجو أن تقولى كل ما لديك. أنا أؤمن بالإلهام فهو عمل من أعمال العقل اللاواعى.

– أوافقك يا أمى ولكن فى هذه القضية كان عقلى الواعى هو الأساس. إن هروب رمسيس من تلك المرأة بالقاهرة لا بد وأنه أثار غضبها لما بذلت من جهد لتضع يدها عليه. أليس من المنطقى أن تحاول ذلك مرة أخرى؟

– لو كانت هذه محاولة اختطاف ثانية فإنها كانت سيئة التنفيذ. كانت ستحتاج إلى دستة من الرجال الأقوياء للتعامل معكم أنتم الأربعة، ناهيك عن ذلك الصبى ومشاكله. ابتسمت نفرت قائلة:

– كان الأمر مضحكا فى الحقيقة، مسرحية غاب عنها المخرج. كان كل شخص يندفع فى طريق الآخر، يدوس فوق الأشياء وينادى بأعلى صوته، حتى فرانسوا ورفاقه. ثلاثة منهم من مراكبية الدهبية شاركوا فى الفوضى. كنت شديدة القلق على جستن، وبالتالى لم استمتع بالملهاة ولكنى عندما رأيته ممددا فوق ذلك الحجر ووجهه

ممتقع وعيناه مفتوحتان على اتساعهما ناظرا للقمر، ظننت أنه ميت.

– ولكنه لم يكن ميتا . ردت نفرت.

– كان حيا ومدركا لكل شيء. لم يسمح لي فرانسوا بفحصه ولم أصر على ذلك لأن الصبي كان سعيدا سعادة تلميذ في رحلة، يضحك ويحكي كيف أن الإلهة ابتسمت له ومدت يدها لتباركه.

– وهل فعلت ذلك؟

– وكيف لي أن أعرف. لقد فقدت شعوري والتقطت قوسي لأني شعرت بوجوب أن أتسلح بشيء ما تأهبا للظروف. أنت تعرفين شعور رمسيس تجاه الأسلحة النارية.

– كان السلاح الناري سيكون تجاوزا .

– لا يمكن إطلاق النار على المرأة بدم بارد. أنا أفضل مع القوس من السلاح الناري. لقد صوبت على قدميها أو بالأحرى على الأرض التي تقف عليها. لقد اختطف رمسيس القوس مني وكان عليه التخلص من مريم أولا فقد كانت ممسكة به وتصرخ. عندما وصلنا إلى مدخل المعبد كانت قد ذهبت. بحث رمسيس ودافيد عنها ولكنها كانت لديها الوقت الكافي للهرب لمعرفتها بالمكان.

أجلت فحص هذه الأقوال إلى مرحلة لاحقة، فهي في حد ذاتها لا تعني شيئا أو تعني أشياء مختلفة، ولكن ما إن يتم تجميع الحقائق معا سوف تتضح الصورة. يجب إذن أن أجد الوقت لرسم بعض الخرائط التي ثبت جدواها في تحرياتي السابقة. قلت لها:

– أعتقد أنه من الأفضل أن نعود إلى الحفائر. إول ما يفعله إمرسون تجاه أية مضايفات هو توجيه اللوم لي ولكنه ما إن يهدأ حتى يصبح أكثر الناس حكمة. لا تنشغلي يا عزيزتي، سأضع كل شخص في مساره صباح الغد وسوف تكون لرمسيس فرصة العمل في النصوص.

– أنت تفكرين فى كل شىء يا أمى.

– لقد تركت أمرا أو أمرين يفلتان مؤخرا لأننى مهتمة بأمر سيثوس وأملى أن يكون بحالة تسمح له بالسفر بسرعة. كما أننى أريد أن أبعد مريم عن ذلك الصبى وجدته التى لم تكن متعاونة إطلاقا عندما سألتها أن تسمح لمريم بزيارتنا. ردت نفرت:

– ربما استطعت اقتناص الفرصة عندما تكون السيدة العجوز فى حالة مناسبة.

– قد يكون ذلك ممكنا. كذلك هناك زيارة السيد لاكو. ثم قلت ونحن نسير فوق ممر الحديقة:

– المجوهرات المختلسة فى رأيى أصبحت موضوعا منتهيا، فهى ومعها اللص، خرجا من مصر ولا توجد طريقة لاستعادتها. سوف أخبر لاكو بذلك بنفسى عندما يعود ولكنى لا أرى فائدة من دعوته للعودة.

أومأت نفرت بالموافقة. استطردت قائلة:

– وضع مريم علينا أن نقرره ولن نستطيع ذلك إلا بعد أن يعود أبوها وهو ما سيحدث فى الموعد الذى يناسبه. سوف أبذل كل طاقتى لتحديد من التى تقوم بتمثيل دور هاتور، ولكن فى رأيى ما هذا إلا مجرد إلهاء وهراء.

– إلى أن نعرف من تكون ولماذا تفعل ذلك لا نستطيع توقع الضرر الذى من الممكن أن تحدثه. قالت نفرت ذلك وهى تتجنب نظراتى. قطفت زهرة صفراء وبدأت فى قطع أوراقها واحدة تلو الأخرى قائلة:

– لا أستطيع يا أمى أن أناقش ذلك مع رمسيس ولكنك لا بد قد فكرت فى أنها من ماضيه القديم.

– تقصدين عشيقة؟ لا تخافى من أن أصدم يا نفرت فأنا متمرسة بالعالم وأعرف رمسيس وتاريخه فى هذا الخصوص. فكل شىء حدث قبل زواجكما وبالطبع ليس لديك سبب للشك فى إخلاصه لك، فهو يحبك.

– أنا لا أنكر ذلك ولكنى أتساءل هل كانت هناك واحدة معينة، وأرجوك ألا تعتبرى الحديث عنه من وراء ظهره.

– لن يكون هذا إنصافا ولكنى سأولى الأمر بعض التفكير.

وأخذت ذراعى وانطلقنا فى المسير، خارجين.

(٣)

بعد أن قدمت فاتيما بلمساتها المبدعة طعام الغداء، ركبت أنا ونفرت الجياد إلى دير المدينة. عند وصولنا تفادينا جمعاً من السائحين على ظهور الحمير وإن لم نكن قد تفادينا انتباههم، فقد سمعت أحد المرشدين يخبرهم بشخصياتنا بصوت مسموع فبدأت الكاميرات بالتصوير وهتفت سيدة:

– قفى يا مدام إمرسون.

ولكنى مضيت فى طريقى دون أن أتوقف أو أرد. قالت نفرت:

– يجب أن تكونى قد اعتدت على هذا الآن يا أمى فنحن من معالم الأقصر.

كانت غلطة إمرسون أن نكون كذلك، فقد جعل من نفسه مثالا سيئا بصياحه فى الناس باستمرار وجذبهم أحيانا. لم يضرب أحدا مؤخرا ولكنه جعل من نفسه أضحوكة أثناء تفريغ مقبرة سايروس فقد كان يهز قبضته فى وجه السياح ويهدد الصحفيين الذين كانوا يكتبون كل كلمة رديئة ينطق بها.

استرحت عندما لاحظت أن لا أحد من السياح قد جرؤ على الاقتراب من المنطقة التى أحاطها إمرسون بالحبال. كانت ملامح المعبد قد بدأت فى الظهور بجدرانه وأعمدته. تركنا الجياد وسرنا إلى إمرسون الذى كان واقفا ويده على خصره بجوار برتى الذى كان يرسم الشظايا فى ورقة معه. قلت له:

– الأمور تسير على ما يرام كما أرى. لا بد وأن هذه ساحة معبد سيتى الأول، رد إمرسون.

– هى فى الحقيقة بهو الأعمدة الخاص بمعبد أقدم. أين كنت يا بيبودى؟ البقايا تتراكم بسرعة.

– سأتفرغ لها فى التو. أحسنت يا برتى. كم هى جميلة تلك الرسوم.

– شكرا يا سيدتى. سليم ودافيد ساعدانى فى عمل المقاييس.

سألت نفرت "وأين رمسيس"؟، قال إمرسون مشيرا بيده:

– هناك يحاول اختبار خندقٍ عند الطرف الشمالى من الحائط ليرى ما إذا كان سيجد مكانا لم يعبث به من سبقونا بالحفر بحثا عن كنوز. لا أعرف من هم الأسوأ، اللصوص المحليين أم علماء الآثار، وكيف لى أن أعرف من تتابع الطبقات. إنهم خلطوا كل شيء ببعضه؟

– إن هذا مصدر الثقة فيك يا عزيزى أن تصل إلى استنتاجك بالرغم من الفوضى التى تركوها. أخذنى إمرسون جانبا وقال:

– أنا أعتذر يا بيبودى. لم أسأله عما حدث لقبعته. أجبت:

– لقد نسيت الأمر يا إمرسون.

– حقا؟ هل أنت متأكدة أنك لم تدخرينه مع باقى ذنوبى للمستقبل؟

– يا عزيزى، لا أستطيع الاحتفاظ بسجل لكل تلك الذنوب.

– لقد بحثنا المكان جيدا يا بيبودى. لقد كانت هناك آثار أقدام بالمكان ولم نجد سوى قطعة نسيج عالقة بالجدار. أخرج قطعة من القماش الأبيض وأعطاها لى. قلت له وأنا أختبرها:

– نسيج رقيق من الكتان كما أعتقد. بقايا من ثوب. سوف أحتفظ بها. وأثناء

إخراجه الغليون من جيبه سقط مسمار فسألته:

– لماذا يمتلئ جيبك بالمسامير؟

– كنت أعلق لافتة، تحذر السياح الملاعين للبقاء بعيدا.

– لقد أصبح التصوير لعنة أخرى أصابت الأثريين ولكنى آمل ألا تكون قد ضربته.

– كانت سيدة وبالتالى لم أستطع أن أنطق بكلمة سباب أمامها.

قررت أن أنظر لأرى اللافتة. كان مكتوبا عليها "ممنوع الاقتراب.. منطقة عمل"، إلى آخر الجمل ذات المعنى نفسه. وبينما كنت أتفحصها لحق بى سليم قائلا:

– سأضع لافتة أخرى باللغة العربية تحمل نفس الكلمات.

– ربما صنعنا لافتات أخرى بالألمانية والفرنسية أيضا. أحضر ألواح أخرى من الخشب يا سليم. هل هناك أخبار؟

– عن الليلة الماضية؟ إنه لغز كبير يا ست الحكيمة. الرجال مندهشون مثلى تماما.

– هل كان معروفا فى القرية أن رمسيس والآخرين سيكونون هنا؟

– نعم يا ست. لم يكن الأمر سراً. عبث بلحيته ونظر نحوى قائلا:

– من المعروف للكافة أيضا أن السيدة البيضاء قد جاءت من قبل ليلة اكتمال القمر.

– كم من الناس رأوها بالفعل؟ فكر سليم ثم قال:

– هذا سؤال وجيه يا ست. أنا لم أتحدث مع أحد ممن رأوها، لقد سمعوا القصة كما سمعتها من آخرين.

– النسـاء لا تأتى إلى هنا طلبا لبركاتها؟ كان القدمـاء يصلون لهاتور من أجل السعادة فى الحب ومن أجل الإنجاب.

– قد يخشون المجيء إلى هنا بعد الظلام يا ست خوفا من العفاريت والأشباح.

قلت وأنا أفكر "هذا مثير للاهتمام".

– نعم يا ست، ولكن ماذا يعنى ذلك؟

سؤال وجيه آخر ليست عندى إجابة عليه.

(٤)

كان لدى سليم خبر طيب نسبيا، فقد أمكن تحديد مكان القارب على بعد مئات الأمتار من مكان الحادث بجوار الشاطئ وقد أبلغ الرجال داوود عن مكانه، ورغم أن التلف كان كبيرا، إلا أنه كان يمكن إصلاحه.

– إلى أن يتم استكمال إصلاح القارب سيظل صابر من دون مصدر للدخل. قلت ذلك عندما اجتمعنا كلنا للغداء.

– أخبره أن يشترى قاربا آخر يا داوود وبالطبع سندفع ثمنه.

ولكن سليم أصر قائلا:

– سيكون ذلك قرضا سيدفعه لكم فيما بعد.

ولكن إمرسون قال: هذه مسئوليتنا، فلم يكن لصابر أعداء أو خصوم. هل هناك خصوم لصابر؟

قال داود:

– جميعهم يحقدون لأن صابر يحقق دخلا أكبر منهم ولكن لا أحد منهم ليقوم بتخريب قارب رجل آخر.

ردت قائلة:

– إنه عمل ليس من أخلاقيات المهنة. أليس كذلك؟

– نعم، قالها وهو ينظر إلى ما تبقى من الطعام، فقلت له:

– خذه يا داوود فقد انتهينا من الأكل. وحتى لو كان تقديرك ليس صحيحا – رغم أننى متأكدة أنه كذلك – فلا أتخيل أن أحدا يجرؤ على إنزال الضرر بنا. وافق داود قائلا:

– إن غضب أبو اللعنات أكثر خطورة من العاصفة الرملية فى الصحراء.

بعد أن ينتهى إمرسون من الأكل وافق على نشر معاونيه، وقرر رمسيس البقاء للانتهاء من استكشاف الخندق ورجعت إلى القطع المتكسرة ومعى ليا للمعاونة. عند عودتنا إلى البيت فى الظهيرة، توقعت أن ينسحب إمرسون إلى مكتبه ومعه رسومات برتى ومدوناته الخاصة ولكنه قرر ألا تفوته الأوقات التى يمضيها مع الأطفال فقال:

– نحن لا نجالسهم بما فيه الكفاية، أنت لا تدعينهم يتناولون الإفطار معنا وترغمينهم على الذهاب للنوم مبكرا.

– الوقت الذى نقضيه معهم تحدده أنت يا إمرسون.

– أنتِ فى منتهى العبقرية عندما تضعين اللوم على شخص ما.

ذهبت إلى الشرفة حيث كانت إيفلين تثرثر مع فاتيما وهى تعد العدة لتناول الشاى. كان والتر يفحص مجموعة من الخطابات:

– أرجو ألا تستائى يا أميليا فأنا أبحث عن خطابات لى أو لإيفلين.

– أرجوك أن تواصل البحث يا والتر فقد تراكمت الرسائل فى الأيام القليلة الماضية ولم أجد الوقت لأتفحصها.

بعد أن استخرج بعض الرسائل ناول إيفلين إحداها ثم ناولنى سلة الخطابات. صاحت إيفلين:

- خطاب من رودى، ثم بدأت فى قراءته.

- هناك ملحوظة مختصرة من ويللى. قال والتر.

- وخطاب من جريفث يطلب فيه نقوشا ميروتية أكثر.

صاح إمرسون:

- ولماذا يفترض بحق الشيطان أننا سنجدها فى الأقصر.

قال والتر:

- لا يستطيع المرء معرفة ما الذى لدى تجار الآثار. لقد تركت العمل مع النقوش الميروتية كما تعرفون وبالتالى فأى شىء أجده سأرسله إلى فرانك. قلت له:

- أنت والسيد جريفيث تجمعكما علاقة وطيدة، فمعظم علماء المصريات شديدو التشاحن والاستحواذ. رد إمرسون:

- إذا كنت تقصدينني يا بيبودى فإننى إنكر ذلك تماما.

تفحص إمرسون الرسائل وأعادها إلى السلة مرة أخرى فقلت له:

- أليس هذا خطاب من السيد وينلوك؟

- لا يهمنى ما يقوله هذا اللقيط.

(٥)

اندفع الأطفال مع والديهم إلى الحجرة. أجلس إمرسون الأطفال فى حجره، وأعطيت نفرت ورمسيس خطاباتهما وبدأت فى فتح خطاباتى. سألنى إمرسون:

- هل هناك خطابات مهمة؟

- لا، معظم الخطابات هى المعتادة.

وقرأت إحداها بصوت عالٍ لدهشة الجميع.

"عزيزتى السيدة إمرسون. أنت لا تعرفيننى ولكن شقيقى هو زوج ابنة الليدى ورثنجتون وأود التعرف عليك. ما هو الوقت المناسب لكى أقوم بزيارتك؟". سألت نفرت:

- ومن تكون الليدى ورثنجتون؟

- ليست عندى أدنى فكرة. استرسلت فى القراءة "عزيزتى السيدة إمرسون. سوف يكون فضلا عظيما أن يقوم زوجك بمصاحبتى أثناء زيارتى للأقصر. سوف نكون جميعا بفندق ونتر بالاس هذا الأسبوع".

قالت سينيا:

- تصلنا مثل تلك الخطابات باستمرار. أرجو أن تقومى بقراءة رسائل أخرى يا عمتى أميليا لأنها مدهشة.

قلت لها:

- هذه الرسالة غريبة "نحن سيدتان أمريكيتان صغيرتان نود مقابلة ابنك. أخبرنا السيد ويجال الذى قابلناه فى لندن الشهر الماضى أنه مثقف جدا ووسيم أيضا". رد رمسيس:

- أنا مدين للسيد ويجال بذلك.

رددت قائلة:

- أشك فى أنه قال لهما ذلك. ردت نفرت:

- لقد كان بالتأكيد نشطا اجتماعيا عندما كان مفتشا ودائما ما كان يتباهى بمعرفته بالأمير فلان والليدى فلانة.

– علينا ألا نكون غير منصفين يا عزيزتي. فبالنسبة لوضعه الرسمي كان لا بد للسيد ويجال أن يكون مهذبا مع الزوار المهمين. كان الأمر على هذا النحو أيضا مع زملائنا الذين يتلقون الهبات ولكننا لسنا مضطرين لذلك لحسن الحظ. الناس الذين على هذا النحو عادة ما يكونون مثيرين للضيق إذا ما سنحت لهم الفرصة. كان جارجرى مفيدا فى أنه إذا جاء أحد من الغرباء ليسأل عنا، كنا نرسله ليقابله فينظر له بتعالٍ ويقول له، البروفيسير والسيدة إمرسون ليسا بالمنزل. وكان ذلك كافيا لانسحابهم. تدخلت ليا قائلة:

– لا يمكن لجارجرى أن ينظر بتعال لكل شخص لأن طوله ليس أكثر من خمسة أقدام.

جلس إمرسون على الأرض وجمع الأطفال حوله وبدأ حديثه لهم:

– انظروا ماذا وجدت اليوم، وأخرج تمثالا حجريا طوله حوالى ست بوصات وعلى وجه التمثال ابتسامة ساحرة، ثم أخذ يشرح لهم.

– هذا التمثال كان هدية للملكة أحمس نفرتارى من شخص يدعى آخناو. يمكنكم النظر وليس اللمس. قالت له إيفى:

– أريد أن أذهب معك للحفائر. هل إذا وجدت شيئا أستطيع الاحتفاظ به؟

نظرت إليها تشارلا نظرة حسد لم تفت على إمرسون ولكنه كان يعرف كيف يجيب فقال:

– سأقول لك شيئا، ماذا لو علمتك ركوب الحمير، فقد آن الأوان لتتعلمى.ووافق الجميع على العرض المقدم منه..

كان درس ركوب الحمير ناجحا بالنسبة للأطفال. أما إمرسون فقد دأب على التقاط الأطفال من فوق ظهر الحمير إذا ما لاحظ أنها تسرع السير ولو قليلا. سقطت إيفى مرتين بينما سقط دافى مرة. كان الأكثر سعادة من بينهم دوللى الذى سار

بالحمار حول الساحة مرات ومرات كما لو كان معتادا على ركوب الحمير. عندما أعلن إمرسون الذى كان التراب قد غطاه، انتهاء الدرس.

ولأننى كنت أقف بعيدا عن السيرك المنصوب، لم يستغرق الأمر منى طويلا لأستعد للعشاء. تمشيت فى الحديقة لتفقد نباتاتى فوجدت أن إحدى أشجار الورد ذابلة فقلت لفاتيما بأن تجعل عليًا يقوم بريها. كان المكان مريحا ومبهجا برائحة الزهور وتغريد الطيور.

(٦)

كنت مذنبة بالكذب إلى درجة ما عندما قلت لنفرت أننى متحكمة تماما فى كل شىء. لم أكذب تماما فى ذلك. كل ما قصدته أن أطمئنها لأنها كانت تحتاج إلى ذلك. ولكن الأمور تسارعت بحيث لم أستطع مجاراتها، كما أضافت زيارة السيد سميث المزعجة تعقيداتها الإضافية.

لقد حان الوقت لأضع إحدى قوائمى الخاصة.

ما إن انتهى العشاء حتى انسحبت إلى حجرتى وجلست إلى مكتبى ثم قمت بتقسيم ورقة إلى أقسام كتبت فوق أحد أقسامها، أحداث مقلقة وغامضة. وفوق القسم الثانى نظريات، والقسم الثالث خطوات يجب اتخاذها.

كانت هاتور المحجبة بالقاهرة هى أول الأحداث التى كتبتها. كانت أمامى ثلاث تفسيرات محتملة: التفسير الأول أنها كانت امرأة من ماضى رمسيس، الثانى أنها امرأة تأمل أن تكون فى مستقبله والثالث أن دافعها ليس انجذابها الشخصى له وإن كنت لا أعرف ما يمكن أن يكون ذلك الدافع.

كان الفعل المتاح أمامى هو التفكير العميق فى النساء اللاتى كانت لهن علاقات مع ابنى فى وقت من الأوقات. سؤال رمسيس كانت هى الخطوة المنطقية التالية، ولكنى

كنت أعرف أن ذلك لن يفيد. سحبت صفحة جديدة من الورق وبدأت قائمة ثانية.

بعد أن انتهيت اكتشفت لدهشتى أننى لم أدرك أنهن كن كثيرات لهذه الدرجة، بل كنت متأكدة أن القائمة ليست كاملة. ولكن العديد من تلك الأسماء كان يستحق التحرى.

قفز حادث معبد هاتور إلى عقلى فتساءلت هل من الممكن أن تكون هى نفس المرأة؟ من الواجب بحث كل الاحتمالات، ولكن من غير المرجح أن تكون هناك امرأتان مختلفتان فى هذا الأمر. وعلى أى حال لا يمكن أن تكون مريم هى هاتور الثانية.

لقد وفر الحادث الثانى دليلين ماديين. أعطتنى نفرت الرداء الأبيض الذى وجدوه عند المعبد. أخرجته وأخرجت قطعة الكتان الممزقة من الدرج وفردت الرداء على المكتب لفحصه جيدا.

كان رداءً بسيطا من القطن الأبيض، تمت حياكته من الجانبين والقمة مع ترك فراغ للذراعين والرأس، وقد تمت حياكته يدويا وبطريقة رديئة. كانت بالثوب تمزقات عديدة أحدها فى مكان اختراق السهم الذى أطلقته نفرت، والتمزقات الأخرى ربما نتيجة خلع الرداء بسرعة.

لم تكن قطعة القماش التى وجدت معلقة بالجدار تنتمى للرداء، فالقماش يختلف تماما، فهى من الكتان الرقيق المنسوج بدقة لا بد وأنه تمزق من القميص الذى كانت تلبسه تحت الثوب عندما تعثرت فوق الجدار. كان قميصا يشبه الرداء الذى رآه رمسيس فى القاهرة.

(٧)

لا بد أنها كانت رشيقة وتعرف المكان، ولكن الحظ لعب دورا كبيرا فى نجاحها فى الهرب. لو لم يكن وجود جستن قد تداخل مع خطتها. سرت فى جسدى رعدة وقد

تبدت لعقلى نظرية جديدة. لا بد وأنها كانت تعرف نية الأربعة لزيارة المعبد فى تلك الليلة ولكنها جازفت وهى وحيدة مقابل الأربعة منهم وكلهم صغار السن وعلى درجة كبيرة من اللياقة ويعرفون المكان أيضا، كما أنها لم تكن تستطيع إيقافهم عن الاقتراب منها للإمساك بها، فهل كان هناك سلاحا مخفيا بين طيات الرداء؟. طلقة واحدة كانت كفيلة بمنع المطاردة لو قتلت أو جرحت واحدا منهم. لقد أكدت لرمسيس أنها لا تقصد إيذاءه وبالتالى لا يمكن أن يكون هو الضحية المقصودة. فأى واحد منهم إذن كان المقصود؟ دافيد، أم ليا، أم نفرت؟ أم ربما رمسيس؟

كنت غارقة فى هواجسى القبيحة لدرجة أننى أطلقت صرخة وقمت من على مقعدى فزعة عندما انفتح الباب ودخل إمرسون وقال مازحا:

– أتتوقعين قاتلا؟ آسف لأننى خيبت أملك يا بيبودى.

– إمرسون، إن لدى فكرة مخيفة. رد قائلا:

– لا جديد فى ذلك. تلاشت ابتسامته واحتضننى بقوة قائلا:

– يا فتاتى الحبيبة، أنت ترتجفين. قولى لى ما هى تلك الفكرة المخيفة.

كنت أرتجف وأنا أروى له آخر نظرياتى. كنت آمل أن يقول لى إن مخيلتى قد دفعتنى بعيدا، ولكن ما إن نظرت إلى وجهه حتى اعترانى الخوف فقد هز رأسه قائلا:

– اللعنة يا بيبودى. أكره إن أعترف بذلك ولكن نظريتك بها قدر كبير من المعقولية.

– كنت آمل أن تقول لى إن مخيلتى الجامحة قد أخذتنى بعيدا.

– لقد فعلت يا عزيزتى. هذا المخطط يناسب رواية عاطفية ولكنه قائم على التخمين. هيا، أعطنى قبلة.

عندما انتهى من تقبيلى، أطلق تنهيدة رضا قائلا:

– هكذا أفضل. إجلسى الآن واحكى لى عن استنتاجاتك الرائعة الأخرى.

أعتقد أن هذه واحدة من القوائم الشهيرة التى تخصك. أعطيته القائمة، فتفحصها بنظرة واحدة، فلم يكن بها شيئا يذكر. علق قائلا:

– مع كل التقدير لذكائك يا عزيزتى، فلا أعتقد أن هذه القائمة تفيدنا فى شىء. وما هذه؟ أمسك بالقائمة الأخرى وقرأها . كانت واضحة لشخص فى ذكاء إمرسون. عندما نظر نحوى كانت نظرته مزيجا من الإعجاب والتحفظ حيث قال:

– كيف بحق الشيطان عرفت هذه الأسماء؟ بالتأكيد ليس من رمسيس.

– بالطبع لا، لست سيئة التربية بما يسمح لى بسؤاله عن تلك الأمور الحساسة، ولا أعتقد أنك ستفعل. رد بسرعة وعينه مثبتة على القائمة، وقد تغير لونه من البرونزى إلى النحاسى وقال:

– لن أكون سيئ الطوية لأتكهن، ولكننى أتذكر فتاة بلينجهام.. كانت شابة مخيفة. ومن تكون كلارا؟

– فتاة قابلها فى ألمانيا وذكر اسمها فى خطاباته.

ارتفع صوته فجأة وهو يزمجر:

– ليلى؟ لا يمكن يا بيبودى أن تكونى متأكدة.

– لست متأكدة بالنسبة أى واحدة منهن. قلت ذلك وقد عدت متماسكة وأنا أستمتع بالتكهن حول الأمر معه وخاصة أنه يستمتع بالتلميحات الخارجة. استطردت قائلة:

– لقد أنقذت حياته مجازفة بنفسها فى سبيله وأنا متأكدة أنها توقعت شيئا فى المقابل. لقد كانت امرأة حامية الدم ولقد وضعت عينيها عليك فى وقت ما كما أعتقد. رد قائلا:

– لقد وضعت عينيها على عدد كبير من الرجال. كانت هذه مهنتها. لا يمكن أن تكون هى هاتور المحجبة يا بيبودى. لقد قال رمسيس أنها كانت صغيرة السن وليلى كانت امرأة ناضجة من عشر سنوات.

– ولكن لها بعض خصائص الشبح الذى ظهر مؤخرا، فهى تعرف كل شبر فى البر الغربى. رد مبتسما بخبث:

– وتعرف كل الرجال الذين يعيشون به. ما الذى حدث لها؟

– لا أعرف. ولكن سليم يعرف بالتأكيد. هناك بعض الأمور الغامضة التى تواجهنا ولكن على ضوء آخر نظرياتى فيجب حل لغز هاتور، على أن ذلك له الأولوية. عادت عينا إمرسون إلى القائمة متسائلا:

– السيدة بنكهرست؟

(٨)

كنت مترددة فيما يتعلق بإخبار الباقين عن نظريتى الجديدة المخيفة. أعادتنى ليلة بين أحضان زوجى العطوف وصباح مبهج مشرق إلى تفاؤلى المعتاد وتذكرت أنهم جميعا ناضجون وأن من واجبى تحذيرهم من خطر محتمل. انتظرت إلى أن انتهت سينيا من الفطور وخرجت، وبدأت إخبارهم.

كان الوحيد الذى أخذ الأمر بجدية هو جارجرى، فقد كان مشدوها بقصة السيدة المحجبة. أما الباقون فقد أظهروا نفس التحفظات وخاصة إمرسون الذى اعتبر المسألة محض خيال من جانبى. سألنى رمسيس:

– ما الذى جعلك تظنين أنها كانت تحمل سلاحا؟ كان لا بد وأن يلاحظ أحدنا شيئا كهذا إذا ما صوبت مسدسا نحونا.

– لست متأكدة من أنكم كنتم ستلاحظون شيئا كهذا. فمع كل الاحترام لكم، لا يبدو أن أحدا منكم قد لاحظ شيئا. رد دافيد:

– كانت هناك الكثير من الأمور. لقد بدأت أشعر بالأسف تجاه تلك المرأة المسكينة فلا بد وأن تدخل ذلك الجمع قد أفسد المشهد الذى كانت تمثله وكذلك تعثرها فوق الحائط وتمزق قميصها.

– ورغم ذلك، يجب أن نأخذ كل الاحتمالات فى الاعتبار. قال إمرسون ذلك وهو ينظر فى ساعته، ثم أضاف:

– نظريات بيبودى بالرغم من غرابتها ثبتت صحتها أحيانا. عليكم الانتباه جيدا والاحتياط لكل احتمال.

ما إن وصلنا إلى الموقع حتى وجدت سليم فأخبرته برغبتى فى التحدث معه. كان يحاول تجنبى منذ وصول السيارة ولكن هذا الصباح كانت لديه مشكلة فسألنى:

– متى سنقوم بحفل الاستقبال لكم يا ست الحكيمة؟ كان يجب القيام به قبل الآن. وعدنى رمسيس بأنه سيتحدث إليك.

– آسفة يا سليم، فقد تحدث رمسيس معى، ولكن الأمر غاب عن ذهنى، فأنت تعرف صعوبة إقناع إمرسون بحضور المناسبات الاجتماعية.

– ولكن هذه ليست مناسبة اجتماعية. إنها عادة بالإضافة إلى أنها مصدر لسرورنا. إن أبو اللعنات لا يرفض لك أى رغبة تبدينها.

– أنت على حق يا سليم. إن من واجبى العمل على تسلية الأسرة، والسيدة فاندرجلت تريد إقامة حفل لهم هى الأخرى، والعديد من الأصدقاء القدامى بالأقصر أرسلوا لنا دعوات. ولكن حفلك الموسيقى لا بد وأن يأتى فى المقدمة. هل يناسبك يوم الجمعة القادم؟

– سأخبر داود وخديجة.

– الآن بعد أن انتهينا من ذلك أريد أن أناقش معك بعض الأمور. فتحت الورقة التى بها قائمة جديدة قمت بكتابتها كان العنوان فيها "قضايا معلقة".

صاح سليم:

- أه، قائمة !

كانت معظم الموضوعات بالقائمة معلقة بالفعل من فترة ولم يكن لدى سليم ما يضيفه من جديد. فالمجنون الذى هاجم مريم لم يتم التعرف عليه، ولا المسئول عن إغراق قارب داوود، ولم يظهر أثر للمجوهرات المسروقة من سايروس أو لمارتنللى. انتبه جيدا وأنا مستمرة فى القراءة. كان يعتز بعلاقاته ويكره الاعتراف بالفشل. أدهشه الأمر الأخير، فصاح:

- ليلى؟ نعم يا ست، بالطبع أتذكرها فهى الزوجة الثالثة لعبد الحميد. لماذا تسألينى عنها؟

- أحاول التفكير فى من قد تكون لديها ضغينة ضدنا.

- ولماذا تحمل لكم ضغينة؟ لقد عاملتموها بأفضل مما تستحق. هى ليست بالأقصر وقد أخبرنى أحمد أنها ذهبت للعيش مع الراهبات فى أسيوط.

- ماذا؟ ليلى تصبح راهبة؟ضحك سليم قائلا:

- لا أعتقد أنها تجرؤ على التحول للمسيحية ولكنها كانت امرأة متطرفة يا ست.

- قد يكون هذا السلوك قولا للتحول من تطرف إلى تطرف آخر.

- يفعل الناس ذلك أحيانا. هل أتحرى عنها يا ست؟

- لا عليك، فقد كانت مجرد فكرة. شكرا لمساعدتكم يا سليم.

- لم أقدم مساعدة تذكر يا ست، ولكن لدى سؤال. هل يمكن أن تطلبى من إمرسون أن يسمح لى بقيادة السيارة إلى الحفل؟

- طول الطريق فوق الجبل إلى منزلك؟ لا يمكن ذلك يا سليم.

- بل يمكن يا ست. لقد قدت السيارة فوق التلال وعبر الصحراء؟ سوف يكون

الحفل فى بيت داوود وهو يقع فى طريق جيد وليس شديد الانحدار، كما أن هناك مساحة واسعة أمام البيت لوقوف السيارة بحيث يمكن للجميع رؤيتها. وعدته وأنا أربت على كتفه:

- سأتحدث مع إمرسون.

(٩)

راقبته مبتسمة وهو يبتعد مسرعا. كان يريد التباهى أمام زوجاته وأقاربه، فلماذا نحرمه من هذه المتعة وهو صديقنا الحميم؟ عندما عرضت الأمر بهذه الطريقة لإمرسون كان مضطرا للموافقة. بعد التأكد من أن السيارة تعمل بكفاءة سمحت له بقيادتها حتى النهر ثم العودة عدة مرات.

كنت قد وعدت كاثرين بتناول الشاى معها فى الظهيرة لأقف على مدى تقدم العمل. ذهبنا إلى الحجرة المخصصة لوالتر حيث وجدته ورمسيس يفحصان قطع الفخار. كانا منغمسان فى العمل فتنحنحت عدة مرات حتى تنبها لوجودى. صاح رمسيس:

- أسف يا أمي. هل أنت هنا منذ فترة؟

- لا يا عزيزى، أشرت له بالجلوس وسألته: هل النص مثير؟

- إنه شديد الإثارة والروعة. إنه لنفس الشخص الذى كشفنا عن منزله مبكرا هذا العام! أنا متأكد أننى رأيت أجزاءً من هذا النص فى مكان ما.

رأى تعبير وجهى فضحك قائلا:

- أعرف أن ذلك لا يعنى لك الكثير.

- بالعكس، إنه رائع. وأنت ياوالتر هل تخليت عن البرديات؟

– لا على الإطلاق. كنت فقط أساعد رمسيس فى البحث عن شظايا أخرى لسجل النسب فذلك يتطلب خبرة معينة لتمييز الكتابة اليدوية على أنها لنفس الشخص.

استمرت أصابعه فى البحث عبر شظايا الفخار فى استعراض مبهر لخبرته لأن القطع كانت بنفس الحجم والشكل.

قلت له:

– هذا رائع ياوالتر. إلى أى مدى وصلت مع قائمة الأبراج؟

– هذه نسختى إذا أردت الاطلاع عليها. وأشار إلى الصفحة.

قلت ضاحكة:

– كأنك تقدم لى نصا بالصينية. ألن تترجم النص لى؟

– حالا، التقط شظية من الفخار واختبرها قائلا:

– نفس الكتابة اليدوية ولكن هذا جزء من قائمة تخص المؤن.

– ليس فى نيتى التدخل فى عملكما. سأذهب إلى القلعة لتناول الشاى. هل هناك رسالة لسايروس منكما؟

قام رمسيس وذهب معى إلى الباب قائلا:

– ما الذى يدور فى عقلك يا أمى. أنت لم تجدى أى توقعات مثيرة أخرى فى تلك البردية كما أفترض؟ بالتأكيد أنت لا تصدقين هذا الهراء، أليس كذلك؟

– بالتأكيد لا، إلى اللقاء إذن.

فكما أوضح والتر، من المستحيل تقريبا مطابقة التاريخ الموجود بالبردية بالتقويم الحديث ولكن إذا أخذ المرء يوم وقوع الحادث لنا كنقطة مرجعية وقام بحصر الأيام منذ ذلك اليوم، فسيكون الأمر مجرد فضول أكاديمى ولن أستطيع معرفته ما لم أقنع أحد الدارسين بترجمة النص لى.

لم يكن إمرسون سعيدا عندما أخبرته بأننى قبلت دعوة كاثرين لحفل استقبال يوم الأحد. كان الحفل الموسيقى قد أزعجه بالفعل فزادت تلك الدعوة من انزعاجه. صاح بضيق:

– لقد بدأ سليم فى عمل الترتيبات للحفل بحيث أصبح لا يعمل بما يساوى قرشا، وداوود بنفس السوء. الآن تقترحين أن أهدر يوما آخر. لن أفعل ذلك وهذا نهائى.

– إذا سمحت لك بأخذ رمسيس ودافيد للعمل معك غدا لتعويضك عن الوقت المهدر؟

– وهو كذلك، قالها بضيق.

وافق والتر أيضا على قضاء يوم فى العمل فى موقع الحفائر وذهبنا جميعا إلى الموقع بما فى ذلك سينيا وجارجرى فى الظهيرة. كان القط حورس يذهب مع سينيا إلى أى مكان والقط "رى" رافقنا أيضا وهو المتخصص فى الثعابين. لم نكن نواجه الكثير من الثعابين لأنها تتجنب البشر عادة.

كنت وحيدة مع القطع المتكسرة حيث وجد الباقون أن العمل فيها شاق وتفرقوا لأعمال أقل مشقة. راقبتهم بحسد لأننى أحسست بالضجر من تلك القمامة.

كانت إيفلين بالظل تحت الساتر بينما كان إمرسون عارى الرأس تحت الشمس الحارقة. وبينما أتجول بناظرىّ لفت انتباهى صوت يشبه صوت حشرة. تلفّت حولى بحثا عن مصدره وظهر رمسيس من وراء الجدار ونظر للسماء وهو يضع يديه بالقرب من عينيه. قمت واقفة على قدمىّ وأسرعت تجاه إمرسون، ورفع الآخرون رؤوسهم يحملقون فى دهشة بينما كانت الطائرة تحلق عاليا وتتجه إلى النهر. صاح إمرسون:

– ما الذى تنظرون إليه؟ ألم تروا طائرة من قبل؟

(١٠)

كان أغلبهم قد شاهد الطائرة من قبل أثناء أحداث الشغب فى الربيع حيث كانت تلقى بالوراق فى أنحاء البلاد، تحذر من أن من يرتكب أعمال التخريب سوف يُضرب بالرصاص. لم يكن غريبا إذن أن تعود الطائرة تجاهنا مما أثار الصراخ وانبطح بعض الرجال فوق الأرض. دائما ما كانت الطائرات تثير أعصابى، فعندما تكون فى السماء تبدو غير حقيقية، وكأنها حشرة غامضة فى حالة طيران بأجنحة ساكنة.

فى هذه المرة كانت تحلق منخفضة فوق رؤوسنا لدرجة رأيت معها العلامات الدائرية الزرقاء والبيضاء والحمراء على جناحها ورأسى شخصين يبرزان من جسم الطائرة ويلبسان الخوذة. رفع أحدهما يده لتحيتنا. رعد صوت إمرسون:

– اللعنة، ما الذى يعتقد هذا المعتوه أنه يفعل؟ رد رمسيس:

– يريد الهبوط على هذا الجانب من النهر.

أسرع رمسيس وامتطى صهوة جواده، وأسرع بالجواد إلى الطريق المؤدى إلى النهر. سألت نفرت:

– إلى أين هو ذاهب؟

أسرع إمرسون هو الآخر بالسير تجاه الجياد وهو يقول:

– ليرشدهم إلى مكان مناسب للهبوط كما أفترض. لماذا لا يهبطان فى البر الشرقى حيث توجد الصحراء منبسطة؟ لا أفهم.

هتفت بهم:

– انتظرونى. فقد كان دافيد ونفرت قد امتطيا الجياد.

(١١)

أحسست بأن مساعدتنا لهم ضرورية. كانت المساحة المنبسطة بين الأرض المزروعة والتلال تمتلئ بالأحجار والمقابر والخرائب. فكم من المساحة تلزم لطائرة لكى تهبط؟ لا علم لى ولكن الطريق الرئيسى السياحى كان يمثل أفضل الأماكن المحتملة. عندما وصلنا إلى الطريق كانت الدائرة تحلق فى دوائر مرة أخرى ورمسيس يحاول إبعاد الحمير والمركبات والجمال والناس بعيدا عن منطقة مسطحة وهو ما لم يكن سهلا. تمكن فى النهاية من إخلاء جزء من الطريق الرئيسى وإن ظل على جانبيه عدد من النظارة.

– هذا ربما يكون كافيا. قال ذلك وهو يصرخ بالعربية باللعنات لسائق أحد الجمال الذى كان يقترب من الطريق.

سأل إمرسون:

– ما الذى ينتظره؟ رد رمسيس:

– شىء يتعلق بالرياح. ثم قام بالتلويح بكلتا يديه بإشارات معينة لقائد الطائرة لأنه عند قدومها هذه المرة بدأت فى الهبوط. لامست العجلات الأرض واتجهت الطائرة نحونا مسرعة. وأخيرا توقفت الطائرة على الأرض.

صاح إمرسون:

– لم يصب أحد والحمد لله. سوف يكون لى حديث مع هذا المعتوه لأعرف ما يعنيه بذلك.

وقفت الطائرة على بعد عدة مئات من الأقدام. أحسست إحساسا غامضا بأن أمرا سيحدث وتقدمت تجاه الطائرة.

عندما وصلت إلى الطائرة كان الطيار قد خلع الخوذة. انتظر الرجل الثانى فى المقعد إلى أن رآنى قادمة فصاح:

- أميليا، ها أنت ذا. سعدت صباحا. زمجر إمرسون:

- أنت!

- هل كنتم تنتظروني؟

- ليس على هذا النحو.

ابتسم سيثوس ولكن وجهه كان ممتقعا على غير العادة وكما لو أن شخصا قد ضربه على وجهه ضربا مبرحا. صاح قائلا:

- كنت متعجلا فقام روب بتوصيلي. ملازم طيار ويكنز، أقدم لك السيدة إمرسون وزوجها البروفيسير.

رددت قائلة:

- ليس الآن. أخرج من هذه الآلة اللعينة في الحال.

حاول سيثوس الخروج مادا يده إلى إمرسون وهو يقول:

- ساعدني يا أخي فأنا متعب قليلا.

الفصل الثامن

(١)

اعتذر الملازم ويكنز بأدب عن دعوتى لتناول الشاى معنا قائلا:

– لا أستطيع ترك الطائرة دون حراسة يا سيدتى وإلا جردها هؤلاء الشحاذون من كل شىء يمكنهم حمله. كما أن على أن أبدأ فى العودة. سأتلقى تعنيفا من قائدى لغيابى بدون أمر ولسرقة طائرة ملكية. وقف كالطفل المذنب. لم يكن عمره يتعدى التاسعة عشرة أو العشرين.

قلت له:

– أرجو ألا يوقعك ذلك فى المتاعب.

– لا أستطيع أن أرفض طلب بادجر يا سيدتى ولم تكن لتفوتنى هذه الرحلة مقابل الدنيا.

لحق بنا الآخرون، ليا تحمل القط "رى" والقط حورس فى سلته. صاح والتر بدهشة:

– بادجر؟. غمزته ليسكت بينما قال الشاب:

– سأحتاج إلى وقود هل بإمكانك مساعدتى؟

كان يوجه حديثه لإمرسون على أنه قائد الجمع الذى حوله، ولكن إمرسون كان يساعد أخيه الذى كان ممسكا بذراعه وبالتالى رد رمسيس:

- نعم بالطبع. سوف يحل الظلام بعد قليل. أليس من الأفضل أن تنتظر حتى الصباح؟

- الأمر شديد السهولة، عليّ أن أتبع مسار النهر حتى القاهرة وكلما أسرعت كلما كان ذلك أفضل.

- سيقوم سليم بذلك.

كان سليم يتفحص الطائرة بإعجاب. كان قد رآها من قبل فى فلسطين خلال هجرتنا إلى غزة، ولكنى أعتقد أن هذه هى المرة الأولى التى يرى فيها طائرة على الأرض. كآلة لها ماكينة.

صاح سليم:

- ما الذى تريده يا رمسيس؟

أفلتت من سيثوس تأوهات خافتة فقلت:

- من الأفضل أن يذهب بادجر إلى البيت. أرجو أن تسمح لنا يا حضرة الملازم. سيبقى الرجال لمساعدتك. قال له سيثوس:

- كان ذلك جميلا منك يا صديقى.

قال إمرسون:

- سأكون معكم بعد قليل. ثم قام بمساعدة أخيه على امتطاء جواد سليم.

عند وصولنا للبيت أدخلت سيثوس إلى حجرتنا ليغتسل وطلبت من فاتيما إعداد الشاى، أوحيت للجميع أن يتفرقوا ولكن إيفلين كان عليها أن تسحب والتر سحبا، وبالطبع كان جارجرى يتنصت لدى الباب.

عاد سيثوس من الحجرة بسرعة وقد غسل وجهه ويديه وإن ظل مرتديا زى الرائد بالجيش المصرى الذى كان فى حالة مزرية. قال لى:

– أعرف أننى أبدو كالشيطان يا أميليا، ولكن لا داعى لأن تحاضرينى، فلم أكن باستطاعتى الحلاقة لأسبوع كامل. لقد أحضرت بعض الملابس معى ولا شىء أكثر.

سألته:

– ما الذى حدث لوجهك؟

جلس فى مقعد وقال:

– احتككت ببعض الأشخاص الذين ظنوا أننى لا يجب أن أكون بالمكان الذى كنت فيه.

– تفعل ماذا؟

– لا عليك، ثم مال للأمام وسألنى "أين هى؟".

– لقد توظفت كمرافقة لسيدة عجوز وحفيدها المختل عقليا وهم يقيمون بدهبية بالأقصر. لم تتغير تعبيرات وجهه وقال:

– هذا لا يناسب اختياراتها. ما لذى حدث لزوجها الغنى؟

– المضاربات غير الواعية جردته من ثروته. مات وتركها بلا مال.

– أنت تتكتمين شيئا يا عزيزتى فما هو؟

حضر جارجرى حاملا صينية وضعها على المنضدة. رددت قائلة:

– أعتقد أنه من الأفضل أن تعرف التفاصيل من مريم. صببت له قدحا من الشاى وأنا أقول، ولكن ليس هنا، وكان قد شرب القدح. وصببت له آخر، وقال:

– أعتقد أنك قد رتبت الأمور جميعا.

– بالتأكيد وليس من المستحسن أن تذهب أنت إليها فليست هناك ضرورة أن تراك مخدومتها أو تعرف بعلاقتك بها حاليا. سأذهب إلى الأقصر وأحضرها معى.

– أسيكون غدا موعدا مناسبا؟

– لا تقل لى بأنك خائف من المواجهة. من الأفضل حسم الأمر بسرعة. نحن فى حالة زحام هنا وأنت ستحتاج إلى خصوصية. لذا فمن الأفضل أن تقيم فى الدهبية أميليا. ستكون مستريحا فيها فقد قامت فاتيما بإعدادها جيدا.

(٢)

لم يستغرق الأمر أكثر من دقائق قليلة لشرح الترتيبات لفاتيما ثم تركت سيثوس بالدهبية خاصتنا وأخذت طريقى إلى الدهبية إيزيس. صاحبنى أحد المراكبية ليأخذنى عبر النهر. لم أكن أرتدى الملابس المناسبة لزيارة اجتماعية، ولكننى لبست قبعة مناسبة وحملت مظلتى وعبرت اللوح الخشبى إلى إيزيس، وأطلعت الحارس على هويتى ودخلت إلى غرفة الصالون.

تم تقديم الشاى لى وجاء الجميع، جستن ومريم والسيدة فيتزروويس والطبيب الذى كان الوحيد الذى أظهر سروره لرؤيتى.

نظرت السيدة فيتزروويس بتفحص إلىّ ويداها فوق عصاتها، كما لو أنها ملكة تتفحص كلبا ضالا. قلت لهم:

– أعتذر عن تطفلى ولن أمكث طويلا، فقد جئت لأسأل إذا كان بإمكانى اصطحاب الآنسة أندرهيل لقضاء الأمسية معنا. لقد وصل صديق قديم على غير توقع ويجب أن يراها.

ندت تنهيدة خافتة من مريم. لم تتغير ابتسامة الطبيب ولم تتحرك السيدة فيتزروويس. لست ممن يرتبكون بسهولة ولكنى بدأت أشعر بعدم الراحة لطول الصمت الذى خيم على الجميع.

أخيرا تكلمت السيدة العجوز:

- لا أسمح للآنسة أندرهيل بالغياب. لقد كانت تعرف عندما قبلت الوظيفة أننى أتوقع منها التواجد طوال اليوم.

- تقصدين أنها لم تتمتع بيوم أو بساعة لنفسها منذ أن التحقت بخدمتك؟

كانت لهجتى ناقدة وبدا لى أن هذا الشرط شديد الإجحاف.

ردت السيدة فيتزروويس:

- هذا صحيح. رددت قائلة:

- ولكن بالنظر إلى أنها كانت شديدة الإخلاص فى تواجدها طوال الوقت ألا يمكنك التنازل عنها لعدة ساعات؟ سأكون شاكرة لك وسأعيدها بعد العشاء.

وفجأة وبلا مقدمات انفرجت أسارير السيدة فيتزروويس عن ابتسامة واسعة وقالت:

- حسن، إذهبى لإحضار فبعتك يا آنسة أندرهيل. القبعة اللطيفة التى أهدتها لك السيدة إمرسون.

وقفت مريم على قدميها ببطء. كانت بلا شك قد عرفت شخصية الصديق القديم وكان رأسها المطأطئ وكتفاها المنحنيتان يوحيان بأنها قررت مواجهة أبيها. صاح جستن بدهشة:

- سآتى أنا أيضا. رددت قائلة:

- يؤسفنى ذلك؟ قاطعتنى السيدة العجوز قائلة:

- لا يا جستن. فأنت لست مدعوا. اعترض جستن:

- ولكنها مجرد خادمة. لماذا لا يمكننى الذهاب؟ أريد أن أرى السيدة إمرسون الجميلة والأطفال والقطط.

انفتح الباب ودخل أحد الحراس وهو يلهث:

- يوجد أحد السادة..؟

كان إمرسون قد دخل ويدفع الحارس عن طريقه:

- أقدم اعتذارى يا سيدتى. لقد جئت لاصطحاب زوجتى.

كان ظهوره المفاجئ قد غيّر المناخ السائد بالحجرة. لم يكن قد استبدل ملابس العمل ولكن فى ملابسه المعتادة التى يرتديها أثناء العمل،

نظرت إليه السيدة فيتزرويس بنفس النظرة المتفحصة ولكن باهتمام أكبر وقالت:

- ألن تبقى يا بروفيسير أنت وزوجتك لتناول الشاى؟

رد قائلا:

- لا. أشكرك ولكن ليس لدينا وقت. لقد كان من سوء السلوك أن تُقحم زوجتى نفسها عليك، أين الفتاة؟

(٣)

كانت مريم قد خرجت من الحجرة لتأتى بالقبعة ولكنى لم أكن مستعدة للمجازفة بأن تراوغنى فاندفعت بعد وداعى السريع للسيدة العجوز وأخذت إمرسون معى.

لم يجدد جستن طلبه بأن يذهب معنا بل انسحب ووقف وظهره للجدار. قال إمرسون.

- هو لا يحبنى.

- لقد كان مصمما على الذهاب معنا إلى أن جئت أنت، أين ذهبت الفتاة؟ سننتظر هنا عند رأس المعدية حتى لا تهرب منا.

- أتعتقدين أنها ستهرب؟

– لا أعرف يا إمرسون، ولكنى أفضل ألا أجازف.وهذا هو سبب قدومى إلى هنا قبل أن تعرف بخبر وصول الزائر الغامض فى الطائرة. ما الذى جعلك تقتفى أثرى؟ أجاب:

– أردت التأكد من أنك ستذهبين إلى حيث قلت يا بيبودى.

– ألا تثق بى؟ أجاب إمرسون:

– ولا بمقدار ذرة.

تجول بنظره حول المرفأ ملاحظا الفخامة البادية وطاقم المركب الذين بادلوه نفس نظرات الفضول. قال ملاحظا:

– لا بد وأن السيدة العجوز شديدة الثراء. لقد أحاطت نفسها بكل سبل النعيم. لم أتعرف على أى من رجال الطاقم ولكنهم أقوياء، أليس كذلك؟

– من جزر الكنارى كما أعتقد وقد استأجرتهم مع القارب.

عندما جاءت مريم كانت تلبس القبعة ذات الزهور وقد غسلت الطلاء من على وجهها وفردت شعرها فبدت شديدة الصغر ومذعورة. أعطاها إمرسون ذراعه وطمأنها.

تركنا إمرسون عند الدهبية الخاصة بنا لأنه لا يطيق المشاهد العاطفية وتوقع أن يكون اللقاء حارا. جلست مريم فى الصالون حيث كان الخادم ينظف المكان والأثاث من التراب. أعلن قائلا:

– كل شىء معد يا ست الحكيمة. محمود مستعد. قلت له:

– حسن جدا، وأين الرجل؟

– فى غرفته يا ست. هناك ماء ساخن ومناشف.

أشرت لمريم أن تجلس وذهبت لإحضار سيثوس. كان قد اختار نفس الحجرة

التى أقام فيها عندما كان مريضا بالملاريا. كان يقف لدى النافذة ينظر إلى النهر. قلت له:

- إنها هنا. سأترككما وحدكما. رد قائلا وهو يواجهنى:

- لا، أرجو أن تبقى.

- لا تكن جبانا. هل أنت خائف منها؟

- أنا خائف من أن أقول ما لايجب قوله.

وافقت من باب المجاملة ولكنى كنت أود معرفة ما سيقولانه لبعضهما، فمن المرجح أن يحتاجا إلى وسيط.

قام خادم بتقديم الشاى وأخبرته بأنه يستطيع الذهاب فخرج. بعد برهة قصيرة كانت مريم تجلس خلالها برأس مطرق وسيثوس واقفا لا ينطق، قلت لأقطع الصمت:

- ألا تصبين الشاى من فضلك يا مريم؟ ضعى بعض اللبن فقط لى. والدك يفضل الليمون عليه بغير سكر.

قامت بتنفيذ التعليمات ميكانيكيا وأومأت لسيثوس أن يأخذ القدح منها. نظرت عندئذ فقط إلى وجهه وهمست:

- لقد تغيرت. رد قائلا:

- إلى الأسوأ. ولكن لا يمكن قول ذلك بالنسبة لك. لقد أصبحت امرأة جميلة.

- مثل أمى؟. رد بهدوء:

- لا، لست كأمك على الإطلاق. سأجيب على سؤالك يا مريم فى الوقت المناسب وأعوضك عن كل أخطاء الماضى. ألا نستطيع الحديث الآن للتعرف على بعضنا بصورة أفضل؟

(٤)

أكسبتها تلك العبارات مزيدا من الثقة فابتسمت قائلة:

– وما الذى نتحدث عنه؟

– نتحدث عنك. حمل إلى قدح الشاى ثم جلس إلى جوار ابنته.

– لقد أخبرتنى السيدة إمرسون عن وضعك الحالى. هذا لا يمكن أن يستمر.

– هل أخبرتك بأن الصبى شديد الارتباط بى والاعتماد علىّ وأننى قد أعطيت السيدة فيتزرويس كلمتى بأن أظل معها طالما كانت تحتاجنى؟

– سنجد من يحل محلك.

– ثم ماذا؟ هل ستأخذنى لأعيش معك ومع آخر عشيقاتك؟

رد سيثوس بهدوء:

– المرأة التى تشيرين إليها هى رفيقتى العزيزة وسوف تصبح زوجتى ما إن أفلح فى إقناعها بقبول عرضى للزواج.

– وهل رفضت الزواج بك؟ لماذا؟

– هى لا تعتبرنى رجلاً يمكن الاعتماد عليه. ولا أعرف لماذا.

التفتت إليه ببطء ففتح ذراعيه وأخذها فى أحضانه.

كان المنظر مؤثرا. وضعت قدحى على المائدة ووقفت قائلة:

– سأترككما وحدكما الآن. لديكما كل ما تحتاجانه كما أعتقد.

نظر إلىّ سيثوس قائلا:

– كل شىء متوافر. شكرا يا أميليا.

كان الجميع ينتظرونني بالشرفة وكان عليّ أن أظهر الإعجاب بست أو سبع رسومات للأطفال قبل أن يذهبوا لرسم المزيد وكنت قادرة على إشباع فضول البالغين. جاءني إمرسون بكأس من الويسكي بالصودا. قلت لهم:

– كل شيء كان على ما يرام. عندما تركتهم كانت تبكي في أحضان أبيها. كانت الانطباعات متباينة. أضاء وجه إيفلين وتنهد إمرسون وتمتم دافيد وليا بكلمات التهنئة ولكن لم تتغير ملامح رمسيس الذي قال:

– أجد صعوبة في تصور سيثوس كأب شغوف. ماذا الآن يا أمي؟ رددت قائلة:

– لقد قمت بكل الترتيبات. سيتناولان الغداء في مكان إقامة سيثوس وبعد ذلك سيصطحبها إلى القارب إيزيس حيث ستقدم استقالتها. أعتقد أنه من الأفضل لها أن تأتي إلينا حتى نضع خططا نهائية بالنسبة لها. إن لدي بعض الأفكار لها ولكن لا أريد إفساد لقائهما بالاقتراحات.

ساد الصمت بدلا عن الأسئلة التي توقعتها منهم فقلت:

– أرجو ألا تكون قد صادفتكم مصاعب في جعل الملازم ويكنز يقلع بطائرته بأمان.

رد رمسيس:

– لقد أقلع بأمان ولكن وصوله إلى القاهرة يعد أمرا آخر. إن مدى هذا النوع من الطائرات يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة ميل ولكنه يعتبرها مناسبة. لقد كان يحمل كميات إضافية من الوقود. نظر إلى نفرت وقال:

– أليس من الواجب أن يخلد الأطفال للنوم؟

لاحظت والآباء يتبادلون القبلات والأحضان بسرعة مع أطفالهم تمهيدا للذهاب إلى الفراش أن شيئا قد حدث ولا يريدون مناقشته أمام الأطفال. تواترت على مخيلتي الكوارث المحتملة واحد تلو الأخرى، أن يكون سليم مثلا قد تمزق بمروحة الطائرة، أو

أصيب سايروس بأزمة قلبية أو مات برتى بالسم تاركا خطابا بخط يده يعترف فيه بانتحاره.... ولكن ذلك غير معقول فهو أعقل من ذلك حتى مع شكى فى أنه يكتب شعرا عن الانتحار.

(٥)

كانت سينيا آخر المغادرين، تبعها القط حورس وخرج القط "رى" من تحت المقاعد وذيله يتمايل. صحت أنا:

– لا تتركونى معلقة يا إمرسون، لقد حدث شىء مريع وأعرف ذلك. هل هو سايروس أم من؟

رد إمرسون:

– لا شىء من هذا القبيل يا بيبودى. يجب أن تتعلمى كيف تتحكمين فى خيالاتك. لقد وجدت جثة، بقايا أحد الأشخاص.

– أهى لأحد نعرفه؟

– هذا هو السؤال. تعتقد الشرطة أنه ليس مصريا. لقد سألوا نفرت أن تأتى إلى الضبطية لفحص العظام.

– وأين وجدت العظام؟

– فى الصحراء شرق الأقصر.

– فى هذه الحالة سأخبر فاتيما أن تقدم العشاء على الفور. فأنا لا أريد أن أركب الجواد مرة أخرى هذا اليوم.

– لا تحتملين الصبر على رؤية جثة، أليس كذلك؟ أقلعى عن هذه الفكرة يا بيبودى؟ فيمكن الانتظار إلى الغد فلن تذهب الجثة إلى أى مكان.

كما شرح رمسيس أثناء العشاء، كان تحديد جنس الجثة والسلالة التى تنتمى لها ممكنا من قطعة القماش التى وجدت مع العظام. أبديت دهشتى لقدرة الشرطة على الاستدلال وطلبها لخدمات نفرت. كان بمقدور الشرطة أن توفر على نفسها المتاعب بالتخلص من بقايا الجثة بدون إبلاغ السلطات البريطانية.

استطرد رمسيس قائلا:

– مفتش الشرطة جديد فقد أحيل المفتش القديم إلى المعاش منذ عدة أشهر. إبراهيم عياد صغير السن وطموح وذكى بحيث لا يثير المشاكل إلا إذا كان متأكدا من استنتاجاته.

كانت لى استنتاجاتى الخاصة ولكن مع مثل المفتش عياد كنت لا أريد التورط بالقفز إلى النتائج، ولو كان الآخرون يشاطروننى نفس الشكوك، فلم يقولوا ذلك. كنت قد قررت أن أقوم بزيارة خاطفة لمكان إقامة سيثوس قبل مصاحبة نفرت إلى الأقصر، ولكن لم يكن ذلك ضروريا. حضر سيثوس إلينا مع أول ضوء للنهار. أسرعت بارتداء ملابسى وذهبت للشرفة، حيث وجدت فاتيما وقد قدمت له القهوة. كانت السحجات على وجهه قد تحولت إلى اللون الأصفر المخضر وأصبحت لحيته طويلة. قلت له:

– سيتم تقديم الفطور حالا.

– قالت لى فاتيما ذلك. اجلسى يا أميليا ولنراقب شروق الشمس معا. لا بد وأنك تقدرين ما ترمز إليه السحب الباهتة وهى تغسل زرقة السماء.

كان المنظر نفسه هو الذى طالما راقبته مع عبد الله من مكان أعلى. لم أنخدع بالرمزية، وقلت له:

– هل تصالحت مع مريم؟

– لقد قضينا ساعات عاطفية معا. إنها امرأة صغيرة يانعة. أليست كذلك؟ أنا لا أتذكر أنها بكت أبدا بهذا الشكل.

– لديها مبررات للدموع.

كانت نبرات صوتى تحمل المعنى الذى أقصده أكثر مما حملته الكلمات. رد قائلا:

– قد تكون لديك مبررات لاعتقادك أننى والد سىء، ولكننى كنت أقضى أوقاتا مع ابنتى ما سمحت لى الظروف بذلك. الحقيقة أننى يا أميليا كنت أشعر وكأننى أتحدث مع امرأة غريبة جميلة ومهذبة ومختلفة عن الطفلة المتمردة التى عرفتها بحيث وجدت صعوبة فى تصديق أنها نفس الشخص.

– كان التغير للأفضل، أليس كذلك؟ أومأ دون أن يتكلم فقلت:

– الأطفال يتغيرون بدرجة كبيرة عندما ينضجون لدرجة أنهم يصبحون أناسا مختلفين. انظر إلى رمسيس!.

– هذا مثال رائع. نعم هذه حقيقة. لقد تجاوبنا جيدا وتجنبنا الموضوعات الحساسة مثل كون أمها قاتلة.

– سوف تواجه هذا الأمر إن عاجلا أم آجلا.

تحدثت بحدة. وكانت السخرية هى أسلوب دفاعه أمام العاطفة ولكن كان الوقت قد حان لأن يتخلى عن هذا السلاح فى مواجهة ابنته. قلت مستطردة:

– عليك أن تُخرج ذلك للعلن وتضعها على الطريق الصحيح. لا أعتقد أنها عرفت القصة الحقيقية.

– يبدو أنها عوقبت. لقد تحدثت بعرفان جميل عنك.

– وهذا سبب آخر لتنقية الجو. أستطيع أن أقوم بذلك إذا أردت. رد قائلا:

– أنت أفضل منى فى هذا الخصوص. تعرفين كيف تصححين مسار الناس!

وعدته قائلة:

– ساجد الفرصة المناسبة لذلك. إذن أنت أعدتها إلى إيزيس.

- نعم، كانت السيدة العجوز قد أوت إلى الفراش لذلك لم أقدم نفسى. سأجىء بمريم وحاجياتها اليوم وأعود بها إلى الدهبية.

- لن يكون من المناسب لها أن تقيم معك بالدهبية.

- لوجه الله يا أميليا، إنها ابنتى.

- هل تريد أن يعرف كل من بالأقصر ذلك؟

هرش ذقنه وقال:

- لقد تعبت من اختراع أسماء جديدة لى وخطط غير معقولة يا أميليا. فيما يتعلق بمخدومتها فأنا سأدعى أننى صديق قديم لوالدها. مريم تقول أن السيدة العجوز ضعيفة التركيز وبالتالى فهى لن تسأل أسئلة غريبة، وإن كانت الأقصر بكاملها سوف تفعل. لقد قررت أن أكون الرائد هاملتون مرة أخرى ولكن سابقا بالطبع. هناك فرصة فى أن يتذكر أحدهم مريم على أنها موللى، وهذه هى أسهل طريقة لشرح اهتمامى بها.

قلت وأنا أنظر إلى شعره:

- كان هاملتون أحمر الشعر.

- لقد أصبح شعرى رماديا للأسف، السنوات تستوفى نصيبها.

(٦)

تقدم إمرسون عبر الباب قائلا:

- هل كل شىء على ما يرام مع الفتاة؟

- نعم، كان ردى مختصرا، لأننى أعرف أنه لا يريد إيضاحات.

- هل الإفطار جاهز؟ رد قائلا:

- نعم، كما أفترض. بالطبع لن يجدى أن أسألك عدم القدوم إلى الضبطية.

- هذا صحيح. وسيكون من الأفضل أن يصحبنا سيثوس لأنه على دراية جيدة بالجثث.

كان رد فعل سيثوس على موت مارتنللى مجرد رفع الحاجبين والصمت. لم أستطرد فى سرد الحقائق المجردة كما لم يُفتح الموضوع أثناء الإفطار.

سألت إيفلين عن مريم وقام والتر بمحاولات لمعرفة اسم سيثوس الحقيقى وتحدث رمسيس عن إعجاب سليم بالطائرة قائلا:

- كان يربت على الطائرة كالعاشق وسأل الملازم عن مدى صعوبة قيادتها.

معظم الأجانب لا يتعاملون مع الشرطة المحلية لأنهم لا يخضعون للقوانين التى تحكم المصريين. والشرطة المحلية بأنحاء مصر تقع تحت ولاية مدير من الوطنيين. كنت قد زرت الضبطية (قسم الشرطة) فى الماضى لكننى اندهشت اليوم من التغير الذى حدث فى شكلها، فقد أصلحت السلالم والنوافذ، ووقف اثنان من الكونستبلات فى زيهما الأبيض وكان الضابط الذى هب واقفا عندما أدخلنا عليه مكتبه دليلا آخر على التغير. كان أطول من معظم المصريين وله شارب ولحية مهذبين جيدا ورغم أنه قام بتقبيل يدى الممدودة إلا أننى لاحظت نظرة السخرية فى عينيه. قال لى:

- هذا شرف لم أتوقعه يا ست الحكيمة. قلت بالعربية:

- لم أقاوم فرصة مقابلة رجل يمتدحه الجميع. أضاف إمرسون:

- سلام الله عليك ورحمته وبركاته.

وبعد انتهاء الرسميات، بدأ الحديث قائلا للرجل وهو يقدم له نفرت:

- لقد قابلت ابنى وهذه زوجته وهى طبيبة وهذا صديق، قال ذلك وهو يقدم له سليم.

نظر إليه الضابط عياد للحظات ثم التفت إلى نفرت قائلا:

- أشكرك على الحضور. لقد أمرت بإحضار الأشياء إلى هنا فالمشرحة ليست مناسبة بالنسبة لسيدة.

كان من الممكن أن تقول نفرت أن خبرتها بالمشرحة أكبر من خبرته ولكنها قبلت المجاملة بابتسامة.

كانت الحجرة متسعة ومليئة بالأثاث وبها مكتب كبير واثنين من الدواليب الخشبية، وبجوار النافذة منضدة طويلة مغطاة بملاءة قطنية. وبدون إنذار كشف عياد الملاءة.

(٧)

فى مصر، تركُ جسد بدون دفن يعرضه لعوامل التحلل والكلاب البرية والذئاب بحيث لا يبقى منه سوى العظام العارية. عندما انحنت نفرت على الجثة قال عياد:

- كانت العظام مبعثرة وبعضها لم نجده بالرغم من البحث المضنى.

- لقد وضعت العظام بالترتيب الصحيح ويدهشنى أنك وجدت كل هذه العظام، وإن كانت عظام اليد والقدمين غير موجودة وهذا أمر معتاد فى مثل هذه الحالات. أخرجت شريط قياس من جيبها وقالت.. بدون القدم يمكننى فقط تقدير طوله.

اقترب عياد متسائلا:

- وما تقديرك لطوله؟ أجابت:

- توجد جداول للنسب يمكننى إطلاعك عليها.

- لقد قلت طوله كيف عرفت أنه رجل؟

– ولكنك تعرف ذلك، ابتسمت له ثم أضافت:

– من ملابسه، السروال الأوروبى والمعطف، كما قيل لنا.

– نعم وهى فى هذا الصندوق. ولكن هناك طرق أخرى – من العظام نفسها.

أعطته محاضرة قصيرة وأنصت إليها ورأسه قريب من رأسها.

– الجمجمة توضح أن الجثة لذكر، أترى تلك العظام الناتئة فوق محجر العين؟ لا تكون بهذا البروز فى النساء وكذلك فالزاوية الخاصة بالفك أكثر استدارة.

– والعمر؟

– ليس بصبى وليس بالرجل العجوز، وهذا مجرد تخمين يرتكز على الأسنان، فالقواطع الأربعة الخلفية بها آثار تآكل. لا أستطيع إخبارك بالمزيد، فلم تترك الذئاب شيئا لفحصه.

كانت تتكلم بالإنجليزية وكان يرد بنفس اللغة. كان الوقت يمر وبدأ إمرسون يتململ. قلت لهما مجيبة على سؤال لعياد:

– يكفى لتحديد شخصية المتوفى النظر إلى أسنانه. إنه مارتنللى.

أثبتت قطع الملابس الباقية صحة كلامى. كان النسيج المخطط من نفس طراز البنطلون الذى كان يرتديه مارتنللى ليلة اختفائه. الأشياء الأخرى بالصندوق كانت عبارة عن بعض الأزرار والدبابيس المعدنية المستخدمة فى الملابس. كان دبوس ربطة العنق وساعة الجيب ذات السلسلة غير موجودين بالطبع، ولا الأساور ولا العقد.

وصل سيثوس ليحل لنا مشكلة ماذا نفعل بالعظام. قدم نفسه على أنه من معارف الرجل المتوفى محاولا إخفاء صدمته وأسفه على الخبر قائلا:

– كم حذرته من جولاته الطويلة على الأقدام، كان قلبه ضعيفا ولا بد وأنه انهار ومات بالخلاء تحت ضوء القمر ولن يمر وقت حتى نلحق به. ولكنه فى سلام الآن.

(٨)

بعد أو وعدنا بجمع العظام وإبلاغ السلطات، غادرنا المكتب. أبديت ملاحظتى قائلة:

– هذا يضيف بعدا جديدا للأحداث. مارتنللى لم يغادر الأقصر. لا بد وأنه قتل فى نفس ليلة اختفائه. قال إمرسون:

– أنت لا تعرفين ما إذا كان قد قتل. كان يدرك أن استنتاجى صحيح ولكنه لم يرغب فى الإقرار بذلك. فقلت:

– رجل من طرازه ليس من عادته التجوال وحديا. لقد أخذه البعض إلى ذلك المكان بالقوة أو بالاحتيال وتركوه ميتا. وفى رأيى هناك شبهة قوية فى أنها عملية قتل. أما بالنسبة لضعف قلبه فأنت قد اخترعت ذلك أليس ذلك صحيحا؟

قابل سيثوس نظرتى بابتسامة وهز كتفيه قائلا:

– لم تكن هناك حاجة لخلط الأمور. فبالنسبة للسلطات، الأمر مجر حادث أليم. كيف مات يا نفرت؟. رددت باضطراب.

– لم يفتك الكثير.

قال سيثوس:

– إن لوجهك تعبيرات موحية يا عزيزتى. هناك شىء يتعلق بعظام الرقبة، أليس كذلك.

– بعض العطب، ولا يمكننى الاعتراف بذلك تحت القسم ولكن يبدو أنه شُنق. لكن من المستحيل تحديد ما إذا كانت الكسور حدثت قبل أو بعد الموت، أو مات بالسم أو طعنا بالسكين أو ضربا بالرصاص. أمسكت بيدها وربّتّ عليها قائلة:

– فلنذهب إلى فندق سافوى لتناول قدح من الشاى. أسرع إمرسون بخطواته

قائلا:

– لدى عمل لأنجزه ويجب أن نخبر سايروس وأترك ذلك لك يا بيبودى. رددت قائلة:

– لا نعرف ما إذا كانت السرقة هى الدافع للقتل. رد إمرسون مقاطعا:

– أى دافع آخر يمكن أن يكون وراءه؟ كان يمكن للفلاحين الذين وجدوا الجثة أن يأخذوا كل شىء له قيمة، ولكن من الأرجح أنه سُرق من شخص كان قد أطلعه على المجوهرات خاصة أنه كان يختال بها فى المقاهى والبارات. كانت قيمة الجائزة عظيمة بدرجة يسيل لها لعاب أكثر لصوص الأقصر تحفظا لارتكاب جريمة القتل. حقيبة السفر التى كان يحملها ربما ترقد فى قاع النهر مليئة بالحجارة. اختتم إمرسون كلامه وأمسك يدى بقوة وأسرع بى عبر واجهات المحلات بالطريق المطل على النهر.

ميله الواضح لعدم إكمال النقاش لم يمنعنى من التكهن. كانت نظريته صحيحة ولكن ماذا حدث لمجوهرات الأميرات؟ هل لا تزال فى بيت اللص فى مخبأ سرى مثل ذلك الذى اكتشفه عبد الحميد تحت أرض بيته؟ هل تم بيعها لأحد التجار بالأقصر؟ هذا لا يبدو لى محتملا لأن المجوهرات مميزة وملكيتها وأصلها معروفين للكافة. هل تم عرضها للبيع لأى مشترٍ؟ كنا سنسمع بذلك عاجلا أم آجلا، وعندها كان إمرسون سينقض على البائع كالرعد. ربما كانت نظريتنا الأصلية هى الأصح: إن الكنز قد تم نقله إلى القاهرة وإن لم يكن ذلك بواسطة مارتنللى.

(٩)

جلست فى الشرفة بعد الظهر انتظر وصول سيثوس وابنته. ووجدت صعوبة فى التركيز، فقد طافت أفكارى هنا وهناك ما بين ما الذى سأرتديه عند حضور الحفل الموسيقى وقائمة طعام الغداء لهذا اليوم والتى كنت قد رتبتها مع فاتيما وقطعة الفخار التى وجدتها اليوم وهى جزء آخر من القطعة التى سببت حرجا لرمسيس. كان إظهار

الأعضاء السفلى فى هذه القطعة مثيرا للدهشة ولكن رمسيس رفض مناقشة ذلك معى. ركزت أفكارى على الأمور الهامة. لم تسنح لى الفرصة لإخبار سايروس عن مصير مارتنللى. لم أكن متعجلة لمقابلة آل فاندرجلت حيث لم نكن قد قررنا ما الذى سنقوله لسايروس عن سيثوس. كان الثلاثة يعرفون بقرابته لإمرسون وكان سليم هو الوحيد بالأقصر الذى يعرف، ولا أدرى ما إذا كان يعرف أن مريم هى ابنة سيثوس. أم كان يعرف؟ كنا قد تركنا سيثوس بالأقصر حيث أخبرنا أنه سيشترى بعض الأشياء الضرورية قبل اصطحابه لابنته. توقعت قدومهما قبل الآن ولكن ربما لم تسر الأمور كما خطط لها سيثوس فلربما أثارت السيدة فيتزروبس بعض المشاكل وإن كان من المؤكد أن جستن سيفعل.

كان إمرسون أول من لحق بى وسأل:

- أين الجميع؟

- سيكونون هنا حالا فانا أتوقع وصولهم. وصل الجميع فيما عدا سيثوس ومريم. بدأ الأطفال يلحون فى طلب الشاى فأمرت فاتيما بتقديمه. تساءلت سينيا:

- أليس من الواجب انتظار ضيوفنا؟

- كيف عرفت أننا ننتظر ضيوفا؟ أجابت:

- أخبرتنى فاتيما. هل أحدهم السيد بادجر الذى جاء بالطائرة؟ أجبتها:

- إنها مفاجأة.

لاحظنا قدوم العربة من بعيد. توقفت أمام البيت وخرج منها سيثوس الذى انقض على دافى الذى جرى تجاه السيارة. رفع سيثوس الصبى الصغير لأعلى:

- ومن يكون هذا الرجل الصغير المغامر؟ ضحك دافى فسلمه سيثوس لرمسيس والتف الأطفال حول سيثوس وسألته إيفى:

- ما الذى حدث لوجهك؟ هل ضربك أحد؟ أجاب سيثوس

– ثلاثة رجال قساة كانوا على وشك الإضرار بقطة مسكينة ولكنى منعتهم. سألته إيفى:

– وأين القطة؟

– فى بيتى وأسميها فلورنس ولها فراء مخطط ووجه أبيض.

صاح دوللى:

– كان ذلك عملا نبيلا منك يا سيدى.

نظر سيثوس برقة إلى الصبى الصغير قائلا:

– لا بد وأنك عبد الله الصغير. كنت أعرف جدك الأكبر جيدا، وهو كان سيفعل نفس الشىء. قلت للأطفال:

– لماذا لا ترسمون صورة لفلورنس؟

تفرق الأطفال فيما عدا سينيا التى سألت وهى تحدق فى سيثوس:

– هل هذه قصة حقيقية؟ أجابها بسرعة:

– بالطبع لا. ردت قائلة:

– أنت مضحك. من أنت حقا؟ هل أنت والدها؟ أنا أتذكرها، فقد كانت هنا منذ فترة طويلة. وأشارت إلى مريم التى كانت تجلس بجوار إيفلين وتلبس القبعة التى أعطيتها لها وثوبا جديدا، هو أفضل ما يمكن أن تجده بالأقصر

(١٠)

بدأ سيثوس حوارا معى بينما كانت مريم ترد على أسئلة إيفلين بخجل. والأطفال انهمكوا فى الرسم. تدخل إمرسون فى حوارنا بعد أن جلس إلى جوارى. قال لى سيثوس:

- أنت تنتظرى منى تقريرا كما أعتقد.

- أنتظر توضيحا لما يعتقد كل من بالأقصر أنك هو. ما الذى قلته للسيدة فيتزروييس؟

- لم أتقابل معها، إستوقفنى صبِيّان عند العوامة ولما أعطيتهما بطاقتى أخبرانى أن السيدة تستريح ولكن الأخرى تنتظر، وجاءت مريم ومعها حاجياتها ورحلنا.

- إذن لم تقابل جستن؟

- لمحته فقط ينظر من عند السلم. بدا وكأنه مذعور، وتظاهرت بأننى لم أره.

- وأى بطاقة تركت؟

- بطاقة الرائد هاملتون بالطبع. أنا دائما ما أحمل مجموعة من البطاقات!

- ولكن آل فاندرجلت يعرفون من تكون.

- أعتقد أنه لا يمكن تجنبهم.

- لا أعرف كيف يمكنك ترك الأقصر لعدد من الأيام، فآل فاندرجلت سيقيمون حفل استقبال مساءِ الأحد، وسليم يتوقع حضورك الحفل الموسيقى غدا.

- وهل لا بد أن أحضر؟

- أنت كأخيك تماما. من الأفضل أن تعطى الانطباع بأن هذه زيارة عادية من أحد المعارف القدامى. عادتك أن تأتى تختفى فى أزياء مختلفة تجعل الأمور شديدة التعقيد.

- نعم ولكنها شديدة الإثارة يا إميليا العزيزة.

استمتعنا بالطعام الذى قدمته فاتيما على الغداء وكنت على وشك التوجه إلى غرفة الجلوس إلا أن أحد الضيوف كان قد جاء وكنت أتوقع حضوره. قلت لجارجرى:

- أدخل السيد فاندرجلت إلى غرفة الجلوس وقدم له الويسكى.

كان سايروس شديد الدماثة فبدأ بالاعتذار وبالتحيات، وقال وهو يصافح سيثوس:

- توقعت أن تكون من جاء بالطائرة. كان بوسعى القدوم مبكرا لو أخبرنى أحد بأنك هنا. ما الذى ستفعله فى المرة القادمة، هل ستركب فيلا؟ سألته:

- ويسكى يا سايروس؟

- نعم وأشكرك. ثم حدجنى بنظرة لوم قائلا:

- كيف أعرف الأخبار من آخرين؟ ألم تعودوا تثقوا بى مؤخرا؟

قالت نفرت وهى تجلس بجواره وتضع يدها على يده.

- لم يكن لدينا وقت. هل عرفت لمن تكون الجثة؟ لا تغضب يا عزيزى سايروس. كنا سنقول لك فى الحال لو كنا وجدنا المجوهرات. تمتم سايروس:

- تعتقدون أننى شديد الأنانية إذن. هذا اللعين كان هناك طوال الوقت وأنا أسىء التفكير فيه. رددت قائلة:

- هذا الاكتشاف لا يغير الظروف ولا تقييمك لمارتنللى، لقد أخذ المجوهرات ولا جدال فى ذلك ورغم أننا قد لا نعرف دوافعه. فليس له الحق فى أخذها دون موافقتك.

- هل أنت متأكدة من أنه هو الذى أخذها؟ أين وجدوه؟

- لو أنك تفكر فى القيام بالبحث فى المنطقة فأنا أرجوك أن تتخلى عن الفكرة. قال له رمسيس ذلك ثم استطرد، صدقنى، كنت لأقوم بذلك بنفسى إذا اعتقدت أن هناك احتمالا لو ضعيف أن نجد المجوهرات. لقد كان مارتنللى هو من فعلها، ولو لم يكن قد قتل، لأخذ من اكتشفوا جثته كل شىء له قيمة وجدوه معه.

(١١)

كان سايروس يعرف أنه على صواب ولكنه لم يكن بالرجل الذى يفقد الأمل بهذه السهولة. ظل يطرح الأسئلة ويقترح النظريات وكان آخر ما طلب من سيثوس أن قال له:

– ألا يمكنك عمل أى شىء؟

رد سيثوس:

– لا فائدة من أن يكون لصا محترفا صديق للأسرة إذا لم يستطع فعل شىء.

بادره سايروس معتذرا:

– لم أقصد ذلك.

– بالطبع كنت تقصد. سأقوم ببعض التحريات ولكن لا يغرنك الأمل.

– بالتأكيد سأقدر لك ذلك. انتعشت آمال سايروس الذى قام قائلا:

– من الأفضل أن أعود إلى المنزل وإنى لآسف على قدومى إليكم على هذا النحو. كان يتجنب النظر مباشرة إلى مريم ولكنه ذهب إليها ومد يده لها قائلا:

– جميل أن تعودى إلى الأسرة يا فتاتى الصغيرة. سنراك فى حفل الاستقبال يوم الأحد.

– أشكرك يا سيدى. ثم نظرت إلى والدها فقال:

– نقبل الدعوة بسرور. أرجو أن تبلغ تحياتى وشكرى للسيدة فاندرجلت وإنى لأتطلع للقائها ولقاء ابنها مرة أخرى.

التفت سايروس إلى وقبعته فى يده وقال:

– أخبرتنى كاثرين أن أسألكم إذا كان منكم من يريد الإقامة لدينا فى القلعة. المكان متسع هناك وأنتم مزدحمين هنا.

كنت على وشك أن أقول لسايروس أننى سأفكر فى الأمر عندما تحدثت إيفلين قائلة:

– هذا طيب جدا من كاثرين. أنا ووالتر سنقبل عرضكما للإقامة معكما وسأتحدث مع كاثرين عن ذلك غدا.

انتظرت حتى غادر سايروس ثم سألتها عن سبب هذا القرار.

– ليس من المناسب أن يقيم الضيوف بالبيت لفترة ممتدة. قد لا يقول رمسيس ونفرت ذلك ولكنى متأكدة من أننا نحتل مكانهما. أنا وكاثرين نستمتع بالصحبة معا وهى تشعر بأننا نهملها قليلا.

مال رمسيس إلى الوراء وقال:

– لست مرغمة على تفسير القرار فوجود أى شخص مع أطفالى فى نفس البيت كفيل بأن يسبب له الانهيار العصبى.

كان يضحك وضحكت هى فقلت:

– حسن، ستستريحين منا يا إيفلين لبعض الوقت. الإقامة فى القلعة ممتعة وستشعرين فيها كأنك ملكة.

سألت والتر بعدها عن رأيه فقال إن الأطفال لا يضايقونه لأنه لا يسمع أو يرى أثناء قيامه بعمله، ولكنه قال لزوجته:

– بالتأكيد يا عزيزتى سأتبع ما تقولين. سآخذ البرديات معى فقد أصبحت شديدة الإثارة. تمتمت مريم:

– أخشى أن أكون السبب فى هذه المشاكل كلها. قلت لها:

– على الإطلاق. هذا الترتيب سيناسب كل شخص. تستطيعين الانتقال إلى البيت الآخر غدا. أعتقد أنك متعبة. تعالى وسأريك أين ستنامين الليلة.

(١٢)

لم تكن الغرفة التى تستعمل كفصل دراسى متصلة مباشرة بغرفة سينيا فأبواب الغرفتين تفتحان على الفناء الخلفى للمنزل. كان قد تم إدخال سرير إلى الغرفة وقامت فاتيما بتنظيفها وترتيبها . قلت لمريم:

– أخشى ألا تكن الغرفة شديدة الأناقة ولكنها مؤقتة لهذه الليلة فقط. قالت:

– ليست أفضل مما أستحق. أشرت إليها أن تجلس وقررت طرق الحديد وهو ساخن:

– كنت أريد التحدث معك عن أمك يا مريم. لقد كانت امرأة غير محظوظة وكانت سيئة السلوك وماتت بطريقة عنيفة، ولكن ليس على يدنا ولا على يد أبيك.

نظرت إلى وجهى وقالت:

– أنت لا تؤمنين باللف والدوران.

– لا معنى لذلك. لا أعرف ما الذى سمعتيه عنها ولكنى أود تصحيح الأمر وتذكيرك بأنك لست مسئولة عن أفعالها .

– ألم يكن أبى موجودا عندما ماتت؟

– لا. هل أقول لك ماذا حدث بالفعل ذلك اليوم؟

أومأت بالموافقة وعيناها تتسعان:

– كان ارتباطها بأبيك لاحقا لارتباطها بآخرين على نفس المنوال. سأقول لك الحقائق مجردة دون محاولة للشرح أو الاعتذار، ولكن عليك أن تفهمى أنها لم تحظ بفرصة لحياة أفضل. هذا واقع مؤلم لكثير من النساء ولكن برثا لم تكن من الطراز الذى يستسلم فشكلت تنظيما إجراميا من النساء كان مناصرا لحقوق النساء. ولقد كرهتنى لاعتقادها أن!!؟ قاطعتنى قائلة:

– أن أبى يحبك؟

– هذا صحيح. دفعتها الغيرة فى مناسبات عديدة لمحاولة قتلى. كانت محاولتها الأخيرة فى اليوم الذى أحدثك عنه. أخذتنى سجينة ظهر اليوم السابق ولكن تمكنت من الهرب بمساعدة والدك، وعند خروجى من البيت كانت فى انتظارى وألقى عبد الله بنفسه أمامى واستقبل الطلقات بصدره. قام عدد من الرجال، أصدقائنا وأصدقاء عبد الله، بإسقاطها على الأرض لتجريدها من السلاح. ولا أحد يعرف من ضربها الضربة القاضية. كان انتباهى بكامله متجها إلى عبد الله الذى كان يموت بين ذراعى. لم يسعوا لقتلها يا مريم، ولو لم يمنعوها لاستمرت فى إطلاق الرصاص. قالت:

– عبد الله، جد دوللى الأكبر؟ والد سليم وجد دافيد.. أنتم تحبونه جميعا. أليس كذلك؟

– نعم.

– كان سليم ودافيد موجودان عندئذ؟

– نعم. لو كنت تشكين فى سليم أو دافيد على أن أحدهما قد وجه لها الضربة القاتلة...

– ليس هذا ما قصدته. قلت بنبرة ذهول:

– يا إلهى الرحيم. هل تظنين أن أحداً منا يلومك على أفعال والدتك ويريد أن يثأر؟ أو أن واحدا منا استأجر قاتلا ليهاجمك؟ هذا هراء يا طفلتى. إن أحدا منا لن يفعل ذلك لأن شخصيتك الحقيقية لم تكن معروفة لأى أحد إلى أن وقع الحادث لك. أخرجى هذا من رأسك.

كانت الستائر تتأرجح بعنف وأطلقت مريم صرخة فزع. بينما خرجت منى كلمات السباب للقط حورس الذى كان يتسلق النافذة. توقف قليلا ثم اختفى. كان يبحث عن سينيا. أرجو ألا تكونى تخافين من القطط.

– أنا أحبها كثيرا، وإن لم يكن لدى قط أبدا.

– لا تضيعى وقتك لكسب صداقة حورس فهو لا يحب أحدامنا فيما عدا سينيا ونفرت. لن يزعجك ثانية هذه الليلة. هل تستطيعين النوم الآن؟

– نعم. ثم وضعت يدها على يدى قائلة:

– أشكرك فقد أفرغت عقلى من بعض الأفكار السيئة جدا.

– أنت تصدقينى إذن؟ إنها قصة حزينة ولكن علينا ألا نحكم على الآخرين أو نشعر بالذنب لأفعالهم. كل منا يحمل بضميره ما يكفى بدون أن يحمل ذنوب الآخرين.

(١٣)

تبدت أحلام إمرسون فى العودة إلى برنامج عمله، من البداية كان كل ما يفعله هو الذهاب إلى دير المدينة حيث تنتظره الكثير من الواجبات. بعد الإفطار مباشرة كنت أقوم بمساعدة إيفلين ووالتر فى تجهيز حقائبهم للذهاب إلى القلعة وتجهيز مريم لتحل محلهما. كما طلبت من ليا أن تفحص ملابسها بحثا عن ما قد يناسب منها مريم. تلقت نفرت طلبا بأن تتواجد فى العيادة. وهكذا تبددت قوة العمل التى يريدها. صاح قائلا:

– كم سيستغرق وضع بعض الملابس فى حقيقبة؟

– أنت لا تعرف شيئا عن ذلك يا إمرسون فلا تتدخل. سآتى متأخرة ويمكنك اصطحاب رمسيس ودافيد إذا أردت.

– إذن فلنذهب يا أولاد، فقد ضاع منا نصف الصباح.

كان الوقت لا يزال السابعة صباحا.

تمكنوا من تحقيق بعض التقدم فى فك طلاسم التوابيت المختلفة بشمال القرية والمعبد البطلمي. كان بعضها أفضل حفظا من بعضها الآخر ولكنها كانت تالفة بفعل الزمن وحفريات الهواة وكان الأمر يتطلب مهارة خاصة فى التعامل معها. كان برتى،

أفضل الرسامين فى المجموعة، شديد الأمانة فى عمله. فقد وصل بعدهم بقليل وجعلهم يشاهدون نتيجة عمله لأسبوع بكامله.

صاح إمرسون وهو يختبر الرسومات التخطيطية:

- نعم، هذا يبدو مقبولا. أريد أن أحدد اسم الإله الذى بنى المكان تمجيدا له. أخرج غليونه وأشار به إلى المخطط غير الكامل الذى يبدو وكأنه لمعبد صغير.

كان ذلك فى نظر رمسيس جهد ضائع. لم تكن التوابيت مصنوعة من الحجر وإنما من قوالب الطين التى تم طلاؤها وتلوينها بعد ذلك وقد سقط الطلاء واختفت الألوان. اوضح ذلك لوالده فأجاب بإصرار:

- نقش النذور هذا كل ما نحتاجه حتى ولو آنية من الفخار منقوش عليها صلوات. قد يظهر شيئا فى المنطقة التى لم نستكشفها بعد. الرسومات ليست كاملة. أين الجدار الخلفى؟

لم يكن سليم منصتا. كان يحملق فى السماء الزرقاء وعلى وجهه تعبير غريب. كان يبحث عن طائرة أخرى كما فكر رمسيس. كان على إمرسون أن ينادى عليه مرتين قبل أن يرد.

كان حظ إمرسون فى أوجه؛ فقد وجدوا نقش النذر أو جزءاً منه. كان هدية من تحتمس إلى الملك أمنحتب الأول وأمه أحمس نفرتارى. حمل إمرسون النقش منتصرا إلى الساتر بينما ذهب رجال سليم لتنظيف المعبد.

قال لرمسيس وهو يزيل الرمال من على النقش:

- أين أمك بحق الشيطان. القمامة تتراكم.

وصلت قبل الظهر بقليل وقد أحضرت الطعام الذى نسيه إمرسون وكانت تصحبنى ليا وسيثوس. أسرع إمرسون لمقابلتنا قائلا:

- القمامة.

– نعم يا إمرسون، أعرف. عليك التوقف لتناول الطعام الآن وكما ترى فمعنا ضيف. نظر إمرسون إلى أخيه ثم قال:

– يمكنه مساعدتك، ولكن سيثوس قال:

– ليس اليوم. لقد جئت فقط فى صحبة السيدات وللتجوال. لا يوجد هنا ما يثير الاهتمام. قال ذلك وهو يجول ببصره فى المكان.

– لقد وجدنا الآن دليلا على أن أمنحتب الأول وأمه كانا يُعبدان هنا. شظية من الفخار عليها ذلك. صاح سيثوس:

– هذا مثير. ليته كان تمثالا!! فقال إمرسون:

– لكنت حاولت سرقته.

رد سيثوس قائلا:

– ما تجده أنت يكون بمأمن منى.

لم يشأ إمرسون أن يستطرد فصاح قائلا:

– أين الآخرين؟

(١٤)

بدأت فى إخراج الطعام قائلة:

– قلت لك يا إمرسون أن إيفلين ووالتر ذهبا إلى القلعة ونفرت تكشف على أحد المرضى والأطفال بمرحون كالمعتاد. لقد كنت تحت الانطباع بأنك تريد قضاء وقت أطول معهم. ولكن إمرسو قال:

– لا عليك. نادى للراحة لمدة ربع الساعة.

كانوا لا يزالون يأكلون عندما قدم عليهم سايروس فوق حصانه وممسكا بمظروف في يده. ترجل بسرعة واتجه إليهم.

– تسلمته الآن فقط. إنه من لاكو. ويبدو أنها قائمة بالأشياء التي يريدها أنظر إلى سمك المظروف. لقد أتيت إلى هنا بحثا عن التعضيد المعنوي فليست لدي أعصاب لفتحه. صاح إمرسون:

– تماسك يا رجل، وأخذ المظروف وفتحه.

كانت مجموعة الأوراق بداخل المظروف سميكة الحجم. تفحص إمرسون الصفحات وقال:

– هو يريد التوابيت والمومياوات. كنا نتوقع ذلك. والثوب الذي رممه مارتنللي والصناديق وباقي الملابس والأواني الكانوبية. صاح سايروس في أسى:

– يريدها كلها؟ أومأ إمرسون برأسه بالإيجاب ومستنتجا أن قراءة ما لا يريده لاكو سيستغرق وقتا أقل، ثم قرأ إمرسون:

– نصف الأوشبتي، ثلاثة أوان غير منقوشة من أدوات التجميل، عصا من العاج، قلادتين وخاتمين.

انهار سايروس وسقط على قاعدة عامود. تمتم رمسيس:

– حظ عاثر يا سايروس. وربَّتُّ أنا على كتف الرجل المكلوم. وبعد أن قرأ إمرسون الخطاب المرفق قال:

– هو يقرر أنه كان شديد السخاء. سيكون من حق المتحف الاحتفاظ بكل شيء، ففيما عدا مقبرة تتشيري هذه هي المقبرة الملكية الحيدة التي تم كشفها وليس لدى المتحف إلا قطع قليلة عن هذه الفترة.

– إنها مقبرة أُعيد استعمالها. ألا يغير ذلك من الشروط؟

– لاكو هو الذي يضع الشروط. وهو يطلب أن نبدأ تغليف القطع وسيرسل باخرة

حكومية من أجل شحنها.

سأل برتى:

– ولماذا لا تشحن بالقطار؟

رد رمسيس:

– ستكون رحلة شاقة. لن تتعرض للاهتزاز بالقارب. متى ستصل الباخرة؟

– لم يقل.

– فليرسل باخرته الملعونة. يستطيع الجلوس هنا بينما نقوم نحن بالانتهاء من المهمة التى سننجزها وقتما نشاء.

قام سايروس قائلا:

– لا، فما فائدة ذلك؟ فلننته من الأمر بسرعة. سأعتمد على مساعدتكم يا أميليا. قلت له:

– أحييك على تحملك يا سايروس. سنساعدك جميعا بالتأكيد.

– الآن، انتظرى يا بيبودى. قال إمرسون غاضبا.

– هذا العمل يخص المرأة كالعادة يا إمرسون وعلى الأقل سينزاح ذلك الأمر عن عقولنا. أعتقد أنه لا تزال لدينا مواد التغليف منذ أن نقلنا الأشياء إلى القلعة. سأبدأ غدا مع ليا وإيفلين ونفرت ما لم يكن لديها مرضى.

قال دافيد مبتسما:

– لقد رتبت الأمر كله. همست سينيا:

– وماذا عنى يا عمتى أميليا؟ أنا أجيد هذا النوع من العمل.

– نعم يا عزيزتى. سنأخذ سينيا أيضا لتعمل تحت إشرافنا، حيث يمكنها تداول

الأشياء الهشة وكذلك مريم إذا رغبت.

ألح سايروس قائلا:

- تعالى معى إلى القلعة فى الحال يا أميليا. نستطيع أن نبدأ

- ولكن لدى ارتباط بموعد هذه الظهيرة يا سايروس. إنه الأمر الخاص بعظام مارتنللى.

الفصل التاسع

(١)

لا بد من أن نفعل شيئا حياله. أشرت بذلك لإمرسون مستطردة:

– ليس من اللائق تركه بقسم الشرطة على هذا النحو. لقد سألت الأب بندكت أن يقوم بترتيباته وأن يقابلنا عند المقابر. ولأن مارتنللى كان إيطاليا فأنا أفترض أنه كان من طائفة الروم الكاثوليك. رد سيثوس فى صوت خفيض:

– أشك أنه كان يؤمن بأى شىء بخلاف لذاته الخاصة.

– ربما تاب عن ذلك قبل موته. لا بد من أن نعطيه ميزة الشك. ليس عليكم حضور المراسم، ولكنى أشعر بضرورة وجودى.

قالت ليا وهى تهز رأسها:

– لا أعرف كيف قمت بذلك يا عمتى إميليا. أعترف بطاقتك العظيمة وغرضك النبيل، ولكنى أعتذر عن الحضور. ولكن سايروس قال:

– أعتقد أن من واجبى الحضور وكان يجب أن أقوم بالترتيبات بنفسى.

كان المتطوع الآخر الوحيد هو سيثوس. فى آخر لحظة قرر سايروس أنه ليس مضطرا لإلقاء النظرة الأخيرة على الرجل الذى سرقه. كان عرضه الحضور لكيلا أذهب وحدى، ثم قال لسيثوس:

– عليك بمراقبتها ولا تتركها تندفع للذهاب إلى أى مكان آخر. أجاب سيثوس متهكما:

- ولماذا تعتقد أننى قررت الحضور؟

كانت الكنيسة الصغيرة الواقعة على الطريق إلى معبد الكرنك أفضل حالا مما كانت عليه عندما حضرت آخر جنازة بها. ولأننى استأت من القبور المهملة التى اتخذتها الحيوانات الضالة ملاذا لها، قمت بتشكيل لجنة ترأسها صديقتى مارجورى التى بذلت كل ما بوسعها لتحسين الوضع فأزيلت الحشائس عن القبور وأقيمت الشواهد وإن لم يمكن عمل شىء بخصوص الحيوانات. كان المكان موحشا بالرغم من الزهور الذابلة على القبور من أصدقاء الموتى.

كان القس ينتظرنا ورأسه الصلعاء عارية تحت الشمس. لم يفعل أكثر من ترديد الصلوات. بعد ذلك أخرج سيثوس مبلغا من المال قدمه له قائلا:

- أرجو أن تضيف معروفا آخر بأن تتلو الصلوات على روحه.

بعد أن غادرنا المكان، علق قائلا:

- لو أن أحدا يحتاج هذه الصلوات بشدة لكان مارتنللى.

لم أرد. كنت أفكر فى المقابر الأخرى بالمكان وأتذكر الأحداث التى وقعت لنا مع بعض الراقدين بها مثل ألان أرمادال ولوسيندا بلنجهام، حيث لم أستطع إنقاذهما ولكنى انتقمت لهما (بمساعدة رمسيس). عندما وصل سيثوس إلى بوابة المقابر، أخذته من يده وقدته إلى نهاية المقابر حيث كان أحد الكلاب راقدا فوق إحدى المقابر وما إن رآنا حتى قام وانصرف.

- لماذا أتيت بى إلى هنا يا أميليا؟ سألنى باستغراب.

- أنت لم تزر قبرها أبدا.

- أردت مرة أن أفعل لأقنع نفسى أنها ماتت بالفعل. أعتقد أنك من وضع شاهدا للقبر. اسمها فقط عليه؟ ألم تفكرى فى كلمات مناسبة؟

- توجد كلمات، انحنيت لأمسح التراب عن قاعدة الشاهد. تحت اسمها كانت

الكلمات المكتوبة "فلترقد فى سلام".

أقامنى بعنف وهو يصيح:

- يا إلهى، هذا أمر لا يمكن تصديقه يا أميليا. لقد حاولت قتلك وقتلت أعز أصدقائك. كيف تغفرين لها ذلك؟

انتزعت نفسى من قبضته بسرعة قائلة:

- عقيدتنا المسيحية تتطلب أن نغفر لمن أساءوا لنا ومن السهل أن نفعل ذلك إذا كان من أساء لنا ميتا. ضحك سائلا:

- هل تعرف مريم أن أمها ترقد هنا؟

- لا أعرف. هل ستقول لها؟

- لا. لا أعرف. ألا تتعبين يا أميليا من فحص ضمائر البشر؟ قد أغفر لبرثا ما فعلته لى وأنت لا تعرفين أكثره، ولكنى لا أغفر لها ما فعلته لك أو لمريم. هلا ذهبنا الآن أم لديك ما تقولينه؟

- ليس لك. ثم أخذت ذراعه ورجعنا إلى طريق الخروج قائلة:

- سوف يكون لى حديث مع مريم.

- وهل تعتقدين أنها مسئولة عن الحادث الذى أزعجك؟ .

- طرأ على ذهنى هذا الاحتمال بعد واقعة هاتور المحجبة. كنت قد تجاوزت الصدق فى ذلك فلم تكن مريم فى القائمة التى أعددتها فى البداية، لقد كانت واحدة من عدد من النساء اللاتى يعتبرن أنفسهن قد عوملن بطريقة سيئة من رمسيس.

- يا إلهى الرحيم. لم تذكرى لى ذلك من قبل. هل يجب أن أواجه رمسيس بمحاولته إغواء ابنتى؟

- أنت لا تصدق أن رمسيس سيستغل فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها. إنها

هى التى حاولت إغواءه ولم يقبل هو ذلك.

– بالطبع لأنه سيدٌ مهذب. ولكن ألا يكون دافعها لذلك أن تثأر لأمها؟

– ناقشت ذلك معها وأعتقد أنها فهمت الحقائق جيدا. كما أنه من المستحيل على فتاة فى هذا العمر أن تخطط هذا التخطيط المعقد. من المؤكد أنها لم تكن هاتور المحجبة لأن أقرب ظهور لها كان عندما كانت مريم مع رمسيس. ولقد أخبرتنى السيدة فيتزروويس أنها كانت بالأقصر عندما ظهرت هاتور فى المرة الأولى.

كانت العربة التى استأجرناها تنتظرنا بالطريق. ساعدنى على الركوب. قلت له:

– سنناقش ذلك فيما بعد فى حضور الجميع.

(٢)

أرسل إمرسون الرجال إلى بيوتهم مبكرا. ذهب رمسيس إلى العيادة التى كان بها مريضان ينتظران أحدهما فتاة حامل فى الرابعة عشرة من العمر والآخر طفل يسعل بشدة وبلا توقف. كانت نسرين معهما ترتدى كابا أبيض على رأسها.

قالت لرمسيس:

– إنها مشغولة جدا ولكنى سأدعك تدخل.

– هذا طيب منك، دخل إلى العيادة. ولدهشته كان المريض هو داوود. نظر مبتسما بينما قالت خديجة زوجته:

– مرحبا رمسيس. قل لهذا الرجل العنيد أن يجعل نفرت ترى يده. لقد أرغمته على المجىء إلى هنا. قالت نفرت بعد أن عاينت يده:

– ستحتاج إلى خياطة. كيف حدث ذلك؟ ردت خديجة:

– ترك أحدهم حجاباً أمام البيت وداوود الأحمق التقطه. اعترض داوود قائلا:

– كان حجابا جميلا من الفضة وبه فصوص حمراء. كنت سأسأل عمن يكون قد فقده. ولكن عندما أقفلت يدى عليه، قطعها.

– وماذا فعلت به؟ ردت خديجة؟

– دفنته. لقد كان مقدسا ولكنه انكسر. كان حادا من على الجانبين وكأنه موس.

أمسكت نفرت بمشرط واقتربت من الجرح قائلة لها:

– ما فعلتيه كان صوابا. يوجد بالجرح شيء معدنى. تماسك يا داوود. أخرجت الشيء المعدنى الذى كان يشبه الإبرة وصاحت:

– يا إله السموات. لا بد أن ذلك آلمك جدا. لماذا لم تأت إلىّ هنا مباشرة؟

– وضعت على الجرح قليلا من المرهم.

– ربما هذا ما منع الإصابة بعدوى. الآن عرفت لماذا تخلص صاحب ذلك الشيء منه، دعنى أتأكد من عدم وجود قطع مكسورة أخرى بالجرح.

جلس داوود بينما هى تنظف الجرح وتخيطه قالت لخديجة وهى تعطيها صندوق ضمادات.

– عليك بتغيير الضمادات كل يوم.

– شكرا لك.

بعد أن عقمت نفرت الأدوات ووضعتها بعيدا سألها رمسيس:

– كيف تشعرين بعد عودتك للعمل؟

– إحساس رائع. كان يجب أن أفعل ذلك من فترة طويلة.

أدخلى المريض التالى يا نسرين. سألها رمسيس:

– هل بإمكانى المساعدة؟

- شكرا لك، إذا أردت أن تفعل شيئا مفيدا، اذهب والعب مع الأطفال.

كان الأطفال متجمعين فى الفناء. رحبوا بقدومه وأسرعت إليه ابنته فاتحة ذراعيها. التقطها ونظر إليها قائلا:

- أمك مشغولة مع رجل مريض، ولكن الطفلة كانت تريد تسلق كتفيه. قالت له ليا:

- لقد جئت فى الوقت المناسب. كالعادة، يترك لنا الرجال المهام الصعبة.

قال دافيد:

- أنا لا أفعل ذلك. كان يزحف على يديه وركبتيه وإيفى راكبة فوقه.

(٣)

بدت النساء وكأنهن قد مررن بوقت عصيب، شعر ليا كان غير منسق وإيفلين تميل على الكنبة وعيناها مغلقتان، وسينيا غير موجودة. كانت مريم قد انشغلت بمراقبة دوللى الذى كان يجلس بجوارها وقد وضعت يديها حوله. نظرت من فوق الكتاب الذى كانت تطالعه وابتسمت لرمسيس الذى سألها:

- أين الباقين؟

ردت عليه:

- كانت كاثرين هنا لتناول الغذاء، وقد ساعدت فى تسلية الأطفال لفترة ووالتر منشغل ببردياته ووالدتك تحضر جنازة وكذلك سيثوس. وأعتقد أن والدك عند حفائره اللعينة.

دخل إمرسون من الباب، ثم تأكد من إغلاقه جيدا قبل أن يتجه نحو الأطفال، وأسرعت تشارلا لجدها فسألها:

- هل قضيت وقتا ممتعا؟

ردت إيفلين:

– لقد كان الأطفال فى غاية النشاط، ثم وقفت وقالت:

– ما قولك فى ركوبهم الحمير؟

كانت صيحات الفرح من الأطفال رائعة وبدأ إمرسون فى تنفيذ برنامج ركوب الحمير. عندما وصلت أنا وسيثوس صاح إمرسون:

– جئتما فى الوقت المناسب لتساعدانى، ما الذى أخّركما هكذا؟

– لقد توقفت لدى العيادة لأرى ما إذا كانت نفرت تحتاج لمساعدة.

نظر سيثوس لابنته التى كانت تخطو بجوار إيفى ممسكة بها وهى فوق الحمار. كان من الواضح أنها تستمتع بذلك بقدر استمتاع الأطفال

قال دافيد لزوجته ليا:

– لقد وعدت مريم بدرس فى ركوب الخيل. لقد كانت رائعة مع دوللى.

ردت مريم:

– هو صبى لطيف والقراءة له تسعدنى فهو ينصت بإمعان ويسأل أسئلة ذكية وأنا لا أستحق المكافأة كما أننى أخاف من الجياد.

رد والدها:

– وهذا سبب كاف لتعتادى عليها. أليس كذلك يا أميليا؟

– بكل تأكيد، فجيادنا مسالمة جدا ومدربة جيدا.

قال رمسيس:

– سأعطيها درسا بدلا منك يا دافيد فلقد مكثت مع الصغار وقتا أطول منى. قال دافيد:

– لن أرفض فأنت أفضل منى كفارس.

قالت مريم:

– سأرتدى الثياب الملائمة إذن.

قالت لها ليا:

– لا تجعليهم يرغمونك على ركوب الجياد إذا كنت لا ترغبين، ولكن يمكنك استعارة ملابس الركوب الخاصة بى. لا أعرف كيف ستلبسين حذاء الركوب الخاص بى، فقدميك صغيرتان. ربما يلائمك حذاء سينيا أكثر.

(٤)

ذهب رمسيس إلى الإسطبل حيث وجد والده وسيثوس يتفحصان الخيول، وفى لحظات وصلت الفتيات ولم تكن مريم سعيدة بالحصان "عصفور"، حيث قالت:

– إنه شديد الضخامة ألا يوجد جواد أصغر حجما؟

رد رمسيس:

– الجياد العربية أصغر من سائر السلالات وعصفور لن يجمح حتى لو أوقدت نارا تحته.

سألت مريم مشيرة إلى فرسة:

– وماذا عن هذه الفرسة؟ إنها شديدة الجمال.

كانت مهرة بيضاء تماما ومسالمة كقطة وديعة. رد إمرسون:

– لا أعرف، فهى صغيرة السن وكثيرة الوثب.

– ألا يمكننى ركوب هذه الفرسة، فهى تحبنى.

كانت الفرسة تمسح صدر مريم برأسها. رد رمسيس:

- إنها تبحث عن هدية. وأعطى مريم قطعة من السكر لتضعها في فم الفرسة. الأمر على ما يرام يا أبي، فقد دربت فليوسين جيدا وبإمكانها استعمال سرج نفرت.

قام الرجل المسئول عن الإسطبل بوضع السرج على الجواد ريشة وعلى الفرسة وعلى حصان إمرسون ليركبه سيثوس. قام سيثوس بمساعدة الفتاة على الركوب.

سار الجميع بالجياد ذهابا وجيئة عدة مرات ثم أخذوا الطريق إلى القرنة. استرخت مريم قائلة:

- هذا ممتع هل نستطيع الإسراع قليلا؟ رد رمسيس:

- ليس في هذا الزحام؛ حيث كان الطريق مزدحما بالعربات والمارة.

كانوا كلما اقتربوا من الكورنيش زاد عدد الناس الذين يقابلونهم. وفجأة تركت فيلوسين الطريق وجنحت إلى اليسار، إلى الصحراء الواسعة. كانت تركض بسرعة، فأسرع رمسيس وراءها وسار بجوارها. كانت مريم قد تركت العنان من يدها وتشبثت بالسرج. مال رمسيس تجاهها ووضع يده حول خصرها صائحا:

- خلصي قدميك من الركاب.

كانت قد تخلصت من الركاب بالفعل. حملها على صهوة جواده الذي توقف عن السير. عندما أيقن سيثوس أن ابنته في أمان، انطلق في إثر المهرة الشاردة. همست مريم لرمسيس:

- أنت تؤلمني.

- اعذريني، لا بد أن أمسك بك جيدا.

- أعرف. كانت تميل بجسدها على كتفه وتنظر إليه بوجه مكفهر من الحر والتراب. قالت له:

– شكرا لك، هل الفرسة بخير؟

– لقد أمسك بها والدك يا مريم. أنا شديد الأسف، فلا أعرف لماذا جمحت بهذا الشكل، فهى لم تفعل ذلك من قبل.

– لا بد أن أقول لك شيئا، فلم تسنح لى فرصة الحديث معك على انفراد.

– الأمر ليس كما تعتقد. أريد أن أسألك المغفرة عن اليوم الذى جئت فيه إلى غرفتك وحاولت أن.....، لقد سببت لك الحرج وكنت بلهاء، ولكنى كنت فى الرابعة عشرة. رد قائلا:

– إننى لم أكن أستحق كل ذلك العناء.

– أنت رجل رائع وأى امرأة ستكون فخورة بصداقتك، أنت تغيظنى، أليس كذلك؟

– قليلا. لقد نسيت الأمر كله يا مريم.

– عندما رأيتك مع نفرت عرفت أنكما خلقتما لبعضكما. الآن أريد أن نكون أصدقاء. أبناء عمومة. ألا نستطيع؟

– نحن كذلك بالفعل. وصل سيثوس وهو يقود المهرة.

– هل أنت بخير يا مريم؟

– نعم يا سيدى والفضل لرمسيس. رد سيثوس:

– لقد كان مشهدا رائعا. تفحص رمسيس المهرة وقال:

– إنها تبدو هادئة الآن. لا أستطيع معرفة ما الذى أثارها.

لفت سيثوس انتباهها إلى آثار دماء على جانب جسم فيلوسين.

– هذا ما أثارها. جسم حاد مزق جانبها. وضعت مريم يدها على فمها قائلة:

– إنه الرجل. لقد رأيته قبل أن تجمح بى مباشرة. إنه نفس الشخص الذى هاجمنى من قبل.

(٥)

قلت لمجلس الأسرة الذى انعقد:

- حادث آخر يضاف إلى القائمة.

كنت قد أصررت على حضور الجميع حيث قد يكون لدى أحدهم معلومات لا يعرفها الآخرون. جلست فاتيما غير مستريحة فى مقعدها، فهى تفضل أن تتجول وتوزع الطعام. لم تكن خديجة موجودة، فهى لا تحب الحديث فى وجود جماعة. كان رمسيس يذرع الحجرة جيئة وذهابا ويداه معقودتان خلفه.

- يبدو أن لدينا أحد الوطنيين ومعه بندقية؟ قال سيثوس:

- آلة قاذفة، تستخدم طريقة دفع معينة. المقذوف كان حادا كالمسمار المفلطح وقد انغرس فى لحم المهرة.

شربت قليلا من كأس الويسكى، وقرأت من القائمة:

١- سرقة المجوهرات وقتل مارتنللى.

٢- هاتور المحجبة فى القاهرة.

٣- إغراق المركب.

٤- مهاجمة مريم.

٥- الظهور الثانى لهاتور.

٦- الهجوم الثانى على مريم.

قال إمرسون:

- القائمة ليست كاملة. لقد اتفقنا على أن تتضمن كل حادث غير عادى حتى لو كان له تفسير منطقى.

– أحسنت يا إمرسون، وهذا هو السبب فى إصرارى على حضور كل شخص لنتأكد من عدم إغفال أى شيء. أرجو أن تسمحوا لخيالكم بالعمل ولا تمتنعوا عن أى تكهنات مهما كانت مستحيلة.

ما إن وضعتهم على الطريق حتى توالت المقترحات. الطلقة التى لم تصب سليم. جرح داوود بواسطة الحجاب – والعقرب فى بيته – حتى ثعبان الكوبرا فى دير المدينة. صحت قائلة:

– يا إلهى الرحيم، إما أن خيالنا قد جمح بنا أو كنا كتومين بصورة فردية. وأنا أعترف بعدم رؤيتى لشكل محدد. رد دافيد:

– بافتراض صحة أن كل هذه الأحداث مرتبطة ببعضها، يبقى أمر معين وهو أن من هوجموا هم سليم وداوود ومريم.

– هذا غير عادى، هذه الهجمات موجهة لنا. بالطبع نحن نتأثر بأى خطر يصيب أحدا نحبه. قال إمرسون:

– هذه خبطة، أليس كذلك يا بيبودى؟ أسلوبك المفضل فى الإيقاع بالمجرمين هو استثارتهم حتى يهاجموك. لقد بالغنا كثيرا فى هذه الأمور، حتى هاتور المحجبة كانت تريد مجرد؟؟ رد رمسيس بسرعة:

– ما هى العلاقة الممكنة بين مريم وداوود وسليم.

– أعترف بأننى لا أجد قاسما مشتركا. فلنجرب شيئا آخر. ما الذى نعرفه عن العدو؟ رد رمسيس:

– إنه يمتلك بندقية وقناص ماهر، وهو ما يشير إلى أنه رجل ولكن هاتور المحجبة كان امرأة. أخشى أن هذا المسار مغلق أيضا. قد يكون هناك عدد من الأشخاص مشتركين فى هذه الأعمال.

– عصابة، يا لها من فكرة. أنا أفضل التعامل مع المجرمين كأفراد.

تجولت مريم بنظرها فينا وهى تقول:

- كيف تتحدثون بهذا الهدوء عن هذه الأمور؟

كانت نفرت هى التى أجابت:

- هذه هى طريقة أمى الخاصة. هى تتوقع منا جميعا الهدوء وعدم الانفعال. هل أنت متأكدة يا مريم من أنك لا تفكرين فى أحد معين يريد الإضرار بك؟ لا أريد التطفل على حياتك الخاصة ولكن!!

ردت مريم:

- لو أردت أن أسرد كل تجاربى خلال السنتين الماضيتين بالتفصيل فالإجابة بالنفى. رد سيثوس بحدة:

- ولا أنا.

قلت أنا:

- نحن نبحث عن قاسم مشترك، عن حافز يشرح العداء لداوود وسليم. لم تكن مريم بمصر خلال الفترة.

اغتنم الآخرون فرصة صمتى ليواصلوا النقاش الذى لم يصل إلى نتيجة.

قال رمسيس:

- لا بد وأن هناك صلة ما بين تلك الأحداث، ولكننا لم نجدها بعد. صرح سايروس:

- أنا بالتأكيد لا أرى هذه الصلة. هل يناسبك يا أميليا أن ننصرف الآن؟

- نعم وإذا فكرت فى شىء لم نذكره، خذ به ملحوظة.

- لقد وضعنا كل شىء فى القائمة - فيما عدا الإصبع الذى جرحته - فوق قطعة من الورق.

كان مخطئا كما كنت أنا.. فقد أغفلنا حدثا محددا يمكن أن يكون هو مفتاح الحل لكل هذا الغموض.

(٦)

بينما كان رمسيس ونفرت يسيران عبر الممر الظليل إلى المنزل، كانت أوراق شجر الوانسيانا والميموزا تصدر حفيفا كما لو كانت تتحاور بلغة غير معلومة. كان القط "رى" يسير أمامها ويتوقف أحيانا دون إنذار ويحملق فى الظلال. أحيانا كان ينطلق انطلاقة مفاجئة إلى الشجيرات وأحيانا كان يجلس إلى أن يصلا إليه. قالت نفرت وهى تمسك بذراع رمسيس:

- نحتاج إلى ضوء أكثر هنا.

- أو قط أفضل تدريبا. يبدو أنه وجد شيئا أرجو ألا يكون ثعبانا.

- لقد آوت الثعابين إلى جحورها الآن، لا تجهد نفسك بالصراخ فيه يا رمسيس فسوف يتجاهلك.

- توقف لحظة.

- لماذا؟

أراها السبب فقد سحبها إلى أحضانه وراح فمه يداعب وجهها إلى أن وصل إلى شفتيها اللتان انفرجتا مرحبتين ودافئتين وغمست يدها فى شعره. وقال هامسا:

- لا تبدأ شيئا ما لم تكن مهيئا لإنهائه.

- أستطيع إنهاءه فى أى وقت ولكن لنجلس هنا لبعض الوقت. الليلة بديعة ولا تتاح لنا أوقات نقضيها منفردين كثيرا.

حملها وجلس على مقعد قريب واحتضنها بقوة. أثار النسيم خصلة من شعرها تجاه خده فانغمس فى تقبيلها وهو يقول لها ما يحسه، وكانت ترد عليه بكلمات لا يسمعها غيره.

فجأة قطعت اللحظات الشاعرية صرخة حادة. قام رمسيس بسرعة وأقام نفرت على قدميها ودفع بها إلى الخلف منه وهو يتجه ناحية الشجيرات:

– من هناك؟ حاول إخراج خنجره ولكنه أدرك أنه لا يحمله.

– لا تؤذينى، أنا آسفة.

جاءت من خلف شجيرة فى الظلام ولكنه كان قد عرفها من صوتها. صاحت نفرت، اللعنة. قال رمسيس للفتاة :

– لن أؤذيك. كان يفضل مواجهة مسلحة عن الحرج البالغ الذى أحس به، فكم مضى عليها من الوقت وهى تتنصت!

قالت مريم معتذرة:

– لقد كان القط هو السبب. كنت أتمشى فى هذه الليلة الجميلة ولكنى فوجئت به يقفز فوقى ففزعت. أنا آسفة.

كان القط يتبعها وذيله يتأرجح بنشوة المنتصر. قال رمسيس:

– لم يحدث شىء، ولكن يجب ألا تتجولى وحدك ليلا.

– أنا آسفة ولن أفعل ذلك ثانية.

– طاب مساؤك. قالتها نفرت، فانطلقت الفتاة ويدها على وجهها.

قبع القط تحت قدمى نفرت فقالت وهى تربت عليه:

– نعم، أحسنت صنعا، كم سمعت كما تعتقد يا رمسيس؟

– كانت ستسمع أكثر لو لم ينقض عليها القط وربما كانت سترى أكثر. أشعر كأننى أبله وغبى.

– لا. لم تكن كلماتك كلمات أبله يا عزيزى. دعنا ندخل البيت الآن.

– نعم، قط لعين.

– ولكنه كائن رائع بالرغم من ذلك.

سبقهم القط إلى المنزل وفتحا له باب المطبخ ليدخل. همست نفرت:

– نعم، إنه قط جميل وعديم الجدوى كذلك. هل لك فى قدح من اللبن؟

أجاب القط بمواء وتثاءب. ضحك رمسيس وأمسك بنفرت من خصرها قائلا:

– إلى الفراش إذن لإنهاء ما بدأته، ما لم تكونى متعبة. كم كنت أود ألا تفتحى العيادة فقد أجهدت نفسك فى العمل.

– أنا أحب ذلك ولكن العم سيثوس يرهقنى.

– كنت أعتقد أنك على وفاق معه. ثم أغلق رمسيس باب غرفة النوم وجلست نفرت إلى منضدة الزينة وبدأت فى خلع البنس من شعرها وهى تقول:

– هو يسير بين السيوف المشرعة، وهى تتبعه أينما ذهب.

– هذا ينطبق علينا أيضا. لقد سار إلى سيوفنا المشرعة هذه المرة.

(٧)

تباطأت نفرت بعض الشيء فبادرها بالقول:

– متى يتم حل الأمور، دارت فى ذهنه الأمور جميعا، قضية مقتل مارتنللى، العثور على المجوهرات المفقودة، التعرف على المجرم الذى أغرق مركب داوود والمرأة المجنونة التى تعتقد أنها هاتور، لم تجب نفرت فاستطرد قائلا:

– لماذا لا نبتعد لعدة أيام، نحن الاثنان بمفردنا؟ ردت نفرت وهى تفتح أحد الأدراج وتخرج ثوبا للسهرة.

– ونترك الأطفال؟

– هناك دستة من البشر يرعونهم.

فى تلك اللحظة، شق السكون صوت صرخة ففزعت نفرت وأسقطت الثوب على الأرض. التقط رمسيس القميص الذى خلعه ولبسه مسرعا وهو يقول:

– سأذهب.

كانت تشارلا تعانى من كابوس. كانت دادة التوأم إليا تنام معهما فى نفس الغرفة. كانت امرأة على درجة كبيرة من الذكاء ويحبها التوأم ولكنها كانت لا تستطيع التعامل مع تشارلا وهى فى هذه الحالة. كانت تقف لدى باب الغرفة عندما وصل رمسيس. أمسك بالطفلة واحتضنها فأمسكت به بشدة. همس لها:

– لا عليك يا حبيبتى، فأنا هنا.

كان الباب مفتوحا وسمع صوت خطوات مسرعة فالتفت متوقعا رؤية نفرت ولكنها كانت مريم وقد بدا الاهتمام على وجهها. لم تكن قد ارتدت شيئا فوق ملابس النوم. سألت رمسيس:

– ما الخطب؟ لقد سمعتها تصرخ، ما الذى أستطيع عمله؟ ردت نفرت:

– لا شىء، عودى إلى فراشك يا مريم أو ارتدى بعض الملابس. كان صوتها فى رأى رمسيس حادا بصورة غير ضرورية.

ابتسم لمريم قائلا:

– كان رقيقا منك الحضور مسرعة للنجدة، وكما ترين لقد أصبحت بخير الآن.

ذهبت نفرت إلى دافى الذى كان جالسا فى فراشه وقد وضع يديه على أذنيه، فقد كان ينام بعمق وساءه أن يوقظه صراخ أخته. عندما رأى أمه أشار بيده إلى النافذة.

سأل رمسيس: – هل رأت شيئا ينظر من النافذة؟

كان يعرف أنه لن يحصل على إجابة من أى منهما ولكنه تمسك بالأمل. كان يضايقه فى أوقات كهذه بطؤها فى الكلام. وسواء أكانت تحلم أم لا، فإن الشىء الذى رأته كان حقيقيا، وكان باستطاعته التعامل معه بصورة فعالة لو استطاعت أن تخبره عنه.

بدأت تشارلا فى تجاوز ما كان يعد الأسوأ واستجابت لمداعبات دافى ولطمأنة والدها. ناولته إليا منديلا مسح به عينا الطفلة ثم سألها مداعبا:

– أخبرى بابا بما حدث. أخبرته بإشارات موحية عن شىء يتعلق بالنافذة الذى كان فراشها تحته مباشرة ولكن من المؤكد أنها كانت تحلم، فالنافذة عليها قضبان ومغطاة بالستائر.

أزاح رمسيس الستائر ونظر عبر النافذة. كانت على النافذة شبكة لمنع الحشرات من الدخول. لم ير سوى ضوء القمر على التلال البعيدة.

– لقد جعلته يذهب بعيدا ولن يعود مرة أخرى. لا شىء يستطيع إيذاءك، نامى الآن. حصل على قبلة مبللة منها وتعلق دافى برقبته ثم احتضن والدته ومد ذراعيه لمريم التى قبلته فسارع إلى إغلاق عينيه.

(٨)

كانت الكوابيس قد بدأت منذ فترة قصيرة ويعانى الأطفال من تلك الظاهرة عند ذلك العمر ثم يتغلبون عليها فى النهاية.

ولكن رمسيس أدرك عدم معقولية أخذ إجازة رومانسية فى ظل تلك الكوابيس المرعبة. استغرق الأمر بعض الوقت لتعود نفرت إلى المزاج الذى كانت عليه قبل الحدث. كانت مستاءة من شىء ما، كان يعرف الإشارات وإن لم يعرف لماذا.

كان الحفل الموسيقى سيبدأ فى المساء ولكن إمرسون قرر ألا يذهب إلى دير المدينة فى الصباح. كان سليم وداوود والآخرون مصممين على أن يكون أروع حفل تشهده القرنة. كانت القرية بكاملها مشغولة ولا أحد فيها لديه الرغبة فى العمل ذلك اليوم. وقفت السيارة أمام البيت متألقة بعد أن أمضى سليم يومه فى تلميعها.

بعد الإفطار جمعت أفراد الأسرة وأخذتهم إلى القلعة لكى يبدأوا فى تغليف المتعلقات الأثرية ولم أقبل عرض إمرسون بالمشاركة وقلت له:

– سوف تقف ساخطا طوال الوقت. وقال سيثوس أن لديه أشغالا فى الأقصر.

كان سايروس مستعدا حيث أخرج مواد التغليف من المخزن ونقلها إلى غرفة العرض وكان أحد النجارين المحليين يقوم بصنع الصناديق الخشبية. أدرك رمسيس لماذا يريد سايروس الانتهاء من تلك المهمة. كان عذابا له أن يرى كل هذه الآثار الرائعة متجمعة لديه وهو يعرف أنها ستختفى من أمامه. نظريا كان رمسيس يؤمن كوالده بأن الكنوز المصرية تخص مصر ولكن نظرات سايروس الملتاعة جعلته يتمنى لو أن لاكو كان أكثر كرما.

بدأ التغليف بالأشياء الصغيرة غير الهشة، كالأوانى الحجرية والمعدنية حيث تم لفها بالقطن أو القماش مع طبقات من القش بأسفلها وكذلك من فوقها. عند امتلاء أحد الصناديق كان برتى ودافيد يغلقانه بالمسامير بإحكام. كانت مهمة رمسيس وضع قوائم لمحتويات كل صندوق وتساعده فى ذلك ليا.

كانت المهمة أسهل هذه المرة لأنهم قاموا بها من قبل ولكن الاحتياطات الإضافية كانت ضرورية لرحلة طويلة وتداول غير آمن. الصناديق التى تحتوى على آثار قابلة للكسر مثل الخزف والفخار كانت تغلق بالقلاووظ بدلا من المسامير.

لم تكن مريم قد شاهدت المعرض من قبل. كانت تتنقل من منضدة لأخرى وهى مشدوهة. وكأى امرأة، كانت المجوهرات تستبقيها أمامها. حملقت فى سايروس تسأله:

– كيف تتحمل أن تذهب تلك الأشياء؟

رد قائلا:

- لا خيار لى فى الأمر يا عزيزتى. خذى وقتك، فلن تستطيعى رؤية أشياء كهذه مرة أخرى.

- أعتقد أنه لم يكن منصفا على الإطلاق عندما لم يترك لك ما هو أكثر. رد برتى:

- أعتقد ذلك أنا أيضا. أى قطعة من المجوهرات تحبينها أكثر؟

بللت شفيتها بلسانها ومدت يدها ثم سحبتها سريعا. ضحك برتى قائلا:

- تستطيعين لمسها فهى لن تنكسر، ما رأيك فى هذا القرط؟

- إنه رائع، ولكنه ضخم. وأشارت بأصبعها لخاتم قائلة. هذا جميل.

كان الخاتم أقل الموجودات روعة فهو عبارة عن حلقة من الذهب بسطح مستوٍ حفرت عليه صورة امرأة جالسة وعلى رأسها تاج. قال لها برتى:

- جربيه، وأخذ يدها ولكنها صاحت، لا، لا أستطيع. رد قائلا:

- إن لك يد صغيرة وأصابع نحيفة وهى تناسبه.

(٩)

لاحظ رمسيس أننى أراقبهما بابتسامة. كانت كاثرين قد عبرت عن أملها فى أن يكون اهتمام برتى بالفتاة مجرد إعجاب وتعجب رمسيس فى أن تكون أقل تحيزا بالنسبة لابنة غير شرعية للص ولقاتل. لم يكن يلوم برتى على علاقته الغير ضارة بالفتاة، فقد كانت مريم فتاة جميلة ومن الواضح أنها تستمتع باهتمام برتى. رفعت يدها لاغلى وهى تنظر بإعجاب إلى الخاتم فى إصبعها. قالت سينيا لها وكانت تراقبهما هى الأخرى:

– هذا الخاتم ليس فى جمال ولا روعة الخواتم الأخرى. أنا أحب هذا الخاتم الذى به فص من العقيق ولكنى لن أجرب وضعه فى إصبعى مطلقا. سألها سايروس:

– ولم لا؟ جربوا كل الخواتم. أميليا، ليا، كل السيدات، فسوف توضع فى المتحف فى صناديق ولن ترصع بعد الآن يدا جميلة أو رقبة. لذا جربوها لآخر مرة. صاح رمسيس:

– أنت رجل رائع يا سايروس. أضاف برتى:

– وشاعر. إليك يا سينيا بالخاتم الذى تحبينه. وأنت يا أمى، ماذا تفضلين؟

اعتبر رمسيس هذا الفعل من جانب سايروس إشارة أخيرة على تملكه لهذه الأشياء. تحلقت النساء حول المنضدة وكأنهن قد أصبن فى نفس الوقت بالحمى التى ألهبت خدودهن وعيونهن.

كانت الحلى لا تثير اهتمامى ولكنى أحنيت رأسى وسمحت لسايروس أن يعلق فى عنقى قلادة رائعة من اللازورد المطعم بالذهب.

كم مر من الوقت منذ آخر مرة منح فيها نفرت قطعة من المجوهرات؟ إن لها مالها الخاص وتستطيع أن تشترى ما تريد من المجوهرات، ولكنها من وقت لآخر تضع السوار الذهبى الرخيص الذى منحها إياه عندما كانا صغارا. كانت تبدى الاهتمام بعدد من الأساور الباقية وذهب لمساعدتها فى وضع إسورة ضخمة حول معصمها. كان دافيد يضحك، ثم أصر على أن تقف النساء معا لالتقاط صورة.

قالت نفرت:

– لن نجرؤ على إظهار هذه الصورة لأى شخص من خارج الأسرة.

ردت ليا:

– لا يهم ذلك سنشاهدها من آن لآخر ونتذكر تجربة رائعة. شكرا لك يا سايروس.

بدأت النساء يتخلصن من المجوهرات، ورغم أن قطع المجوهرات كانت قد رممت ببراعة، فإنها كانت تتطلب التداول بعناية. سارع رمسيس لمساعدتى فى خلع القلادة التى كانت مكونة من حبيبات الذهب فقلت:

– إنها تناسب زوجة الإله، وإن كنت أتعجب هل لبستها فى حياتها. أنا لا أبالى بأن أفعل ذلك. حسن، لقد قضينا وقتا ممتعا، ومن الأفضل أن نعود للعمل. علينا التوقف عن العمل مبكرا لنستعد للحفل الموسيقى.

(١٠)

تناقشوا فى هل يصطحبون الأطفال أم لا. فكرة أن يمرح الأطفال فى الظلام بين المقابر المفتوحة والمشاعل المضيئة والكلاب نصف المتوحشة، جعلت رمسيس يقشعر خوفا. تنفس الصعداء عندما وضعت أنا نهاية للنقاش حسما للموقف وقلت:

– دوللى سيصحبنا ولكن لا أحد من الآخرين. سألت نفرت:

– أليس فى ذلك ظلم؟ وبدت ليا خائفة وهى تتوقع رد فعل إيفى.

– سيكون ظلما إذا تركنا دوللى فليس من العدل أن نعاقبه لأن الأطفال الآخرين لا يمكن السيطرة عليهم.

كنت قد دعوت آل فندرجلت للقدوم إلى المنزل قبل الذهاب للحفل. لم يكن من المقرر تقديم أى مشروبات كحولية فى الحفل الموسيقى، ولذا استمتع سايروس ببعض الويسكى قبل الذهاب. ساروا خلف الجوادين الرماديين اللذان يجران عربة سايروس. كان سايروس وبرتى ووالتر على صهوات جيادهم يرتدون أفضل ملابسهم لتشريف سليم. ترك ذلك فراغا فى العربة بجوار كاثرين لعدد من السيدات. تفحصت المجموعة قائلة:

– إيفلين وسينيا وأنا سنركب العربة.

قالت مريم:

- كما أظهرت بالفعل فأنا لست ماهرة فى ركوب الخيل. أرجو ألا أكون سببا فى مضايقة أحد. ربما كان علىّ البقاء مع الأطفال. رد إمرسون:

- لا يا عزيزتى. أنت ستتمتعين بالحفل.

نظرت إليه وابتسمت.

لم يبد والدها اهتماما وكان يتحدث مع سايروس. كانت أمتعته قد وصلت بالقطار ويرتدى حلة من التويد وحذاء ركوب الخيل وشعره بلون بنى - رمادى.

انتظر الجميع حتى غروب الشمس قبل الانطلاق. كانت سينيا ترتدى زيا صممته لها نفرت فبدت وكأنها هاتور الصغيرة، وكان دوللى يركب مع والده.

هتف إمرسون متسائلا:

- أين سليم؟ هل غير خطته بشأن قيادته للسيارة؟

قلت له:

- لا يا إمرسون. لقد خطط لكل شىء.

لم يكن ظهورهم خاليا من الخلل. كان مضيفونا قد أرسلوا حملة المشاعل ليقابلونا فى منتصف الطريق، ذهب سليم وداوود إلى الباب لتحيتنا ومصاحبتنا إلى المنزل حيث كانت تنتظرنا مأدبة عامرة، كانت زوجات سليم، رابية وتغريد قد قامتا بإعدادها طوال اليوم. جلس دوللى بجوار والده وصمم على عدم ارتكاب أى خطأ. كان آل فاندرجلت قد حضرا مثل هذه الاحتفالات من قبل، حتى أن كاثرين استخدمت أصابعها فى تناول الطعام وهى تبتسم.

بعد أن تناولنا كميات من الطعام أكثر مما اعتدنا عليه خرجنا إلى حيث كانت المصابيح تضىء المكان فى المساحة الخالية المواجهة لبيت داوود، وجلسنا فى صف الكراسى الأول وبدأ الحفل.

(١١)

أدت الراقصات والمغنيات والسحرة والموسيقيون أدوارهم بالتوالى. غمز سليم بعينه لرمسيس وانسحب وكان أشهر الحكائين بالأقصر قد بدأ يروى قصته.

جذبت مريم قميص رمسيس وهى تجلس خلفه وهمست تسأله:

- ما الذى يقوله؟

كان وجهها يتألق على ضوء المشاعل وبدت مستمتعة تماما بما تراه. أجابها قائلا:

- إنها مجرد قصة خيالية عن أميرة وساحر. سأترجمها لك فيما بعد.

- أشكرك، ثم وضعت يدها على فمها صائحة بفزع، ما الذى يحدث؟

كان الراوى قد تجاوز الزمن المخصص له، فأسرع داود إلى وسط الساحة مشيرا إليه أن يسرع بالانتهاء، تراجع المستمعون للخلف وساعدوا داوود فى إخلاء المكان من الدخلاء، أسرع الطبال بالدق عندما دخلت السيارة يقودها سليم إلى المكان. رأى رمسيس أن سليم يقودها بسرعة كبيرة فانطلق مسرعا تجاهها ولكن السيارة كانت قد انقلبت فى منتصف الطريق الهابط من التل وقد انحشرت فى جانب منه. تحطم أحد الفوانيس وإن ظل الآخر سليما. ظل سليم راقدا على ظهره بدون حراك وقد تمزق جلبابه واصطبغ بالدماء. كان رمسيس أول من وصل إليه. تحسس نبضه بذراعه الذى كان ينزف فوجده ضعيفا.

أبعدته نفرت من الطريق قائلة:

- لا يلمسنه أحد. دعهم يرجعون للوراء يا رمسيس وأبعد رابية وتغريد، فلا يجب أن يريانه وهو على هذه الحالة.

كانت زوجتاه تتوسلان له أن يسمح لهما بالذهاب إليه، وكانت إيفلين تطمئنهم بصوت هادئ. كنت أنا بالطبع فى قلب الحدث ممسكة بمشعل فوق الجسد المحطم.

سأل رمسيس:

– ما الذى تحتاجينه يا نفرت؟ أجابت دون أن تنتظر:

– رداءك ورداء دافيد كضمادات.

سألت نفرت:

– هل لا زال حيا؟

– حتى الآن.

بالطبع أرادت زوجتا سليم حمله إلى المنزل ولكن نفرت رفضت بطريقة قاطعة. كان العبء عليها وكان رمسيس يعرف أنها فى قمة الخوف. كانت دائما ما ترتجف لفكرة فقدان مريض فما بالك بفقدان هذا الرجل؟

حمل إمرسون وداوود جسد الرجل الذى كان ملفوفا كالمومياء إلى البيت حيث رفضت نفرت بأن يوضع فى العربية حيث أن المريض لا يجب تحريكه ويمكن لاثنين من الرجال نقله بسلام.

انصرف آل فاندرجلت بحزن آخذين معهم سينيا ودوللى. لم تنتظر نفرت الباقين بل أسرعت بامتطاء مهرتها وانطلقت لأسفل التل.

كان سليم يرقد ورأسه لأسفل على مائدة الفحص والضوء ينعكس على جسده العارى الذى تغطيه الدماء.

نظرت لرمسيس الذى كان يقف بجوارى وقالت:

– اغتسل وضع ثوبا معقما، وأنت أيضا يا أمى.

قلت أنا بهدوء:

– سوف يصاب سليم بالذعر عندما يعرف أننا قمنا بتعريته.

قالت نفرت:

– لديه كسور فى عدة ضلوع بالإضافة إلى الجروح والرضوض، ليس الأمر شديد السوء، أشارت إلى مؤخرة رأسه وصاحت:

– هناك شرخ فى الجمجمة ونزيف فى المخ. رددت قائلة:

– إذن ستقومين بإجراء جراحة؟

– لا أستطيع، فأنا لم أقم بمثل تلك الجراحة إلا مرة واحدة منذ سنوات بعيدة.

– لا يوجد جراح بمهارتك إلا فى القاهرة، فهل سيتحمل الرحلة؟ ألن تسوء حالته نتيجة تأخير الجراحة؟

كانت الإجابة واضحة على وجهها.

الفصل العاشر

(١)

أشرقت الشمس خلفي وأنا أتسلق وتراقص ظلي الباهت أمامي يسابقني نحو القمة. كان عبد الله ينتظرنى فى المكان المعتاد عند قمة التل الصخرى خلف دير البحرى، وبدلا من أن يقدم لى يده لمساعدتى وقف عاقدا ذراعيه ووجهه الملتحى مقطب. لهثت قائلة وأنا أنهار جالسة على حجر:

– هل سيعيش؟

أجاب قائلا:

– شكرا لله على لطفه وشكرا لبراعة نفرت. كان بمقدورك منع ذلك يا ست الحكيمة.

جعلتنى قسوة الاتهام أقف على قدمى، انتفض غضبا.

– لا، بل أنت من كان يستطيع منع ذلك. لماذا لم تحذرنى؟

– هناك أمور مستقبلية كثيرة لا يمكن معرفة شكلها النهائى حتى تحدث. لم يخطر ببالى أبدا أنك ستتصرفين كامرأة يا ست.

– أريد أن أعرف ما الذى تقصده بذلك؟

– أنت تراعين الأطفال وتأمرين بإعداد الطعام وترتيب الأسرّة كأى امرأة.

كان الممر من خلفه يقود إلى وادى الملوك، وعادة ما يكون يعج بالمارة ولكن فى

تلك الأحلام لم يكن يظهر فيه سوانا. كان عقرب يقف على صخرة رافعا ذيله السام. قلت بمرارة:

– كالمعتاد. تتحدث عن الخطر ولا تتحدث عن كيفية منعه.

أطلق عبد الله تنهيدة طويلة قائلا:

– ليس مسموحا لى بذلك وقد قلت لك ذلك من قبل، ففى محاولة منع خطر ما قد تندفعين إلى خطر آخر. لا بد من تقديرك للنسق، فهناك دائما نسق يا ست وسترينه إذا ما حاولت. تعالى ولننظر عبر الوادى.

جعلته يقودنى إلى النقطة التى يهبط فيها الممر لأسفل.

– الشمس تولد من جديد من رحم الليل. انظرى كيف ينتشر النور معيدا الحياة للعالم.

بدت الجبال والأرض المزروعة والمعابد المتهدمة والمنازل وكأنها تطفو إلى الوجود من ثنايا العدم. كان يحاول أن يقول لى شيئا ولكنى لا أعرف ماذا. انقشع مزاجى المتعكر قليل. كانت يده قوية ودافئة وكأنها يد إنسان حى.

قلت له:

– لقد أصبحت شاعرا إضافة لكونك قديسا يا عبد الله.

بدا عليه السرور ولكنه هز رأسه قائلا:

– إن هذا جزء من النسق أيضا يا ست. اذهبى الآن وكونى حذرة على الممر. ليس هذا الممر وحده، وإنما الممر الذى عليك أن تمشى فيه.

لم يهبط معى أبدا ولا حتى لخطوات قليلة. كان اتجاهه دائما للغرب.

لم يكن إمرسون فى حالة تسمح له بالعمل فى اليوم التالى. لم ينل أى منا قسطا من النوم، وكان من المستحيل على أى منا أن يشعر بالراحة إلى أن أعلنت خبر نجاح

العملية التى أجريت لسليم. لم ين لدى أى أخبار مطمئنة أخرى فى ذلك الوقت. ولكن نفرت التى ظلت معه طوال الليل جاءت لتناول الإفطار وقالت إنه بدأ يتعافى.

– علىّ أن أعود. ونظرت بلا مبالاة إلى الطبق المعد لها والذى وضعته فاتيما أمامها. استطردت قائلة:

– خديجة معه الآن.

قلت بحزم:

– تناولى شيئا ثم اذهبى إلى الفراش. لا يمكنك المجازفة بأن تنهارى صحيا. سنقوم أنا وخديجة برعايته.

قالت سينيا بنبرة حزينة:

– سيتعافى، أليس كذلك؟

– نعم. بينما رد سيثوس عليها قائلا وهو يدخل:

– لن يجرؤ على الموت وأميليا ونفرت تقومان برعايته. ثم أومأ مبتسما لابنته. قلت وأنا أقوم من مكانى:

– سأذهب إلى سليم الآن. استريحى يا نفرت. سأخبرك فى الحال إذا طرأ أى تغيير.

– وهو كذلك يا أمى.

– على الباقين الاستمرار فى العمل. رد رمسيس.

– نعم يا أمى.

– وأنت يا إمرسون.

– نعم يا بيبودى. هل تثقين فى قدرتى على عمل بعض التحريات فى عدم وجودك؟

– فى هذه الحالة أنت أكثر منى كفاءة.

(٢)

كنا مهمومين فى الليلة المنقضية بمعرفة السبب الذى أدى إلى الحادث. لم يكن مفيدا التكهن قبل أن تتوافر لدينا كل الحقائق وكان فحص حطام السيارة أفضل فى ضوء النهار.

أخيرا، ذهب ستة منا إلى القرنة. لم يكن مناسبا ترك والتر بالرغم من أن رمسيس يعرف أن معلوماته عن السيارات ضئيلة جدا، كما أن برتى حضر لتقديم المساعدة.

قضوا بعض الوقت مع زوجات سليم اللاتى كن فى حالة معنوية أفضل مما قدر رمسيس، فقد عرفن أن سليم قد اجتاز مرحلة الخطر. شرحت إحداهن الأمر قائلة لرمسيس:

– لقد أرسلت الست الحكيمة داوود ليخبرنا بذلك.

قال رمسيس:

– إنه أفضل حالا هذا الصباح وهى تقول إنه سيعيش.

لم يساورهن شك فى ذلك خاصة مع وجود الست الحكيمة كما أن نفرت كانت محبوبة وموثوق بها من جانبهم.

تبعتهم القرية بكاملها إلى مسرح الحدث. لم يلمس أحد شيئا كما أمر إمرسون.

كان منظر حطام السيارة فى ضوء النهار أسوأ كثيرا عما كان فى الليل. كانت قد خرجت عن مسارها ومالت على جنبها وانزلقت لأسفل قبل أن تنقلب تاركة حولها بقايا زجاج مكسور وقطع من المعدن قبل أن تصطدم بالحافة. كان من الممكن أن تنزلق

إلى قاع المنحدر لولا النتوءات الصخرية بجوار الحافة ولولا أن سليم سقط خارج السيارة لكان من المؤكد أن ينسحق مع الحطام.

كانت معظم التلفيات بالجانب الأيسر من السيارة وقد انخلع بابها من مكانه كما تكسرت واجهتها الزجاجية تماما وطارت عجلاتها ممزقة كما انفجر مبرد المياه وخزان الوقود. صاح دافيد من مكان بأعلى التل:

– ها هى العجلة.

اندفعوا نحوه بينما فحص إمرسون المكان بعين الصقر مقدرا المسافة والأبعاد. تمتم قائلا:

– لو أنها انخلعت بفعل الاصطدام لكان مكانها تحت السيارة أو أدنى من ذلك.

قال رمسيس:

– صواميل التعليق مفقودة، الصواميل الستة معا. رغم أنه كان يتوقع ذلك إلا أنه أحس بالغثيان.

– لا بد وأنها قد فكت عن عمد. لقد انقلبت السيارة عندما انخلعت العجلة. أحس برتى بالغثيان كرمسيس وهو يقول:

– لم يكن حادثا إذن! رد إمرسون فى الحال:

– لا يوجد أى احتمال لذلك. سليم ميكانيكى من الطراز الأول وكان يحافظ على السيارة فى حالة ممتازة.

(٣)

سرت همهمات من جمهرة النظارة. بعضهم كان يفهم الأنجليزية وكانوا ينقلون ما يقال إلى الباقين. لم يتحرك منهم أحد. كانت أعينهم تتابع كل حركاتهم وهم يتفحصون

السيارة. أصر إمرسون على أن فك الصواميل يحتاج إلى قوة رجل بينما لم يكن رمسيس متأكدا من ذلك، فيمكن بمفتاح طويل الذراع إنجاز المهمة بواسطة امرأة تعرف شيئا عن السيارات. سأل والده:

– متى تم ذلك؟ رد إمرسون:

– لقد وضعنا العجلة في مكانها منذ يومين. لقد كانت العجلة الأمامية بالجانب الأيمن وليست هذه العجلة. لا بد وأن العملية تم إنجازها في تلك الليلة. لو أنني كنت وضعت السيارة اللعينة في الجراج كما قالت والدتك. رد رمسيس:

– لم يكن ذلك سيؤدي إلى أي فرق، فالجراج من السهل دخوله والجميع ينامون نوما عميقا. وفك الصواميل يستغرق دقائق.

– لقد راهن من فعلها على انخلاع العجلة عندما يصل سليم إلى أرض منحدرة. قال سيثوس ذلك مندهشا. رد رمسيس:

– تنقلب السيارة لحظة فقدان إحدى العجلات. وعندما يقع ذلك فعلى من يقود السيارة أن يبطئ من سرعتها وهذه هي الطريقة الوحيدة للقيادة على أرض وعرة.

– أوافق على ذلك ولكن التلف الذي حدث لسليم وللسيارة كان من الممكن أن يصير أقل من ذلك كثيرا لو حدث الأمر على أرض مستوية. لقد كانت مقامرة بافتراض أن غرضها كان القتل. تمتم رمسيس:

– تماما مثل باقي الحوادث.

نظر إمرسون حوله قائلا:

– أريد نقل السيارة إلى البيت يا داوود. اجمع كل الشظايا. صاح برتي:

– إنها محطمة تماما يا سيدي ولن تفلح في إصلاحها أبدا.

– وهل تعتقد أنني أولي ذلك أي أهمية؟

قال داوود لإمرسون:

– سوف أفعل ما تريد يا أبو اللعنات. وسوف يصلح سليم السيارة وسترى ذلك بنفسك.

– أنت محق فى ذلك يا داوود. هو يستطيع ذلك.

– وعليك أن تجد الرجل الذى فعل ذلك وتسلمه له.

– إن شاء الله. قالها سيثوس من تحت أسنانه.

ردد داوود الكلمة وبعده رددها إمرسون.

كنت قد أرسلت كاثرين وسايروس بالأخبار هذا الصباح فجاءا على عجل. قالت كاثرين:

– لن نمكث إلا إذا كانت لنا فائدة يا أميليا. وجلست بجوارى وأخذت يدى فى يدها قائلة:

– كيف يمكننا المساعدة؟ هل أصبح فى حالة أفضل بالفعل؟

كنت قد تركت غرفة المريض لتوى حيث تجلس خديجة معه. رددت قائلة:

– لا يزال فى غيبوبة ولكن تنفسه صار أسهل.

– لآبد وأن الأمر كان مخيفا لنفرت وهى تعرف أن حياة من تعرفه وتحبه بيدها. رددت عليها:

– هى دائما ما تنجح إذا أرادت. هى باردة ومتماسكة كالماكينة. سوف تنهار فيما بعد ولكن ليس قبل أن تتأكد من أنه خارج دائرة الخطر. أرجو أن تبقى لتناول الغداء.

أسرعت فاتيما إلى المنزل لإعداد الغداء ووقف سايروس بجوارى واضعا يده على كتفى.

– هل أنت متأكدة من أننا لا نسبب لكم حرجا؟ أجبته:

– على الإطلاق. يمكنكما مساعدتنا مع الأطفال. أنا ممتنة لكما لأخذكما دوللى وسينيا بعيدا عن المكان بسرعة ولكن الجميع هنا يعرفون أن شيئا قد حدث ويسلكون سلوك العفاريت.

قامت كاثرين من مكانها قائلة وأين هم؟

– ذهبت بهم ليا وإيفلين إلى الغناء كما أظن.

أسرعت كاثرين بالخروج وأشرت لسايروس قائلة:

– اجلس يا سايروس. سيعود الرجال حالا. لقد ذهبوا إلى القرنة لمعاينة السيارة. هلا انتظرتهم هنا فقد وعدت نفرت أن أجلس مع سليم أثناء خلودها الراحة.

كانت نفرت فى غرفة المريض لحظة دخولى إليها مسرعة وكانت تنحنى فوق الفراش. بادرتها قائلة:

– أنا آسفة يا نفرت، لقد تأخرت قليلا. نظرت نحوى بعين لامعة وهى تخبرنى:

– لقد أفاق. وهرعت خديجة لتخبرنى.

سقطت على ركبتىّ بجوار الفراش. كانت عينا سليم مفتوحتين ورآنى وتعرّف علىّ وانفرجت شفتاه. قلت له:

– لا تتكلم ولا تتحرك. لقد وقع لك حادث وإصابتك خطيرة ولكن نفرت قامت بما يلزم. أنت فى عيادتها وتتعافى.

كنت أعتقد أن إجابتى على الأسئلة الواضحة ستدفعه إلى الهدوء ولكن شيئا آخر كان يدور بعقله.

– هل أخبرك والدى؟

– قال لى إنك ستعيش.

– تنهد سليم تنهيدة رقيقة. كنت دائما مقتنعة بأن العقل يؤثر فى الجسم بطريقة لا نستطيع تحديدها. وبتأكيدى له اكتسب سليم قوة أكبر ورغبة أقوى فى الحياة. من ذا الذى يستطيع أن ينكر حكمة القديس؟

(٤)

انغمست أصابع نفرت فى رسغه وقالت له:

– بعض عظامك بها كسور وكذلك رأسك يجب ألا تتحرك. سأعطيك مسكنا للألم الآن.

اتسعت عينا سليم وهو يقول:

– حقنة؟ لا! لا أريد.

– إذن لا داعى لها. فقط الزم الهدوء. هدأ سليم ونظر تجاهى قائلا:

– من قام بخلع ثيابى؟

بدأت نفرت فى الضحك وانفتح الباب ودخل رمسيس وسأل:

– ما الذى يحدث؟ قالت نفرت:

– إنه يسأل من الذى خلع له ثيابه. قال رمسيس:

– أنا قمت بذلك يا سليم. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا صديقى. همس سليم:

– لا أريد حقنة.

– إذن عليك أن تنام.

أغلق سليم عينيه مباشرة. نظرت إلى خديجة التى ابتسمت. لاحظت أن رأس سليم الحليقة تحت الضمادات بدت خضراء.

كان لدينا احتفالا حقيقيا فقد أبدت نفرت تفاؤلا حذرا بخصوص مريضها. بدت مجهدة ولكنها كانت مشرقة الوجه وقالت:

– هناك دائما خطر الانتكاس ولكن قوته على الاحتمال مدهشة.

رد إمرسون:

– براعتك هى التى أنقذته. أحسنت عملا يا فتاتى العزيزة. أيدته كاثرين قائلة:

– أحسنت الفعل. لقد أرسلت برقية هذا الصباح لتأجيل السهرة المسائية التى كنا سنقيمها. رد سايروس.

– أصبت فى ذلك. كيف لنا أن نحتفل دون أن يرقص سليم رقصة الفالس مع السيدات؟ سنقيم حفلا كبيرا عندما يتعافى تماما ويكون المجرم الذى حاول قتله ميتا أو بالسجن.

سأله سيثوس:

– هل أنت متأكد من أن سليم كان هو الضحية المقصودة؟

كان هذا السؤال بالطبع قد خطر ببالى فرددت قائلة:

– كان العديد من الأشخاص يعرفون أن سليم ينوى قيادة السيارة إلى الحفل الموسيقى، وإن كان الفاعل لا يمكن أن يكون قد تأكد بأى صورة من أن إمرسون لن يقوم بقيادة السيارة قبل سليم.

– تماما كالفاعل الذى أغرق المركب لم يكن باستطاعته أن يتأكد من الضحايا الذين سيصيبهم ولو أنه كان يريد القتل، فهو ليس بارعًا فى ذلك.

(٥)

دخلت فاتيما تحمل أطباقا من لحم الضأن المتبل والأرز. وضع سيثوس يده على بطنه قائلا:

– شكرا يا فاتيما ولكنى أكلت أكثر مما يجب وسأصبح بدينا إذا بقيت هنا لفترة أطول. سألته:

– وإلى متى ستبقى هنا؟ رد قائلا:

– الفترة التى يتطلبها القبض على عدوكم. أنتم لا تظهرون كل كفاءتكم. كنت أتوقع أن تخرج أميليا علينا بمشتبه فيه أو اثنين منذ فترة طويلة. رددت؟

– الصعوبة تكمن فى أننا لا نعرف ما الذى كان مقصودا ومدبرا وما الذى كان مجرد حادث مما وقع لنا. أضاف دافيد.

– الأمر يبدو كمحاولة التعرف على الحالة الأصلية لعقد مجموعة من الحبات السائبة، فبعضها ينتمى إلى قطعة مجوهرات أخرى مختلفة. نظر سيثوس إليه بتمعن ثم قال:

– تشبيه عجيب. أنت خبير فى الترميم يا دافيد فكيف تفصل العناصر المختلفة عن بعضها؟

– أضعها جميعا على المنضدة وأختبرها ثم أحاول وضعها فى ترتيبات مختلفة، فبعد فترة طويلة من الخبرة العملية يكتسب المرء غريزة تتعلق بتلك الأمور. رد والتر:

– كغريزة أميليا بالنسبة للجريمة. وغريزتك أيضا. رفع سيثوس حاجبيه قائلا:

– أنا؟ لقد نسيت يا والتر أننى حققت فى عدد من الجرائم أقل مما ارتكبت. ولكنى لن أترككم بلا حماية.

استمر سليم فى التحسن فأصبح باستطاعته الجلوس لفترات قصيرة وانتعشت شهيته. كانت الضمادات تغطى وجهه ورأسه، ولكن لحيته تركت لحالها فأسعده ذلك كثيرا. كان كثير السؤال عن السيارة، فقال له إمرسون عندما زاره:

– لم يكن خطؤك، فقد عبث أحدهم متعمدا بصواميل العجلة الأمامية وقام بفكها. ما إن تتعافى سنقوم بإصلاح السيارة، وسنكون قد عرفنا من فعل ذلك. أضفت قائلة:

- داوود يرعى أسرتك كما نفعل جميعا فلا تشغل بالك بأى شىء سوى أن تعجل بالشفاء. رد سليم.

- والحفائر. رد إمرسون.

- لا تنشغل بذلك فستستمر فى العمل بقدر استطاعتنا إلى أن تعود إلى الموقع.

ولمعرفتى بصعوبة الوضع الحالى مع رجل بمثل طاقة وقدرة سليم قررت أن أرتب له برنامجا لتسليته. لم يكن إمرسون فى رأيى مناسبا كرفيق لمريض، ولكن رمسيس وبرتى كانا يأتيان إليه كل يوم ليحدثاه عن الحفائر بينما سينيا وإيفلين كانتا تقرآن له. كنت أعرف أنه على طريق الشفاء عندما سأل إيفلين أن تقرأ له كتيبا عن إصلاح السيارات.

(٦)

قام إمرسون بنقل حطام السيارة إلى الجراج وأعترف بأنه لا يمكن معرفة شىء أكثر عما حدث من تفحص الحكام. قام داوود بعمل تحريات أكثر عن مهاجم مريم وقام بسحب عدد من الغرباء إلى البيت لمواجهة مريم ورمسيس ولكنهما عجزا عن تحديد أحد. كانت خديجة واثنتين من بناتها قد أقاما معنا للجلوس مع سليم ومراقبة الأطفال، ورفضت أن يذهب إمرسون إلى الحفائر وحده مما جعله ينفجر فى اعتراض عاصف بالرغم من إصراره على أن أتبع نفس الاحتياطات. كان الجميع فى حالة من القلق والتوتر خاصة الأطفال.

استمر عملنا فى تغليف الآثار رغبة منى فى الانتهاء من ذلك قبل قدوم لاكو، حيث كنت قد قررت ألا أذكر له شيئا عن المجوهرات المسروقة أو أن يقوم أحد بإبلاغه. لم يكن من المحتمل أن يطلب فتح الصناديق التى تم إغلاقها بعناية لكى يقوم بمراجعة مكوناتها، فسوف يقوم بهذا العمل عندما تصل الصناديق إلى المتحف بالقاهرة، فإذا ما اكتشف عندئذ أن بعض القطع ناقصة فسنعترف بذلك مما سيوفر لنا وقتا

لاكتشاف اللص وكذلك القاتل. وكما قال إمرسون، فعلينا أن نجده قبل أن يضرب ضربة أخرى.

شغلتنا عملية التغليف واشترك الجميع فيها حتى مريم التى أبدت شغفا بالأشياء الثمينة. أشرت إلى صندوق ملون قائلة لها:

– يمكنك معاونتى فى تغليف هذا الصندوق. أنا لا أعرف كيف سنقوم بتغليف الأشياء الباقية، فقد استهلكنا كل القماش والقطن وأخشى على الملابس الموجودة فيه أن تتلف.

– ما الذى تقوله الكتابات التى عليه؟

– إنها قائمة بمحتوياته: قفازات، صنادل، رداءين وأشياء أخرى. لقد قام رمسيس بترجمتها فهو يقرأ الهيراطيقية بالسهولة التى يقرأ بها الإنجليزية.

– أود أن أتعلم أكثر لكى أستطيع مساعدتكم فى العمل. ربما يستطيع أن يعطينى بعض الدروس.

– لو أنك مهتمة بالفعل يمكننا تدبير دراستك للموضوع. ولكن ذلك سيحتاج إلى أكثر من بعض الدروس. لقد كنت مفيدة لنا بالفعل يا مريم. لقد كنت أود أن أشكرك على رعايتك للأطفال.

– أريد أن أكون مفيدة، وأنا أحب أن أكون مع الأطفال. أنا شديدة السعادة فى وجودى هنا وسأكون شديدة الأسف إذا رحلت.

– لن يحدث ذلك قبل فترة فيجب أن تكونى معنا فى رأس السنة على الأقل.

– وبعد ذلك؟ أعرف أننى أطلب الكثير ولكن..... هل أستطيع البقاء معكم هنا لفترة أطول؟ لقد كنتم فى منتهى الطيبة معى، وأعتقد أن بإمكانى أن أفيدكم مع الأطفال وفى الحفائر لو علمتمونى.

لم يكن السبب أنها سعيدة معنا وإنما عدم ارتياحها مع أبيها. لم أكن أعرف نواياه بالنسبة لها فهو يسافر كثيرا وكذلك مرجريت وليس لديهم مقرا ثابتا لتحظى فيه بالعناية التى تحتاجها. وكيف ستقوم مرجريت بدور زوجة الأب؟ بالتأكيد بطريقة غير مناسبة لمعرفتى بمرجريت. لكنى وعدتها قائلة:

– سأناقش ذلك مع والدك. أحسست بأننى كالحمار الذى يحمل أثقالا وأضيف إليها ثقل جديد.

(٧)

كان رمسيس يجلس مع سليم يقرأ له من كتيب السيارات عندما انفتح الباب وأطل منه رأس سيثوس سائلا:

– هل مسموح بالزيارة؟

كانت أول مرة يرى فيها سليم منذ وقوع الحادث. أضاءت عينا سليم ورفع يده إلى لحيته. كان وجهه قد عاد إلى طبيعته فيما عدا بعض الرضوض الخفيفة. رد سليم:

– نعم، أدخل. ألا تزال هنا؟

– وهل تعتقد أننى سأتخلى عن العائلة فى وقت كهذا؟ فبدونك هم يحتاجون إلى كل عون يمكنهم الحصول عليه.

– هذا صحيح.

– أشكركما على هذه الثقة. قال رمسيس ذلك فشرح سليم الأمر:

– أنت رجل شريف ولكنه ليس كذلك.

أطلق سيثوس ضحكاته قائلا:

– لقد أصبت الهدف يا سليم. هل بمقدورى فعل أى شىء لك. رد سليم:

– أخبرني عن الطائرة.

– في وقت آخر. لقد قالت لي فاتيما أنني يجب ألا أمكث طويلا، وهي ستأتي لك بالغداء. زمجر سليم قائلا:

– هي تأتيني بالطعام ورابية وتغريد يأتياني بالطعام وخديجة تأتيني بالطعام. سوف ينتهي بي الأمر إلى أن أصبح بدينا.

سأله رمسيس وهما يتمشيان تجاه البيت:

– ما الذي تبحث عنه حقيقة؟ زيارتك لمريض ليست من طباعك. رد سيثوس:

– أنا أحب سليم، ولكنك على صواب. لقد كنت أبحث عنك. هل تمانع في مصاحبتي في زيارة للحياة الليلية الصاخبة بالأقصر؟

– لماذا؟

– قد أكون وراء خيط ما. لم يوضح أكثر من ذلك. عندما أعلن ذلك على الغداء أصاب الجميع بالدهشة وإن لم يعلقوا. وعندما ذهب رمسيس لاستبدال ملابسه تبعته نفرت وسألته:

– ما الذي يعنيه ذلك؟

– يقول إنه وراء خيط ما. لاحظت اختياره لملابسه فسألته:

– ربطة عنق سوداء؟ إلى أين أنت ذاهب معه؟

– لم يقل لي شيئا.

– إلى مكان محترم على الأقل. هل ستأخذ خنجرك؟

– هذا لا يناسب ملابس السهرة.

– ولكنه يناسب اصطحابك لسيثوس.

تتدرج حياة الليل فى الأقصر من أسفل إلى أعلى. فالمقاهى ومحلات الشراب الرخيصة توجد على طول الكورنيش أما الفنادق الفخمة فهى مراكز نشاط الطبقة العليا، ومراكب السياح والدهبيات ترصع الشاطئ ويشع منها الضياء.

كانت أول خطواتهما إلى فندق ونتر بالاس حيث كان سيثوس معروفا جيدا. اختار المائدة وعندما أسرع إليهما الجرسون قال له:

- لن أطلب شيئا هذه الليلة يا حبيب ولكنى سأمنحك بقشيشا إذا قلت لأخو العفاريت ما قلته لى.

سأله حبيب:

- عن الرجل الإيطالى والسيدة؟ ومد يده إليه.

قاما بزيارة فندقين آخرين هما فندق سافوى والتوفيقية فى الطريق إلى الكرنك وسمعا نفس القصة وإن لم يكن نفس الوصف للسيدة. فى آخر فندق دخلاه وهو الجراند هوتيل طلب سيثوس كأسا من الويسكى وأنصت لتعليق رمسيس الذى قال:

- واحدة بشعر أحمر وواحدة شقراء وواحدة بشعر داكن. لقد كان مارتنللى زير نساء. رد سيثوس مبتسما:

- ما الذى تقوله؟

- تقصد أنها نفس المرأة؟

- لقد كانت له معارف بنساء أخريات فى أماكن أخرى وقد استبعدتهن بصعوبة، ولكن هذه المرأة مختلفة. فهى سيدة أنيقة الملبس، وهادئة وفيما عدا شعرها تطابقت كل الأوصاف عليها. طولها خمسة أقدام وثلاث بوصات، رائعة القوام وصغيرة السن.

- ألم يتعرف عليها أحد الجرسونات؟

- كلهم يدعون أنهم لم يروها من قبل ولكنى أعتقد أنك رأيتها. صاح رمسيس بدهشة:

– هاتور؟ الوصف ينطبق عليها تماما.

– لا بد وأنها نفس المرأة. هذا هو الرباط بين جزئين غير متصلين من الصورة ويفسر كيف وصل مارتنللى إلى حتفه. لقد كان يتبع المرأة أينما ذهبت.

(٨)

مرر رمسيس أصابعه فى شعره. كان الوقت متأخرا ويشعر بالتعب ولكن أجزاء عديدة من الشكل كانت تلتئم، فمارتنللى اقترض المجوهرات لكى يبهرها وربما قدمها إليها ليحصل على أشياء كانت تمنعها عنه. لم يكن ينوى أن يدفع مثل ذلك الثمن الغالى بالرغم من ذلك لأن هذا كان يعنى نهاية عمله مع سايروس ومطاردة الشرطة له. كم كان خنزيرا قذرا ذلك الرجل!.

قال سيثوس:

– قد يقول الأخلاقيون إنه حاق به ما يستحق. لقد وافقت أن تبيعه ما يريده منها دون أن يكون لديها النية فى أن تفى بما يخصها من الصفقة مثله تماما، وظل يجرى وراءها وقد أعمته الشهوة لدرجة لم يفكر معها لماذا تقوده إلى جزء موحش من الأقصر. وفى الظلام كان الموت ينتظره وربما كان قد مات قبل أن يفطن لما حدث. أكمل رمسيس القصة:

– ثم قاموا بلفه ووضعه فوق حمار حمله إلى الصحراء وأخذوا المجوهرات وكل ما يمكن أن يدل على شخصيته وتركوه للذئاب.

– كان الأمر سهلا سهولة أخذ الحلوى من يد طفل. تخطيط رائع. يكفى أن تنظر للمسكين لتعرف أنه لم يصب النجاح أبدا مع النساء اللاتى كان يرغبهن. لم يكن لامرأة ذات شأن أن تنظر إليه. كان قطفا سهلا فاقتطفته بسهولة.

– إذن كان كنز الأميرات هو ما تسعى وراءه أليس كذلك؟

- لماذا تسألنى؟ أنا رجل صالح الآن ولكن لو كنت مكانها وأسعى لكنز الأميرات فلن أقوم بمثل تلك السلسلة من الهجمات العشوائية والتى لم تفلح سوى فى أن نبهتكم لما يحدث. ما كنت أفعله هو أن آخذ وقتى وأوهمكم بالأمان ثم أضرب ضربتى. كنت أستطيع الدخول إلى الغرفة المغلقة فى دقيقة واحدة وبمساعدة دستة من المساعدين أحصل على كل شيء يمكن نقله وأهرب من الأقصر قبل الصباح. رد رمسيس.

- أراهن بأنك تستطيع!

رد سيثوس متأملا:

- كان سيصير تحديا مغريا. ثم رجع فى كرسيه للوراء وأشعل لفافة تبغ وعلى وجهه تعبير حالم وأضاف:

- يتم ترتيب النقل مقدما... دخول آمن للقلعة بالنسبة لصديق وثيق... الخدم ينامون فى خيامهم بعيدا عن المنزل... يتم اصطحاب سايروس برفق إلى حجرته وحبسه بها مع زوجته... ثم تنهد بأسف مطلقا سحابة من الدخان.

قال رمسيس:

- لا بد أن الإغراء شديد القوة. تعبير وجه عمه كان لرجل يتذكر حادثا رومانسيا معينا، أضاف رمسيس:

- لا بد وأنك تفتقد الأيام الخوالى قبل أن تصلح أمى من شأنك.

أطفأ سيثوس لفافته وانحنى للأمام واضعا مرفقيه على المنددة وقد غابت عن وجهه الابتسامة:

- عليك أن تصدق أننى قد أقسمت لها ألا أتدخل فى عملهم مرة أخرى وهذا يشمل سايروس بالتبعية. أنا لا أسرق أصدقائى.

- ماذا يعنى ذلك؟

- من الأفضل أن تذهب الآن فسوف ترسل زوجتك من يبحثون عنك.

أطلق سلوكه ذلك بعض الشكوك فى نفس رمسيس. لم تكن هذه هى المرة الأولى التى تساوره الشكوك فى عمه، فما الذى كان يفعله فى أورشليم بينما كان من المفروض أن يكون فى قسطنطينبول؟ فمنذ انتهت الحرب صارت أرض المعارك فى حالة فوضى والحفاظ على الآثار لم يكن من أولويات اهتمام القوات الغازية، وكانت تلك فرصة مواتية للاستيلاء على الأشياء غير المنظورة وسيثوس خبير فى ذلك. قال رمسيس فى نفسه، لا يوجد ما يمكننى فعله إزاء ذلك حتى لو كان صحيحا كما أننى لا أستطيع إثباته.

(٩)

بدأت المصابيح الملونة تنطفئ عندما غادرا الفندق وبدءا رحلة العودة عبر الطريق الموازى للنيل. خفف رمسيس من ربطة عنقه قائلا:

– إذن لو لم يكن الأمر خاص بالكنز فلا بد وأنها كانت تريد شيئا آخر. هل كان موت مارتنللى جزءاً من الخطة؟

– لقد كان له أعداء.

– حتى عندما كان يعمل لحسابك؟

– نعم، وعندما كان يعمل لحساب آخرين أيضا. إن ضعفه تجاه النساء يجعل من غير المستحيل أن يغضب إحداهن، وتتبع مكان وجوده أمر سهل فكل شخص فى الأقصر يعرف أنه يعمل لدى سايروس.

مرا بفندق السافوى وفندق الكرنك وساد الظلام فيما عدا بعض المصابيح بالمداخل. سمع صوت صفارة طويلة وزاد الصوت. كان القطار القادم من القاهرة قد وصل متأخرا عدة ساعات كالمعتاد. ولكن الصوت طغت عليه أصوات أعلى وأظلمت السماء ثم اصطبغت باللون الأحمر.

صاح رمسيس:

- يا إلهي! ماذا كان ذلك؟

رد سيثوس وهو يتشمم الهواء:

- هذا قريب من محطة السكة الحديدية. هيا بنا.

الفصل الحادى عشر

(١)

لم يسمع أحد منا صوت الانفجار. كان ذلك نعمة وإلا سارع البعض للتحرى عنه. عندما يحدث صوت جلبة وصخب فى غياب رمسيس يُفترض تلقائيا أن رمسيس له علاقة به. وكما قالت لى نفرت، هو لم يعد حتى الثالثة فجرا، وعندما حاول خلع ملابسه من دون أن يوقظها لم ينجح وبالتالى أضاءت هى مصباحا فكادت تسقط من الفزع عندما رأت حالته. كانت ملابسه ممزقة بالكامل ويتناثر عليها الدم والغبار ويداه مصبوغتان بالدم. لم يعرف أحد منا عن ذلك الأمر حتى جلسنا لتناول الإفطار. صاح رمسيس قائلا:

– لم أصب بسوء ولا سيثوس. كنا على بعد نصف ميل عندما وقع الانفجار. ما أصابنى من خدوش حدث عندما كنت انتشل الناس من بين الحطام. اللعنة يا نفرت، لست فى حاجة لكل تلك الضمادات.

– ما الذى حدث؟ كان صوتى مرتفعا وأنا أسأله.

أمسك رمسيس بقطعة من السجق بين أصابعه وقال:

– لقد حاولوا تفجير محطة القطار عند وصول قطار القاهرة إلى المحطة، ولحسن الحظ لم يفلحوا فالقضبان لم تتأثر ولم يتحطم سوى جزء من المحطة. لقد قتل شخص وجرح ستة آخرون كلهم مصريون. غرفة الانتظار الخاصة بالأوروبيين والرصيف لم يتأثرا. سأل إمرسون:

- ومن المسئول عن التفجير؟ هز رمسيس كتفيه. فقال دافيد:

- الفلاحون فى حالة ثورة. المغفلون التعساء. رد رمسيس:

- هذا هو ما يُفترض حدوثه. إن مظاهرات الربيع الماضى اشتملت على أحداث تخريب.

- اللعنة. قال إمرسون ذلك مخرجا غليونه. حذرته قائلة:

- لا تنثر التبغ على طعامك يا إمرسون.

- لقد انتهيت من الطعام. أعتقد أننا نتوقع وصول جنود الطوارئ من القاهرة. يا لها من مهزلة دموية. ربما يكون من الأفضل لك يا دافيد عدم الظهور علنا لفترة من الوقت. أجاب دافيد بشجاعة:

- لن أهرب يا سيدى فليس لى علاقة بما حدث ولا يمكنهم إثبات العكس.

رد إمرسون قائلا:

- الجيش لا يحتاج إثباتات.

أعقبه رمسيس بالقول:

- نعم ولكن دافيد مواطن إنجليزى وبعض بنادق الحكومة ستكون موجهة له. أطل سيثوس من الباب:

- وهذا يشملنى أيضا. هل تأخرت كثيرا على الإفطار يا فاتيما؟

- ألا يمكنك أن تدخل غرفة أبدا من دون هذا الأداء المسرحى؟ قلت له ذلك متسائلة.

- إنها عادة.

- دعنى أرى يديك. أظهر يديه قائلا:

– نظيفة. رددت قائلة وقد لاحظت أن الأظافر مكسورة.

– كنت تحفر أنت أيضا. تعال إلى العيادة وسوف أتولى أمرها.

– نعم، بالطبع كنت أحضر. هل كنت تتوقعين منى أن أقف ساكنا بينما يقوم رمسيس بالعمل البطولى؟ رد رمسيس تنهيدة فاستطرد سيثوس.

– لقد كنا أبطالا نحن الاثنين. لا عليك يا أميليا فقد أرقت على يدى نصف زجاجة من الويسكى وبعض الصابون والماء. جلس بجوار مريم وأسرعت فاتيما بالطعام له. التفتت إليه مريم متسائلة بقلق:

– هل أنت بخير؟

– نعم، لماذا هذا الاهتمام منكم جميعا. لقد كان حادثا معزولا ولا تزال بواعثه مجهولة حتى الآن. لقد أرسلت برقية للقاهرة بهذا المعنى هذا الصباح. وما لم يحدث شىء آخر فأعتقد أنهم سيعهدون بالتحقيق لى وللشرطة. قلت على الفور:

– أرجو ذلك. حاليا أنا لا أولى أى اهتمام للشغب أو للتخريب، والانفجار لن يكون له أثر على مشاكلنا. قال سيثوس:

– هناك دافع مشترك، وفى الليلة الماضية اكتشفت أنا ورمسيس أحد الخيوط. هل أخبرتهم يا رمسيس؟

– لم يتيحوا لى الفرصة. لقد كان اكتشافك أنت على كل حال.

(٢)

كان لا بد أن أفكر فى ذلك أنا أيضا وفقا للمقولة الشهيرة "فتش عن المرأة".هنأته قائلة:

– أحسنت صنعا ولكن بعض استنتاجاتك قائمة على أسس غير واقعية. ولا أرى

أن ذلك يقربنا من الحقيقة. لقد تكهنّا بوجود عصابة، أليس كذلك؟

رد رمسيس:

– ولكننا نعرف الآن. ومن المعقول أن نفترض أن ظهور هاتور ليس دخيلا على الصورة التى حاولنا تصورها، هناك امرأة خلف كل ذلك. همست نفرت:

– امرأة شابة وجميلة. رد رمسيس:

– نعم.

– ولكن ماذا كان غرضها من الظهور على هذه الصورة؟ ومن تكون؟

– واحدة ممن يقيمون بالأقصر أو سائحة وصلت للأقصر منذ شهر مضى. كانت الإجابة من سيثوس، فقلت معقبة:

– من شهر؟ فرد قائلا:

– لقد وضعت جدولا للمواعيد. لقد اختفى مارتنللى منذ ثلاثة أسابيع وبإعطائها أسبوعا قبل ذلك لتوثق معرفتها به فهذا يكمل الشهر. لو أنها نفس المرأة فلا بد أنها قامت برحلة سريعة للقاهرة عندما كنتم هناك ثم عادت فى وقت مناسب لترتيب عملية اغراق زورق داوود وتمثيل ظهورها الثانى. إن كل الدلائل تشير إلى أنها لا تزال هنا. قال دافيد متأملا.

– هذا يخفض عدد المشتبه فيهم بالتأكيد. معظم السائحين يبقون لأيام قليلة ولا يوجد الكثير من المقيمين بصفة دائمة من النساء.

وافقته قائلة:

– شابة وجميلة. لا يمكن أن تكون واحدة من تلك المجموعة. أنا أعرفهم جميعا وأؤكد لك أن أحد معارفى كان سيبلغنى لو جاءت امرأة للإقامة بالأقصر.

رد إمرسون:

– هى محقة فى ذلك والنساء ينقلن الشائعات بسرعة .

رد سيثوس:

– ولكن التحرى لن يضر. لن تقومى بذلك أنت يا أميليا فسؤال مباشر منك لإحدى صديقاتك سيثير الشكوك ويجب أن نتجنب ذلك بكل طريقة. سأحاول النفاذ بطريقتى إلى مجتمع النساء بالأقصر فالوجه الجديد موضع ترحاب دائما وليس أكثر من الآعزب من يرحبن به.

– عليك إذن أن تفعل شيئا بوجهك كى تكون جذابا للسيدات، وخاصة بتلك اللحية.

أجاب سيثوس:

– لقد كنت أنتظر نموها وما أن تكتمل سأقوم بإجراء بعض التغييرات الأخرى وسيصبح شكلى مثار إعجابك.

قال إمرسون:

– كل ما ستعرفه هو أن هناك عدة نساء بالأقصر لن يمنعهن شىء من إيجاد زوج لبناتهن العانسات. المرأة التى تبحث عنه لن تقترب مطلقا منك. ولكن سيثوس رد قائلا:

– أعتقد أنها ستفعل. فأنا معروف بصداقتى لسايروس فاندرجلت

قال رمسيس:

– باختصار، أنت تنوى جعل نفسك طعما للصيد؟

صرخت مريم بذعر فالتفت والدها مبتسما تجاهها وقال:

– الأمر آمن تماما يا مريم. أشك فى أنها ستكرر نفس الحيلة مرة أخرى. وإذا فعلت فأعدك ألا أتبعها إلى حارة مظلمة. إن هذا ه الخيط الأفضل لنتبعه ويجب أن نتبعه.

– وسيكون الحال أفضل إذا استطعنا حل القضية بسرعة، أعياد الميلاد على الأبواب ولن أسمح مطلقا لمجرم بأن يتداخل مع احتفالات عيد الميلاد الخاصة بنا ولن أفعل ذلك الآن.

نظر أمرسون بغيظ وقال:

– انظرى يا بيبودى. أنا لم أعترض أبدا على المجهود غير الضرورى الذى تنفقينه.

ردت ليا قائلة:

– ولكننا لا نستطيع أن نحبط الأطفال بالتأكيد.

قلت لها:

– لا يزال أمامنا عدد من الأسابيع.

رد ديفيد:

– هناك أمر آخر. إن لجنة ملنر ستصل إلى مصر قريبا ونية البريطانيين معروفة جيدا، فهم سيواصلون اعتبار مصر محمية بريطانية وقد قرر زغلول باشا مقاطعة اللجنة تماما. سوف تحدث اضرابات ومظاهرات فى البلد بأكمله. سألته ليا:

– وكيف تعرف ذلك؟

– قرأته فى الصحف. أمل أن يكون سيثوس محقا ولكن لدى إحساس بأن القاهرة ستنتظر لتفجير محطة الأقصر بجدية أكبر مما هو متوقع.

– لا علاقة لذلك بنا. ابتعد عن الأمر تماما يا دافيد. لقد وعدت بذلك. قال رمسيس له بجدية. فقلت مؤكدة:

– سنبعده عن ذلك. أليس لدينا ما يكفينا بدون ذلك؟ دخلت فاتيما قائلة:

– هناك مريض لك يا نفرت. هل ستذهبين؟ قلت صائحة:

– بالطبع.

– الباقون منا عليهم العودة للعمل. من سيذهب للقلعة معى؟ رد إمرسون:

– أنا لن أذهب. أجبته:

– لا أحد يتوقع منك أن تذهب يا عزيزى. سوف ننتهى من العمل خلال يوم أو يومين وبعدها سنستكمل تحرياتنا.

– أى تحريات؟ دفع إمرسون طبقه بعنف فارتطم بأحد الأكواب وسقط وتسرب الماء عبر المفرش، فصاح:

– أنا آسف يا فاتيما. لقد كان الخطأ منك يا بيبودى فتفاؤلك يجعلنى عصبيا. لا يوجد ما نتحرى عنه، فقد وصلنا إلى نهاية مغلقة. أنت تعرفين جيدا أننا لا نستطيع أن نفعل شيئا ما عدا الجلوس فى انتظار هجوم آخر. رد والتر:

– ليس هذا صحيحا يا رادكليف. إن مخطط سيثوس جيد.

– إنه بلا هدف.

نظر إمرسون إلى أخويه بحدة فخفض والتر عينه وأخذ يفرد الزبد على قطعة من الخبز فى صمت.

(٣)

عندما وصلت إلى القلعة وجدت سايروس يذرع المكان جيئة وذهابا فى حجرة العرض وكاثرين تفعل الشىء نفسه بجواره. كانت تربت على كتفه وتحاول تهدئته، لكنه كان يسير بخطوات واسعة وهى تشعر بالإرهاق لبدانتها وعندما رأتنى أطلقت زفرة ارتياح حيث توقف سايروس عن السير. هتف بها:

– ماذا الآن؟ اجلسى يا كاثرين والتقطى أنفاسك.

التفت سايروس بندم إلى زوجته قائلا:

– آسف يا عزيزتى فلم أنتبه لما أفعل.

كان ممسكا ببرقية فسألته:

– هل هذا ما أثارك؟ دعنى أخمن، إنها رسالة من لاكو، أهو يريد كل شىء؟

رد سايروس:

– ليس إلى هذا الحد. لا أدرى لماذا أثارتنى هذه البرقية لهذا الشكل، ربما لهجتها هى السبب. لقد غادر القاهرة بالأمس ومن المتوقع أن يصل يوم الخميس ويريد تحميل كل الآثار لنقلها فى يوم واحد، أتصدقين ذلك؟ لم يحاول قول أتوقع أو أريد أو أرجو. مجرد إفعل هذا فقط. رددت قائلة:

– البرقيات ليست الوسيط المناسب للكمات المهذبة. ما الذى دفعه للإسراع بهذا الشكل؟

– لقد قال شيئا بهذا الخصوص. ثم قرأ من البرقية: "الشائعات عن الاضطرابات مقلقة. وصول المقتنيات إلى القاهرة بسلامة أمر هام". تمتم دافيد:

– علينا الانتظار حتى يسمع بأمر الانفجار مما سيجعله يصر على مغادرة الأقصر فى الحال. اندفع سايروس قائلا:

– هو يعتقد أن المقتنيات الأثرية ليست آمنة هنا، ولكنها أكثر أمنا من وجودها بالمتحف. هل تعتقدين أنه عرف بأمر المجوهرات المسروقة؟

– لا أتصور. كيف يمكنه أن يعرف؟ هو خائف ولا يغير ذلك من الأمر شيئا يا سايروس. سوف نجهز له مقتنياته الثمينة وسيمكنه أن يشحنها ويذهب بها إلى الشيطان كما قد يقول إمرسون. لو قمنا بعمل الترتيبات مسبقا فقد يستطيع بالفعل شحنها فى يوم واحد.

عندما انتصف اليوم كان القش والقطن قد نفدا. كنا قد انتهينا فقط من الأشياء ذات الحجم الصغير وبقيت بعض التوابيت والمومياوات والثوب المطرز. قلت للجميع:

– لا أعرف كيف سنغلف تلك الأشياء وأخشى من طي الثوب أو وضع مشابك من الدبابيس فقد تؤدى إلى إتلافه. ما الذى تقترحه يا دافيد؟

– لا يمكننا عمل شيء فيما عدا تغطيته بملاءة نظيفة ووضع أربطة حول الثوب بكامله مع طبقات إضافية من التغليف. قلت متنهدة:

– لن يحدث ذلك. ما لا يمكن علاجه يجب تحمله. لقد فعلنا ما بوسعنا وأعتدق أننا نستطيع الانتهاء غدا لو توافرت مواد التغليف. قال دافيد:

– سأذهب إلى الأقصر، لا بد وأن بها من يبيع تلك المواد.

– هل أستطيع أن أذهب معك؟

– ليس هذا ضروريا. سأحاول الحصول على قش نظيف أيضا.

(٤)

التقط معطفه وخرج قبل أن أرد، كان خروجه مسرعا قد جعلنى أشك فى أنه بصدد شيء ما. كنت أشك فى أنه قد قطع كل صلاته بالحركة الوطنية. أسرعت بالجرى خلفه وناديته، ولكنه تظاهر بأنه لم يسمعنى. لحقت به وهو يقوم بوضع السرج على حصانه وصحت به:

– أنت ذاهب إلى محطة السكة الحديدية أليس كذلك؟

لم يكن بمقدوره أن يكذب. نظر نحوى قائلا:

– أريد أن أرى حجم الدمار بنفسى.

– لماذا؟ أرجو ألا تذهب وحدك يا دافيد. خذ معك رمسيس أو إمرسون.

– هل سآخذ أبو اللعنات بعيدا عن حفائره ليلعب دور الحارس لى؟ ما الذى يمكن أن يحدث؟

– مزاجى لا يحتمل الجدال يا دافيد. إفعل ما آمرك به. رمسيس بالبيت يعمل مع الفخار وهو ليس ببعيد عن طريقك.

– على رسلك يا عمتى أميليا. لقد كسبت الجولة كالمعتاد. لقد أنهيت عملك هنا اليوم كما أعتقد فهل تودين أن أقوم بتوصيلك للبيت؟

– لا، أشكرك يا ولدى العزيز.

(٥)

كان رمسيس سعيدا لأنه يعمل مع نقوشه، ولكنه لم يكن بمقدوره التركيز. كان يعرف لماذا لم يصر والده على تواجده معه هذا الصباح. كان سليم لا يزال مريضا والأطفال معرضين للخطر وإذا أراد العدو أن يدخل إلى المنزل فلن يكون هناك من يمنعه فيما عدا جارجرى والنساء. بعد أن ذهب الجميع إلى القلعة تجول رمسيس حول المكان بلا هدف وانتهى به التجوال إلى العيادة. كانت غرفة الانتظار ممتلئة فقد انتشرت سمعة نفرت وكانت الحاجة لها كبيرة وعدد المرضى أكثر مما يمكنها التعامل معه. أحس رمسيس بالعجز الذى لا بد أن نفرت تواجهه كل يوم.

خرجت المساعدة نسرين من العيادة وبقع من الدماء على ردائها الأبيض، ابتسمت له وسألته:

– هل تود رؤية الدكتورة؟ إنها تقوم بخياطة جرح الآن.

– لا ، فهى لا بد مشغولة.

انصرف متجها إلى غرفة سليم. كانت سينيا معه. نظرت إلى رمسيس قائلة:

– لقد وصلنا فى قراءة التاريخ إلى الهكسوس.

انطلق القط حورس من تحت المقعد تجاه رمسيس الذى سألها:

– هل أنت متأكدٌ أن سليم يريد سماع تاريخ الهكسوس؟

– إنه مهتم بالتاريخ المصرى. أليس كذلك يا سليم؟ رد قائلا:

– هى مدرسة جيدة. ردت سينيا:

– وأنا أجيد رعاية المرضى أيضا. علق رمسيس ضاحكًا:

– والطعام هنا ممتاز. يبدو أنك تتحسن بسرعة. لا تتعبيه يا عزيزتى. ولكن سليم قال:

– لقد تعبت من الرقاد وأشعر بأننى على ما يرام. قل لنفرت أن تسمح لى بالقيام.

غادر الغرفة دون أن يعده بذلك. توقف فى الفناء حيث يلعب الأطفال وبعد ربع ساعة أخبرته فاتيما بحلول موعد الغداء فغادر الفناء وسط صيحات الاعتراض من الأطفال. عاد إلى مكتبه وما أن بدأ العمل مرة أخرى حتى جاءه جارجرى قائلا:

– لقد كنا نبحث عنك فى كل مكان. السيد دافيد فى انتظارك.

– لا حاجة لك بإعلان وجودى يا جارجرى.

– هل سنتناول الغداء يا سيدى؟

– ليس الآن. أخبر فاتيما بذلك. قال دافيد:

– أخبرها أن تعد لى شطيرة.

سأله رمسيس:

– إلى أين أنت ذاهب؟

– سأذهب إلى الأقصر، فقد نفد ما لدينا من قطن وقماش وقد جعلتنى عمتى أميليا أعدها بأن آخذك معى.

دفع رمسيس بالأوراق التى أمامه جانبا وقال:

– لن تفلت من العمل بهذه السهولة. لقد كنت أترجم بعض النصوص ولم أستطع التركيز. ما الذى يجعلها تعتقد أنك تحتاجنى معك؟

– لأننى سأذهب إلى محطة السكة الحديدية.

– ثم؟

– لا شىء سوى ذلك.

– هل تتوقع حدوث متاعب؟ ابتسم دافيد قائلا:

– ليس من المؤكد.

(٥)

كان احتمال تحول مجموعة من المتسكعين العاطلين إلى جماهير غاضبة هو ما يشغلهما. كان رمسيس يلوم نفسه لعدم تتبعه الأخبار كما يفعل دافيد. كان الوضع متفجرا بالفعل وأى إثارة قد تفجر شغبا ودافيد يعتقد أن بإمكانه منع حدوث ذلك. قال رمسيس:

– سأذهب معك.

عندما وصلا إلى المحطة كان الوقت ظهرا والحرارة شديدة وسمعا الصيحات العالية والهتافات من على بعد. كانت صفوف من الشرطة تحجز الجمهور عن المحطة بينما وقف حرس يرتدى الزى الكاكى حول الحطام. لم يبد على ضباط الشرطة الارتياح، فالكثيرون منهم متعاطفون مع المعارضين وكان أحدهم يحمل لافتة مكتوب

عليها وصف قبيح للإنجليز. كانت الشمس متوهجة والهواء يمتلئ بالغبار. صاح رمسيس بدافيد قبل أن يدلف إلى قلب الجمهرة:

– توقف لحظة!

كان هناك رجل فى جلباب ممزق وتحيط برأسه خرقة قذرة. التفت إلى رمسيس وتعرف عليه وقال له:

– نحن نريد أخذ الأخشاب المحطمة والمسامير والطوب ولكن الإنجليز الملعونين يمنعوننا. رد دافيد عليه قائلا:

– هم يريدون أن يعرفوا السبب فى الانفجار. سوف يُسمح لكم بالحصول على الحطام عندما ينتهون. قل لأصحابك أن يعودوا إلى بيوتهم.

– هل أنا معتوه؟ إنهم فى فورة غضب. رد رمسيس:

– ويستمتعون بذلك. لا شيء يقتل الملل في يوم حار مثل أعمال الشغب.

قال دافيد:

– أحدهم يخطب فيهم.

لم يكن الخطيب مفوها وإنما كان غاضبا وصاخبا وتفوه بكلمات مثل القهر والظلم، وباسم الزعيم المنفى زغلول. بدأ دافيد يشق طريقه بالقوة عبر الأجساد المزدحمة وتبعه رمسيس وهو يقول صائحا:

– عودوا لبيوتكم أيها الحمقى. ابتعدوا عن هنا. فكروا فى زوجاتكم وأطفالكم. هل تريدون أن يطلقوا عليكم النار؟

سمحوا له بالمرور وأخذ بعضهم بالنصيحة ولكن الخطيب كان لا يزال يصرخ وتحركت الصفوف الأمامية من الجمهور إلى الأمام. لم تكن الشرطة تحمل سلاحا ولكن الجنود كانوا مسلحين. وعلى أمل ألا يعتقد أحد خطأً أنهما من المعترضين أمسك

رمسيس بيد أحد المتظاهرين الذى كان يحاول القبض على رقبته وأسقطه على الأرض بضربة منه لقدميه. كان رجال المقدمة هم الأشجع أو الأقل تعقلا. أسقط دافيد بعضهم على الأرض وهو يصارع بكفاءة. تفرق الجمع تاركا دافيد ورمسيس فى مواجهة رجال الشرطة. هتف دافيد:

– أين ذلك اللقيط؟ أدرك رمسيس أنه يبحث عن الخطيب.

– ذاب فى الجمع كما هو واضح. اختبر ما إذا كنت تستطيع الصياح أعلى منه. رفع دافيد يديه وصرخ بصوت أعلى وبعد قليل بدأ الناس ينصتون. المصريون مسالمون على وجه العموم ويستمتعون بالإنصات إلى خطبة جيدة. أدرك الناس معقولية طلب دافيد الذى قال: "العنف لن يأتى إلا بالضرر لكم ولأسركم يا إخوانى. ستأتى الحرية وأنا أعرف أن ذلك حق. لقد حاربت من أجلها وسأستمر فى الحرب.

كان دافيد هو بطل اللحظة. اندفعت الجماهير نحوه والناس يحاولون عناقه ورمسيس يرقب الوجوه الثائرة بعين متفحصة. رأى يد مرفوعة وهى تقذف بحجر فى الهواء فقذف بنفسه تجاه دافيد ولكنه كان متأخرا بنصف ثانية.

(٦)

بعد استعراض للموقف قررت أن نتوقف عن العمل لباقى اليوم فلم نكن فى عجلة. معظم الأشياء الثمينة تم تغليفها وتعبئتها ولم أكن قد قررت بعد ماذا سنفعل بالثوب المطرز ولفافات كتاب الموتى. فالثوب تأثر منذ أن قام مارتنللى بفرده ومعالجته وأصبح لونه داكنا وبدا القماش واهنا. رأيت أننا سنفقد الثوب مهما حاولنا أن نفعل. لماذا لا نترك لاكو يتحمل المسئولية النهائية عن ذلك؟ إذا طلب إعداد الثوب لنقله سنفعل ولكنه سيحصل فى القاهرة على حبات التطريز سائبة وبعض قطع من قماش الكتان الممزق.

أما بالنسبة لكتاب الموتى، فقد كنت آمل أن أقنع لاكو أن يترك اللفائف البردية معنا لفترة حيث أن فردها يحتاج إلى مهارة تتوافر لوالتر وكنت أشك فى أن هناك بالقاهرة

من يمكنه فعل ذلك وخاصة أن والتر كان من أشهر العارفين على مستوى العالم بالنصوص القديمة.

بعد أن توصلت إلى هذا الاستنتاج وشرحت ذلك للآخرين، استمتعنا بالوليمة التى قدمتها لنا كاثرين ثم تفرقنا. ذهبت إيفلين لتستريح قليلا وخلى والتر لبردياته وعادت ليا إلى البيت.

سألنى سايروس وهو يرقبنى وقد وضعت القفازات فى يدى ولبست قبعتى:

– إلى أين أنت ذاهبة؟ قررت أن أقول له الحقيقة:

– سأزور قبر عبد الله قبل أن أذهب للبيت.

رد قائلا وهو يأمر السايس أن يسرج حصانه:

– لن تذهبى وحدك.

– لا أعرف لماذا تفترض أننى فى حاجة إلى مرافق يا سايروس، لقد تركت ليا ترحل للبيت وحدها.

– أنا أثق فيها ولا أثق فيك. هل هذا ما ستفعلينه فقط؟ تزورين قبر عبد الله وتسألينه النصيحة؟

– نحن فى حاجة للنصيحة ليس عندى هدف آخر.

– ولكنى سآتى على كل حال.

طقس مصر جاف، ولكن عندما تكون درجة الحرارة عالية يكون حارا مهما كانت درجة الرطوبة. كان الظل لدى المقبرة مريحا بعد رحلتنا فى الصحراء الحارة. أعطى سايروس بعض النقود لعبد الرازق ثم جلس يروح بقبعته ودخلت أنا إلى المقبرة.

لم أركع للصلاة وإنما أغلقت عينى وفكرت فى عبد الله. لم أعرف ماذا أتوقع فلم يحدث أن أتى إلىّ وأنا فى حالة يقظة ولم أفترض أنه سيستجيب لرجائى الصامت الآن.

سمعت جلبة شديدة من وقع أقدام عبد الرازق وهو يقوم بكنس الضريح وبعض الأصوات البعيدة. أحسست بيد تلمس كتفى ففتحت عينى لأرى وجه سايروس قريبا من وجهى وهو يقول:

– لقد كنت تترنحين. ما الذى كنت تحاولين عمله؟

– كنت أحاول الدخول فى حالة تأمل عميق.

وضع عبد الرازق مكنسته وجلس بجوار وعاء النذور. وضعت بعض العملة فى الوعاء وساعدنى سايروس على ارتقاء صهوة الجواد وهو يقول:

– لقد رأيت أشياء غريبة فى حياتى وأحب أن أرى عبد الله مرة أخرى، هل حالفك الحظ فى رؤيته؟

– لم أره، ولكنى أعتقد أننى سمعت صوته يقول: أنت فى نقطة البداية يا ست. انطلقى ولكن احرصى على معرفة أين تضعين قدميك.

– وما الذى يعنيه ذلك؟

– لا أعرف يا سايروس.

(٧)

لم تفلح محاولتنا فى أن نصبح طبيعيين أثناء الغداء من أجل الأطفال. كانت الضمادات على وجه دافيد واضحة للكل وتقبل الأطفال تأكيداته بأنها نتجت عن حادث عارض. أمرت كل الأطفال بالذهاب إلى الركن الخاص بهم بعد أن أعطيتهم بعض البسكويت. كنا على وشك البدء عندما ظهر سيثوس لدى الباب يطلب الدخول. لا بد وأنه تناول الغداء بالأقصر حيث كان يرتدى حلة من التويد وربطة عنق. قلت له وأنا أدخله إلى الغرفة:

– سعدت مساء. وبدلا من أن يرد نظر إلى دافيد:

– ما الذى تظن بحق الشيطان أنك تفعل؟ رد دافيد:

– هل سمعت بما حدث؟

– بالطبع فالأقصر كلها تعرف، وغداً ستسمع القاهرة أنك خططت لأحداث شغب، أيها الصغير المعتوه!! قاطعته قائلة:

– أرجوك مراعاة وجود الأطفال. قال رمسيس له:

– لم يخطط لشغب وإنما منع حدوث الشعب. كان الجنود البريطانيون موجودين، وسمعوا ما جرى. صاح سيثوس:

– سمعوا إنجليزيا يتحدث العربية ولم يفهموا كلمة مما قال. لن يصدق أحد ما يقوله المصريون عن ذلك. لقد كان بالفعل مشكوكا فيه. قالت ليا وقد احمر وجهها انفعالا:

– كان يحاول إنقاذ حياة الناس.

– أنا لا أبالى بما كان يحاول أن يفعل. لقد فعلت ما بوسعى لتبديد شكوك المسئولين ولكنه استمر فى دس أنفه.

انفجر الجميع فى اعتراض عارم وكان صوت إمرسون هو الأعلى، ولكنى ظللت صامتة. نادرا ما رأيت سيثوس بهذا الغضب الشديد. سمعت صوت والتر الخافت وهو يقول:

– معذرة يا سيثوس.

– أنت توافقنى فى الرأى يا والتر. قل لزوج ابنتك أن يتراجع. رد والتر:

– لا، لن أفعل. أدهشتنا هذه الجملة كثيرا ولكنه استمر يقول بنفس الصوت الهادئ:

– على الإنسان أن يتبع ضميره. لقد كنت مخطئا عندما طلبت من دافيد أن يفعل عكس ذلك. إن صوته هو صوت التعقل وتوخى الوسائل السلمية فى الاعتراض. أنا أعتقد بسلامة موقفه وسأؤيده إلى أقصى حدود إمكانياتى. علق إمرسون قائلا:

– أحسنت قولا يا والتر. ثم تمتم دافيد قائلا:

– أشكرك يا سيدى. أسرعت ليا باحتضانه قائلة له:

– يا لك من أب رائع.

جلس سيثوس وخفف من ربطة عنقه قائلا:

– لا أريد أن أبدأ فى إثارة العواطف. إذا بكى أحد فسوف أخرج من هنا . صحت فيه وأنا أنظر بحدة لمريم:

– لا أحد سيبدأ فى البكاء. أعرف أن غضبك سببه عاطفتك تجاه دافيد ولكنه كان مزعجا لمن لم يعتادوا على المزاج الحاد الذى يميز رجال العائلة. رد رمسيس قائلا:

– نعم، وكان من الأفضل أن تتيقن عن من تسبب فى المتاعب أصلا. أنت تدعى بأن لك صلات بمن هم فى مراكز السلطة بالمخابرات. أليس لهم من يزودونهم بالمعلومات وعملاء فى الحركة الوطنية؟ رد سيثوس:

– لسوء الحظ فقدنا أفضل عملائنا عندما اعتزلت أنت ودافيد العمل معنا. هل تقترح أن هذه الاضطرابات قادها من هم خارج الحركة الوطنية؟ رد رمسيس:

– نعم، لقد شاهدت عددا من الغرباء فى الزحام وأعتقد أننى تعرفت على واحد منهم، الرجل الذى ألقى بالحجر يا دافيد. أجابه دافيد:

– لم أره جيدا ولكن قد يكون فرانسوا حارس ذلك الصبى.

– إنه من أشقياء باريس ويقاتل مثلهم. ما الذى تعرفينه عنه يا مريم؟

أجابت وقد انكمشت فى مكانها:

– لا أعرف عنه شيئا فقد كان معهم عندما التحقت بالخدمة ولم يقل لى أحد من أين أتى. أنا أخاف منه ودائما ما كنت أخشاه. سألها إمرسون بحدة:

– هل ضايقك من قبل؟

– لا، ليس كذلك. لا أصدق أنه يمكن أن يشارك فى أى حركة وطنية، فهو ليس من ذلك النوع من الرجال. جستن هو هدفه، فهو الحامى له ولكن لديه ضغائن. هل أنت واثق من أنه كان يستهدف دافيد عندما ألقى بالحجر؟

(٨)

كان سؤالها وجيها، لو كان قد أتى إلى مكان الأحداث بدافع الفضول فلربما استغل الفرصة للانتقام من شخص تسبب فى إصابته سابقا وفى هزيمته. اعترف رمسيس بأنه افترض أن الحجر كان موجها لدافيد. أعلنت لهم رأيى قائلة:

– هذا ليس مقبولا. أنا أفضل ألا يكون لى علاقة بأى منهم ولكن إذا كان هذا الفرنسى الشرير سيستمر فى قذف الناس الذين يكرههم بالحجارة فيجب إيقافه. يا إلهى الرحيم، قد تكون التالى يا إمرسون.

– هذا سيناسبنى تماما. سأزور السيدة العجوز. صحت قائلة:

– لن تقوم بشىء من ذلك يا إمرسون.

– ولكن يا بيبودى!!

قالت مريم:

– سأتحدث معها إذا رغبتم. كنت أشعر بأننى يجب أن أزورها لأعرف كيف حال جستن، وهذا أقل ما يمكننى عمله بعد أن تركتهم. صاح سيثوس:

– سأذهب معك فربما سمحت السيدة العجوز لى بتقديم احتراماتى.

– أشك فى أنها ستسمح. قالت مريم ذلك وذهبت لإحضار قبعتها وأخذت أنا سيثوس على حدة:

– لماذا تتعامل مع الفتاة بهذه الكيفية؟ هى تحاول أن تفعل ما بوسعها وأنت لا تعاملها بطريقة أبوية. رد سيثوس:

– أنا أحاول يا أميليا، صدّقت ذلك أم لا.

– أنت تخشى أن تسمح لنفسك بالاهتمام بها. أجاب سيثوس:

– لا تفعلى ذلك يا أميليا. أنا مدرك تماما لدوافعى ومشاعرى ولا أحتاج لأن تشرحيها لى.

ابتسمت له، فقال لى:

– سآخذها للعشاء بالأقصر، ما رأيك فى ذلك؟ كنت أود تناول العشاء مع صديقتك السيدة فيشر التى تعرف كل سيدة فى المنطقة، ولكنى سأعتذر لها.

– سيكون ذلك أمرا لطيفا منك.

بعد تناول الغداء مباشرة دخل إمرسون إلى مكتبه وتفرق الآخرون عندما عدت إلى غرفة الجلوس بعد ذهاب والتر وزوجته كانت ليا قد غادرت المكان بصحبة دافيد وكان رمسيس واقفا وقال:

– سنقول لك سعدت مساءً يا أمى.

– ألن تتناول قدحا آخر من القهوة أو تتحدث معى قليلا؟ قالت نفرت:

– هو يحتاج للراحة فقد كان يومه طويلا.

– نعم. ولكنى أحس يا رمسيس بأن امتداحنا لدافيد قد جعلنا نتجاهل نصيبك من المديح، فأنت أنقذته من إصابة خطيرة وجازفت بنفسك كما تفعل باستمرار.

– لا تقومى بإلقاء خطبة يا أمى، فقد كنت ستفعلين نفس الشىء وربما ما هو

أكثر. فلمسة واحدة من الشمسية كانت كفيلة بتفريق المتظاهرين وهم يصرخون. لقد نسيت أن أذكر لك أننى ترجمت تلك البردية لك وتركت الترجمة على مكتبك.

- شكرا يا ولدى العزيز. كيف حال سليم يا نفرت؟

- سألقى نظرة عليه قبل أن نذهب للفراش.

(٩)

لم أشعر بضرورة انتظار مريم ولكنى كنت أجلس بالشرفة أستمتع بهدوء الليل عندما عادت مع أبيها.

- سعدت مساءً يا أميليا. بادرنى سيثوس وهو يساعد ابنته على الخروج من العربة.

كانت مريم ستأخذ طريقها عبر الحديقة ما لم أفتح لها الباب. قلت لها:

- إجلسى قليلا معى. هل استمتعت بالعشاء مع والدك؟

- نعم فقد كان لطيفا. لم أكن أعرف أنه بهذه الشهرة، لقد توقف عدد كبير من الناس للتحدث معه، وصديقة لك تدعى السيدة فيشر ترسل لك تحياتها.

- بعد أن تم تقديمها لك كما أعتقد فالقادمون الجدد للأقصر محط الاهتمام دائما. هل تذكرت تلك السيدة أنها قابلتك منذ عدة سنوات عندما كنت هنا مع زوجك؟

- هل قابلتها؟ لا أتذكر، فقد كان ذلك منذ زمن بعيد وقد تغيرت أنا كثيرا منذ ذلك الحين.

انفتح باب البيت ودخل إمرسون قائلا:

- أهلا يا مريم، هل قضيت وقتا طيبا هذا المساء؟

- نعم يا سيدى.

- وماذا عن ذلك الشرير فرانسوا؟ هل رأيته؟

- نعم يا سيدى، فقد جاءت به السيدة فيتزرويس إلى الصالون بعد أن أخبرتها عن واقعة قذفه للحجر.

- لقد أنكر بالطبع كما أعتقد.

- لا يا سيدى لم ينكر. لقد قال أشياء فظيعة عن رمسيس وعنك. إنه يكرهك.

- لا تبالى. لو رأيته بالقرب من المكان فسألقنه درسا.

- لن يفعل فقد كلمته بصراحة وهددته بالطرد لو فعل شيئا كذلك مرة أخرى وهذه هى أسوأ عقوبة بالنسبة له لأنها تعنى انفصاله عن جستن.

- لن يكون ذلك لوقت طويل فسيغادرون إلى القاهرة بعد أيام قليلة، لأن جستن مريض.

(١٠)

كان إمرسون يأمل فى أن تسنح له فرصة للعراك مع فرانسوا ولكن اليومين التاليين مرا دون أى أثر له. كان الكنز قد تم تغليفه وتعبئته وأصبح جاهزا للنقل فيما عدا الأشياء التى قررت تركها وبالتالى أعدت لإمرسون فرقته التى تعمل معه مما سمح له بالعودة إلى عمله. كان اكتشافه لبعض التماثيل الجنائزية والأعمدة التى تركها الحفارون السابقون قد مكنه من إرجاع أساسات المعبد إلى الأسرة الثامنة عشر، وانتهى برتى من رسم قواعد معبد أمنحتب الأول. وعندما كان يحفر فى قبو منزل بالقرية عثر رمسيس على مجموعة أخرى من الفخار المنقوش قام بترجمة إحداها لنا على الغداء قائلا:

- إنها تقع فى قسم الخطابات المكتوبة للموتى. وهذا الخطاب كتبه أرمل لزوجته المتوفاة قائلا. إلى الروح الغالية باخيتامون: ما الذى فعلته لك لكى تجعلى الشر يأتى

إلىّ؟ لقد جعلتك زوجتى ولم أهملك، وقدمت لك الكثير من الأشياء الطيبة وعندما مرضت جعلت كبير الأطباء يزورك، لقد لففتك فى كتان فاخر ودفنتك دفنة طيبة ومنذ ذلك الحين لم أعرف امرأة أخرى رغم أن من حق رجل مثلى أن يفعل ذلك. ولكنك تعذبيننى وترسلين الشر إلىّ. استفسرت نفرت:

– هل ذكر أى نوع من الشر؟

– لا ولكن ربما حاق به شىء من سوء الحظ.

– ويلومها على ذلك؟ . تساءلت ليا وهى تضحك:

– مثله مثل أى رجل. يقع الناس من الجنسين وفى كل الثقافات فى هذا الخطأ، فمن المريح إرجاع سوء الحظ إلى العفاريت لأن الشخص يود أن يتجنبه عن طريق السحر بدلا من قبوله على أنه أمر حتمى.

– أو قبوله على أنه نتيجة خطئه هو. قالت ليا:

– يبدو لى أنه لم يكن ليلومها ما لم يكن يعرف أنه فعل شيئا يستوجب غضبها ولا يقر بذلك. قال رمسيس:

– هو يقول إنه سيقدم شكوى ضدها فى محكمة الآلهة. وهذا طلب رسمى، ووثيقة شرعية.

قال برتى مبتسما:

– مثل التعديل الخامس للدستور الأمريكى فلن يشهد الرجل ضد نفسه.

كان إمرسون ينصت لما يقال ولكنه أمر الجميع بالعودة للعمل.

ولأننى كنت فى إحدى الأمسيات وحيدة ولا أحد أتحدث معه، ذهبت إلى مكتبى الخاص. كان والتر وزوجته قد ذهبا إلى القلعة وذهب الآخرون إلى حجراتهم ودخل إمرسون مكتبه. كان مكتبى متخم بالأعمال التى أقوم بها بما فى ذلك مذكرات استكشافاتى الخاصة ولكنى التفتّ إلى ثلاث صفحات من الورق عليها خط رمسيس

وهى ترجمة لجزء من برديات والتر والتى لم تسنح لى فرصة قراءتها. كانت تبدأ بالجملة الخاصة بـ "أطفال العاصفة" ولكن عندما قرأت باقى الصفحات لم أجد بها ما يثير الاهتمام. إنه اليوم الذى يقاتل حورس فيه ست". يتبع ذلك "إنه يوم السلام بين حورس وست". لم يكن غريبا أن يكون اليوم الأول "غير مفضل" بينما اليوم الثانى "مفضل". لم يكن لأى من اليومين علاقة بوضعنا الحالى.

ولكن ما الذى كنت أتوقعه؟ قراءة خط رمسيس دائما ما كان يسبب لى الصداع. وضعت الصفحات جانبا وتحتهم إحدى قوائمى، أسماء النساء اللاتى كان رمسيس على علاقة بهن. خفت أن يكون قد رآها، وفى نهاية الصفحة كانت هناك جملة "عار عليك يا أمى".

بدأت أرسم فى صفحة بيضاء. رسمت آنية صغيرة وأضفت إليها بعض الزخارف البسيطة، زهور اللوتس وطائر وحية مجنحة، فكلها تذكرنى بالمجوهرات التى شغلتنا باختفائها.

حاولت رسم الكبش الأقرن لآمون، والذى أتزين بصورته فوق صدرى. كان من الزخارف البسيطة وكثير من المصريين يصنعون مجوهراتهم من عناصر بسيطة مثل القلادة المسروقة، والتى بها جعران وصنوف من زهور اللوتس واثنتين من حيات الكوبرا تحيطان بهما. قمت برسم القلادة وأضفت للحيتين تاجين أبيضين على رأسيهما وتحول قلمى عشوائيا فوق الورقة وكذلك تحول عقلى محاولا تلمس ما يعد ضروريا للنسق الذى حاولنا إعادة ترتيب عناصره. ألم يؤكد لى عبد الله أن هناك شكلا للأحداث؟ كنت على ثقة من أننى سمعت صوت عبد الله فى ذلك اليوم، فقد كان من عادته أن يقول كلاما غامضا بدلا من أن يعطى إجابة مباشرة: أنتِ عند البداية...، وقال "هذا أيضا جزء من الشكل". عندما كان يتحدث عن ارتقائه لرتبة الشيخ كان قبره هو البداية. حملقت في الرسم الذى لم يكتمل للقلادة وكنت أدرك أن شكلا معينا قد قدرناه ولكننا لم نستكشف بعد طريقا آخر للمعلومات.

(١١)

قمت فجأة وقد أحسست بالإلهام وخرجت مسرعة من البيت. لم يستجب أحد لطرقاتى لبعض الوقت ولكنى ثابرت حتى فتح رمسيس الباب وأدركت عندها أن الوقت متأخر جدا.

– هل أيقظتك؟

– لم أكن نائما. ماذا حدث؟ أدخلى وأخبرينى.

– أنا آسفة لإزعاجك، ولكن لدىّ سؤال واحد.

عندما سألته السؤال، اتسعت عيناه وقال باستغراب؟

– لا أستطيع التذكر ولكن لماذا؟

– لقد سمعت اسم المكان بالرغم من ذلك.

– قد أكون قد سمعته وربما يعرف أبى. هل سألتيه؟

– أفضل ألا أذكر شيئا عن الأمر لوالدك. حاول أن تتذكر. أستطيع إرسال برقية لتوماس راسل، ولكن الوقت ثمين.

هز رأسه قائلا:

– كان ذلك منذ سنوات عديدة ولا أفهم لماذا؟

– ربما جاء التذكر ليلا عندما يكون عقلك مشغولاً بشيء آخر. هذه هى الطريقة التى تعمل بها الذاكرة. لا تتردد فى الحضور إلىّ فى الحال مهما كانت الساعة.

كان مستيقظا تماما الآن ولكنه كان يعرف أنه لا فائدة من توجيه أسئلة لن أجيب عليها. قال لى:

– لن أجرؤ على إيقاظك يا أمى أو إثارة قلقك.

– لا تشغل بالك بذلك يا عزيزى، فنومى خفيف.

– ما دمت تصرين. سأتمشى معك حتى البيت.

– لا، وأشكرك يا عزيزى. لا يجب أن تخرج من البيت عارى القدمين وعندما تجد حذاءك ستكون قد أيقظت نفرت.

– هى متيقظة، هل أفهم أنك لا تريدين منى أن أذكر لها الأمر؟

– فيما بعد.

حوالى الثالثة صباحا أيقظنى صوت خربشة بالنافذة لم يتحرك إمرسون فهو يستطيع النوم حتى فى عاصفة رعدية. أحكمت قميص النوم حول جسدى قبل أن أتجه إلى النافذة لأنظر. كان الفانوس لا يزال مضيئا وعلى ضوئه تعرفت على إبنى واقفا همست له:

– هل تذكرت؟

– نعم جاءتنى الذكريات عندما كنت أفكر فى شىء آخر. المكان يقع إلى الجنوب من هنا على بعد ثلاثين ميلا على الصفة الغربية، أعتقد أنه لا فائدة من سؤالك لماذا؟

– ستعرف الإجابة غدا. أريدك أن تأتى معى ولا تخبر والدك ولا نفرت.

تقلب إمرسون فى فراشه ولم يجدنى بجواره، همست لابنى.

– سأقوم بعمل الترتيبات. إذهب الآن.

جلس إمرسون فى الفراش وصاح:

– بيبودى.

اختفى رمسيس فى الظلام.

لم يكن سهلا أن أرحل من دون أن يعرف إمرسون، ولكنى تحايلت على ذلك بأن قلت له أن باستطاعته الاستعانة بكل من ليا ودافيد ذلك اليوم. قال إمرسون:

– وماذا عن رمسيس؟

– لقد وعدنى بالانتهاء من ترجمة نصوص لى هذا الصباح. سوف نأتيك فيما بعد.

(١٢)

أخذ إمرسون ليا ودافيد بعد الانتهاء من الإفطار مباشرة خوفا من أن أغيّر رأيى. لم تحضر مريم ولا نفرت لتناول الإفطار، وبالتالى لم يعترضا طريقى. اصطحبت رمسيس وغادرنا البيت وأنا أحمل شمسية خاصة.

لم أكن قد رأيت محطة القطار بعد أن وقع التفجير وأدهشنى أن التلفيات كانت محدودة. كان القطار متأخرا بساعة كاملة كالمعتاد. كان قطارا من الدرجة الثانية والثالثة، وبينما كان رمسيس يساعدنى على الصعود إلى عربة القطار لمحت طبيب مسز فيتزرويس الذى حيانى بانحناءة.

كانت العربات القديمة تهتز فوق القضبان وينهمر التراب الناعم من نوافذها. وضع رمسيس ذراعه من حولى وأعطانى منديلا.

– هل أحضرت خنجرك؟

– وهل تتوقعين مشاكل؟ كان يجب أن تحذرينى.

– لا أتوقع أى مشاكل ولكن للاحتياط، لا عليك، الشمسية معى.

– فيها الكفاية. لقد قلت لكل من سأل إلى أين نحن ذاهبان.

– وأنا تركت رسالة لوالدك حتى إذا فشلنا فى العودة!!؟

– اللعنة! هل ستقولين لى الآن لماذا ذلك كله؟

التزمت الصمت، وقال رمسيس بكلمة بذيئة أخرى.

كانت القرية تبدو من بعيد فى صورة بديعة وحولها أشجار النخيل وبها مئذنة صغيرة تطل من بين الأشجار. علمتنى التجارب أن الصورة عن قرب تختلف تماما، وعندما وصلنا إلى القرية لم تكن تختلف عن غيرها من القرى. نفس الأسطح المستوية والطوب النيئ المطلى المستخدم فى بناء المنازل ونفس الدجاج والحمام يلتقط الحب من القاذورات ونفس مجموعات الأطفال تنطلق تجاهنا وأيديهم ممتدة يسألون البقشيش، ونفس النسوة المرتديات للثياب السوداء يتمهلن وهن يطحنّ الحبوب أو يصنعن الخبز وينظرن بفضول إلينا.

لاحظت أن أجساد الأطفال صحيحة وعيونهم خالية من الالتهابات كما كانت الكلاب التى تجرى خلفنا غير نحيفة. كانت هناك دلالات أخرى على الرخاء، صنوف من الأوعية الفخارية المستخدمة فى نقل الماء خارج منزل صانع الفخار والعديد من الخيوط الخاصة بالغزل ممتدة بين جذوع النخل، والنساجون يعملون فيها بنشاط. تركت رمسيس للتعامل مع الأطفال الذين وعدهم بالبقشيس إذا ما دلونا على منزل الرجل الذى نبحث عنه.

قبل أن نمضى بعيدا فى الحارة الضيقة رأينا رجلا يسرع تجاهنا ويده ممدودة وعلى وجهه ابتسامة كما لو كان قادما لتحية أصدقاء قدامى. كان صغير السن وقوى البنية. صاح قائلا لرمسيس:

– بارك الله فيك يا أخا العفاريت، ما أطيب أن أراك ثانية.

– تحياتى إليك يا موسى. هذه أمى.

– ومن الذى لا يعرف الست الحكيمة! انحنى الرجل مقبلا يدى قائلا:

– إنه شرف كبير. سيدى يعرف أنكما قادمان وهو فى انتظاركما. نطق بعدة كلمات للأطفال فانصرفوا دون اعتراض.

البيت الذى قادنا إليه كان مبنيا بالحجر الذى ربما كان مأخوذا من معابد قديمة، وتحيطه الأشجار وله حديقة صغيرة. وفى المندرة وهى الحجرة الأساسية للاستقبال

كانت توجد الموائد والأرائك وكان الغربى فى الانتظار.

(١٣)

كنت قد سمعت عنه كثيرا ولكى لم أره من قبل، وبدلا من أزياء النساء التى اعتاد أن يرتديها كان يلبس قفطانا بسيطا من الحرير الأزرق وعباءة بنفس اللون ولكن وجهه الأسود المستدير كان مطليا بالألوان، الكحل حول عينيه والأحمر فوق خديه من فعل الحنة وتفوح من حوله رائحة طيبة.

سارعت قائلة:

– لا تنهض. كنت اتحدث الإنجليزية ويرد بالعربية

قال لرمسيس :

– الست الحكيمة عظيمة ولكنى أصبحت عجوزا وبدينا.

صفق بيديه فجاء موسى على الفور. قال لنا:

– إجلسا من فضلكما فسنشرب الشاى معا. أنتما تشرفانى بوجودكما، أنت وولدك الشهير. أنت لا تزالين جميلة كما كنت.

رد رمسيس:

– وأنت لا تزال مشرقا كما كنت والقرية تبدو مزدهرة. قال الغربى ردا على رمسيس:

– لا أستطيع أن أرى الأطفال جائعين والمسنين والمرضى يتركون للموت. لقد ساعدت قليلا، فعلى المرء أن يصنع سلامه مع الله قبل أن يموت ويدفع ثمن ذنوبه.

لم نقل له كيف أن سجله حافل بما يستوجب أن يدفع ثمنه. استطرد بعد أن ضحك قليلا:

– أليس مكتوبا "ومن يفعل صالحا من ذكر أو أنثى ويؤمن فسيدخل الجنة"

لم يكن دينه هو الدين الوحيد الذى يتيح الخلاص لمن يتوب. فالقرآن يتطلب العمل الصالح بدلا من الإيمان فى آخر لحظة.

عاد موسى ومعه عدد من الخدم يحملون الصوانى، كانوا جميعا من الرجال، صغار السن وعلى وسامة واضحة. تم تقديم الشاى ومعه الخبز الطازج أثناء حديث الغربى الذى استطرد:

– وزوجتك الجميلة أهى بخير؟ حفظها الله. وأبو اللعنات؟ كم كان طيبا معى، السيارة التى جلبتها له منذ أعوام مضت بحالة طيبة أليس كذلك؟ والأوراق المزورة؟ لقد كنت شديد السعادة لأقوم بتلك الخدمات البسيطة له. حفظه الله.

لم يكن من المجاملة أن نقاطعه ولكنه فى النهاية سمح لى بالحديث عندما سألنا البقاء لتناول الغداء عند الظهر قائلا:

– موسى سوف يأخذكم لزيارة القرية وستعجبون بها. أجبته قائلة:

– أنت شديد الكرم ولكنى أخشى ألا نستطيع البقاء. يجب أن نعود إلى الأقصر الليلة. لقد جئت لأسألك سؤالا:

– سؤالا واحدا؟ كل هذه المشقة من أجل سؤال واحد؟ أنا فى خدمتك يا ست الحكيمة. ما هو سؤالك؟

عندما حانت اللحظة كنت مرغمة على الكلام وكان رمسيس يراقبنى وكذلك كان الغربى. قلت له:

– لقد أرسلت إلينا تحذيرا مرة، وقلت أن الثعبان الصغير.....

– له أنياب سامة. أتذكر ذلك يا ست وآمل أن يكون التحذير جاءك فى الوقت المناسب. أجبته قائلا:

– سننظر لنرى. إنها تقيم معنا الآن، ولا يوجد لدى سبب للاعتقاد بأنها تنوى بنا

شرا، ولكنى أريد أن أعرف لماذا قلت لى ذلك فى تحذيرك. لقد انتهى زواجها من الرجل الأمريكى نهاية سيئة.

– زواج؟ أمريكى؟

– لا بد وأنك عرفت بذلك، فأنت مشهور عنك معرفة كل شىء.

– أعرف ولكن يا ست الحكيمة ليست هذه من كنت أعنى. بل الأخرى.

الفصل الثانى عشر

(١)

لم تعرف نفرت بخداع زوجها - كما كانت تنظر إلى الأمر - حتى انتصف اليوم وعندما اندفع إمرسون إلى عيادتها، كانت المريضة التى لديها تعالج من التهاب بالصدر فسارع إمرسون بالخروج بالسرعة التى دخل بها وسألها صائحاً:

- كم سيستغرق الأمر منك؟

- ليس طويلا. خرجت المرأة من عندها بعد أن أعطتها بعض المراهم، وذهبت نفرت إلى غرفة الانتظار التى كان ينتظر بها إمرسون. اندفع نحوها وأعطاها ورقة صائحا: اقرئى هذه" . كانت غرفة الانتظار خالية. استطرد سائلا:

- هل تعرفين شيئا عن ذلك؟ ازداد غضب نفرت عند قراءتها للورقة التى كانت تحمل رسالة مقتضبة.

- ذهبت أنا ورمسيس فى مهمة وسنعود فى المساء. إذا لم نعد حتى صباح الغد وهو ما ليس مرجحا على الإطلاق ابحثوا عنا فى قرية تسمى "الحلة" على بعد ثلاثة أميال جنوب إسنا بالبر الغربى. تحياتى يا عزيزى إمرسون. أغلقت نفرت يدها على الورقة قائلة:

- اللعنة عليه! رد إمرسون مندهشا:

- إذن لم يبلغوك أنت أيضا .

- لا. هى تقول إنه ليس من المرجح على الإطلاق ألا يعودا . ما هذه القرية؟

– الاسم لا يعنى شيئا بالنسبة لى. أخرج غليونه بالرغم من معرفته أنها لا تسمح بالتدخين فى عيادتها وقال: .

– دعينا نسأل سليم.

– لا .. خلعت رداءها الطبى ووضعته على كرسى قائلة:

– لن أسمح بتعريضه للقلق. هيا بنا يا أبى.

جلسا على مقعد تحت الأشجار وملأ إمرسون غليونه قائلا:

– لا تبتئسى يا عزيزتى فهى تفعل مثل هذه التصرفات طوال الوقت كما تعرفين.

– ولكنه لا يفعل. لقد أقسم لى ألا يذهب أى مكان وحده دون إبلاغى.

– ولكنه ليس وحده. لا تلومى رمسيس، فوفقا لمعرفتى لزوجتى فلا بد وأنها أصرت على أن يبقى الأمر سراً.

– كان يستطيع الرفض. هى بنفس درجة السوء التى هو عليها. استمر إمرسون فى التدخين صامتا.

– لا بد أنهما استقلا قطار الجنوب فلا يوجد سواه حتى المساء.

– نستطيع الذهاب على الخيول. كم يبعد المكان؟

– حوالى ثلاثين ميلا. يبدو أنهما سيستقلان قطار بعد الظهر إلى الأقصر وهو ما يسمح لهما بقضاء بعض الساعات فى المكان الذى قصداه. وهز رأسه فى يأس.

– لا جدوى من التكهن أو تتبعهم. إذا جاء القطار فى موعده فلا بد وأنهما فى طريقهما إلى البيت عندما نصل إليه. ردت بحدة.

– كيف تتصرف بهذه البساطة، ألست غاضبا؟

– كنت غاضبا ولكنى أدركت أننى يجب أن أكون معتادا على هذه الألاعيب من

بيبودى، فقد لعبنا هذه الأدوار من قبل وكل منا يحاول أن يكون أول من يقوم بحل المعضلة. وهى تغش كما تعرفين.

– إذن ليس أمامنا سوى الانتظار.

– هذا هو ما أراه، وقد أذهب للعمل لبعض الوقت وعليك أن تبلغينى إذا طرأ شىء.

(٢)

أطلت نسرين من الباب فابتسم لها إمرسون فقالت مخاطبة نفرت:

– هناك مريض جاء للعيادة كما جاءت هذه الرسالة. سألها إمرسون:

– من رمسيس؟ أجابت نفرت:

– لا، فالخط ليس خطه. فتحت نفرت الخطاب وقالت:

– إنه من الطبيب محمد – طبيب السيدة فيتزرويس. يقول إن جستن مريض ويسأل إذا كان بإمكانى رؤية الصبى.

– سأذهب معك.

– هذا سخف. ما الذى يمكن أن يحدث لى فى ضوء النهار والمئات من الناس حولى؟ سأنتهى أولا من المريض الذى جاء، وهو عبد الحميد على الأرجح، يريد محلولا سكريا وسأعود بعد ساعات قليلة.

عندما ذهبت إلى الأقصر كانت قد هدأت نوازعها، فرمسيس لا يمكن أن يكون يواجه متاعب خطيرة وهى لا تلومه بشكل مباشر. فوجودى معه أحد العوامل التى لا يستطيع مقاومتها.

عندما وصلت نفرت إلى المركب إيزيس لاحظت اضطرابا ظاهريا وحدست أن

الدهبية فى طريقها للإبحار. كان الطبيب فى انتظارها عند رأس المعدية وقبعته فى يده. بادرها قائلا:

– سيدتى العزيزة، ما أطيبك للقدوم بهذه السرعة. أمسك بيدها لتقبيلها ولكنها سحبتها قبل أن يفعل. سألته:

– ماذا به؟

– حمى. حاولت خفض حرارته ولكن بلا فائدة. سنبحر فى الحال كما لاحظت، ولكن وصولنا للقاهرة سيستغرق عدة أيام وسيدتى تريد أن تتأكد من أن كل الاحتياطات قد اتخذت بشأن الصبى.

– إذن دعنا لا نضيع الوقت فى الحديث. خذنى إليه.

– إتبعينى. أشار إلى الممر المؤدى إلى الكبائن وقال: آخر غرفة إلى اليمين.

أخذ بساعدها ليدلها على الغرفة. كان خلفها مباشرة لدرجة تستطيع معها سماع تنفسه المتسارع. أمسك بذراعها بقوة ووضع يده على فمها. قاومته ولكنه كان ممسكا بها بطريقة يستحيل معها الفكاك. ضربته بقدمها من الخلف بقصبة رجله لكنه بحركة مفاجئة أمسك بأنفها وسد أنفاسها، فانهارت قدماها. عندما رفع يده عن وجهها كانت تلهث لكى تتنفس ففتح أحد الأبواب وقذف بها إلى الغرفة. سقطت على يديها وقدميها. أغلق الباب تاركا إياها فى ظلام دامس.

ظلت ساكنة لحظات لتستعيد أنفاسها وتحاول ترتيب أفكارها. لقد اقترفت خطأ فادحا، ولكن ما الذى يحاولون عمله معها، وكيف تستطيع منع ذلك.

ابتسمت لنفسها فقد وجدت العصابة التى تبحث عنها حماتها وبالطريقة التى تفضلها تلك السيدة. كم منهم مشترك فى ذلك؟ كل الطاقم بالتأكيد، فليس باستطاعة الطبيب أخذها سجينة دون علمهم. من المحتمل أن تكون السيدة وحفيدها مجرد واجهة استخدمها المجرمون لتحقيق أغراضهم فكلاهما ليس سليم عقليا ولكن مريم سليمة

وتماثل أمها في ميولها الإجرامية.

بدأت الأرض تهتز من تحتها عندما تحركت المركب. لم يكذب الطبيب بشأن الإبحار. حاولت الوقوف ولكنها ظلت مرتكزة على ركبتيها. لم تكن تعرف حجم الغرفة ولا ارتفاع السقف. كان الظلام دامساً والهواء ساخنا. مدت يديها أمامها وتقدمت للأمام، فوجدت حائطًا وتتبعته محاولة معرفة أبعاد سجنها، لكن الباب فتح فجأة ولم تستطع رؤية الكثير لأن المدخل كانت تحجبه أجسام عدة رجال. سمعت صوت الطبيب يقول:

– رفيق لك يا سيدتى العزيزة ومريض أيضا.

(٣)

فكرت في جستن، ولكن اثنين من الرجال كانا يحملان جسدا وألقياه على الأرض. كان إمرسون. أسقطت نفرت نفسها بجواره. كانت عيناه مغلقتان والدماء تغطى جانبا من وجهه. قالت ملتاعة:

– أيها الأوغاد، ما الذى فعلتموه به؟ رد الطبيب:

– آسف على ضرورة ما حدث، ولكنه كان من الصعب إيقافه كالفيل الهائج. لا أعتقد أن جراحه خطيرة. عليك العناية به. صاحت به يائسة وهو يغلق الباب:

– انتظر. أحتاج إلى ضوء وإلى ماء وحقيبتى الطبية.

– بالتأكيد أنت لا تتوقعين أن أعطيك الحقيبة بما فيها من أدوات.

فكرت فى أن يكون الرجل مجنونا مثل جستن، حيث قال لها:

– أعتقد أننى أستطيع أن أترك لك مصباحا، كما توجد مياه هنا، وعليك أن تتصرفى إلى أن نقوم ببعض الترتيبات الأخرى، فنحن لم نكن نتوقع قدومه. أصدر

بعض الأوامر بالعربية، فوضع أحد الرجال المصباح على الأرض ثم أغلق الباب.

نظرت نفرت في الغرفة. كانت هناك آنية بأحد الأركان تحتوى على ماء وبجوارها كوب من الفخار، صبت الماء فى الكوب وبللت منديلا وذهبت إلى إمرسون. همست له:

– أبى، أرجوك، قل شيئا.

كانت الدماء تنزف من جرح واحد. وضعت إصبعها على الجرح فلم تجد سوى نتوء بارز. ضغطت على المكان بقوة فتململ إمرسون قائلا:

– اللعنة. قالت بفرحة:

– أبى، هل أنت بخير؟

– نعم، قالها وهو نائم على ظهره، ثم استطرد:

– أنا غبى لاقتحامى المكان عنوة، هل أصابوك بأذى؟

– لا. أنا آسفة يا أبى. أحمد الله أنك بخير.

– الأمر يتطلب أكثر من ضربة على الرأس لقتلى. أنا الذى يجب أن يعتذر، فقد دخلت إلى هنا كالأرنب الذى يدخل إلى الفخ، والآن أمسكوا بنا نحن الاثنين. أين نحن الآن؟ دعينا ننظر.

– لا تتحرك الآن. كان المنديل قد امتلأ بالدم فبدأت فى خلع قميصها. صاح بها قائلا:

– إذا كان لا بد من عمل ضمادات خذى قميصى؟ الجو هنا شديد الحرارة على كل حال.

قام واقفا مستندا إلى الحائط وهو يقول:

– لقد كانوا مهيئين لاستقبالك أو لاستقبال أحد ما. هذه الحجرة عبارة عن زنزانة.

كانت الغرفة مجردة من أى أثاث فيما عدا فرشة من الحصير وآنية الماء ووعاء أكبر حجماً منها وقد غطيت النوافذ بألواح سميكة من الخشب.

- كان من الواجب أن يتركوا فتحة للتهوية. هل لديك ما نستطيع أن نخلع به المسامير من الألواح؟

هزت نفرت رأسها بالنفى. خلع إمرسون حزامه قائلا:

- ليس قويا بالدرجة الكافية. ولكن علينا أن نحاول. قولى لى ما الذى حدث. هل رأيت الصبى أو السيدة العجوز.

- لا. لقد قابلنى الطبيب الملعون وأتى بى إلى هنا مباشرة.قد لا يكون جستن والسيدة العجوز على علم بما يحدث ولكن مريم لا بد وأنها تعرف. كان الهجوم عليها جزءًا من الخطة. لقد طعنت الجواد بنفسها مستخدمة إبرة قوية أو مسمار.

كان يحاول إخراج أحد المسامير من لوح الخشب المغطى للنافذة مستخدما الجزء المعدنى من الحزام.

- وماذا عن الظهور الثانى لهاتور؟

- ربما استأجرت فتاة من الجوار لتلعب الدور. كان الحدث مصمم لكى يكون لديها دليل نفى قوى. جلست نفرت على الحصير. لم يكن لديها ما تفعله سوى أن تراقبه وقد انتعشت آمالها لرؤية حماها . رد عليها:

- ولكنها لم تر أبدا شوارع القاهرة. ثم ألقى بالجزء المعدنى للحزام عندما انكسر، وجلس بجوارها . وضعت رأسها على كتفه قائلة:

- لست سعيدة أنك هنا يا أبى، ولكن هناك رجل واحد آخر على وجه الأرض أود أن يكون معى بدلا منك.

- بالتأكيد ليس أخى العبقرى.

- هو طيب ولكنه ليس مثلك أو مثل رمسيس.

- ولكنه فاتن، وأنا لست كذلك.

- أعتقد أنك كذلك.

- أميليا لا تعتقد ذلك.

- ليس هذا صحيحا يا أبى.

- لقد كنت أعامله بفظاظة منذ أن جاء. هو يخرج أسوأ طباعى ويثير شكوكى.

(٤)

فى البداية اعتقدت بأنه يشير إلى غيرته الأزلية من شقيقه ولكنها تنبهت وصاحت بدهشة:

- لا يمكن أن يكون ضالعا فى هذا المخطط.

- أتمنى أن أكون متأكدا من ذلك يا نفرت، فالفتاة الصغيرة لا تستطيع تخطيط هذا العمل الشيطانى المعقد. هناك من هو وراءه والدافع أقوى من الانتقام لحادث قديم.

- ماذا؟

- إنه خطأ أن نتكهن دون معلومات كافية. كانت لدينا بعض المعلومات ولكن التكهن يؤدى إلى مرور الوقت.

- هذا ما تفعله أنت ووالدتى عندما تسجنان فى مكان كهذا؟

- نتناقش عن من المخطئ والسبب فيما حدث. فكرت يا فتاتى العزيزة، ما هو الدافع الذى يمكن أن يكون لسيثوس؟ ما الذى كان يفعله فى أورشليم؟ ليس العمل

لوزارة الحرب فقد أوضح سميث ذلك. لقد ضربه أحد وأعتقد أنه كان يستحق الضرب لأنه حاول التدخل فى ترتيبات قائمة. منذ بدأت الحرب حتى أصبحت فلسطين وسوريا مرتعا لسارقى المقابر. ما الذى يوجد فى تلك الغرفة بالقلعة وقد تم تعبئته وتجهيزه للنقل؟

صاحت بذهول:

– الكنز. يا إلهى الرحيم، أنا لا أصدق ذلك.

– سيصل لاكو غدا ويقوم بتحميل الصناديق على المركب البخارى، لن يستغرق الأمر طويلا. سيذهب إلى القاهرة مباشرة. المركب إيزيس حديثة ولها طاقم كبير يستطيع التغلب على حراس المركب الحكومية والاستيلاء على الحمولة. هناك قلاقل فى مصر نتيجة لوصول لجنة ملنر وسوف تنسب سرقة الكنز إلى الوطنيين.

– ولكن عليهم أن يقتلوا الشهود ويغرقوا المركب البخارى.

– ليس بالضرورة. سيثوس ليس عنيفا ولكن لا أحد يضاهيه فى أن يدفع بحمولة كهذه إلى السوق.

(٥)

تخلص من قبضتها على يده وقام واقفا وهو يقول:

– لو كان سيثوس هو الوسيط فى هذا العمل فلا تخافى لأنه لن يؤذيك. من الأفضل أن تمسكى بالمصباح قبل أن يقع، فالمركب تسرع. تفحص محتويات جيوبه وقال:

– لقد خرجت دون المعطف. لا يوجد غليون ولا دخان ولا ثقاب. أضافت هى:

– ولا سلاح ولا سكين.

– ولكنهم نسوا هذه. التقط إمرسون ستة مسامير من على الأرض ودفع بها إلى جيب سرواله سائلا:

– هل فتشوك؟ تذكرت الآن أن أيدٍ كانت تتحرك على جسدها. أجابته؟

– ظاهريا، كان يبحث عن سلاح ولم يكن معى.

– خذى هذه، وناولها ثلاثة مسامير قائلا:

– لا تضعيها فى جيبك فقد يفتشوك ثانية. ذهب إلى النافذة وبدأ الحفر.

– ذلك الشخص تحدث عن ترتيبات أخرى، فقد يقرروا أن يفصلوا بيننا. همست مذعورة.

– يا إلهى، لا.

– إذا حدث ذلك، فالمسمار ليس سلاحا ولكن طعنة حادة فى الكلية ستنال منه. لا تقلقى فسأخرجك من هذا الوضع بطريقة ما. لقد كان الخطأ منى. لو لم أكن معتوها لكانت المساعدة فى طريقها إلينا الآن. أخذت نفسا عميقا وقالت:

– لو كنت معتوها فأنا أيضا كنت كذلك. كان يجب أن أشك فى الأمر عندما جاءوا بى إلى هنا.

– وهل كنت تستطيعين عمل شىء إذا ساورتك الشكوك؟

– ربما لا. إنه قوى كالثور، وحتى لو كنت أستطيع هزيمته، لواجهت رجال الطاقم، فلا بد وأنهم متورطون فى الأمر.

– لا شك فى ذلك. لقد قفز ثلاثة منهم علىّ لحظة صعودى إلى المركب. وأعترف بأن سلوكى لم يكن مناسبا لسيد يريد أن يقوم بزيارة اجتماعية. ضحكت نفرت قائلة:

– كف عن لوم نفسك. لو أنك تأخرت لطلب العون، لكان المركب قد أبحر. لماذا جئت ورائى؟

– طرأ لى فجأة أن أفعل ذلك عندما كنت أفكر فى شىء آخر. أنا أعرف من يعيش فى "الحلة"، ولماذا – اللعنة. ابعدى تلك الأشياء وتعالى هنا.

سمح لها الوقت بأن تدفع بالمسامير إلى أطراف حذائها قبل أن ينفتح الباب. صاح الطبيب:

– عودا إلى الخلف، فمعى مسدس. رد إمرسون:

– على رسلك. ووقف أمام نفرت فى وضع مسترخى ولكنها كانت تعرف أنه يمكن أن ينقض من هذا الوضع كالأسد الغاضب. استطرد الطبيب: نحن جميعا مسلحون.

أغلق أحدهم الباب. همست نفرت لإمرسون وهى تمسك بذراعه:

– لا تجازف يا أبى، فقد يصيبون أحدا فى هذا المكان الضيق، وقد يكون أنت.

أصدر الطبيب أوامره فدخل اثنان إلى الغرفة وكل منهما يمسك بمسدس وأحدهما فى يده فانوس. ظل الطبيب فى مكانه فقال إمرسون:

– تقود الكتيبة من الخلف؟ ثم ماذا الآن؟

صاح الطبيب:

– تحرك للأمام ببطء، خطوة خطوة، رافعا يديك، وأنت تبقين حيث أنت.

كان صوته مرتعشا وكذلك يده الممسكة بالمسدس. لم يكن أمامهما إلا الطاعة. بادره إمرسون قائلا:

– كان عليك أن تفعل ذلك قبل أن تلقى بى إلى هنا. وكان أحد الرجلين قد قام بوضع الكلبشات فى يديه.

– كان من الممكن أن توفر على نفسك كل ذلك. هذا تخطيط سىء. من المسئول هنا؟

صاح الطبيب:

- أنا أكره الحديث على هذا النحو. أنا أكرهكم أيها البريطانيون الملاعين بتعاليكم الزائف. كيف تجرؤ على النظر نحوى بهذه النظرة؟ وضرب إمرسون بقبضة مسدسه فى وجهه فسقط على الجدار. صاحت نفرت:

- أرجوك ألا تضربه ثانية. أجابها الرجل.

- إن كياستك أعظم كثيرا منه. خذوه من هنا.

صاح آمراً رجليه اللذين تبادلا نظرات شك، فالاقتراب من أبو اللعنات وهو غاضب ليس بالأمر البسيط حتى وهو غير قادر على الوقوف. أمسك أحدهما بذراع إمرسون اليسرى ووضع الآخر المسدس على ضلوعه. قالت نفرت:

- إذهب معهم يا أبى فلا فائدة من المقاومة.

رفع إمرسون يده ليمسح الدماء من على ذقنه قائلا:

- لم أكن أقاوم. أنا هادئ كالحمل. صاح الطبيب:

- خذوه بعيدا عن هنا.

استسلم إمرسون واقتاداه إلى الباب. فكرت نفرت فى أنها قد لا تراه مرة أخرى فصاحت به:

- أبى.

- نعم يا عزيزتى، أعرف. نظر نحوها قائلا، إلى اللقاء.

(٦)

قام الغربى بوداعنا وكنا مدينين له وبالتالى توقعت أن يصلنى منه طلب ما بعد وقت قصير فى مقابل ما أسداه لنا من معروف. أسرعنا بالرحيل لكى لا يفوتنا القطار. حاولت إقناع نفسى بعدم جدوى التسرع ولكنى فشلت. لقد قلب اكتشافنا الصورة تماما.

وصلنا إلى المحطة بإسنا في وقت مناسب، فقد كان القطار متأخرا. كان على الرصيف بعض الإنجليز، وتعرف علينا تجار العاديات المقلدة في الحال وتركونا لحالنا. كان بعض التجار يبيعون الماء والفاكهة والخضروات. جلست على المقعد الوحيد بجوار رجل ملتح يمسك بديك. كان رمسيس يذرع الرصيف جيئة وذهابا حول بعض المصريين الذين اعتادوا على تأخر القطار ويقطعون الوقت بالثرثرة. كنت أنا أيضا معتادة على تأخر القطارات ولكن كانت المعلومات التي حصلنا عليها ثقيلة على أعصابي.

مد الديك عنقه ونقرني في ذراعي. تقبلت اعتذار صاحبه ولكني لم أستطع البقاء في مكاني. قمت، واتجهت نحو رمسيس الذي كان يتحدث مع رجل وامرأة تحمل طفلا على ذراعها. كانت المرأة ترضع طفلها من ثديها وزوجها يتحدث مع رمسيس الذي سألني:

– هل أنت جائعة يا أمي؟ لقد عرضا أن نشاركهما الغذاء.

أخرج الرجل خبزا من سلة بجواره وقدمه لي. كانت يده شديدة القذارة وكنت واثقة من أنه مغطى بالبراغيث، ولكن لكرمه وابتسامته كنت سأقبل الخبز منه، مجازفة بالمرض والبراغيث لولا أنني لاحظت أن السلة ليس بها الكثير وأنهما رقيقا الحال. شرحت لهما بالعربية أنني أشكرهما، وأخذت رمسيس بعيدا. همست له:

– هل نعطيهما بعض النقود بدون أن نسيء إليهما؟

رد رمسيس:

– الفقر لا يسمح للإنسان بالكبرياء.

– اللعنة، أين القطار؟ سنتأخر كثيرا وسيستاء والدك.

– وكذلك نفرت ولكنهما سيسامحاننا إن شاء الله عندما يعرفا، نحن سنحل الأمر في ساعات فكوني صبورة.

– سيصاب إمرسون بالذهول.

– نعم، فمن كان يتصور أن برثا لديها اثنين من الأطفال؟

– أطفال العاصفة. أليست مصادفة أن ست كان إله العواصف والفوضى؟

– نعم، صحت بفرحة:

– ها قد جاء القطار أخيرا.

(٧)

قامت نفرت بلف قطعة من القماش على رأس المسمار ولكن أصابعها ظلت تتقلص. كان الخشب طريا وتمكنت من فتح مساحة نصف بوصة من خصاص النافذة ولكن المسمار غاص فى الخشب ولم يكن معها ما تستطيع أن تخرجه به.

كان قد مر على انطفاء المصباح وقت طويل ولم يكن هناك طريقة لحساب الوقت فى الظلام الدامس. كانت تشعر بجفاف حلقها وكان الماء فى الإناء غير المرئى يمثل لها إغراءً قويا.

كانت تعرف أنها لن تنهار. ولم تتخيل ما الذى قد يفعله إمرسون ولكنه وعدها بإخراجها من هذا الوضع بالرغم من كل شىء وهى تصدقه.

لن يقف الآخرون مكتوفى الأيدى ولكن الأمر يتطلب وقتا لمعرفة سبب غيابها وغياب إمرسون ورحيل الباخرة إيزيس. وعلى الأقل هم يعرفون أين ذهبت فستخبرهم نسرين. قد لا يكون إمرسون قد أخبر أحدا فهو جاء فى أثرها لأنه كان وراءها بدقائق قليلة.

كان كل شىء يرجع إلى مريم. رفض إمرسون تصديق أن الفتاة هى المسئولة الأولى ولكن ذلك كان يرجع إلى قلبه الطيب وعاطفته. كانت نفرت تحفر بقوة فى

الخشب ولكن أصابعها فقدت قوتها تدريجيا وسقط المسمار على الأرض فانحنت تبحث عنه بلا فائدة.

فكرت أن تستريح قليلا فارتكنت إلى الحائط، محاولة التفكير. إمرسون طيب القلب وعاطفي. والغيرة هي المسئولة عن الأمور التي أرجعها لسيثوس. كانت مقتنعة عندما أخبرها ولكن الأدلة التي ضد مريم كانت أقوى. كانت تجيد التنكر بحيث يمكنها خداع امرأة عجوز وإغراء رجل تافه. كانت أمها متورطة مع المجرمين.

لقد قامت برثا بتشكيل مجموعتها الإجرامية الخاصة من النساء. تجنيد العاهرات كان من أفكار برثا لقدرتهن على جمع المعلومات واستغلالها في عمليات الابتزاز والقتل. ما الذي حدث لتلك النساء؟ نساء مثل ليلى التي انقلبت في النهاية على قائدتها وأنقذت حياة رمسيس، نساء قويات كالرجال كن معاونات لبرثا في جرائمها.

كانت الحكايات جزءًا من تراث الأسرة، ترويها وتعيد روايتها كما كانت هناك حكايات تروى عن سيثوس في أيامه الغابرة وعن برثا التي كانت عشيقة سيثوس بعد أن تركت الرجل الذي كان يعرف باسم شلانج وهو أحد الأعداء الذين واجههم والداها.. ألا ما أطولها من قائمة.

سقط رأسها فاستعادت الوعي. كان تنفسها صعبا. لم يكن هناك هواء بالحجرة، مجرد ظلام وحرٍّ وعطش. كانت تعرف أن عليها أن تشرب فورا وإلا تعرضت للموت. ربما كان ذلك ما يريدونه بدون علامات على الجسد أو آثار عنف. فكرت في أطفالها فغلبها الأسى. هم صغار جدا وتحيطهم مشاعر الحب وبعد سنوات قليلة لن تصبح شيئا بالنسبة لهم أكثر من وجه في صورة باهتة. لن ينساها رمسيس ولكنه سيعرف نساء أخريات فلن يبقى أعزبا للأبد بعدها. سيتزوج حتى لو كان من أجل الأطفال فحسب. فكرة أن يحتضن امرأة أخرى بين ذراعيه ويقبلها منحتها القوة الكافية لتقوم على ركبتيها.

زحفت على امتداد الجدار بحثا عن وعاء الماء ووجدته أخيرا وقد مال على جانبه

فى بركة من الماء حيث انشرخ عند سقوطه. كانت راقدة على الأرض تمتص الماء بما فيه من أوساخ عندما ظهر النور بصورة مفاجئة. قامت على مرفقيها والتفتت. كان الضوء قويا واستطاعت أن ترى أحدا يقف بالباب، حاولت الكلام فلم يصدر عنها سوى صوت يشبه نقيق الضفادع. سمعت صوتا حلوا واضحا يقول: تحياتى يا سيدة إمرسون الجميلة. هل تودين الخروج من هنا الآن؟

(٨)

قبل أن يصل القطار إلى الأقصر كانت الظلمة قد حلت ودوى صفير القطار الذى كنت أكرهه بصورة شخصية وكأنه يثير غضبى عن عمد. كنت أتلهف مقابلة إمرسون لأقول له إننى قمت بحل القضية.

عندما أبطأت العربة وظهر الرصيف نظرت من النافذة متوقعة رؤية إمرسون فى مقدمة المنتظرين ولكن كان شخصا آخر قد جاء ليستقبلنا وما إن رآنى حتى لوح لى وجرى بجوار العربة. قلت لرمسيس:

– إنه دافيد. وإنى لأتعجب لماذا أرسله إمرسون بدلا من أن يأتى بنفسه. نظر رمسيس من النافذة قائلا:

– لا بد وأن لديه سببا لذلك. أنا لا أشعر بالراحة لما يحدث. إبقى معى يا أمى.

تبعته عن قرب وهو يشق طريقه خارج العربة بحيث كنا أول من يخرج منها. توقف القطار وقفز رمسيس منه قبل أن توضع درجات سلم النزول أمام باب العربة، ثم أعاننى على النزول. هتف دافيد:

– شكرا لله فقد كنا نأمل أن تركبا هذا القطار. لقد انتظرت أكثر من ساعة.

لم أكن فى حاجة للسؤال عما إذا كان هناك شيئا قد حدث، فالقلق كان باديا على وجهه. صحت به وأنا أتذكر تحذير عبد الله.

– هل حدث مكروه للأطفال؟

– لا، هم بخير. أسرع متجها إلى عربة تنتظر. سأله رمسيس:

– هل هى نفرت؟. أجاب دافيد:

– لقد ذهبت وكذلك البروفيسير ومريم. لقد أبحرت إيزيس من ست ساعات.

– ست ساعات؟ وما الذى فعلته حيال ذلك؟

تهاوى دافيد فى المقعد المواجه لنا وأشار للسائق بالسير:

– لم ندرك غيابهم إلا منذ ساعات قلائل. ذهب البروفيسير إلى البيت أو هكذا افترضنا، ولكنه لم يكن هناك. قلت له:

– إشرح ببطء يا دافيد. وقل للسائق أن يبطئ سرعة العربة فهو يضرب الحصان.

قال له رمسيس:

– استمر يا دافيد ورتب الأمور كما حدثت. لم تجد أبى بالبيت، ماذا بعد ذلك؟ ارتفع صوت دافيد:

– لم يكن به أى واحد منكم. وعندما لم يحضر أحد لتناول الشاى فكرت أنكم فى القلعة فأرسلت على للاستفسار وضاع وقت ثمين. غطى وجهه بكفيه فقلت له:

– استمر فى الحديث يا دافيد.

أخذ نفسا عميقا واستطرد:

– جاء آل فاندرجلت ومعهم أبى وأمى وقالوا إنهم لم يروا أحدا منكم. بدأنا نحصى الحضور فاكتشفنا أننا لم نر مريم منذ الليلة الماضية، ولم نر نفرت منذ الظهيرة ووجدنا خطابك فى العيادة فعرفنا أين ذهبتما على الأقل. كان علينا تتبع نسرين التى أغلقت العيادة وذهبت لبيتها، وكانت هى من أخبرتنا أن نفرت قد طلبها طبيب الباخرة إيزيس لأن الصبى مريض كما قال.

(٩)

كان الحصان يسرع فى طريق الكورنيش، فصاح دافيد بالسائق فتباطأ فى السير، ثم أكمل:

– وما أن عرفنا أن نفرت قد ذهبت حتى عبرنا إلى الأقصر أنا وبرتى وهناك عرفنا برحيل إيزيس، وقال أصحاب المحلات إنهم شاهدوا نفرت تصعد إلى سطحها ولكنها لم تنزل منها.

سألته أنا:

– وإمرسون؟

– لقد طلبت أن أحكى الأمور بالترتيب. هل أنت بخير يا عمتى أميليا؟

– تماما.

– وبعد صعود نفرت لسطح الذهبية بقليل وصل البروفيسير وصعد هو الآخر، وبعد قليل أبحرت السفينة.

قلت له:

– لقد رآنا الجميع نزور إيزيس قبل الآن وبالتالى لم يكن لديهم أسباب لافتراض أن شيئا قد وقع. إلى أين كانت السفينة تتجه؟

توقفت العربة ورد دافيد:

– نحن نحاول معرفة ذلك. قفز دافيد خارجا وساعدنى على النزول.

– سأخبرك عن ذلك بعد لحظة. صابر ينتظر بقاربه الجديد.

كانت بواخر السياح ترصع الشاطئ بأنوارها المتلألئة وكان مكان الباخرة إيزيس قد أخذته باخرة أخرى. عندما رآنا صابر وقف مستعدا للإبحار فسألته:

- ما الموقف حاليا؟

- قررنا أن يذهب برتى إلى البيت ويخبر الآخرين بينما انتظر أنا قدوم القطار. لقد اتجهت إيزيس شمالا وقال برتى إنه سيرسل برقية للشرطة فى نجع حمادى وقنا لمراقبة الزورق، كان رمسيس بلا حراك كالتمثال، قال أخيرا:

- هذا لا يجدى، كل ما هو مطلوب من الزورق أن يرسو فى مكان ما ويطفئ الأنوار ويقوم ببعض التعديلات تحت جنح الظلام. اسم جديد وعلم آخر بمقدمته ويصير من الصعب التعرف عليه. لم يخدعنا هدوء رمسيس، فقال دافيد:

- رمسيس، أنا آسف، كان يجب علىّ أفعل!! قاطعه قائلا:

- تفعل ماذا؟ لم يكن خطؤك ولا خطأ أى أحد.

عندما وصلنا إلى البيت كان كخلية النحل ومضاء بالكامل وكما بدا فإن عددا كبيرا من سكان القرنة كانوا يحرسونه، بعضهم كان يحمل البنادق رغم أنه لم يكن مسموحا للمصريين بامتلاك سلاح نارى ولكن السلطات كانت تتغاضى عن ذلك أحيانا، ورغم أننى لا أحب الأسلحة النارية، فإننى أحسست بالطمأنينة.

كانت إيفلين أول من خرج من البيت وأطبقت ذراعيها حول رقبتى قائلة:

- شكرا لله على سلامتك يا أميليا.

- ولكننى لم أكن فى مأزق خطير يا عزيزتى.

لم يدخل رمسيس البيت، فسألته:

- أين أنت ذاهب يا رمسيس؟

- لن أغيب طويلا. راقبته وهو يبتعد بخطوات مسرعة ولم يطاوعنى قلبى أن

أستدعيه. كان ذاهبا للاطمئنان على الأطفال.

كان الباقون فى حجرة المعيشة، سايروس وكاثرين وبرتى ووالتر وليا وجارجرى وداوود وخديجة وفاتيما. صحت عاليا:

– عد من حيث جئت فى الحال يا سليم.

كان وجهه شاحبا عن المعتاد ولكنه كان مرتديا ملابسه وكانت عمامته تخفى الضمادات، أجابنى قائلا:

– أرقد فى فراشى بينما إمرسون ونفرت فى خطر؟ إن هذا يجعل أبى يقوم من قبره. صاح داوود موافقا:

– هذا صواب. وحيث إنك هنا يا ست الحكيمة والحمد لله ستقولين لنا ماذا نفعل.

(١٠)

كان سليم يضع سكينا فى حزامه وكذلك داوود، وسايروس يحمل سلاحه النارى وإيفلين تمسك بإحدى شمسياتى. كانوا سيطيعون أى أمر منى وإن كنت لا أعرف ما الذى آمرهم به. سألتهم:

– أين سيثوس؟ رد سايروس:

– فى الجوار، فقد قال إنه لا يمكنه القعود ساكنا وأنا لا ألومه.

لا بد وأن رمسيس قد قابل سيثوس فى الخارج لأنهما جاءا معا حيث قال:

– ها أنت قد عدت. ألم يقدم لك أحد كأسا من الويسكى والصودا؟ صاح سايروس.

– يا إلهى، كان يجب أن أفكر فى ذلك. ماذا عنك يا رمسيس؟

هز رمسيس راسه قائلا:

- ما نحتاجه هو مجلس حرب من مجالس أمى.

نظرت إيفلين نحوى فقلت:

- أولا، أخبرونى بما فعلتم. لقد أرسلت برقية يا برتى أليس كذلك؟

أومأ برتى موافقا. كان يبدو فى حالة بائسة. أخذ سيثوس كأسا من الويسكى، وقال:

- كانت هذه خطوة ضرورية، وإن لم تكن ذات فائدة كبيرة. لقد قمت بإرسال عدد من الرجال لتنبيه القرى الواقعة بين الأقصر ونجع حمادى حتى إسنا فلربما تغيرت وجهتهم.

صاح سيثوس:

- هذا كله طيب ولكنى لا أفهم لماذا نجلس ونشرب الويسكى ولا نفعل شيئا؟

قلت لسايروس:

- وما الذى نستطيع عمله؟ خبط بقبضته المائدة قائلا:

- نذهب لمطاردتهم. لدينا الزورق. أميليا أليس كذلك؟

وضع سيثوس كأسه الفارغ على المنضدة قائلا:

- أتعجب أنك فكرت فى ذلك. رد عليه والتر:

- ولكنك فكرت كما أعتقد.

- سليم فكر فى ذلك، وهذا هو سبب وجوده هنا فسنحتاجه. لا يوجد سوى عدد قليل من البحارة على الزورق وسيستغرق.الأمر وقتا طويلا لاستدعاء الريس حسن ومساعده إلى هنا.

سـأله والتر:

– فلماذا لم نبدأ العمل؟

رد سيثوس:

– لأننا لا نستطيع البدء قبل طلوع النهار، فبالإضـافة لخطورة الإبحار ليلاً، فقد نتجـاوز إيزيس فى الظلام ولا نراها. ولأننا أيضـا كنا ننتظر رمسـيس وأميليـا، ولأننا نحتاج لجمـع كل الحقائق ووضع خطة قبل البدء. افترض أننا لحقنا بالباخرة، ماذا عندئذ؟ ننقض عليها وسيوفنا فى أيدينا؟

قفز والتر واقفا وخلع نظارته وقذف بها عبر الحجرة قائلا:

– عليك اللعنة يا سـيثـوس، هل تهزأ بى؟ إذا تطلب الأمر سـيوفـا فسـأسـتـخدم واحدا. رد سيثوس بهدوء:

– أسـألك المعذرة يا أخى. أعرف أنك ستـفـعل. فلنصلى ألا يصل الأمـر لذلك. إجلس ولنناقش الأمر بهدوء. أترغبين فى أن تقودى النقاش يا أميليا؟

قبل أن أتمكن من الرد، قام سليم قائلا:

– سـأذهب إلى الزورق أميليا لتهيئة الماكينة وجعلها على أهبة الاستعداد للإبحار فى الصباح. قال والتر:

– سـأذهب معك. ما الذى فعلته بحق الشيطان بنظارتى؟

أعطتـه إيفلين النظارة. كـان يعرف مـا الذى تريد قوله. وضع النظارة على عينيه وأمسك بكتفها مبتسما وقال لها:

– ربما أستطيع مساعدة سليم. قال برتى:

– وأنا أيضـا أعرف معلومات عن الماكينات. صرخت فى سليم.

– أنا أمنعك بتـاتا يا سليم من أن تجـعل الفـرس يجـرى بسـرعـة. عليك يا والتـر

بمراقبته. سألنى سيثوس:

- وما هى أوامرك بخصوصى؟ كأس آخر؟ أجبته:

- لست فى حالة تسمح بالتندر.

- أحاول تبديد التوتر قليلا يا عزيزتى. أعتقد أننا نتحكم فى الأمور هنا. الأطفال فى البيت والبيت عليه حراسة قوية، والنساء فى أمان. سُمع صوت صراخ نسائى بالغرفة. كانت ليا تقول:

- هل تعتقدين أننى سأبقى هنا؟

وردت إيفلين:

- ولا أنا؟

قلت لهما:

- ستفعلان ما آمر به. علينا أن نقرر كيف نوجه قواتنا. يجب أن يبقى أحد لمقابلة لاكو، فسيصل غدا.

قال سايروس:

- لقد وصل بالفعل هذا المساء. كيف تهتمين بأمره فى موقف كهذا؟ رددت قائلة:

- لأنه قد يقرر الانضمام إلينا فى مطاردة إيزيس.

- ليس هذا محتملا لأنه قلق على كنزه. وماذا عن باقى مراكب السياح؟

- لا أستطيع سؤال أحد منهم أن يشترك فى المطاردة. نستطيع أن نطلب من الزوارق أن تترقب إيزيس ولكنى أتوقع أن يكون مظهرها قد تم تغييره. ولأنهم قد غادروا الأقصر فلا أعتقد أن هناك خطر على أحد هنا. رد سيثوس:

- هذا فرض لا يمكننا قبوله. كنا نعتقد أن الأسرة غير مستهدفة وتبين أن هذا كان مقصودا أن نعتقده، والآن أخذوا نفرت ولم يكونوا يقصدون أخذ إمرسون ولكنهم أخذوه أيضا، ومن غير المرجح أن يطلقوا سراحه. نحن نعرف الدافع الآن.

(١١)

ذهب ليملأ كأسه ثانية وكنت أحتاج لكأس آخر أنا أيضا. كنا نتجنب الحديث فى الأمر، ولكن ذلك لم يعد ممكنا. قلت بسرعة.

– أنا آسفة. كنت آمل أن تكون بريئة.

اعتدل سيثوس لمواجهتى قائلا:

– كانت تبدو شديدة البراءة أليس كذلك؟ لقد خدعتنى أنا أيضا يا أميليا.

كان يحاول إخفاء آلامه وكذلك حاولت إيفلين التى أقبلت نحوه واحتضنته.

– قد تكون سجينة يا عزيزى.....، وأخطأت فى النطق بأسمه.

– أتريدين أن أقول لك اسمى الحقيقى؟

– لست مضطرا لذلك إذا لم ترغب.

– سيثوس. صحت أنا فيه:

– أليس جواين أو جورج أو ميلتون أو ....

قال بسخرية:

– إن لك خيالا واسعا يا أميليا. لقد أعطانى والداى اسما إنجيليا محترما ولكنى عندما أدركت أنه كان قريبا من اسم فرعون مصرى، لم أستطع مقاومة قبوله. سيثوس تعنى تابع ست، إله العواصف والفوضى والعدو اللدود لشقيقه النبيل. سكت قليلا ثم نظر ناحية رمسيس وقال:

– عليك أن تتناول مشروبا يا رمسيس أو تقول شيئا أو على الأقل تجلس. أنت تجعلنى عصبيا وأنت واقف كالتمثال الجرانيتى. سوف نستعيدها لك.

رد رمسيس قائلا:

- أنا آسف. فقال سيثوس:

- لا أريد شفقتك. أريد معلومات. لن نستطيع عمل شيء لعدة ساعات وبالتالى يمكننا التحدث. لا أعتقد أن أحداً سينام، هل يوجد أدنى شك عن الدافع وراء هذا الحادث الغريب؟

قلت له:

- لا، فمنذ أن أدركت أن الانتقام لموت برثا كان هو الدافع تداعت الأحداث فى نسق مفهوم. فى البداية وهو ما لم أدركه فى حينها، كان موت حسن أو تحوله المفاجئ إلى الدين. ما الذى فعله ليشعر بحاجته الملحة للمغفرة؟

أومأ سيثوس قائلا:

- هذا ما قاله سليم بنفس هذه الكلمات. لقد فاتنى إدراك ذلك أيضا. كان حسن أحد الرجال الذين كانوا معنا بالقرنة عندما مات عبد الله وبرثا. هل تشيرين إلى أن حسن هو الذى وجه لها الضربة المميتة؟

- أعتقد أنه إذا لم يكن قد فعل ذلك فقد ظن أنه فعل، أو ادعى ذلك، وهو الفعل الذى يؤمن الناس هنا بأنه سينقلب على الفاعل حيث يؤمنون بأن القتل هو عقوبة القاتل. هل تتذكر الخطاب الذى قرأه رمسيس لنا من الرجل إلى زوجته الميتة؟ لن أندهش إذا كان حسن يعتنق نفس الفكرة عن سوء المصير، والذى لا بد أن يعود إلى روح شريرة. لقد فقد حسن زوجته وكان قد بدأ يعانى من آثار تقدم السن. الإحساس بالذنب والأمل فى المغفرة جعلاه يسعى لحماية رجل قديس، حتى لو اخترع لنفسه واحدا. معظم الرجال الآخرين ماتوا ما عدا .... ؟ صاح دافيد.

- سليم وداوود. يا إلهى. كان يسهل عليها قتل حسن بوضع السم له فى طبق الطعام الذى حُمل له، أنا لا أستطيع أن أصدق. قال سيثوس:

- سليم وداوود هما التاليين. كانت تلعب بهما كما يلعب القط بالفأر. لم يكن أى من الحادثين مميتا لأى منهما ولكن كان كلاهما معرضا للموت. كانت تقوم بمغامرتها

على نحو لا يثير الشكوك تجاهها. لم يكن مارتنللى سوى إحدى حيلها. لا أعرف لماذا طاردته، فحسب معلوماتى هى لم تقابله مطلقا.

قلت له:

– هناك عدد من الأمور التى لا تعرفها.

كان من الصعب على كل واحد منا أن يصدق أن فتاة بريئة الوجه مثلها قادرة على القتل.

ثم قلت لهم:

– من المهم أن نفهم جميعا وبشكل دقيق ما نواجهه. ليس مجرد فتاة مضطربة ويصحبتها طاقم من المجرمين. هناك على الأقل شخص آخر مشترك فى الأمر، مجرم عتيد له نفس دافع مريم. إن مريم ليس هى الابنة الوحيدة لبرثا.

(١٢)

لأول مرة منذ أن عرفته، فقد سيثوس تماسكه. امتقع وجهه وقال:

– لا. ليس واحدة أخرى من بناتى، من قال لك ذلك؟ رد رمسيس:

– الغربى. لقد ذهبنا اليوم إلى قريته التى نُفى إليها. تذكرت أمى بعض ما قاله عن ثعبان صغير له أنياب سامة. لماذا لم تذكر ذلك لأى شخص آخر؟

قلت معترفة:

– لقد نسيت فقد كان غامضا مثل تنبؤات نوسترا داموس التى يمكن تفسيرها بطرق عديدة. كنا آنذاك غارقين فى المشكلات مع الصبى الشرير جميل الذى يمكن وصفه بنفس الصفة. كان إمرسون أيضا يعرف، ولكنه، مثلى، نسى الأمر. فى الليلة الماضية عندما بدأت أرى النسق يلتئم أدركت عندئذ أن الغربى قد تكون لديه معلومات

ليست لدينا. قالت إيفلين بنبرة اتهام:

– كان يجب عليك أن تقولى لنا.

قال دافيد بهدوء:

– أريد أن أعرف المزيد عن هذا الطفل الثانى.

أطلقت ليا صرخة قائلة:

– جستن. هل هو جستن؟ ولكنه أصغر من مريم. لا يمكن أن يكون أكبر من الرابعة عشر.

قلت:

– هو عبارة عن امرأة صغيرة. قامة قصيرة، وجه أملس، صوت حاد، كلها كانت علامات يجب أن نلاحظها. كانت قريبة من العشرين عندما تعرف بها الغربى بالقاهرة، فى أحد بيوت الدعارة الفاخرة التى تملكها امرأة أكبر عمرا وأوروبية، ولها يد فى بعض الأعمال غير المشروعة على مستويات مختلفة، وكان يعرف أنشطتها. كان زبائنها من كبار الموظفين والأثرياء والسياح وكان جستن هو صنيعتها ومساعدها القدير فى كل نشاط إجرامى من المخدرات حتى القتل.

قال سيثوس هامسا:

– ليست ابنتى إذن. كنت أفهم شعوره. قلت له:

– وفقا لمصادر الغربى، كان والدها إنجليزيا اسمه فينسى وهو الذى عاشت معه برثا عدة سنوات قبل أن يتم إعدام فينسى وتذهب برثا إليك. لا، لست والدها فهى ومريم أختين غير شقيقتين. كيف تقابلا ومتى، لا علم لى ولكن جستن هو بلا شك زعيم العصابة. هى الأكبر عمرا وبخلاف مريم عاشت حياتها كلها مع المجرمين. قال سيثوس:

– هذا لا يبرئ ساحة مريم، فقد شاركت فى الجريمة من البداية بإرادتها. كان

الهجوم عليها تمثيلية نتيجتها أن رمسيس أنقذها وجاء بها إليكم، بأسلوب جعلكم تعطفون عليها وتعضدونها. كانت تتجسس عليكم وتنقل أخباركم للآخرين.

قالت إيفلين:

- ربما كانت تحت تهديد.

رد سيثوس:

- لا، إنها ابنة أمها.

الفصل الثالث عشر

(١)

لم يكن الصبى مريضا. كان يجب أن نعرف أنها خدعة. كان واقفا قبالتها يتمايل مع تمايل المركب ووجهه جميل كجمال تمثال من الشمع.

سألها جستن:

– لماذا كنت تلحسين الماء كما يفعل الكلب؟

كان فى صوته ما جعلها تتذكر شيئا. حاولت الكلام ولكنها لم تفلح.

قال جستن بمرح:

– قدح من الشاى هو كل ما تحتاجينه. هل بمقدورك السير أم يحملك فرانسوا؟

تبخرت آخر آمالها عندما رأت أنه ليس بمفرده. الدور الذى لعبه فى ما يحدث لا يمكنها تقديره، ولكنه كان عديم القيمة وغير قادر على الفهم. لا بد أن فرانسوا واحد منهم. تقدم فرانسوا منها ليحملها وهو يبتسم بفظاظة. وقفت هى تحاول إبعاد يديه عنها.

قال جستن:

– كما تريدين إذن. تعالى معى.

تبعته نفرت عبر الممر إلى الصالون وفرانسوا من خلفها. أشار جستن إلى مقعد فجلست نفرت شاكرة. تم تقديم الشاى لها على طاولة فى طاقم من الفضة. لم يكن

بالغرفة سواها والصبى وخادمه. نظرت تجاه النافذة. كان الظلام قد حل وتوقف المركب. قال لها جستن:

– إشربى الشاى. لا بد وأنك شديدة العطش.

راقبته نفرت وهو يرقد على وسائد الديوان واضعا يده تحت رأسه، سألته:

– من أنت؟ سمعت ضحكة أعلى من صوته المعتاد. قالت فى نفسها يا إلهى كيف لم ألاحظ ذلك من قبل؟ كان رداؤه مفتوحا والقميص الرقيق يُظهر صدر امرأة.

– اسمى؟ لى عدد من الأسماء. يمكنك الاستمرار فى تسميتى جستن فهو قريب من جستس وهو ما أنا بصدده.

هزت نفرت رأسها قائلة:

– لماذا تفعلين ذلك؟ ما الذى تريدينه منا؟

– العدل، من أجل امرأة ميتة وأطفالها. حملقت نفرت فيها بفم مفتوح ودهشة بالغة فاستطردت:

– أنت شديدة الغباء. لقد أزهقت أسرتك روح أمى وكنت سأموت بعد أن تركتنى بدون حماية وعرضة للاستغلال لولا ما قدمه لى أصدقاؤها وما فعلته بمواهبى. سألتها نفرت:

– أمك من؟

– ليس من المفروض أن يكون ذلك صعبا. كم عدد النساء اللاتى متن على أيدى أسرتك الفاضلة؟

– لا أحد، ثم صاحت.. يا إلهى: برثا؟ أنت ابنتها. ولكن هذا ليس هذا عدلا، فلم نكن نعرف بوجودك. أمى وأبى كانا سيساعدانك وهما سيساعدانك الآن.

– لا أحتاج مساعدة. ما أريده سآخذه كحقى وليس كإحسان.

(٢)

لم تعرف نفرت بماذا ترد. لم تكن تتوقع ذلك. شربت جرعات من الشاى تتلمس بعض الوقت لاستعادة قدراتها. سألتها:

– ماذا فعلت للبروفيسير؟

– ليس بالقدر الذى يستحقه. جلس فرانسوا بجوارها، وأجاب قائلا:

– لقد قيدناه وحبسناه فى تلك الغرفة. هى لم تسمح لى أن .... قالت بصوت قاطع:

– لم أعطك الإذن بالكلام. انكمش فرانسوا ثم ركع على ركبتيه وبدأ يتمتم بالاعتذار. قالت جستن:

– هذا ما يستحقه. لقد أفسد كل خططنا. أتريدين معرفة ماذا كنت وكيف تغيرت؟ ثم قالت بلوم " فرانسوا، أين أخلاقك؟ قدم البسكويت لضيفتنا". قالت نفرت:

– لست جائعة. قولى لى:

رجعت جستن بجسدها على الوسائد ويداها تحت رأسها وثدياها بارزان.

همست نفرت غير مصدقة:

– هاتور؟

– فى كلا المناسبتين، نعم. لقد ارتبتم فى مريم أليس كذلك؟ لقد فعلت ذلك من أجلها. هى تريد زوجك. لو لم يتدخل البروفيسير اليوم لظفرت بزوجك. ردت نفرت:

– لن يحدث أبدا.

– كانت فرصتها ممتازة. كان غرضنا الأصلى أن نأتى بك إلى هناك ثم ألبس ملابسك وأضع قبعتك وأنزل إلى الشاطئ وأتمشى فى شوارع الأقصر، وعندها سيأتى أصدقاؤك بحثا عنك وتكون إيزيس قد أبحرت وسيشهد العشرات بأنك غادرت المركب.

تذكرت نفرت شيئا قاله لها رمسيس عن فن التنكر. لم يكن تغيرا فى الشكل بقدر ما هو فى السلوك والإيماءات والحركات والحديث. لقد لعبت دور الصبى جيدا ولكنها لم تستطع إجادته، حيث فكرنا فى أن جستن لم يكن طبيعيا. قد تستطيع إخفاء صدرها وارتداء ملابس فضفاضة ولكن جسدها يظل جسد أنثى.

استطردت جستن:

– ولكن الآن لم يعد ذلك ممكنا. لقد رأى الناس كلا منك والبروفيسير يصعدان إلى المركب، فقد أخبره الناس أنك هنا وكان على استعداد لتدمير المكان بحثا عنك. لم يكن لدينا خيار سوى الإسراع بالإبحار وأخذكما معا معنا. يا لمريم المسكينة. لن تستطيع العودة الآن وادعاء البراءة.

– وأين هى؟

– فى غرفتها. كانت تشكو طوال اليوم.

اتجهت عينا نفرت إلى النافذة. كانت تفتح على سطح المركب وبالتالى كانت تستطيع رؤية النجوم واليابسة عن قرب. لم تكن تريد ترك إمرسون ولكن لو أنها استطاعت أن تصل إلى سطح المركب؟!

اندفعت نفرت إلى النافذة. لم تكن قدماها ثابتتين فترنحت واندفع فرانسوا خلفها لحظة تحركها وأمسك بذراعها ولواها خلف ظهرها. حاولت نفرت المقاومة ولكنها لم تفلح. استمرت فى سؤالها للمرأة:

– لماذا أخذت رمسيس سجينا؟ ما الذى كنت ستفعلينه به لو لم يهرب؟

– لقد كان اختبارا لأفراد جماعتى، كيف سيتصرفون؟ وكنت أود معرفة ما الذى تراه مريم فيه وعندها رأيت وفكرت فى أنه سيكون من الرائع أن يمارس الجنس معى. قالت نفرت:

– أنت مجنونة. لم يكن باستطاعتك جعله يفعل ذلك.

– بلى، أستطيع إذا كان لدىّ الوقت. كنت أتطلع لذلك بشدة. أنا أستمتع بالرجال وهو وسيم بصورة خاصة. مريم لا تقدر تلك الأمور فهى تزوجت بذلك الأمريكى الجلف لأنها كانت تسعى وراء ماله. هى تعتقد أنها فى حالة حب.

سألتها نفرت:

– ألم تكونى فى حالة حب أبدا؟

كانت تحاول تطبيق أحد أساليب الأسرة: إجعل الشخص الآخر يتحدث وراقب زلة لسان أو لحظة غفلة. لا يمكن معرفة ما يمكن أن يحدث. كما أنها لم يسبق أن قابلت امرأة كهذه ولكنها تذكرت أنها لم تعرف برثا على الإطلاق. أجابت المرأة:

– لقد رغبت فيه، وكنت سأناله لو لم يهرب منى. قد أنجح فى ذلك. أنا غالبا ما أحصل على ما أريد وأتوقع أنه مستعد لفعل أى شىء ليمنعنى من أن أؤذيك.

– ليس أى شىء، وأنت ستكونين حمقاء إذا تركتيه يقترب منك وهو غاضب.

– ما أشد براعتك! هناك طرق عديدة... أعرف أغلبها.

(٣)

كانت تضع الطعم لسجينتها ببراعة وابتلعت نفرت الطعم. سألتها:

– ما الذى ستفعلينه بنا؟

– لا شىء حاليا. قد نحتاجك.

– لأى عرض؟

– انتظرى وستعرفى. ضحكت جستن وهى تجلس وتصفق بيديها.

– هل ترغبين فى الاغتسال قبل الغداء؟

كانت الغرفة التى اقتادها فرانسوا إليها أفضل من الأخرى كثيرا. كانت النافذة مغلقة ولكن فتحات الشيش كانت تسمح بمرور الهواء. كان بالغرفة سرير ومصباح ومكان للاغتسال، ولكن لا يوجد ما يمكن أن يستخدم كسلاح.

تمشت نفرت حول الغرفة ونظرت فى الدولاب وتحت الفراش. كانت هناك مناشف وصابون مما يشير إلى أن المرأة تريدها أن تغتسل قبل الغداء. ولم لا؟ تستطيع أن تغسل وجهها وذراعيها. كم سيكون رائعا لو خلعت ملابسها وغسلت العرق من على جسدها، ولكن لا سبيل لإغلاق الباب من الداخل. خلعت قميصها وغسلت رقبتها وذراعيها.

بحثت عن مشط فلم تجد فقامت بتسوية شعرها بأصابعها. عندما فتح الباب كانت تقف خلفه. إمتدت يد وأمسكت بمعصمها وأخرجتها من خلفه. قال لها الطبيب:

– لقد أفسدت المكان. أحكمت أصابعه قبضتها على معصمها وقادها إلى الصالون. كانت هناك مائدة فى المنتصف يغطيها مفرش أبيض وعليه أطباق من الصينى والبللور. كانت الزهور تملأ المكان وكانت المائدة معدة لأربعة ولكن مقعدين فقط كانا مشغولين. كان الرجال الواقفين خلف المقاعد لا يبدون خدما. فأحدهم كان فرانسوا. أدركت الآن ما هو شاذ فى الغرفة، إنها صنعت على هذا النحو لكى تماثل الأرستقراطية بقدر الإمكان ولكنها لم تكن طبيعية بالقدر الكافى.

– كانت المرأة ترتدى ملابس هاتور بالباروكة والآذان الصناعية. جلست مريم إلى جوارها وعيناها مثبتتان على طبقها. كانت تلبس ثوبا أسود فضفاضا والقلادة المسروقة تشع على صدرها، بفصوصها الزرقاء التى يحيطها ثعبانان من الذهب.

سألتها نفرت:

– وأين الأساور؟

ردت جستن:

- أريها لها يا مريم.

رفعت مريم يدها ولم ترفع عيناها. كانت الأساور حول رسغها.

أشارت جستن لنفرت:

- إجلسى إلى يسارى. هذا كل شيء.

سألت نفرت وهى تجلس فى المقعد الذى قدمه لها الخادم:

- ألن يأكل الطبيب معنا؟ ردت جستن:

- هو ليس بطبيب، إنه متخصص فى الإجهاض ويعمل عندى فى القاهرة وليس بذى مكانة لكى يجلس معنا.

خرج الطبيب من الغرفة حانقا وصفق الباب من ورائه.

نظرت إلى نفرت ومنظرها المزرى وقالت:

- وأنت لست بالرفيق المناسب لتناول الغداء معنا، أهذا كل ما تستطيعينه؟

ردت نفرت:

- تحت هذه الظروف، نعم. إذا اعتبرت أن وجودى هنا مقزز، فلماذا دعوتنى؟

- لسببين: أننا لم ننته من حديثنا، ولأننى أستمتع بمراقبة انفعالاتك. فلك وجه معبر وهناك الكثير مما لا تعرفينه.

- والسبب الآخر؟

- لتشاركيننا الاحتفال. خلعت جستن الباروكة وقذفت بها إلى فرانسوا قائلة:

- غدا أو اليوم الذى يليه على الأكثر، سننتهى من مهمتنا. لقد استمرت لسنة كاملة ولكنها تستحق كل هذا الانتظار.

كان كل ما تفكر فيه نفرت هو الأسرة والأطفال ورمسيس وأصدقائها وأقاربها الذين وقعوا فى نفس النسيج العنكبوتى الذى وقعت فيه مع إمرسون.

(٤)

نظرت نفرت إلى النافذة. كانت أشياء ثقيلة تسقط محدثة صوتا على سطح المركب. انطلقت لعنات باللغة العربية . ضحكت جستن وصفقت بيديها وسألت نفرت:

– لماذا لا تسألين ماذا يفعلون؟ لا أبالى أن أخبرك. سألتها:

– ماذا إذن؟

– بحلول الصباح ستكون المركب إيزيس مركبا آخر. طلاء جديد واسم جديد ويرفرف عليها علم جديد. أومأت نفرت.

– هذا لن يجدى. أين نحن الآن؟

– لا أبالى أن أقول لك ذلك أيضا. نحن فى مرسى بالقرب من جزيرة جنوب قنا.

هم على بعد عدة ساعات من الأقصر إذن. هو يبعد عنها بضع ساعات فقط. حاولت أن تتخيل ما يفعله هو والآخرون وكم استغرق الوقت منهم لإدراك ما حدث لها ولإمرسون. سرت قشعريرة باردة فى جسدها. فلو أننا تعطلنا فى تلك القرية التى ذهبنا إليها لأى سبب، فلن يكون رمسيس قد عرف بما حدث لها.

قالت لها جستن:

– أنت تفكرين فيه، أليس كذلك؟ أستطيع أن أقول لك شيئا، على حد علمى هو ليس فى خطر يا عزيزتى. وأنا متأكدة أنه سيندفع بنبل لإنقاذك. ولكن لا تسرفى فى الأمل، فعليهم اتباع أثرنا عبر المجرى المائى وهو ما لن يستطيعوا القيام به قبل الليل. نحن نسبقهم بمسافة كبيرة ولا بد من أن يكونوا فى منتهى المهارة إذا ما وجدونا قبل

تحقيق هدفنا. وحتى إذا ما فعلوا فلن يجرؤوا على التدخل طالما كنا نحتجزكما معنا كرهائن. كلاكما رهينة للآخر. وإذا لم تحسني السلوك فسوف نعاقبه هو. سألتها نفرت:

– هل أصابه مكروه؟ هل يمكنني رؤيته؟

– قولي من فضلك. أجابت نفرت.

– من فضلك.

– ربما يمكنك فيما بعد. هو ليس مصابا إصابة خطيرة ولكنه ليس مستريحا.

لم تتحرك مريم أو تنطق بكلمة. قالت نفرت:

– أفهم من ذلك أنه لن يلحق بنا على الغداء. فمن سيكون رابعنا إذن؟ هل هو أحد أعرفه؟

– نعم ولا. أتعجب ما الذي يؤخر وصولها. لعلها تنتظر لكي يكون دخولها علينا مهيبا..

كانت المرأة التي دخلت في تلك اللحظة طويلة ورفيعة ووجهها المتغضن وشعرها الأبيض يشيان بكبر السن ولكن خطواتها كانت واثقة وكتفاها مستقيمان. تركت حجابها وعلامات الحداد وارتدت ثوبا أسودا بسيطا.

قامت جستن من مكانها وتبعتها مريم، ولكن نفرت ظلت جالسة في مكانها. قالت نفرت:

– منظمة إجرامية نسائية. على الأقل أنت لست ابنة أخرى لبرثا.

المرأة العجوز، التي لم يكن اسمها بالتأكيد هو فيتزرويس، ربتت بيدها على شعر جستن وبنفس اليد صفعت نفرت على وجهها قائلة:

– أخلاقك ليست بجمال وجهك. قفي عند وجود من هم أكبر منك سنا. أطاعتها نفرت ووقفت. ذهبت المرأة العجوز إلى رأس المائدة وجلست قائلة لجستن:

– شكرا على انتظارك يا عزيزتى. يمكنك تقديم النبيذ الآن يا فرانسوا. سألتها جستن:

– ما الذى أخرك هكذا؟

– لقد قمت بزيارة قصيرة للبروفيسير وكان من الصعب أن أتركه. سألتها نفرت:

– هل هو بخير؟ صب الرجل النبيذ فى كأسها.

– لا، ليس بخير. إن مزاجه شديد الحدة وله قوة الثور، ولن أعطيه الفرصة للهرب. الآن لنشرب نخب نجاحنا. ورفعت كأسها. ردت نفرت:

– لا تتوقعى أن أشرب نخب ذلك. توقعت نفرت صفعة أخرى، ولكن المرأة العجوز ابتسمت. كانت بوجهها المتغضن الذى يشبه طرقات القاهرة وحاراتها المتداخلة قوية المظهر برغم ذلك. ردت قائلة:

– أستطيع أن أجعل فرانسوا يمسك أنفك ويصب الخمر فى فمك غصبا، ولكن ذلك سيفسد الأمر. مريم – جستن، رفعت الفتاتان كأسيهما وشربتا النخب.

(٥)

تم تقديم الحساء الذى غلب على مكوناته البصل والتوابل. شربت نفرت بعض النبيذ الذى كان طيبا. خفت الصوت من على سطح المركب. سألتها نفرت:

– من تكونين بحق الجحيم؟ المنتقمة لبرثا؟

– وهل تعتقدين أننى أخوض كل تلك المتاعب من أجل الانتقام؟ العواطف مثار ضعف عند الصغار. ليس عندى اعتراض على ترتيب جستن لتلك الأحداث. فهى نجحت فى قتل رجل قام بقتل برثا ولكن بعض الآخرين تأثروا بذلك واستمتعت بخوفك واضطرابك. لقد توقفت عن الاهتمام بمثل تلك الأمور منذ زمن بعيد.

قالت نفرت:

– وهل هو المال ما تريدينه؟

– أريده وسأناله. هذه العملية مكلفة وقد كلفتنى كل ما أملكه وكل المال الذى ورثته مريم من زوجها. وأعتقد أنه كان استثمارا ناجحا.

تم تقديم السمك فى الأطباق، كان جافا كالمومياء. أحست نفرت بالسعادة لإجبار نفسها على الانتهاء من الحساء، ولكنها لم تقدر على الاقتراب من السمك. قالت للمرأة:

– ربما استطعنا الوصول إلى اتفاق.

– ربما تستطيعين، ولكنى أشك فى ذلك. نظرت المرأة إلى السمك وقالت:

– مقزز. خذه بعيدا. ونظرت لنفرت وقالت:

– المال ليس كل ما أريد. لست خالية من العواطف كما كنت أعتقد. ثلاثة منكم كانوا مسئولين عن مصرع امرأة كنت أحبها كابنتى وأقدرها كزعيمتى. وإنما المسئولين هم من عذبوها وآلموها، كما أحسست بالراحة عندما أصبح أحدهم فى قبضتى أخيرا، عاجزا ومتألما كما تعذبت هى. سيسعدنى أكثر أن أحكم قبضتى على الآخرين.

وضع خادم طبقا من اللحم أمام نفرت. كانت الدماء تحيط بقطعة اللحم بصورة منفرة. قالت لها نفرت:

– إذن فقد كنت أحد مساعدى برثا وعضوة بتنظيمها الإجرامى الشهير ثم أصبحت الزعيمة عندما ماتت. لا بد وأنك؟؟ لقد نسيت الاسم.

– لقد كان اسما مستعارا. لم نتقابل رسميا ولكنك قد تتذكرين الممرضة التى كانت ترعى سيدة حامل، هى هذه الفتاة. أشارت بيدها إلى مريم وتوجهت بكلامها إليها:

– اجلسى قائمة يا فتاة. ما الذى يزعجك؟ فشل مشروعك العاطفى؟ أرجو ألا تكون لديك أفكارا جديدة عن ذلك.

– لم يكن خيالا. كان من الممكن أن يتحقق. ردت مريم وعيناها تتجولان بين وجه السيدة ووجه نفرت.

– هراء. وعلى كل حال فقد فات الأوان الآن. نطقت نفرت فجأة.

– ما تيلدا، هذا هو الاسم. لقد حكت لى أمى عنك. أنت تطلبينها هى.

– والرجل الذى ترك ابنتى من أجلها. عشيقها. ردت نفرت باستياء:

– لم يكونا عشيقين.

– لا، لقد أعجبت به أنا نفسى ولكنه لم ينظر لى مطلقا. أتعجب إذا كان على استعداد أن يستبدلها بك يا مريم. ساعتها ستحصلين على رمسيس بافتراض أنك بالأنوثة الكافية لتفوزى به. ردت مريم:

– لن يوافق.

قالت جستن:

– نستطيع تدبير شىء، فكم أود أن أعرفه أكثر وبصورة أفضل. صرخت فيها ما تيلدا:

– تحكمى فى نفسك. الانتقام وارد ولكنه لا يجب أن يتداخل مع هدفنا الأساسى. لم تكن نفرت فى حاجة للسؤال عن ذلك الهدف. كان إمرسون على حق. كان هناك طريقا واحدا لاستعادة المال الذى استثمرته وهو الاستحواذ على كنز الأميرات. سألتها نفرت:

– كيف تخططين للاستيلاء على الباخرة التى تحمل الكنز؟ نظرت ماتيلدا نحوها قائلة:

- فتاة ذكية، ولأنك بهذا الذكاء عليك استنتاج ذلك. هذا سيجعلك مشغولة فى التفكير فيه طوال إقامتك معنا.

(٦)

صعدنا إلى المركب "أميليا" قبل انبلاج الفجر. لم ينم أحد بما فى ذلك رمسيس الذى كانت الهالات السوداء حول عينيه كأنها آثار فحم. انتظرنا اللحظة التى نتبين فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود. نظرت تجاه الجبال الغربية واستعرضت تجهيزاتنا حتى لا يفوتنا شىء. كان الرسل فى طريقهم للقرى على طول المجرى المائى وأجريت الترتيبات بحيث يتم إرسال أى معلومات إلينا مباشرة. كان الطاقم مكونا من عشرين رجلا متعطشين للدماء. أحضر سايروس ترسانة أسلحته معه. كانت الصعوبة الأكبر تكمن فى إقناع أعضاء الأسرة أن ينتظروا فى البيت.

- إذا حدث مكروه، لا يجب ترك الأطفال بدون والديهم أو جدودهم. عليكم أن تعدونى برعايتهم. عندما قلت ذلك انفجر جارجرى فى البكاء، فقال له رمسيس:

- أنت أيضا يا جارجرى.

- بحياتى يا سيدى، بحياتى، ولكن لا تتحدث بهذه اللهجة فستعودون بالتأكيد. رد رمسيس:

- ليس بدونها.

كنت أحب نفرت كابنتى ولكنى كنت أفكر فى إمرسون الآن. فوفقا لمعرفتى بزوجى، لا يمكن أن يكونوا قد احتجزوه بدون معركة. هل هو راقد الآن جريحا ويعانى من الإصابة فى سجن غير مريح؟ أم أنهم قاموا بالفعل بقتله لا، لن أفكر فى ذلك.

قواتنا كانت مكونة من سايروس وبرتى وكلاهما كان من الرماة البارعين، ورمسيس الذى كان بنفس البراعة، ودافيد وسليم وداوود وسيثوس بالإضافة إلى

الطاقم المكون من عشرين رجلا وأنا، بالطبع كنت مسلحة بالشمسية وبسكين. كنت أحس بأن الصراع الملتحم، وجها لوجه، هو ما يشفى غليلى. لحق بى رمسيس ولاحظ ما أنا فيه وقال:

– أنت تجزين على أسنانك.

– لقد فار دمى. سأخبر سليم بأن نتحرك.

– لست مرغمة أن تقولى لسليم أى شىء فقد بدأ بالفعل. كان بودى أن يكون معنا مرشدا حتى لا يشحط بنا الزورق.

بزغت الشمس فوق التلال الشرقية، حمراء كالدم مما وافق مزاجى وغرقت معابد الأقصر فى ضباب.

النيل لا يجرى باستقامة بعد الأقصر ولكنه يأخذ منحنى إلى الشمال الشرقى. بعد حوالى ستين ميلا يميل المجرى تجاه الغرب فى منحنى حاد، تتخلله العديد من الجزر والمناطق الرملية التى تعوق الانسياب الطبيعى للمجرى المائى. المركب الذى كنا نسعى وراءه قد يكون مختفيا فى أى مكان أو قد يكون قد سبقنا بأميال عديدة، متجها إلى مكان غير معلوم لنا.

كان زورقنا أميليا قادرا على الإبحار بسرعة كبيرة. انطلقنا وبعد قليل جاء سيثوس ووقف بجوارى وقال لى:

– لقد صنع ناصر قهوة فهل يأتيك بقدح؟

– نعم، لا يجب أن يكون ناصر هنا. هو غير مقاتل بل مجرد خادم.

– لقد أرسلته فاتيما ومعه طعام يكفى كتيبة لمدة أسبوع.

– كل منا يخدم بطريقته.

– نعم يا أميليا سوف أعود بعد قليل.

عندما عاد كان ناصر معه يحمل صينية عليها أقداح القهوة. شكرته ولاحظت أنه وضع سكينا فى حزامه. قلت لسيثوس بعد أن ذهب الصبى:

- لا يجب أن ندعه يشترك فى القتال.

- كونى صريحة يا أميليا. أنت ستضحين بناصر وأى شخص آخر فى سبيل إنقاذ إمرسون. رددت قائلة:

- نعم.

(٧)

كانت أعيننا تتفحص الشاطئ. كانت بيوت الفلاحين البيضاء قابعة فى أحضان النخيل تحيطها الحقول الخضراء وترتفع فيها مآذن المساجد. كانت النساء المتشحات بالسواد يحملن فوق رؤوسهن الجرار ويأتين إلى النهر. سألت سيثوس:

- لماذا نبطئ السير؟

- بحثا عن أول إشارة. هذه القرية تسمى طوخ. المجرى قريب من الضفة الغربية هنا، وعندما يشاهد السكان مركبا يسرعون بزوارقهم تجاهها لبيع بعض الأشياء للسياح.

تجمعنا فى الجانب الأيسر من المركب وشاهدنا مجموعة من الأفراد تلوح لنا بعلم أخضر. صحت قائلة:

- لقد رأوها. لقد مرت من هنا، ولكن متى؟ رد سيثوس قائلا:

- اللون الأخضر يعنى الأمس.

- ذلك لا يساعدنا كثيرا.

– لقد مر علينا ساعتان منذ أن غادرنا الأقصر وهذا يعنى أن المركب مرت من هنا بعد الظهر. ونحن نسير فى الاتجاه الأيمن وهناك دائما احتمال أن تتجه جنوبا.

قلت له:

– ولكنهم أمامنا بست ساعات على الأقل حتى لو كانوا قد توقفوا عن الإبحار فى الليل.

– لا بد وأنهم فعلوا ذلك. لا تكونى متشائمة يا أميليا. لن يجازف قبطان بسفينته محاولا الإبحار ليلا.

– إذن لقد رست السفينة ليلة أمس.. ولكن أين؟

صاح رمسيس الذى اقترب:

– فى مكان ما حول قنا بعد ثلاث ساعات بسرعتنا الحالية. لا نستطيع التحرك أسرع فلا أحد منا يعرف النهر جيدا. عليك أن تأكلى شيئا يا أمى.

أخذت قطعة خبز من ناصر وعدت إلى موقعى على الجانب الآخر من المركب.

تلألأت الشمس على صفحة الماء وزادت سرعتنا عندما أصبحنا وسط النهر. لم أستطع أن أبعد نظرى عن المناظر المحيطة. كان رجالنا مرابطين فى المقدمة وعلى جانبى المركب يراقبون الموقف بدقة ولكنى لم أكن أثق بغير ما تراه عينى.

لم يعد النهر كما كان، الوسيلة الوحيدة للانتقال والنقل عبر مصر. فالسكة الحديدية أرخص وأسرع فيما عدا بالنسبة للمسافات القصيرة. لا يزال المرء يرى فى مصر الوسطى بواخر تحمل قصب السكر إلى المصانع. صادفتنا مركب ترفع العلم الإنجليزى وأخرى تخص شركة كوك مررنا بالقرب منها بحيث استطعت رؤية وجوه الركاب وهم فوق السطح، كنا قريبين لدرجة أزعجت قبطانها فصرخ فينا وهو يهز قبضته. أسرع رمسيس إلىّ قائلا:

– لقد أخذ دافيد مكانى وآمل أن يكون أفضل منى.

– نحن نسير بسرعة عالية. كانت تلك جزيرة كبيرة التى مررنا بها. ألم يكن من الواجب تحرى الجانب الآخر منها؟

التفت نحوى رمسيس وهو يتفحص الشاطئ قائلا:

– لا نستطيع اللف حول كل جزيرة أو نتوء رملى منها وقد تشحط بنا السفينة وهو ما سيعطلنا أكثر. قلت:

– وما فائدة هذه المطاردة إذن؟

– أكان بإمكانك البقاء بالأقصر وأنت تعلمين أن كل دقيقة وكل ساعة تمر يبتعدون أكثر عنا!

أحسست بالخجل. كنت أنا وهو الأكثر تأثرا ولكنه كان يأخذ الأمور بصورة أفضل منى. قلت له:

– لم أكن أستطيع ذلك أكثر منك.

– هناك القليل من المراكب حاليا فى النهر ومن الممكن أن تكون مركبا مميزة مثل إيزيس. قد شوهدت. ما أصلى من أجله أن تكون قد شحطت وإن كان من الأرجح أن نشحط نحن. سوف ترهقين نفسك يا أمى بوقوفك على هذا النحو. تعالى إلى الصالون وتناولى بعض الطعام. ناصر يقوم بالطهى ولا يتوقف.

– سأنتظر حتى نصل قنا. كيف حال سليم؟

– لا أستطيع إيقافه. لا يريد ترك الماكينة ولكنه يبدو بخير.

(٨)

مرت ساعة أخرى. كنت أحصى كل دقيقة آملة أن نتحرك بسرعة أكبر، فقد تكون هناك أخبار فى قنا. جاءنى سايروس قائلا:

– تعالى لتناول الغداء يا أميليا. هناك العديد من المراقبين ووقوفك هنا ليس مجديا على الإطلاق. أجبته:

– حالا. نحن نقترب من قنا كما أعتقد.

قنا مدينة مزدهرة تقع فى الريف الأخضر حيث الأرض الطينية الخصبة وعلى طول الشاطئ توجد الأوانى الفخارية المستديرة فى انتظار الشحن. من خلف صفوف الأوانى الفخارية ارتفع علم يحمله رجلان. كان أبيضا. لم تكن إيزيس قد مرت من هنا.

تجمع الرجال وتساءل داوود:

– هل يعنى ذلك أن المركب لم تأت إلى هنا بعد؟ أجابه رمسيس:

– ليس بالضرورة.

كانت المراكب كثيرة فى هذا المكان وتباطأت إحدى السفن لترسو ويهبط السياح لزيارة معبد دندرة. تجمعت الفلوكات حولها واتجهت إحداها مباشرة نحونا. صرخ رمسيس:

– قف. قل لسليم أن يوقف الماكينات.

كان على ظهر الفلوكة رجل يبدو مألوفا لنا. وصلت الفلوكة إلى جوارنا تماما وصعد قائدها إلينا.

صحت مستغربة:

– ريس حسن.

– لقد عرفت الأخبار التى انتشرت بسرعة وكنا نترقب وصولكم. ما الذى فعلتموه بقاربى؟ أجابه رمسيس بابتسامة:

– لا شىء حتى الآن، مرحبا يا ريس حسن، كنت أشعر أننا سنقابلك هنا. قلت له بمودة:

- شكرا لك يا صديقى، نعم الابن الصالح لأبيه.

أجابنى قائلا:

- ليس هذا بالوقت الذى نتكلم فيه. ما هى خطتكم؟ أين تريدون الذهاب؟ ومن الذى يقود مركبى؟

(٩)

طلبت نفرت المزيد من الزيت للمصباح ولم تحصل عليه. رفضوا أيضا طلبها رؤية إمرسون ولكنها كانت تعرف أين هو. فى الغرفة المجاورة لغرفتها. فبينما كانوا يقتادونها عبر الممر، رفعت صوتها بالسباب فحصلت فى التو على رد مباشر منه. أضاف الطبيب بعض اللعنات قبل أن يدفعها إلى غرفتها.

كانت تعرف أنه لا يزال حيا وواعيا وتمكنت من طمأنته عليها. كان المصباح خافتا ولن يصمد لوقت طويل. اختبرت الحائط الفاصل بينها وبين إمرسون بدقة وكادت تضحك عندما سمعت صوت خربشة عند قاعدة الجدار. رقدت على الأرض وأخذت المسامير من حذائها. توقفت الخربشة على الجانب الآخر عند أول صوت منها. سمعت ثلاث طرقات خفيفة فطرقت هى الأخرى ثلاث مرات متسائلة عن نظام الاتصال الذى يريده. الطرق لمرات وفقا لترتيب الأحرف الأبجدية سيأخذ وقتا طويلا جدا. لا بد وأن إمرسون وصل لنفس الاستنتاج، فقد عادت أصوات الخربشة مرة أخرى. أمكنها تحديد مصدر الصوت وبدأت الحفر بالمسامير. كان خشب الحائط الفاصل رقيقا ولكن لم يكن مع أى منهما أدوات مناسبة ومرت ساعات قبل أن تتمكن من اقتلاع شظية من الخشب ويتمكن إمرسون من توسيع الفتحة من جانبه. عندما سمعت صوته وضعت أذنها عند الفتحة فسمعته.

- نفرت، هل تسمعيننى؟

- نعم يا أبى، هل أنت مصاب؟

– أنا فى أحسن حال يا عزيزتى. انتبهى، فالوقت يمر علينا سوف يحل النهار بعد قليل. أعتقد أن بإمكانك انتزاع العود من على الشباك.

– ليس معى ما أستخدمه كرافعة، حاولت سرقة سكين أثناء الغداء ولكن لم أتمكن.

– انتبهى كما قلت، هناك شريط معدنى لتثبيت المصباح بجوار مكان الاغتسال، تمكنت من تسليكه قليلا. لو استطعت ليّه للأمام والخلف فسيمكنك انتزاعه. إفعلى ذلك الآن.

– نعم يا سيدى.

انطفأ المصباح وهى تحاول الوصول إلى الشريط المعدنى الذى خرج من مكانه فجأة. اتجهت إلى الفتحة التى فى الحائط وقالت:

– لقد حصلت عليه. ما إن أخرج من هنا حتى آتى إلى نافذتك.

– ما إن تخرجى من هناك حتى تذهبى إلى جانب المركب. أنا لا أعرف كم نبعد عن اليابسة. هل أنت على استعداد للمجازفة؟

– اللعنة على المجازفة. لن أتركك هنا.

– لن يمكنك إخراجى من هنا، وحتى إذا أمكننى ذلك فسيكون من الصعب أن أسبح وعشرون رطلا من السلاسل تحيط بى. هل تبكين؟ بالله لا تفعلى، اللعنة على ذلك. هل تعرفين ماذا يخططون؟

– نعم. تلك المرأة المرعبة أخبرتنى ولكنى لا أستطيع.

كانت تعرف أنه على حق فلن تستطيع تخليصه ولن تفيده بشىء وهى سجينة معه. قال لها إمرسون:

– قالت لى أيضا أو بالأحرى أكدت استنتاجاتى. كدت أقع مصعوقا عندما أخبرتنى من تكون. هذا يؤكد أن المرء لا يجب أن يترك عدوا قديما فى الجوار. انطلقى الآن.

– إلى اللقاء يا أبى.

– نعم يا عزيزتى.

(١٠)

كانت خائفة من أن تتكلم ثانية لئلا يخونها صوتها. الضوء الخافت الآتى من فتحات الشباك كان كافيا ليقودها. تمكنت من وضع كل قوتها لإدخال طرف الشريط المعدنى فى الشق الموجود بين الشيش وإطار النافذة ثم ضغطت بكل ما تملك من قوة تحت العود الخشبى فانخلع وانفتح الشيش بصوت كأنه الطلقة. سمع إمرسون الصوت فبدأ يدق الحائط ويصرخ محدثا جلبة وصوتا أعلى من الأصوات التى يحدثها تسلقها للنافذة. لم يكن هناك أحد على سطح المركب آنذاك.

أغلقت النافذة برقة ثم تسلقت حاجز المركب وأسقطت نفسها فى الماء.

حبست أنفاسها وارتكنت إلى جانب المركب حتى تستعيد أنفاسها. رأت خلفها جزيرة صغيرة ولكنها كافية لكى تخفى المركب إيزيس من أحد الأجناب.

تسارعت أقدام على سطح المركب فوق رأسها مباشرة. لا بد وأن صياح إمرسون لفت انتباههم فهرعوا من مكان مراقبتهم إليه. تمكنوا أخيرا من إسكاته.

سحبت نفسا عميقا ودفعت بنفسها بعيدا عن المركب تحت الماء، وأخذت تسبح برقة حتى ظهرت أمامها بعض التلال. تعجبت أهى الضفة الشرقية أم الغربية؟ طفت إلى السطح تاركة التيار يحملها لعدة أمتار. كانت التلال على الضفة الغربية.

أخذت تسبح فى اتجاه الجزيرة. كانت مجرد تل رمال، أقل من ستين قدما طولا وبعض الياردات عرضا، ولكن البوص ينمو عليه بكثافة. خرجت نفرت من الماء ونظرت حولها. كان الشاطئ الشرقى يبدو بعيدا وليس هناك علامات لوجود قرية على أى من الشاطئين. نظرت تبحث عن علامة على وجود الأرض ولكن بلا جدوى. كان إمرسون سيجد علامة ما فهو يعرف كل قدم فى النهر ولكن بالنسبة لها، كل التلال متشابهة. رأت على يسارها جزيرة أخرى.

كانت لا تستطيع البقاء طويلا فى هذا المكان. فما أن يكتشفوا غيابها إلا وسيأتون بحثا عنها. والبوص لا يوفر لها غطاءً كافيا. خلعت قميصها المبتل وسروالها وقامت بلفهما معا ووضعتهما على ظهرها، كان الفجر قد اقترب. فنزلت إلى الماء وأخذت تسبح تجاه الشاطئ الشرقى مع التيار. جاء ما اصطدم بها من الخلف، وضرب ذراعها ثم ذقنها، نزلت لأسفل وقد امتلأ فمها بالماء. صارعت للعودة إلى السطح، وجدت بجوارها جزءًا من جذع نخلة وبه بعض العراجين. كانت تشرف على الغرق وبآخر ما لديها من قوة دفعت بنفسها للأمام وأمسكت بالجذع. لم يكن باستطاعتها السباحة، فذراعها اليمنى أصيبت وكانت متعبة. تركت نفسها لجذع النخلة يسحبها فى اتجاه التيار. بدأت السماء فى الإشراق. كان كل ما فيها يتألم. أحست بأرض تحت قدميها. وقفت على قدم واحدة وكان الجذع قد اصطدم بالشاطئ الطينى لإحدى الجزر.

كانت هذه الجزيرة أكبر قليلا من الأخرى ولكنها فى وسط النهر وليست أقرب إلى الشاطئ عن الأخرى وإن كانت أبعد وكانت مملوءة بالطيور.

جلست وتحسست ساقها العارية التى كانت تؤلمها بشدة، لم يكن بها كسر وإنما بعض الرضوض. أيقنت أيضا أن كتفها به رضوض ولن تستطيع استخدام يدها اليمنى.

أخذت فى الصياح بقوة ولكنها اكتشفت أن صوتها لن يصل بعيدا، كما أن وجودها بين البوص يجعل من الصعب أن يشاهدها أحد. لم يكن معها ما تشعل به نارا أو ما تشير به.

عندما ارتفعت الشمس فى السماء، شاهدت المركب أميليا تمر أمامها، أخذت فى الصياح بقوة لكن لم يسمعها أحد واختفت المركب، فانهارت جالسة، ووضعت رأسها بين يديها.

(١١)

كنت أنا قد قررت أن أترك موقع المراقبة بعض الوقت وأقوم بجمع الآخرين في الصالون. لم يكن أحدٌ منهم جائعا ولكن كان من الضروري الحفاظ على القوة لمواجهة ما هو آت. سألني سايروس:

– ما الذي سنفعله إذا ما لحقنا بهم؟ رد سليم:

– نجعلهم يشحطون.

أمسك داوود بقطعة من الدجاج في رغيف من الخبز والتهمها وهو يهز رأسه بالموافقة. قال سيثوس:

– لنرى أين نقف حاليا. أشار إلى خريطة أمامه قائلا:

– كانت إيزيس في طوخ ظهر أمس. والريس حسن يؤكد أنها لم تمر من قنا اليوم. إذا صدقنا كلامه فهناك احتمالين: أن تكون قد غيرت الإسم والمظهر أو أنها قابعة في مكان ما بين طوخ وبيننا. سأله رمسيس:

– لماذا يتأخرون؟ ما الذي يسعون إليه؟ هل كانوا يسجمعوننا فردا فردا لو لم يفسد أبي خطتهم؟ اللعنة على كل ذلك، نحن نجلس هنا ندرس الخريطة والمواعيد وسايروس هو الوحيد الذي سأل سؤالا معقولا. نفترض أننا لحقنا بهم. ماذا بعد؟ نطلق قذيفة على المركب؟ ليس لدينا مدفع! نصعد إلى سطحها والسيوف في أفواهنا!

قلت له:

– إن ذلك الأسلوب غير عملي، ويتطلب الأمر أسنانا قوية وعضلات فك جبارة، وحتى إن أمكن ذلك قد يفقد المرء كل أسنانه.

كانت محاولتي للتفكه سيئة الوقع، فقد غضب رمسيس وقال:

– آسف يا أمي، إنها أنانية مني.

– لا أعرف ما الذى جعل إمرسون يدرك أن نفرت تواجه المتاعب ولكن هذه طبيعته أن يحاول إنقاذ الآخرين. المجرمون يعرفون أننا وراءهم، وسواء كان ذلك هو غرضهم أم لا، فلن يستطيعوا الاحتفاظ بهما كرهائن.

قال والتر:

– كنت أفكر فى أننا تحت تأثير فكرة أن الانتقام هو الدافع لكل ما يحدث. سألته:

– وما هو الدافع الممكن؟

– المركب إيزيس باهظة التكاليف، والانتقام يفقد قوته بمضى الوقت. إنهم وراء شىء أكبر كثيرا، ماذا يمكن أن يكون ذلك سوى كنز الأميرات؟ ولو كان هذا هو الحال، فإنه يغيّر استراتيجيتنا تماما. فلنقل أن لاكو انتهى من شحن الكنز اليوم، لو أنه متعجل فسوف يحاول الإبحار مع التيار قبل حلول الليل. أعتقد أن إيزيس، تحت اسم جديد، سوف تقطع الطريق على باخرة لاكو هذه الليلة تحت جنح الظلام.

سأل دافيد:

– وبافتراض أن لاكو لن يبحر إلا صباح الغد؟

– عندئذ سيضربون مساء الغد. إنهم لا يعرفون خطته. وبالتالى عليهم أن يقبعوا منتظرين الباخرة وتتبعها إلى أن تتوقف فى الليل. علينا أن نعود. قد لا نستطيع التعرف على المركب إيزيس فى شكلها الجديد ولكننا لن نخطئ فى التعرف على الباخرة الحكومية، وإذا كنت مصيبا فستكون الدهبية إيزيس على مقربة منها.

قلت له:

– إذا كنت على خطأ؟ فلن يكون بمقدورنا اللحاق بهم إذا كانوا قد ساروا قدما.

قال سيثوس:

– أعتقد أنه على صواب. وأنا أصوّت لصالح العودة للوراء. صاح رمسيس "لا" . نظر دافيد إلى رمسيس وقال بحدة:

- عليك أن تفكر، نظرية والدى توفر الدافع المعقول الذى أمامنا. كل شىء يتطابق معه حتى تفجير محطة القطار، لأن الهجوم المسلح على الباخرة سوف يفسر على أنه من أعمال الإرهابيين. علينا أن نقامر، وهذا هو الأمل المعقول لنا. لو عدنا مباشرة سنصل إلى قنا قبل الظلام. أومأ رمسيس بالموافقة قائلا:

- فليكن ذلك.

قال والتر:

- سأخبر الريس حسن.

قلت لهم:

- ماذا عن كأس من الويسكى بالصودا؟

قال رمسيس:

- إذا رغبت فى ذلك يا أمى. وابتسم.

(١٢)

انضم إلينا الجميع فيما عدا سليم الذى لم يمكن إبعاده عن الماكينات. استدار الريس حسن بالمركب فى مناورة بارعة، واتجهنا جنوبا مرة أخرى.

كانت الشمس فى طريقها للمغيب عندما جاء برتى إلى الصالون ليخبرنا بأن هناك من ينادى علينا.

قال سايروس:

- ربما يريد أن يبيع لنا شيئا.

قلت له:

- من الأفضل أن نرى ما الذى يريده فربما لديه أخبار.

قمنا مع برتى إلى سطح المركب. كانت مجموعة من الزوارق تتجه نحونا وكان الجميع بها ينادون فى صوت واحد وكان من المستحيل أن نفهم شيئا.

قلت متعجبة:

- يا إلهى، إنها كأسطول الأرمادا، قل لسليم أن يوقف الماكينات، لا بد أن لديهم أخبار تهمنا.

كان رمسيس يقف بجوارى. كنت أول من رآها تقف بأقرب مركب يسندها أحد الرجال. اقترب المركب ورفعها الرجال إلى ذراعى رمسيس. قال والتر:

- إنها معجزة.

قال سيثوس:

- اللعنة على المعجزات، أنا شديد السرور لرؤيتك يا نفرت.

رفعت نفرت رأسها ومدت يدها لى قائلة:

- إنه حى يا أمى، لقد كلمته هذا الصباح. لم أرغب فى تركه، ولكن كان لا بد!!

رددت قائلة:

- لقد فعلت الصواب يا عزيزتى.

كان الموقف لا يزال كئيبا، ولكنى شعرت كما لو أن حملا ثقيلا قد انزاح من على كتفى.

- الآن عليك بالراحة وتناول بعض الطعام.

- لست جائعة. لقد أطعمونى وغسلوا ملابسى وجففوها. لقد كانوا كرماء للغاية.

كان دافيد يتحدث مع رجال القوارب. كانوا مسرورين مما فعلوه فشكرناهم وأعطيناهم ما معنا من نقود.

جاء سليم بوجه مبتسم، وما إن رأته نفرت حتى صدر عنها صوت اعتراض ولكنه بادرها قائلا:

- قولى لنا ما حدث. كل شيء.

تجمعنا حول نفرت التى جلست على الديوان وذراعى رمسيس تحيطان بها. قدم لها سايروس كأسا من الويسكى ولكنها رفضته قائلة:

- لا تزال معدتى متعبة ولا أتحمل الويسكى. سأحكى لكم بالتفصيل عما حدث، ولكن يجب أن تسمعوا ذلك أولا. إنهم يخططون لسرقة كنز الأميرات. لم يكن لإعلانها هذا أى أثر على الجمع، قالت:

- اللعنة، هل أنتم تعرفون؟ كيف؟ أنا لم أكتشف ذلك إلا مساء أمس.

قال سيثوس:

- لقد استنتج والتر ذلك. هل تعرفين متى سيضربون وكيف؟

- لا.

قال والتر:

- اللعنة. لو كان لاكو قد غادر الأقصر بالفعل فقد يتمكنون من الإمساك بالباخرة الليلة.

قال سايروس:

- كنت أفكر فى أن بعض افتراضاتى الأولى ربما كانت خطأ. نحن نسلم بأن الأمور الإجرامية تتم تحت جنح الظلام، ولكنهم لا يستطيعون الإبحار ليلا، أليس كذلك؟ بالتأكيد هم يريدون الرحيل لحظة استيلائهم على الكنز.

رد والتر:

- سيستغرق فك الحمولة بعض الوقت منهم.

- لا، لماذا يفعلون ذلك، إن ذلك سيأخذ وقتا ومن المؤكد أن تتم رؤية الدهبية مهما غيرت من مظهرها فكل مركب بالنهر ستراقب ظهورها. أما باخرة الحكومة فإنها معروفة. قاطعته قائلة:

- بالطبع، سيصعدون إلى الباخرة ويقتلون الطاقم ويغرقون إيزيس.. يا إلهى. ما الذى سيفعلونه بلاكو المسكين؟

لم يكن أحد مهتم بلاكو المسكين. هز سيثوس رأسه قائلا:

- لقد انقطعت عن تلك الأعمال منذ فترة طويلة.

(١٣)

من المؤسف أن والتر رجل شريف وإلا لكان شريكا رائعا. قال والتر بفخر:

- تظن إذن أننى على صواب؟

قال سيثوس:

- أعرف أنك على صواب. هذا هو ما كنت أخططه لو أننى مكانهم بافتراض أننى قادر على قتل رجال أبرياء. لدينا حتى الصباح إذن. لا بد أن يذهب أحد إلى الشاطئ فى قنا ويحاول معرفة هل أبحر لاكو من الأقصر وإذا كان فعل فمتى. قال رمسيس:

- سأذهب أنا.

قلت:

- علينا أن نسمع قصة نفرت أولا، فقد تكون قد سمعت أو رأت شيئا قد يؤثر فى خطتنا. ابدئى من البداية يا عزيزتى ولا تتركى أى تفاصيل.

كانت قصة نفرت شائقة وعكست وجوه السامعين دهشتهم وإعجابهم حتى وصلت إلى الجزء الخاص بتحول السيدة فيزرويس، فصحت قائلة:

– يا إلهى، أنا لم أشك فيها مطلقا. وقال سيثوس:

– لا عجب فى أنها كانت تتجنبنى. أنا أعرفها جيدا وهو ما يشرح موت مارتنللى، فقد كانا أعداءً ألداء. هذه الأنباء ليست طيبة، فقد كانت من مساعدات برثا العاتيات.

قالت نفرت:

– وجستن أيضا عاتية. فهى امرأة شاذة.

استطردت تصف حوارها الأخير مع إمرسون وإصراره على أن تتركه وقالت أنها لم يكن باستطاعتها الفرار لو لم يكن هو موجودا معها، فقد كان يثق فى قدراتها وإيمانها. وعندما رأت المركب أميليا تمر من أمامها اليوم صباحا. قلت لها مقاطعة:

– أين كنت؟

– فى إحدى الجزر بوسط النهر. كنت أحاول السباحة للشاطئ عندما اصطدمت بجذع طاف من النخيل فتمكنت من التعلق به إلى أن أوصلنى للشاطئ وأصيب كتفى.

أنزل رمسيس ذراعيه من حول كتفها قائلا:

– لماذا لم تخبرينى بذلك؟ هل آلمتك؟ لمست خده برقة قائلة:

– لم أشعر وقتها بألم. لم أكن أحلم بأننى سأراك ثانية حتى بعد أن نجحت فى جذب انتباه الصيادين من أبناء القرية. وما أن عرفوا من أنا حتى قاموا بكل شيء من أجلى. وما أن عرفوا أن أميليا ستعود من هذا الطريق حتى ركبت القرية بكاملها قواربها لإخباركم. الآن قل لى ما الذى حدث منذ أن غادرت العيادة. هل كل الأسرة بخير؟

– كان يجب أن أطمئنك أولا على الأطفال. هم بخير والبيت فى حراسة جيدة.

قال داوود والذى كان ينصت بإمعان:

– علينا التفكير الآن فى إنقاذ أبى اللعنات.

الفصل الرابع عشر

(١)

بعد أن ذهب رمسيس إلى الشاطئ بصحبة الريس حسنن، أقنعت نفرت بأن تخلد للراحة. لكنها قالت أنها لا تستطيع النوم، وما أن لمست رأسها الوسادة حتى راحت فى نوم عميق. وقفت أنظر إليها وأنا أشكر السماء على نجاتها. كنت أعرف ما مرت به، ولم أجرؤ على التفكير فيما يعانيه إمرسون.

جلسنا نتحدث بصوت خفيض لكى لا نوقظها. طرق داوود الحديد وهو ساخن وقال إن علينا أن نجد إيزيس أولا قبل أن تقطع على لاكو الطريق ولكن فى وجود إمرسون سجينا سنكون عاجزين عن مهاجمتها. قال سايروس:

– أنا على استعداد للتخلى عن الكنز بكامله مقابل ألا يمسه سوء.

– هذا نبل منك يا سايروس بالرغم من أن الكنز ليس كنزك لتتخلى عنه. حاولت التخفيف من أثر هذه الملاحظة الجافة فقلت:

– سامحنى يا سايروس، لم أعبر جيدا عما أريد قوله، إن ما قصدته هو أن لاكو قد لا يشاركك هذه العاطفة.

– لا عليك يا أميليا، أنا أتفهم ذلك. استطردتُ قائلة:

– يجب ألا نسمح لهم بالاستيلاء على الباخرة ولا نستطيع مهاجمة إيزيس قبل تحرير إمرسون. قال برتى:

– وبأى شيء سنهاجم؟ ببعض البنادق وهم مسلحون تسليحا قويا؟ أنا لا أحب المغامرة يا سيدة أميليا. سايروس على حق. فليحصلوا على الكنز ولكنهم لن يذهبوا به بعيدا. سوف نتعقبهم.

– ليس الكنز هو ما أفكر فيه، وإنما حياة الرجال الذين بالباخرة.

– يا إلهى، لن يقتلوا كل هؤلاء الرجال، هل سيفعلوا؟

– أنا متأكدة من ذلك. أنا أتذكر ما تيلدا فهى تلميذة نجيبة لأستاذتها وفى رأيى هى أكثر خطورة منها. إنها تظهر دلائل على خلل عقلى خطير.

رد سيثوس:

– وهناك ابنتى الصغيرة العزيزة. كم يشكلون ثلاثيا رائعا معا.

لاحظت امتعاض برتى الذى كان يبدى اهتماما خاصا بمريم. كنت أعتقد أن الفتاة أقل إجراما من الأخريات، ولكنى لم أقل ذلك أمام والدها، فقد كانت مذنبة بدون شك، وما سنفعله معها إذا نجحنا فى الإمساك بها لا أستطيع تخمينه. لم أكن أهتم بها فى تلك اللحظة بوجه خاص.

قلت لهم:

– يجب أن نصعد إلى سطح إيزيس دون أن يرانا أحد.

قال داوود:

– هذا صحيح.

بينما قال سيثوس:

– خطة جيدة ولكن كيف سننفذها؟

قال:

– عندى بعض الأفكار.

لم يعد رمسيس إلا بالقرب من منتصف الليل. كان عليه أن يبقى بمكتب التلغراف منتظرا الرد على برقياته. كان لاكو لا يزال بالأقصر، وكان قد انتهى من تحميل الكنز وسيرحل فى الصباح.

أرسل رمسيس بعض الرجال على الحمير إلى جنوب قنا وشمال الأقصر ليراقبوا النهر فى الصباح بنفس نظام الإشارات المستعمل. أى دهبية خاصة عليهم الإبلاغ عنها. قال له سيثوس:

– يبدو أنك فكرت فى كل شىء فيما عدا كيف نصل إلى إمرسون بدون أن يلاحظنا أو يرانا أحد. المركب أميليا معروفة جيدا للكافة.

– لقد فكرت فى ذلك أيضا. سنأخذ قاربا صغيرا فقير المظهر حتى لا نثير شكوك حراس إيزيس. وبينما تقومون بالصراخ طلبا للنجدة وفى أثناء انشغالهم بكم، سأسبح أنا إلى إيزيس.

قال سيثوس:

– وأنا معك. سأله رمسيس:

– كم تستطيع أن تسبح تحت الماء.

– لمسافة كافية.

– لا، أنا من يتحمل مسئولية هذا العمل ومن لا يوافق على ذلك فعليه البقاء هنا. القارب يسع أربعة ووظيفة الآخرين هى إلهاء الحراس بينما أنا ودافيد نتجه إلى الدهبية.

(٢)

كانوا يريدون الذهاب جميعا. نظر إليه داوود، ولكن رمسيس هز رأسه مبتسما له وهو يقول:

- من المستحيل أن تتنكر يا داوود، ولا أنت يا سايروس وكذلك سليم ليس بعافية. سيرتدى الباقون الملابس المعتادة ما عدا أنا ودافيد وبرتى، وأنت يا سيثوس إذا وعدت أن تتبع أوامرى.

جلست فى هدوء. قال رمسيس دون أن ينظر تجاهى:

- لا يا أمى، لا سبيل لذلك. هل سمعت ما قلت؟

- بالتأكيد يا عزيزى، سمعت كل كلمة.

رفع رمسيس ذراعه كإشارة للريس حسن قائلا:

- ها هى راسية بالقرب من الشاطئ الغربى.

كانت الشمس لا تزال تشرق على التلال الشرقية. كنا فى جنوب قنا نتجه إلى المكان الذى تقف فيه إيزيس، كانت هناك بعض القرى القليلة فى المنطقة والحركة فى النهر قليلة، سألت:

- هل رأونا؟

- لا أعتقد ذلك، والشكر لله وللريس حسن. بدأت أميليا فى الوقوف لتعكس مسارها.

ألقينا المرسى وسحبنا القارب الذى كان شراعه مرقعا وطاقمه بائس المظهر. كان رمسيس ودافيد يلبسان أقل القليل استعدادا للسباحة والباقين بالجلاليب.

عندما ظهرت على سطح المركب فى ملابسى التنكرية، صرخ رمسيس فى وجهى، فقالت له نفرت:

– لا تحدثها على أنها امرأة يا رمسيس.

– ولكنها امرأة وهى أمى. لن أسمح لها، صحت بقوة:

– لقد قلت ونحن بالأقصر إنك لن تعود بدون نفرت، وأنا لن أعود بدون والدك.

قالت نفرت:

– لا تستطيع منعها فليس لك الحق فى ذلك.

– أنت فى صفها إذن؟

– بالطبع. لو كنت أنت المقصود لكنت فى القارب أنا أيضا.

– هذا حل وسط– لن آخذ الشمسية معى.

كنت أعرف أننى كسبت الجولة، حيث قال فى النهاية:

– على رسلك يا أمى، ولكن أرجوك لا تضعى عصابة على العين.

– ولكنها تساعد فى إخفاء وجهى. لم أحضر ذقنا معى.

ساعدنى سايروس فى النزول إلى القارب قائلا:

– سنكون فى انتظار إشارتكم. حظ طيب.

أبحر دافيد ممسكا بالشراع، وأمسك سيثوس بى وأجلسنى بجواره.

كان التيار قويا وكان برتى وسيثوس يجدفان، فتقدمنا تقدما طيبا وأخيرا صاح رمسيس:

– لقد رأونا. ابدأ يا دافيد فى لعب دور الجريح وتقدم تجاهها قبل أن تسقط الشراع. وأنت يا برتى، إذا حاول أحدهم القيام بحركة عدائية أو صوب سلاحه نحوك، تأكد أنك ستضرب قبله.

كان معنا بندقيتان ملفوفتان في قطعة من القماش وبعض الذخيرة، كان من الممكن أن يكون معنا ثلاث بنادق لو سمع رمسيس كلامي ولكنه لم يسمح لي بأن يكون معي بندقية. قال لي:

- أماه، أنت لا تبدين في مظهر رجل مصري على الإطلاق، حتى وأنت تضعين عصابة العين.

(٣)

رفعت ذراعي بحيث غطى كم الثوب وجهي ونظرت من خلاله. كنت أستطيع رؤية وجوه رجال الطاقم الذين تجمعوا ينظرون. كان عدد منهم مسلحا بما في ذلك الطبيب الذي كان يبدو أنه القائد. سمعته يقول:

- إنه قارب صيد يا سيدتي، وعلى وشك الغرق.

صاح رمسيس:

- الآن نذهب. وقفز من سطح القارب إلى الماء. اهتز القارب وسقط الشراع ودلف دافيد إلى الماء. كنا نصدر جلبة بقدر ما يمكننا. وضع سيثوس يده أمام فمه هاتفا:

- اقذفوا لنا بحبل. سنغرق.

لم تكن هناك رحمة في قلوب أولئك الرجال الذين كانوا يضحكون وأشار أحدهم إلى الذراعين الممدودتين بيننا وبين الدهبية. كان برتي يجدف في دوائر، فبدءوا في إسداء النصح بكلمات قبيحة. وضعت ذراعي على رأسي وبدأت أتنفس بصعوبة ودقات قلبي تعلو.

اختفت صرخات سيثوس فجأة ونظرت ناحية المركب فوجدت جستن في ثياب رجل وإن كان كل شيء فيها يشير إلى أنها امرأة. كانت تحيط مريم بذراعها والتي كانت تحملق فينا.

صاحت جستن:

- أحضروهم إلى السطح أو أغرقوهم.

صوب أحد الرجال بندقيته، فهمست مريم لأختها بشيء فقالت الأخرى:

- أعتقد أنك على صواب. قد يؤدى صوت إطلاق النار إلى جذب الانتباه لنا.

صاحت مرة أخرى:

- لا تطلقوا النار. إقذفوا لهم بالحبال.

أمسك برتى بالحبل، وقام أحدهم بتثبيت الحبل فى حاجز المركب لكى نقوم نحن بالصعود إلى السطح. همس برتى:

- هل باستطاعتها التعرف عليك؟ رد سيثوس:

- أنا والسيدة ذات العصابة على العين، عندما نكون على بعد عشرة أقدام، إبدأ فى إطلاق النار.

كان لا بد من إصابة أكبر عدد منهم قبل أن نصعد إلى السطح. غادرت جستن ومريم سطح المركب. أخرج سيثوس السلاح من قاع القارب وأمسكت بالمسدس الذى كنت أخفيه فى ملابسى. كانت الدقائق العشر التالية هى الحاسمة فى تقرير النصر أو الهزيمة، الحياة أو الموت.

(٤)

وصل رمسيس إلى الجانب البعيد من الذهبية واختبأ. نظر بحثا عن دافيد وكان على وشك الصياح من السعادة حين ظهر رأس دافيد على بعد أقدام قليلة منه. مد يده وسحبه إلى جانبه. كان دافيد قد فقد عمامته، فخلع رمسيس عمامته هو الآخر.

لم يكونا فى حاجة للكلام، فقد كانوا يعرفون ما الذى يفعلونه. أمسك رمسيس بقضيب السور ودفع بنفسه لأعلى إلى أن استطاع أن يرى سطح المركب. كانت هناك ثلاث نوافذ على ذلك الجانب وليس من بينها نافذة الغرفة التى فيها أبوه، فوفقا للرسم الذى رسمته نفرت، كانت غرفته على الجانب الآخر من الدهبية. كان سطح الدهبية يبدو مهجورا فقد جذب القارب انتباه الجميع فذهبوا إلى الجانب الآخر. كان يستطيع سماع أصواتهم وأصوات رفاقه. أخيرا سمع صوتا تعرّف عليه، يصدر أوامره، فتسلق لأقرب نافذة، ودخل إحدى الغرف. كان أملهم الوحيد هو أخذ رهائن منهم.

كانت الكابينة تخص امرأة حيث كان بها ملابس نسائية مبعثرة والقبعة التى أعطتها أمه لمريم معلقة بالباب. ذهب إلى الباب وأنصت قبل أن يفتحه. سمع صوتا لإطلاق النار فانطلق إلى الممر باتجاه الصالون ودافيد من ورائه. كانوا الثلاثة معا، المرأة العجوز، جستن، ومريم. ترك لدافيد أمر الطبيب وأمسك هو برقبة جستن قائلا لها:

– قولى لهم أن يوقفوا إطلاق النار. قولى لهم يا مريم أننى سأقتلها إذا لم يستسلموا.

خرجت مريم مسرعة، وبعد لحظة توقف إطلاق النار. خفف رمسيس من قبضته على رقبتها. كانت هادئة وقالت بنعومة:

– لن تؤذينى، أليس كذلك؟ أنا هاتور الجميلة!!

– لقد خسرت الجولة وانتهى الأمر!

كان دافيد واقفا بجوار المرأة العجوز التى لم تتحرك من على مقعدها بل كانت تنظر باحتقار إلى السكين التى وضعها دافيد على رقبتها. قالت له:

– ضع السكين بعيدا أيها الصبى، فلن يؤذى أى منكما امرأة ومعنا ما سنكسب به الجولة. إذا أردتم استعادة البروفيسير سليما، عليكم بالاستسلام. ما إن نحصل على ما نريد سنترككم على الشاطئ بسلام. قال رمسيس:

– أنت تكذبين. أعطيني مفاتيح غرفته.

– إنها في الدرج هناك.

صاحت جستن قائلة:

– لن تنفعك، فالبروفيسور ليس وحده، فرانسوا معه. وإذا فتح أحد الباب دون الإشارة المتفق عليها سيقطع رقبته. هو لا يستطيع الدفاع عن نفسه لأنه مقيد بالسلاسل.

(٥)

لم يستطع رمسيس التفكير. كانت الأصوات على السطح قد هدأت ومريم لم تعد. كان على وشك أن يقول لدافيد أن يذهب لمعرفة ما حدث لولا أنني نظرت فجأة عبر النافذة وكنت بدون عمامة وشعري منسدل على كتفي والدماء تغطي وجهي وعصابة العين في مكانها.

قلت له:

– ها أنت ذا. أعتقد أن كل شيء تحت السيطرة.

صاح بسرعة:

– هل أنت بخير، وسيثوس وبرتي؟

– كلاهما جريح ولكن ليس بخطورة. لقد تغلبا على الطاقم.

دخلت من النافذة إلى الكابينة وأنا أشير لوجهي وقد أزعجه رؤية الدماء عليه.

– هذه ليست دمائي يا ولدي العزيز.

فجأة دخل إمرسون عبر الباب قائلا:

– سمعت أصوات نيران، أين بيبودى، كنت أعرف أنك وراء ذلك، لماذا تضعين عصابة العين اللعينة هكذا؟

أسقطت المسدس من يدى ونظر رمسيس إلينا وأنا أحتضن إمرسون بقوة وهو يقول لى:

– كيف تجرؤين على فعل ذلك بى يا بيبودى! لماذا لم توقفها يا رمسيس. لا عليك. لم يكن ذلك باستطاعتك. عزيزتى بيبودى، هل أنت جريحة؟ نظرت إليه وقلت مازحة:

– مزقت قميصاً آخر يا عزيزى إمرسون، ما الذى فعلوه بك؟

سأله رمسيس:

– ما الذى حدث لفرانسوا. لقد قالوا لنا إنه معك فى الزنزانة.

– كان لا بد أن أقتل ذلك الوغد! تخلص إمرسون من ذراعى ونظر حول الغرفة وانحنى تجاه المرأة العجوز قائلا:

– صباح الخير يا ماتيلدا.

كان وجه المرأة العجوز يحاكى وجوه الموتى. أجابته:

– إذن لقد كسبت المعركة الأخيرة. نظر لرمسيس وسأله:

– هل كسبنا المعركة يا رمسيس؟

– نعم يا سيدى، أعتقد ذلك، ولكن كيف وأنت مقيد بالسلاسل وبصحبتك ذلك الرجل وليس معك سلاح؟

– لم أكن فى حاجة إلى سلاح لهذا النذل الحقير. كان عندى سلاح رغم ذلك. لقد أطلقت سراحى هذا الصباح.

– ومن تكون؟

– مريم، بالطبع، ولكن أين هى؟ لقد كانت تتبعنى؟ صحت قائلة:

– وأين جستن؟

(٦)

كانت قد استغلت الهرج الحادث فى الهروب وكذلك الطبيب. وجدوا مريم راقدة فى الممر بلا وعى، لم يكن من الصعب معرفة من فعل بها ذلك. كانت قد بدأت تعود لوعيها وعندما حملها إمرسون حاولت أن تكلمه:

- أسرع. يجب أن تذهب. لقد أشعلت النار فى الفتيل.

قفزت ماتيلدا وجرت نحو الباب. كانت رشيقة بالنسبة لامرأة عجوز. ولكن رمسيس كان أسرع فأمسك بها من منكبيها. سألها:

- أين ذهبت جستن؟

- هى فى حجرتها. إنها تعشق الديناميت. لا تحاول اقتحام باب حجرتها ودعنى أذهب. الله وحده يعلم كم تبقى لنا من الوقت إذا كانت قد أشعلت الفتيل.

صحت قائلة:

- هى على حق. أسرعوا.

كان برتى وسيثوس يصوبان سلاحهما تجاه مجموعة من رجال الطاقم وبعض الجثث قد تناثرت على سطح المركب. تحركت عينا سيثوس بين إمرسون ومريم ولكن قبل أن يستطيع الكلام صاح إمرسون:

- اتركوا المركب! ليرحل الجميع فهى على وشك الانفجار.

انطلق المجرمون إلى النهر كالخفافيش التى تسقط من فوق فرع شجرة. اتجه سيثوس نحونا وكان مصابا بطلق نارى فى رجله. قال لنا:

- أنزلوا النساء إلى القارب.

كان القارب مربوطا إلى جانب الدهبية. كانت ماتيلدا أول من نزل وأسرعت تفك الحبل، فقال لها سيثوس:

- إبعدى يدك عن الحبل وإلا أطلقت عليك النار.

فتراجعت بسرعة. أنزلنى إمرسون ثم أنزل مريم إلى القارب والتفت إلى أخيه قائلا:

- الآن تنزل أنت ثم برتى. جدفا بقوة وأنت يا رمسيس خذ دافيد إلى جانبك.

أسرع الجميع بتلبية النداء. أبعدت ماتيلدا عن طريقى وأنا أمسك بمريم. فك إمرسون الحبل. وتحركنا بعيدا بالقارب، رأيت رمسيس ودافيد ينظران إلى إمرسون الذى تسلق الحاجز ثم قفز فى الماء. حاول رمسيس ودافيد تقديم العون له ولكنه لم يكن فى حاجة إليهما.

ابتعدنا عن إيزيس ثلاثون قدما. ووصل إلينا الرجال وهم يسبحون بقوة. وبعد لحظات انفجرت إيزيس انفجارا مروعا، دفع بحطامها إلى أعلى. وصلت صدمة الانفجار إلى قاربنا فتأرجح بقوة:

(٧)

كنت الوحيدة التى رأت بين الحطام الطافى على وجه الماء جسدا أعرفه جيدا حيث لم يسعفها الوقت للهرب من المركب قبل انفجاره. أحنيت رأسى وتلوت صلاة شكر لنجاتنا جميعا. أسرعت مركبنا أميليا تجاهنا بسرعة كبيرة. صعدنا إلى السطح. احتضن سايروس ابنه برتى واندفعت نفرت إلى صدر رمسيس، بينما احتضن سليم كل واحد منا.

اقترحت تأجيل الاحتفال حتى يشفى الجرحى. كان الجميع يقفون فى صمت يرقبون باخرة الحكومة وهى تبحر فى طريقها إلى القاهرة، كان وصولنا غير المتوقع إلى الأقصر بعد عدة ساعات أحدث إثارة كبيرة، فلم يكن أحد يعرف إلى أين ذهبنا وكان الجميع قلقون بشأننا. تجمع الناس ونحن فى طريقنا من المرفأ إلى البيت واستقبلنا الجميع بالأحضان. قلت لإيڤلين وليا وجارجرى:

– سنحكى لكم بالتفصيل ما حدث ونحن نتناول الشاى. كل منا يحتاج للاغتسال وتبديل ملابسه وبعضنا يحتاج إلى رعاية طبية. إذهب يا سايروس إلى منزلك وإت بكاثرين، وأشرت إلى ماتيلدا وقلت لداوود:

– وأنت يا داوود خذه هذه المرأة إلى المخزن واحبسها هناك ووفر لها الضروريات. وأنت يا سليم إذهب إلى العيادة مباشرة مع نفرت. ردت نفرت:

– وسيثوس أيضا. سأستخرج الرصاصة من رجله.

لم يترك سيثوس ابنته منذ أن قال له إمرسون إنه مدين بحياته لها. قال سيثوس ضاحكا:

– أفضل أن أترك الرصاصة مكانها، فقد كنت تحت الرعاية الطبية لنفرت من قبل.

تبع نفرت هو ومريم وقد وضعت ذراعها حوله ووضع هو ذراعه فوق كتفها، أما بالنسبة لإمرسون فقد كنت قد بدأت حديثى معه.

كانت نفرت قد قامت بتنظيفه بأفضل ما تستطيع ولكنه كان لا يزال بشع المنظر. لم يكن يملك ملابس إضافية وبالتالى ظل فى ملابسه التى اندفع فيها للبحث عن نفرت. كانت الضمادات تغطيه وقال لى وهو يطوى ذراعيه:

– أما بالنسبة لك يا بيبودى فلم أنته من قول ما أعتقد فى سلوكك الطائش. تعالى معى الآن.

– نعم يا عزيزى.

(٨)

صاحت كاثرين:

– أرجوك يا أميليا أن تقصى علينا ما حدث. إن سايروس وبرتى يرفضان الكلام لرغبتهما فى ان تقصى أنت ما حدث.

صحت قائلة:

– نحن فى انتظار سيثوس ومريم.

عندما لحق بنا سيثوس كان بمفرده وقال:

– لقد أقنعتها بالخلود للراحة فهى لم تكتسب بعد خصائص الأسرة من حيث قوة التحمل.

قلت له:

– اجلس وارفع رجلك لأعلى. هلا ساعدته يا إمرسون.

قالت إيفلين:

– نحن فى الانتظار يا أميليا.

– من أين أبدأ. إنها قصة معقدة. ربما يجب أن أبدأ باستعراض قائمتى الخاصة بالأحداث غير العادية والتى هى معى الآن، وأشرح كيف توافقت مع نسق حاول غرماؤنا بناءه لكى يخدعونا ويدفعونا بعيدا عن دافعهم الحقيقى. قالت نفرت:

– أعتقد أننا عرفنا ذلك يا أمى. وافقها الجميع على ما قالت. قلت أنا:

– بما فى ذلك تنكر جستن فى صورة هاتور؟. كان ظهورها الثانى بغرض إزالة الشكوك عن مريم وقد رتبت ذلك بذكاء. كانت جستن تلبس ملابس الصبى تحت ذلك الثوب وكان كل ما عليها فعله هو أن تنسلخ منه بينما مريم تقوم بإلهائكم بقطعة القماش التى وجدها إمرسون...

قاطعنى رمسيس:

- كانت موضوعة بقصد فى ذلك المكان. ولكن عذرا يا أمى لقد عرفنا كل ذلك.

- الخطة بدأت عندما عرفت ماتيلدا بأمر كنز الأميرات. كانت تدير آنذاك بيتا للدعارة فى القاهرة ومشتركة فى أنشطة كثيرة غير مشروعة. كانت ماتيلدا هى التى قالت لمريم من سنوات عديدة مجموعة أكاذيب عن والدتها وجعلتها تهرب من هنا. كانت مريم آنذاك صغيرة ومتمردة وأدهشها أن تجد أن لها أخت وحامية تحميها. رتبت ماتيلدا زواج مريم من رجل ثرى، وأنا أشك فى أنها تخلصت من المسكين برجمورتون عندما وضع وصية بترك كل ما يملكه لمريم. أنا متأكدة أن مريم لا يد لها فى موته.

قال سيثوس:

- لقد كان طيبا معها وكانت مغرمة به. لم تشك فى أن موته كان مرتبا إلى أن عادت إلى ماتيلدا.

قال سايروس:

- ما لا أفهمه هو كيف كانوا سينزلون حمولة الباخرة من الآثار. كان لا يمكن أن يذهبوا بها ألى القاهرة.

اتجهت كل العيون تجاه والتر. ارتسمت ابتسامة على وجهه وهو يقول:

- كنت لا أزال أفكر فى ذلك يا سايروس. أعتقد أنهم خططوا للتوقف فى مكان ما بين قنا ونجع حمادى، ربما كان عليهم الانتظار فى نجع حمادى إلى أن يتم فتح الكوبرى مما كان سيمنحهم الفرصة للمراقبة ثم ينزلون الحمولة تحت جنح الظلام. الأشياء الثقيلة كان يمكن إخفاؤها مؤقتا فى قبر خال أو كهف لحين أخذها فيما بعد عندما تهدأ الضجة. بعضهم كان سيأخذ الباخرة مبحراً بها فى اليوم التالى ثم يدمرها أو يتركها مهجورة. قلت له:

- أعتقد أننا خرجنا عن الموضوع قليلا.

قال سايروس:

- هذا خطئى. آسف، استمرى يا أميليا.

كانت قصة زيارتنا للغربى جديدة على بعضهم وروينها لهم:

- كانت صدمة لى. لقد ذهبت للغربى لأنى استنتجت أن الأحداث التى مرت بمريم كانت غير متوافقة مع طبيعة الأمور، وتوقعت أن أسمع منه حديثا عن ماضيها. كانت قد سمعتنى أتحدث مع رمسيس فقد كان من عادتها أن تتمشى ليلا بالحديقة. كانت أسباب ذلك لا تخصنا.

استطردت قائلة:

- أدركت مريم عندما سمعتنى أذكر اسم القرية التى يعيش بها الغربى أنه سيحكى لى عن جستن وأن هذه المعلومات قد تعرض كل من بالذهبية للشكوك وأعتقد أن روايتنا لحقيقة ما حدث لأمها والترحيب الذى لاقته منا قد غيرا شعورها تجاهنا. ذهبت فى الصباح الباكر إلى الأقصر وحاولت منع جستن وماتيلدا من تنفيذ خطتهما، على الأقل الجزء الذى يعتمد على اختطاف نفرت، وأقسمت لهما أنها لن تشى بهما ولكنهما قالا إنهما لا تستطيعان الوثوق بها وبالتالى سجناها فى غرفتها وأرسلا إلى محطة السكك الحديدية ليعرفا هل ركبت أنا ورمسيس القطار أم لا. كان انكشاف أمرهما محتما ولكنهما كانتا تعرفان أننا لن نعود قبل المساء وبالتاى عجلا بالرحيل، وعندما أرغمت مريم على حضور الغداء بالقوة مع نفرت إدعت الامتثال والقبول بالأمر الواقع.

(٩)

تمتمت نفرت:

– لقد نجحت في خداعي بالتأكيد. استطردت نفرت:

– كان من المهم لمريم أن تخدعهم حتى تبقى حرة. عندما سمعت بإمساكهم إمرسون وبأهداف ماتيلدا الخبيثة، أدركت أنها الوحيدة التي تستطيع إنقاذه. وبشجاعة فائقة ومجازفة كبيرة منها، سرقت المفاتيح الليلة الماضية وزحفت إلى غرفته وأطلقت سراحه من سلاسله وحاولت إقناعه بالهروب في نفس الليلة ولكنه رفض.

رد قائلا:

– كان لدي بعض الأمل في منع الهجوم على الباخرة.

وكيف كنت ستفعل لك وحدك؟ سألته بدهشة:

– توقعت أن تطلبني ماتيلدا مرة أخرى، وكنت أفكر في أن أتخذها رهينة وأرغم الآخرين على الاستسلام لي.

رد سيثوس:

– خطة ممتازة.

– اللعنة. لم أتوقع أنهم سيضعون فرانسوا معي، وعندما سمعت كلامهم عند الباب جعلت السلاسل تبدو كما لو كنت لا أزال مقيدا بها. وتظاهرت بالضعف. كنت آمل أن أحصل على معلومات أكثر تحديدا منه عن الموعد والطريقة، ولكن كل ما فعله اللعين هو الجلوس أمامي ممسكا بالسكين، وأدركت أنه لا فائدة من الانتظار حتى سمعت صوت إطلاق الرصاص، وكنت بالفعل قد انتهيت من فرانسوا عندما جاءت مريم لتطلق سراحي. إنها فتاة شجاعة وجازفت بالكثير من أجلنا. علق سيثوس:

– إذن فعليكم رعايتها. أما أنا فيجب أن أستقل قطار الليل إلى القاهرة.

– على رسلك، ولكن واجبك الأول هو تجاه ابنتك. أجاب:

– هذا الواجب له الأولوية على ما عداه. قالت إيفلين:

– لقد كانت تحت تهديدهم فما الذي كانوا يهددونها به؟

– أقصى ما يمكن تخيله، أستطيع القول بأن هناك الكفاية من الأطفال الصغار في هذه المغامرة. همهم إمرسون:

– ما الذي تعنيه؟ رد سيثوس:

– لقد علمت للتو أنني جد، ولصبي عمره سنة.. وقد احتفظت به ماتيلدا منذ ولادته.

– يا إلهي، كان بين يدي تلك المرأة الشريرة. علينا الذهاب في الحال، أتعرف مكانه؟

رد سيثوس:

– أعرف أين هو، فقد كان لي حديث مع ماتيلدا منذ لحظات. إجلسي يا أميليا وتناولي قدحا آخر من الويسكي. لسنا في حاجة إليك. يجب أن ألحق بالقطار وأعدك بأن أعيده إلى مريم بسرعة. رددت قائلة.

– كم عانت المسكينة من جراء ذلك! صاح إمرسون:

– سأذهب معك فلست في حالة تسمح لك بالسفر.

نظر رمسيس إليه وإلى نفرت قائلا:

– لا يا سيدي، سأذهب أنا معه. قلت له:

– لقد فعلت ما يكفي. رد برتي قائلا:

– لا، ولكن الباقين يريدون البقاء مع زوجاتهم. أنا أريد الذهاب إذا وافق سيثوس، لكي يعتمد علي قليلا.

المؤلفة فى سطور :

إليزابيث بيترز

* ولدت وعاشت فى ولاية إلينوى بالولايات المتحدة الأمريكية.
* حصلت على درجة الدكتوراه فى المصريات من المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو.
* اكتسبت إليزابيث بيترز لقب "الأستاذ الكبير" عام ١٩٨٦؛ لفوزها بجائزة "أنتونى" للرواية. وفازت بجائزة "إدجار"، وبلقب "أستاذ كبير" أيضا من جمعية كتاب أمريكا عام ١٩٩٨ .
* تعشق الحضارة المصرية القديمة، وقد زارت مصر عدة مرات، وكل مؤلفاتها مستوحاة من الحضارة الفرعونية.
* صدر لها العديد من الروايات منها:

- تمساح فى الرمال.
- الجمل الأخير يموت فى الظهيرة
- لعنة الفراعنة.
- بحيرة فرس النهر.
- لغز المومياء.
- التمساح والكلب والثعبان.
- أسد فى الوادى.
- لعنة القط الكبير.

* تعيش حاليا فى منزل ريفى بفردريك، بولاية ماريلاند بالولايات المتحدة.

المترجم فى سطور :

محمد قدرى عمارة

* من مواليد مدينة طنطا عام ١٩٤٧ .

* أمضى سنوات دراسته الابتدائية والإعدادية والثانوية بمدنية طنطا، ثم التحق بكلية الزراعة جامعة الإسكندرية عام ١٩٦٣، وحصل على بكالوريوس العلوم الزراعية عام ١٩٦٧ بدرجة ممتاز وعين معيداً بقسم الوراثة والجينات بالكلية.

* سافر إلى إنجلترا فى بعثة للحصول على درجة الدكتوراه، وحصل على الدكتوراه فى علم الوراثة والجينات من جامعة ويلز عام ١٩٧٧ .

* بعد حصوله على الدكتوراه عين مدرسا بقسم الوراثة بكلية الزراعة جامعة أسيوط، ثم أستاذاً مساعداً.. ثم أستاذاً، وهو الآن رئيس لقسم الوراثة بالكلية.

• انتصار السعادة	برتراند رسل
• الدور الجنسى للمرأة والرجل	إيفلين أشتون جونز
• المختارات من أعمال تشيكوف	أنطون تشيكوف
• مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى
• نقد المسرح الإنجليزى	ستيفن هيوز
• أفضل ما كتب رسل	برتراند رسل
• عبادة الإنسان الحر	برتراند رسل

- ما وراء المعنى والحقيقة — برتراند رسل
- الإنسان والإنسان الأعلى — جورج برنارد شو
- مغامرات توم سوير — مارك توين
- العنقاء — د. هـ. لورنس

كما قام بترجمة العديد من المقالات والقصص القصيرة التى نشرت فى المجلات المختلفة.

المراجع فى سطور :

إلهامى جلال عمارة

- من مواليد محافظ الغربية .

- حصل على بكالوريوس التجارة جامعة الإسكندرية، وعلى زمالة جمعية المحاسبين والمراجعين بآدمنتون بكندا، وعمل محاضراً فى جامعة ألبرتا لعدة سنوات تفرغ بعدها للكتابة الأدبية .

- عضو اتحاد كتاب مصر واتحاد الكتاب العرب ، وصدرت له العديد من الروايات والمسرحيات والمجموعات القصصية والدراسات الأدبية والنقدية .

- عضو نقابة المهن السينمائية ، شعبة السيناريو ، وكتب العديد من الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية .

الإشـــراف اللغوى : حسام عبد العزيز

الإشـــراف الفنى : حـــسن كـــامل



تدور حوادث الرواية بعد نهاية الحرب العظمى الأولى فى القرن الماضى؛ حيث استعدت أميليا وزوجها عالم المصريات الشهير إمرسون وأسرتهما لموسم آخر من الاستكشافات الأثرية بمصر. ولسعادة الجميع كان ابنها رمسيس وزوجته نفرت قد أصبحا أبوين.

كانت أميليا تأمل أن يكون ذلك العام هادئًا، وألا يضطلع رمسيس مجدداً بمهام للمخابرات البريطانية، أو تنقلب العداوات القديمة عليهم، لكنها كانت مخطئة؛ فقد كانت أخطار الماضى تلقى بظلالها على الحاضر المسالم، وكان هناك عدو جديد يضع أسرتها فى حوادث غامضة.



تصميم الغلاف: هشام نوار